عبيد الله المهدي

إمام الشيعة الإسماعيلية
ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

تأليف

حسن إبراهيم حسن
D. Lit. (Cairo), Ph. D., D. Lit. (London)
رئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول

طه أحمد شرف
D.Lit., M.A. (Cairo)
دكتور فى الآداب ، وماجستير فى الآداب

الناشر

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا

مطبعة الشبكشي بالأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه ، اختلف المسلمون فيمن يلى الزعامة فيهم . ولما ولى أبو بكر الخلافة ، ذهب فريق من المسلمين ، إلى أن هذه الزعامة يجب أن تقر فى آل بيت النبى ، واعتقدوا أن على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة ، وأولاده من بعده ، أحق الناس بها . وتميز أنصار على وأولاده باسم الشيعة .

وقد جر التنافس على منصب الخلافة ، إلى صراع عنيف بين الشيعة وغيرهم ، ذهب ضحيته علىّ وابنه الحسين وغيرهما . ونال العلويين فى عهد بنى أمية كل ألوان الأذى والاضطهاد .

ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، لم يَرُق ذلك العلويين ، واعتقدوا أن العباسيين اغتصبوا حقهم فى الخلافة ، كما اغتصبها الأمويون من قبل . وكان العباسيون أشد بطشا بأبناء عمهم العلويين ، فلجأ هؤلاء منذ عهد محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق إلى التستر ، ليدرءوا عن أنفسهم حنق هؤلاء الخلفاء . ولكنهم لم يتركوا المطالبة بحقهم فى الخلافة ، وإن اختلفت أساليبهم فى ذلك .

وقد بحثنا فى الباب الأول من هذا الكتاب فى جهود أئمة الإسماعيلية ونوابهم

(حُجَجهم) من بيت القدّاح ، فبيّنا كيف قام هؤلاء جميعا بتنظيم الدعوة الإسماعيلية فى أرجاء العالم الإسلامى كافة ، فوضعوا لها نظاما سريا بديعا متقنا ، واتخذ الأئمة من سَلَمْيَة مركزا رئيسا لنشر دعوتهم ، كما اتخذ أنصارهم من أمهات المدن الإسلامية ، كالكوفة والأهواز والرَّىّ وزَبيد والفُسطاط ، مراكز لنشر هذه الدعوة . ولم يأت النصف الثانى من القرن الثالث الهجرىّ ، حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى ؛ فظهرت فى بلاد اليمن على يد ابن حوشب ، وفى العراق على يد حَمدان قَرْمَط وزِكرويه بن مِهْرويه ، وفى البحرين على يد أبى سعيد الجنّابى ، وفى بلاد المغرب على يد أبى عبد الله الشيعى ، وفى مصر على يد أبى على الداعى المقيم ، وفى خراسان على أيدى كثير من الدعاة العلماء .

وكان أئمة الإسماعيلية يثقون بحُجَجهم من بيت القداح ؛ ولذلك اعتمدوا عليهم فى ترويج دعوتهم . وبلغ من ثقتهم بهم ، أنهم كانوا يستودعونهم الإمامة ، لينقلوها إلى أبنائهم من بعدهم ، حتى إن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، استودع ، حين دنت منيته ، الإمامة سعيدا الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، ليتعهّد الدعوة ، ثم ينقلها إلى ابنه أبى القاسم حين يستقيم له الأمر .

وقد بينا فى الباب الثانى موقف عبيد الله ؛ فكان عليه أن يحافظ على تراث الدعوة الذى أقامه أئمة الإسماعيلية وأنصارهم من القداحية ، فنظم الدعوة بين القرامطة ، وقضى على المعارضين منهم ، وأحل محلهم من يثق بإخلاصهم وولائهم ، وعمل على ازدياد نفوذه فى بلاد اليمن والمغرب وفارس . ولكنه اضطر أمام ثورة بعض قرامطة الشمال من أبناء زكرويه بن مهرويه ، إلى الفرار من سلمية إلى بلاد المغرب ، مارا فى طريقه بالرملة والفسطاط وطرابلس ، حتى انتهى به المطاف إلى سجلماسة حاضرة بنى مدرار ، حيث سجن حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعى .

وكذلك عالجنا فى هذا الباب مسألة نسب الفاطميين التى كانت ولا تزال موضع جدل عنيف بين العلماء ، واعتمدنا على أمهات كتب الإسماعيلية ، وانتهينا إلى كشف اللثام عن كثير من المسائل الغامضة ، وألقينا ضوءا كشف عن حقيقة نسب عبيد الله ، وهو أنه لم يكن من أبناء الأئمة الإسماعيلية نسبا ، وإنما كان من أبناء الإسماعيليين الروحيين أو التعليميين .

وقد أوضحنا فى الباب الثالث موقف عبيد الله بعد أن أصبح خليفة فى بلاد المغرب ، وكيف عمل على أن يمد نفوذه إلى المشرق ، فأرسل الحملات لفتح مصر أكثر من مرة ، واستعان بأنصاره القرامطة خاصة ، كما حاول الاتصال بأنصاره فى فارس وخراسان وغيرهما من بلاد الدولة العباسية . كما بينا كيف حاول عبيد الله أن ينشر نفوذه على جميع بلاد المغرب ، وكيف وقف فى وجه الأمويين فى الأندلس والأدارسة فى المغرب الأقصى ، وبسط نفوذه على جزيرة صقلية ، وهدد جنوبى إيطاليا ، وأسس مدينتى المهدية والمحمدية .

وفى الباب الرابع تناولنا الكلام على عبيد الله الخليفة ، وإمامته لطوائف الإسماعيلية ، فعالجنا موقفه من القرامطة ، وبينا كيف أنه لم يعبأ بقاعدة تعيين رؤسائهم عن طريق الوراثة ، فسنّ لهم نظاما يقضى بأن لا يتم تعيين رؤسائهم إلا بموافقته ، حتى إن هؤلاء القرامطة أصبحوا أداة فعالة فى تحقيق سياسته فى الشرق . وعلى هذا النحو سار عبيد الله المهدى مع إسماعيلية اليمن ، وإن كانت هذه السياسة قد جَرّت إلى وقوع النزاع بين أنصار الدعوة الإسماعيلية فى هذه البلاد .

أما فى الشرق والأندلس ، فقد اعتمد عبيد الله المهدى فى تنفيذ سياسته على طائفة من العلماء ، كأبى حاتم الرازى ، الذى انتشرت الدعوة الإسماعيلية على يده فى بلاد الرى خاصة ، واستجاب له جماعة من أنصار الدولة العباسية ، واشتهر بمصنفاته التى لا يزال كثير منها فى حوزة البهرة إلى اليوم . ومن هؤلاء العلماء الدعاة ، النسفى الذى استطاع بلباقته السياسية أن يجذب نصر بن أحمد السامانى أمير بلاد ما وراء النهر إلى عبيد الله المهدى ، وقد ذاعت شهرته فى عالم التأليف . ومن هؤلاء العلماء ،

السجزى ، الذى أتم أعمال الرازى والنسفى . وقد اشتهر بمؤلفاته الكثيرة فى المذهب الإسماعيلى والرد على معارضيه . وعلى الرغم من أن هؤلاء الدعاة كانوا من الفرس ، كان أكثر كتبهم — لحسن الحظ — باللغة العربية .

وأما فى بلاد الأندلس فقد انتشرت الدعوة الإسماعيلية على يد ذلك العالم الفيلسوف ، ابن مسرة ، الذى استطاع عبيدالله بفضل تدخله ، أن يثير ابن حفصون على الحكم الأموى فى الأندلس .

وكذلك عرضنا فى هذا الباب لتنظيم الدعوة الإسماعيلية الداخلى على يد عبيدالله المهدى ، فشرحنا علاقته برعاياه ، وبينا كيف استغل هـذا الخليفة الإمام الدعوة لمصلحة الدولة ، وكيف تخلص من أبى عبد الله الشيعى الذى قامت الدولة الفاطمية على يده ، والذى لقى ما لقيه أبو مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية من قبل .

وقد ذكرنا فى الباب الخامس أشهر مميزات الدعوة الإسماعيلية فى عهد عبيدالله ، فتناولنا الكلام على دورى الاستتار والظهور ، كمبدأ الإمامة ، وعمومية الدعوة ، والحلول ، وما إلى ذلك ؛ ثم بينا عوامل نجاح عبيد الله التى تتلخص فى ضعف العالم الإسلامى ، وضعف سائر طوائف الشيعة ، وتحمس المسلمين لعقيدة المهدى المنتظر ، وفى سن ذلك النظام الدقيق الذى وضعه الإسماعيلية لنشر دعوتهم ، وأخيرا ذكرنا صفات عبيد الله وأخلاقه ، وتكلمنا على زوجاته وأولاده .

وصفوة القول أننا بحثنا تاريخ عبيد الله المهدى والمذهب الإسماعيلى فى عهده بحثا شاملا من النواحى المختلفة : دينية وسياسية وثقافية واجتماعية ، مستعينين فى ذلك بما عثرنا عليه من المراجع الإسماعيلية ، مخطوطة ومنشورة ؛ وألحقنا بالكتاب كثيرا من الوثائق التاريخية ، التى توضح تاريخ هـــذا العهد . كما ذيلنا الكتاب بثبت يشمل المصادر ، مرتبة على أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، وبفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة

وقد عقدنا العزم ، بمعونة الله ، على أن نوالى بحث تاريخ المذهب الإسماعيلى

من الناحية السياسية بوجه خاص ، وما طرأ عليه من تطورات ، وذلك فى عهد المعزلدين الله ، والمستنصر بالله ، والحسن الثانى النزارى ، أحد أجداد سمو أغاخان . وسنفرد لكل من هذه الشخصيات بحثا خاصا .

وإننا فى هذا المقام ، نهدى أجزل الشكر ، وأعطر الثناء ، إلى حضرة صديقنا الوفى الأستاذ مصطفى السقا ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، لتفضله بمراجعة هذا الكتاب ، وإلى حضرة الدكتور محمد كامل حسين المدرس بالكلية ، لتفضله بإمدادنا بكثير من مخطوطات الإسماعيلية التى فى حوزته ، وحضرة حسن أحمد محمود افندى الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب لمساعدته القيمة فى عمل الفهارس ؟

حسن ابراهيم حسن   طه أحمد شرف

٢٥ يوليه ١٩٤٧

محتويات الكتاب

الباب الأول

طائفة الإسماعيلية إلى أن تولى عبيد الله رياسة الدعوة

الباب الثانى

عبيـــد الله

منذ تولى زعامة الدعوة الإسماعيلية حتى قيام الدولة الفاطمية

الباب الثالث

عبيد الله المهدى والخلافة

الباب الرابع

عبيد الله المهدى وإمامة الإسماعيلية

الباب الخامس

أشهر مميزات الدعوة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله

خاتمة القول فى عبيد الله المهدى

ملاحق الكتاب

فهارس الكتاب

عبيد الله المهدى

إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

الباب الأول

طائفة الاسماعيلية إلى أن تولى عبيد الله رياسة الدعوة

١ — العلويون والمتشيعون الى ظهور طائفة الاسماعيلية

كان على بن أبي طالب، كرم الله وجهه، من كبار الصحابة الذين ساهموا مع النبي ﷺ، في إقامة صرح الإسلام. وكان يتطلع بعد وفاة النبي إلى زعامة المسلمين دينيا وسياسياً، ويرى أنه أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان. وكان بيت أمية ينفس عليه منذ ولى عثمان الحكم؛ ولذلك أعلنوا عليه الحرب في صور مختلفة حتى زحزحوا بيته عن الخلافة، ومن ثم أصبحت زعامة المسلمين في يد الأمويين.

وقد حز في نفوس أنصار عليّ، وهم الشيعة، وفي نفوس أبنائه، إقصاء بيت الرسول عن زعامة المسلمين. ومن ثم أثاروها حروباً دامية على بني أمية وانضموا إلى أبناء عليّ، فناصروا الحسن والحسين، والتفوا حول زيد بن علي زين العابدين (١٢٢هـ) وابنه يحيى بن زيد (١٢٥هـ)، وقاموا بدور كبير في إزالة سلطان الأمويين.

وفي الحق أن العلويين لم يرضوا منذ مقتل عليّ سنة ٤٠ هـ عن سياسة الأمويين، ونادوا بإمامة الحسن الذي يرى الاسماعيلية أن علياً نصّ على إمامته من بعده ثم على إمامة أخيه الحسين، ويرون أن الحسن كان إماماً مستودعاً، وأن الحسين هو الإمام المستقر[١]، بمعنى أن الحسن إمام في حياته فقط، وأنه لا يستطيع نقل إمامته وتوريثها

(١) الامام المستودع: هو الذى يكون إماما فى حياته، ولا يستطيع أن يورث أبناءه الامامة

أبناءه بعكس أخيه الحسين الذى يستطيع توريثها أبناءه . وعلى الرغم من إخفاق الحسن فى صراعه مع بنى أمية ، ونزوله لمعاوية عن الخلافة ، ثم موته بعد قليل ، ظل المخلصون له من الشيعة على ولائهم لأخيه الحسين — الإمام المستقر — ورأوا فى المناداة بإمامة أبناء علىّ تحدياً للأمويين أو بالأحرى للخلافة نفسها . وقد أذكت موقعة كربلاء نيران الحماسة بين صفوف الشيعة والعلويين أنفسهم ، واتسعت بذلك شقة الخلاف بين الإمامة العلوية والخلافة الأموية . يقول براون:(١) « إن فريق الشيعة أو حزب على كان ... ينقصه الحماسة وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى معركة كربلاء الملطخة بدماء ابن بنت النبى ، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطته بجثث ذوى قرباه — كل ذلك غدا منذ ذلك الحين كافياً لأن يثير عاطفة الحماسة التى كانت على أشد ما تكون ، والأحزان التى تملكت النفوس — حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخياً — وأصبحت هذه الروح التى لا تبالى بالآلام والأخطار ، بل ولا بالموت ، ترى كل هذه التضحيات لا تساوى التفكير فيها » .

وهكذا أخفق العلويون فى جولتهم الأولى ، فسم الحسن ، وقتل الحسين ، فحمل أعباء الإمامة محمد بن الحنفية — أخوهما لأبيهما — ليكون ستراً على على زين العابدين ، فكان والحالة هذه إماماً مستودعاً . يقول الداعى الخطاب(٢) بن الحسين فى تسلسل الإمامة من على إلى أبنائه : « وعهد «على» إلى الحسن عند حضور نقلته(٣) بأن يسلم الرتبة إلى أخيه الحسين . . . فلما قضى الحسن نحبه سلم إلى أخيه الحسين ؛ فاجتمعت الرتبتان « النبوة والإمامة » فى الحسين وقام بهما ، حتى(٤) أظهر الغيبة ... وولده على بن الحسين فى حد الطفولية . فأودع له أخاه محمد بن الحنفية ، واستكفله.

وإنما يكون كحامل الأمانة عليه أن يردها عند الحاجة . ونظرية الاستيداع الامامى من النظريات الجديدة فى مبدأ الامامة ، ومن النظريات ذات الخطر السياسى فى تاريخ الاسماعيلية . أما الامام المستقر فهو الذى تستقر الامامة فيه ، ويستطيع نقلها إلى أبنائه . وجميع الأئمة عند الاسماعيلية من هذا الصنف إلا نفراً قليلا عندهم ، هم الأئمة المستودعون .

(١) Browne : Literary History of Persia, vol. 1, pp. 226 sqq.

(٢) غاية المواليد ص ٣٥ (من المنتخب)

(٣) النقلة بمعنى الوفاة والانتقال أو التظاهر بالانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة

(٤) فى الأصل حق والصواب حتى

إياه ، وأوصى إليه أن يسلم إليه وديعته عند بلوغه أشده . فقام محمد . . . بأمر الله وبث دعاته وأقام دعوته » . وهذا يدل على أن الأئمة العلويين لم يكونوا مقصرين فى القيام بواجبهم فى نشر الدعوة لأنفسهم وجذب الناس إليهم ، غير أنهم لم يغلوا غلو أشياعهم من المتشيعين .

والواقع أننا لم نعد نسمع كثيراً عن جماعة الحسنيين فى عهد الدولة الأموية ، اللهم إلا ما سنراه من الصراع بين هؤلاء وبين أبى جعفر المنصور (١٥٨ هـ) . وأما فرع الحسينية ، أتباع الحسين وأبنائه ، فلم يكن لهم شأن يذكر بعد مقتل زيد ابن على زين العابدين[١] وابنه يحيى اللذين تصديا للدفاع عن حقهما فى الإمامة . وظل الحسينيون خاملين حتى انتعشوا فى العصر العباسى الأول على يد الإسماعيلية الذين يعتبر ظهورهم تطوراً فى تاريخ الدعوة التى نستطيع أن نطلق عليها اسم « الدعوة الحسينية » .

أما الحنفية — أتباع محمد بن الحنفية — فكانت لهم الصدارة منذ مقتل الحسين سنة ٦١ هـ ، فينادى أتباعه الكيسانية — أصحاب المختار الثقفى — بإمامته بل بنبوته ورجعته ، ويغلون فيه غلواً كبيراً . ولا يهمنا تبرؤ محمد بن الحنفية من المختار الثقفى وأتباعه الكيسانية ، إنما الذى يهمنا هو أن الكيسانية قاطبة كانوا يقولون بإمامة محمد هذا دون سواه . وإذن ، هل اغتصب محمد بن الحنفية الإمامة التى ورثها عن الحسين بن على زين العابدين ؟ أو بالأحرى هل كان الكيسانية من الثائرين على إمامة الحسينيين ؟ إن المراجع الاسماعيلية التى بين أيدينا تؤكد أن ابن الحنفية قد رد الوديعة (الإمامة) إلى مستحقها (على زين العابدين) [٢] . وبهذا نستطيع أن نقول : إن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية[٣] — صاحب فرقة الأبى هاشمية التى قامت

---

(١) ثار زيد بن على على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فى سنة ١٢٢ هـ لينقذ الامامة الحسينية مما أصابها من ذبول خصوصاً بعد استبداد أبى هاشم بن محمد بن الحنفية بالأمر دونه . ويسمى أتباعه الزيدية ، ويسميهم البعض الرافضة لرفضهم طاعة زيد وادعائهم أنه على حب الصحابة أبى بكر وعمر . وقد لحق به ابنه يحيى الذى قتل فى خراسان سنة ١٢٥ هـ .

(٢) الخطاب بن الحسين : غاية المواليد ص ٢٥ — ٣٦ (من المنتخب)

(٣) وأبو هاشم هذا هو الذى نزل عن الامامة لمحمد بن على بن عبد الله بن العباس فى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك ، مدعياً أنه ليس هناك بين العلويين من يصلح لاقامة الدعوة العلوية .

الدولة العباسية على أكتافها ـ هو الذى اغتصب الإمامة من أبناء الحسين بن على . ومهما يكن من شيء ، فإن أبا هاشم ، باغتصابه الأمر من بنى عمه الحسينيين ، ونزوله عن الامامة للعباسيين . قد أضاع على العلويين فرصة الاستيلاء على الخلافة من الأمويين ، كما ساعد على تفككهم . وبهذا تمكن العباسيون من قلب الدولة الأموية والاستئثار بالخلافة دون العلويين . وظل الأبو هاشميين على إخلاصهم لرؤسائهم الدينيين حتى صرعهم أبو جعفر المنصور ، فانضووا بعد ذلك تحت لواء الاسماعيلية ، على ما سنرى .

مما تقدم نرى أن العلويين عجزوا فى عهد الأمويين ، عن تحقيق مآربهم فى سيادة العالم الاسلامى ، لانقسامهم على أنفسهم إلى حسنيين وحسينيين وحنفية ، ثم إلى أبى هاشمية ، ولأن الدولة الأموية كانت لا تزال على قوتها . أضف إلى ذلك انتقال حق الإمامة من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية العلوى إلى محمد بن على بن عبد الله العباسى ، الأمر الذى اعتبره العباسيون نزولا من العلويين إلى العباسيين عن حقهم فى الإمامة ، وإن كان ذلك يعتبر من الناحية العملية نزولا من طائفة واحدة من طوائف العلويين .

أما فى الدولة العباسية فقد أصبح الأئمة العلويون والحسنيون والحسينيون أكثر تطلعاً إلى النفوذ والسلطان ، فحمل لواء بنى الحسن ، محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب (١٠٠ — ١٤٥ هـ) المعروف بالنفس الزكية ، وأخوه إبراهيم ، وتبعهما خلق كثير . حتى ضاق بهم أبو جعفر المنصور ذرعاً ، وبادلهم الاتهامات الجارحة ، كما يتضح من الكتب التى تبودلت بين أبى جعفر والنفس الزكية . ولم يكن هذا الصراع فى الواقع إلا صراعاً بين الفاطميين الحسنيين وبين الحنفية الممثلين فى الأبى هاشمية أنصار العباسيين . وقد أمد قتل محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم أولاد الحسين وأنصارهم بقوة هائلة بانضمام فلول هؤلاء الحسنيين إلى جعفر الصادق ، ثم إلى ابنه إسماعيل . وكان بنو الحسين يعتقدون أنهم أحق من بنى الحسن ، لأن الحسين — على ما تقدم — إمام مستقر ، على حين أن الحسن إمام مستودع فحسب . ولذلك التف كثيرون حول زيد بن على الحسينى وكونوا جماعة الزيدية ، كما التفوا حول أخيه محمد الباقر وكونوا جماعة

الباقرية ، ثم حول جعفر الصادق وكونوا فريق الجعفرية ، وانضوت فلول هؤلاء جميعاً تحت لواء الاسماعيلية .

كان جعفر الصادق ينفس على الحسنيين ، فتخلى عن النفس الزكية ، ولم يعترف بزعامته ، مما ساعد العباسيين على الفتك به . والحق إن العباسيين كانوا يبغضون الحسنيين ، لأنهم أكثر جرأة وتحمساً فى طلب الملك . ولذلك لم يعاملهم العباسيون معاملتهم للحسينيين . وساعد على ذلك ما أبداه جعفر الصادق من كراهة لبنى عمه ، وما صرح به فى مؤتمر الهاشميين فى أواخر عهد بنى أمية . يقول صاحب كتاب الفخرى[١] : « فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلا الامام جعفر بن محمد الصادق : فإنه قال لأبيه عبد الله المحض : إن ابنك لا ينالها — يعنى الخلافة — ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر — أى المنصور » . كما لم يتعاون فريق جعفر مع الحسنيين فى صراعهم مع الهادى حين أوقع هذا الخليفة بهم فى موقعة فخ (سنة ١٦٩ هـ) التى قيل فيها « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ[٢] » .

من هذا نرى أن زعامة العلويين فى صدر الدولة العباسية لم تكن موحدة : فهناك الفاطميون — حسنيون وحسينيون — ينافس كل منهم الآخر ، ولم يستطيعوا القضاء على الدولة الأموية ، وهناك الحنفية من أتباع بنى هاشم الذين ارتموا فى أحضان العباسيين وساعدوهم على إقامة دولتهم ، ولكنهم تعرضوا بعد قليل لتحمل كثير من ضروب العنت والاضطهاد على أيدى هؤلاء العباسيين .

وقد أدرك إسماعيل بن جعفر — على ما سنرى — مدى الضعف الذى ساد العلويين ، فعمل على تكوين جماعة ذات طابع خاص فى تفكيرها ونظامها الاجتماعى والدينى والسياسى ، تلك الجماعة هى « طائفة الاسماعيلية » التى ينتمى إليها عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية .

ويحسن بنا أن نبحث أثر التشيع فى الحركات الشيعية الأولى ، ثم فى قيام جماعة الاسماعيلية الذين ينتسب إليهم عبيد الله . وفى الواقع إن التشيع — وهو اعتقاد حب علىّ وأبنائه — كان من أهم الأحداث فى التاريخ الاسلامى . والتشيع نوعان :

(١) فى الآداب السلطانية ص ١٢٠

(٢) حسن ابرهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٦

تشيع حسن لا يرى صاحبه من ورائه إلى غير سيادة العلويين ، وتشيع قبيح يتخذه معتنقوه وسيلة لهدم العقائد ، وإثارة روح الشعوبية ، وقلب نظام الحكم فى الدول تحت ستار الدعوة لعلى وأبنائه . وتعتبر حركة الاسماعيلية مزاجا من النوعين معاً : فبينما نرى بعض أئمتهم وأنصارهم على إخلاصهم للاسلام ، نرى بعضهم الآخر يتخذ انتماءه إلى جماعة الاسماعيلية وسيلة لبعث مبادىء تقوم على الإلحاد ، وتحض على الثورة ؛ لذلك قالوا « التشيع عش الزندقة » . وقد شعر الأئمة العلويون بخطر هذا التشيع القبيح فثاروا على مدعيه ، فنرى على بن أبى طالب يخطىء عبد الله بن سبأ الذى كانت آراؤه « جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة بعده[1] » . وعلى الرغم مما فعل علىّ مع ابن سبأ ، عدّ هـذا الأستاذ الأول لجماعة الاسماعيلية وغيرهم من الغلاة .

فهاهم أولاء الكيسانية — أنصار المختار — ينادون بما نادى به ابن سبأ ، من القول بالرجعة ، وإحاطة الأئمة بالعلوم كلها ماظهر منها وما بطن ، وبأن الدين طاعة رجل واحد ، هو الإمام ، وأن هذه الطاعة ترفع عنهم التكاليف الشرعية ، كما نادوا بالمهدية التى نادى بها ابن سبأ من قبل . ولذلك نال الكيسانية من ابن الحنفية ما ناله السبئية من علىّ بن أبى طالب [2] . وعلى الرغم من قضاء الأمويين على حركة المختار تعد حركته طليعة للحركات الدينية التى تتخذ الدين وسيلة لتحقيق الأغراض السياسية ، أو بعبارة أخرى كانت هذه الحركة طليعة للجماعات الاسماعيلية . ولذلك نرى جمرة التشيع تلتهب فى أواخر عهد الدولة الأموية ، فيحاول بعض أنصار تعاليم المجوسية القديمة استغلال التشيع لاحياء مبادئهم . ومن هؤلاء الداعى العباسى عمار بن بديل (١١٨ هـ) ، الذى يعرف باسم « خداش » ، وكان من أشياع خُرَّما زوجة مزدك ، ومن المروجين لمبادىء زوجها فى الاسلام . ولم يمت مذهبه بموته ، بل بعث فى صور وأشكال مختلفة ، تأثر الاسماعيلية بكثير منها [3] .

والواقع أن التشيع اتخذ فى أخريات الدولة الأموية اتجاهين مختلفين ، يرمى

---

(١) الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٦٣ .

(٢) دكتور طه شرف : الزندقة والزنادقة (مخطوط) ص ١٥٢ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

أولهما إلى التقرب من أبى هاشم ، ومن ثم أخذ كثير من أتباعه يعملون على تقديس الخلفاء العباسيين ، ويرمى ثانيهما إلى التظاهر بالميل إلى الأئمة العلويين الحقيقيين - ومن هؤلاء المتشيعين الأخيرين الاسماعيلية ، وجماعة البيانية ، أتباع بيان بن سمعان (١١٩ هـ) والمغيرية ، أتباع المغيرة بن سعيد العجلى [1] (١١٩ هـ) ، وكانوا ينادون بالغلو والقول بإمامة محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم . وإلى جماعة الحنفية يرجع قيام الراوندية الذين نادوا بألوهية أبى جعفر المنصور بعد أبى هاشم ، والأبى مسلمية ، الذين نادوا بألوهية أبى مسلم الخراسانى ثم حفيده فيروز ، وقالت جماعة منهم بزعامة فاطمة بنت أبى مسلم ، حتى سموا « الفاطميين » نسبة اليها . ولا يبعد أن يكون بابك الخرمى من سلالة أبى مسلم الخراسانى ، كما ذهب بعض الباحثين . وقيل إن القرامطة كانوا من بقايا المتشيعين الحنفية أو الأبى هاشمية . ومن ثم كان الأبو هاشمية خطراً على الأمويين أولا ثم على العباسيين ثانياً ، فقد ثاروا فى وجه الأمويين بزعامة أبى مسلم وأزالوا دولتهم ، متخذين التقرب من أهل البيت وسيلة لإحياء مذاهب الفرس القديمة ، كما اتخذوا هذا التقرب وسيلة للتخلص من الدولة الأموية العربية . وكانوا يظنون أنهم سيجدون فى الدولة العباسية الدولة التى ينشدونها ، فنادوا بحلول الله فى شخص أبى جعفر المنصور ؛ ولكن هذا لم ير بدا من الوقوف فى وجههم والقضاء على بدعتهم ، فنادوا بالحلول فى رؤسائهم أنفسهم ، ثم ثاروا على العباسيين وانضموا إلى كل ثائر . فانضووا تحت لواء سنباذ (١٣٨ هـ) وأستاذسيس (١٤٩ هـ) اللذين أذكيا نار الثورة انتقاما لأبى مسلم ، ثم انضموا إلى المقنع الخراسانى الذى ثار على الخليفة المهدى بن أبى جعفر المنصور ، ودوخ جيوشه لينتقم لأبى مسلم وللمجوس من العرب . فلما أخمدت هذه الثورة ، لم تلبث أن هبت من جديد على يد بابك الخرمى ، الذى كان من أخلص أتباع الراوندية ، وأصبح القضاء على هذه الثورة شغل العباسيين الشاغل فى عهد المأمون والمعتصم . ولما أخمدت ثورة بابك ، وجد فلول البابكية الطريق ممهداً للاندماج فى صفوف الاسماعيلية . وهكذا كان الثائرون من المتشيعين ، ولا سيما أنصار محمد بن الحنفية ، إذا ما أخفقوا فى حركتهم الثورية ، لم تر فلولهم بداً من الانضمام إلى الحزب السرى الجديد ، وهو حزب الاسماعيلية .

---

(١) الأشعرى : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٩

هذا ما يمكن أن يقال عن تأثير التشيع فى طائفة الحنفية ، أما تأثيره فى الحسينيين فيتضح من مناداة بعضهم بإمامة جعفر الصادق وغلوهم فيه وتأليههم إياه . ومن هؤلاء العميرية ـ أتباع عمير بن بيان العجلى[١]، الذى ثار على الأمويين فى أخريات حياتهم ، فوقف له خالد بن عبدالله القسرى (١٢٦ هـ) بالمرصاد وتتبعه هو وأنصاره قتلا وتشريداً .

على أن ثورة المتشيعين الحسينيين لم تخب ، بل هبت من جديد فى أوائل حكم العباسيين على يد الخطابيـة ـ أتباع محمد بن زينب الأسدى الأجدع المعروف بأبى الخطاب . ومن هؤلاء الخطابية ميمون القداح مؤسس الدعوة الإسماعيلية ، حتى لقد ذهب بعض إلى القول بأن الإسماعيلية والخطابية طائفة واحدة . يقول النوبختى[٢] : «فأما الإسماعيلية فهم الخطابية ـ أصحاب أبى الخطاب ... وقد دخلت فرقة منهم فى فرقة محمد بن إسماعيل» ويقول النوبختى[٣] فى موضع آخر : «ثم خرج من قال بمقالته (أبى الخطاب) من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر بعد أن قتل أبو الخطاب ، فقالوا بإمامته ، وبهذا تأثر الاسماعيلية بالخطابية فى عدة نواح منها : أن الخطابيـة كانوا كالاسماعيلية يدعون لجعفر الصادق ويغلون فيـه ، وأن ميمونا القداح ـ المؤسس الحقيقى للمذهب الاسماعيلى ـ كان واحداً منهم ، وأن فلول الخطابية كانوا يكونون الأساس الأول لفرقة الاسماعيلية .

وقد نال أبا الخطاب وفرقته من جعفر الصادق (١٤٨ هـ) ما نال السبئية من على بن أبى طالب والكيسانية من محمد بن الحنفية . ذكر أبو حنيفة النعمان المغربى[٤] قاضى الفاطميين : «أن جعفرا الصادق لما بلغه أن أبا الخطاب قال فيه ماقال من الغلو ، قال المفضل (أحد أخصاء جعفر) فدخلت عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما فألفيته منقبضاً مستعبراً ! فقلت له : مالك ! جعلت فداءك ؟ فقال : أى

---

(١) هو ابن بيان الذى سبقت الاشارة إليه ، وقد انضم إلى الحسينيين مخالفاً أباه بيانا بعد أن أدرك خروج الدعوة من آل على إلى آل العباس .

(٢) فرق الشيعة ص ٥٨

(٣) المصدر نفسه ص ٥٩

(٤) المجالس والمسايرات (مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد) جـ ١ ص ٧٨ — ٧٩

مفضل ! زعم هذا الكافر أنى أعلم الغيب . . . اخرج إلى هؤلاء - يعنى أنصار أبى الخطاب - فقل لهم : إنا خلائق مخلوقون ، وعباد مربوبون»

ومهما يكن من شىء فقد تبرأ المعتدلون من الشيعة كما تبرأ العلويون أنفسهم من هذه الطائفة . يقول البغدادى [١] : «ومن أعجب الأشياء أن الخطابية زعمت أن جعفرا الصادق قد أودعهم جلدا فيه علم كل ما يحتاجون إليه من الغيب ، وسموا ذلك الجلد جفرا ، وزعموا أنه لا يقرأ ما فيه إلا من كان منهم . وقد ذكر ذلك هرون بن سعد العجلى (أحد الزيدية) فى شعر فقال :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا	فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا : إله ومنهم	طوائف سمته النبى المطهرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض	يصير بباب الكفر فى الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضوا	عليها وإن يمضوا إلى الحق قصَّرا
ولو قيل : إن الفيل ضب لصدقوا	ولو قيل : زنجى تحول أحمرا
فقبح أقوام رموه بفرية	كما قال فى عيسى الفرى من تنصرا»

وسيتضح لنا مدى مساهمة الخطابية فى تأسيس الدعوة الاسماعيلية عند الكلام على إمامة إسماعيل بن جعفر . وقد ساعد التشيع على خلق جماعة الاسماعيلية وتغذيتها من حين إلى حين بالنشاط والحيوية . أضف إلى ذلك أن التشيع كان قد تكون فى العصر الأموى ، وأن الاسماعيلية قد جنوا ثماره فى العصر العباسى ، وكان نجاحهم من أكبر الانقلابات الدينية السياسية فى الاسلام .

٢ — أئمة الاسماعيلية :

نستطيع أن نتبين ضعف تأثير جماعة الآل هاشمية ، أو بالأحرى فريق الحنفية ، منذ أوائل العصر العباسى الأول ، حتى إننا لم نعد نسمع كثيراً عنهم اللهم إلا ما كان يتردد على بعض الألسنة من تقديس لمحمد بن الحنفية واعتقاد فى رجعته .

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

فقد بما رأينا كُثير عزة (١٠٥ هـ = ٧٣٠ م) يقول بإمامة علىّ وأبنائه الحسن والحسين وابن الحنفية ، ويشيد بالأخير منهم ولا يصدق بموته فيقول :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعـة سواء
علىّ والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمـان وبر وسـبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

ونرى السيد الحميرى الشاعر الآبا هاشمى المتوفى سنة ١٧٣ هـ ينادى بما نادى به كثير عزة ، فيستبعد موت ابن الحنفية ويشيد بمآثره فيقول :

سنين وأشهرا ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسـد
مقـيم بين آرام وعين وحفان تروح خلال رُبد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهن مفترسـا بحد
أمنّ به الردى فرتعنْ طوراً بلاخوف لدى مرعى وورد(١)

ومع ذلك لم تجد للحنفية - أئمتهم وعامتهم - من التأثير أو النفوذ شيئا يذكر فى العصر العباسى الأول ؛ إلا أن جماعات من الكيسانية منهم ظلوا يعملون فى الخفاء حتى انضموا بزعامة حمدان قرمط (٢) إلى فريق الاسماعيلية النشيط فى أواخر القرن الثالث الهجرى . وهكذا ضعف الفرع العلوى الثالث ، الذى كان يتزعمه محمد بن الحنفية وأبناؤه من بعده .

أما الفرعان الفاطميان الآخران اللذان ينتميان إلى علىّ وفاطمة عن طريق الحسن والحسين فقد استطاع العباسيون - على ما رأينا - الفتك بالفرع الحسنى ، فقضى أبو جعفر المنصور على محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وبدد الهادى شمل هذا الفريق فى موقعة فخ ، ولم يعد العباسيون يخشون على العراق أو الحجاز من هؤلاء ؛ إذ فر البقيـة الباقية منهم إلى بلاد المغرب بزعامة إدريس بن عبد الله

(١) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٣٧ .

(٢) وقد يؤيد هذا الرأى دستور القرامطة الذى ينتسبون إلى زعمائهم ، وينادون فيه بامامة أحمد ابن محمد بن الحنفية وبنبوته ، ويعتقدون أن له تنزيلا شبيهاً بالقرآن الكريم . أنظر الطبرى ج ١١ ص ٣٣٩

الذى كون دولة الأدارسة ، ولكنه مات مسموماً على أيدى أنصار الرشيد ، كما فر أخوه يحيى بن عبد الله إلى بلاد الديلم . واستطاع الرشيد أن يغرر به فأحضره إلى بغداد وقتله سنة ١٧٦ هـ .

خلا الجو للفرع الحسينى بضعف جماعات الحنفية والحسنية . فتلقف أئمة هذا الفرع الزعامة العلوية التى تركزت منذ أواخر حكم الأمويين وأوائل حكم العباسيين فى جعفر الصادق الامام السادس عند الامامية الاثنا عشرية والاسماعيلية على السواء ، حيث يؤمنون جميعاً بإمامة على بن أبى طالب ، ويعتبرونه وصى الرسول وأساسه وسوسه (١)، ويغلو فيه بعض المتأخرين من الاسماعيلية ، فيرون أنه صاحب التأويل ومحمد ﷺ صاحب التنزيل ، وأن تأويل على خير من تنزيل محمد . حتى إن بعض فرق الاثنا عشرية كالنصيرية مثلا يؤلهونه .

ويرى الاسماعيلية خاصة أن علىّ بن أبى طالب نص على تعيين ولديه الإمامين الحسن والحسين ، وأن رتبة النبوة - النطق - انتقلت إلى الإمام الحسن بأمر من أبيه على ، ورتبة الامامة انتقلت بأمره أيضاً إلى ابنه الحسين ، وأنه بموت الحسن اجتمعت الرتبتان فى شخص الحسين .

يقول الخطاب بن الحسين (٢) فى كتابه غاية المواليد : « وقام أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) بالرتبتين حتى حضرته غيبته فأظهرها ، فنص رتبة النبوة على ولده الحسن ، ورتبة الامامة على ولده الحسين ، وعهد إلى الحسن عند حضور نقلته بأن يسلم الرتبة إلى أخيه الحسين ، بعد تقدم النص عليهما من جدهما بقوله :

---

(١) يقول الاسماعيلية : إن لكل نبى ناطق صاحباً ,, يأخذ عنه دعوته ، ويحفظها على أمته ، ويكون معه ظهيراً له فى حياته وخليفة له من بعد وفاته . وعندهم أن هذا الصاحب إمام ولكن يسمونه ,, السوس ،، أو ,, الأساس ،، (انظر المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٩٣ . وعندهم أن شيثا سوس آدم ، وأن له شريعة باطنة ، وآدم شريعة ظاهرة ويعتبرون سام ابن نوح أساس أبيه وصاحب الشريعة الباطنة على حين يعتبرون إبرهيم الخليل نبياً ناطقاً له شريعة ظاهرة وأساسه ابنه إسماعيل صاحب الشريعة الباطنة ، ومثل ذلك فى هرون الأساس وأخيه موسى الناطق ، ويرون أن لعيسى شريعة ظاهرة ولأساسه شمعون الصفا شريعة باطنة ، وهكذا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ناطقاً له شريعته الظاهرية وفى ابن عمه على أساساً له شريعته الباطنة .

(٢) انظر المنتخب من كتب الاسماعيلية ص ٣٨

الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا ، وأبوهما خير منهما» . وليس هذا وحده بل إن فريق الحسينية ـ وعلى رأسهم الاسماعيلية ـ يحاولون بكل ما استطاعوا إقصاء بنى الحسن بن على عن الإمامة ، فيبتدعون نظرية الاستقرار والاستيداع للبرهنة على بطلان دعوى الحسنيين فى الامامة ، فكأن الدوافع السياسية هى التى حملت الاسماعيلية خاصة على ابتداع تلك النظريات فى الامامة . يدلنا على ذلك ما قالوه فى محمد بن الحنفية من أنه حمل الوديعة ـ الامامة ـ فقط ليردها إلى مستحقها ـ علىّ زين العابدين ـ ويرون أنه قام بردها فعلا ، ولهذا لايعدون محمد بن الحنفية إماماً من أئمتهم . والفرق بين ابن الحنفية والحسن بن على أن انتقال الامامة إلى من خلف الحسن كان بعد وفاته (أى الحسن) ، أما ابن الحنفية فقد رد الوديعة قبل وفاته (١) ، فهو والحالة هذه ، لايعدو أن يكون نائباً عن الامام فى حياته أو حجة له وستراً ، شأنه فى ذلك شأن بنى القداح فيما بعد . وهكذا نستطيع أن نقول : إن إقرار إمامة الحسين فيها بطلان دعوى أبناء الحسن فى الامامة ، كما أن إقرار إمامة على زين العابدين ـ الامام الرابع ـ ينطوى على نفى إمامة محمد بن الحنفية أى نفى إمامة أبنائه . ونستطيع أن نلمح الخلاف القائم بين الامامية والكيسانية من قول كثير عزة السابق :

ألا إن الأئمة من قريش ولاةَ الحق أربعة سواء

. فهو فى هذا القول لايعترف بإمامة على زين العابدين ، على حين ينفى الامامية إمامة محمد بن على وأبنائه من بعده .

ولا يعترف الامامية كذلك بإمامة زيد بن علي زين العابدين ويقولون (٢)

---

(١) ويبرهن دعاة الاسماعيلية على عدم أحقية ابن الحنفية للامامة بأمور كثيرة تتجه كلها إلى إقرار الامامة فى أبناء الحسين عن طريق على زين العابدين : «من ذلك ما يرونه من أن عليا زين العابدين حين طلب من عمه محمد تسليم وديعته قال له : «وما هو لك المودع عندى ؟ فقال : هى قارورة مختومة فيها قرطاس أبيض وهى فارغة ليس فيها غيره . فعند ذلك جمع محمد بن على الدعاة والنقباء وسلم إليه بحضرتهم ، وأخرج القارورة وفتحها على بن الحسين بحضور من حضره ، فلم يكن فيها غير القرطاس الأبيض ، فكانت تلك بعض آياته التى أظهرها ليقع الاقرار به والتصديق . وكان إيداع الحسين بن على ـ سلام الله عليه ـ القارورة الفارغة والقرطاس الأبيض إشارة إلى خلوه من الامامة . .» [غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٥ ـ ٣٦] . والذى نفهمه من تلك العبارة أن الدعاية لأبناء على كانت رائجة فى ذلك الحين ، وأن الاسماعيلية فى العصور المتأخرة كانوا يعملون على تقريب أسباب هذا الخلاف بين أبناء على المختلفين .

(٢) يعتقد الاسماعيلية أن هناك دورات للأنبياء والأئمة ، وأن دورة الناطق ـ النبي ـ لا بد أن

بإمامة ابنه الآخر محمد الباقر بن على زين العابدين . وهو عندهم الامام الخامس ، وأن أباه نص على إمامته من بعده . وهذا يفسر لنا كراهية الزيدية لبنى عمهم الاسماعيلية ومقاومتهم إياهم فى بلاد اليمن خاصة فى جميع أطوار حياتهم .

أما الامام السادس عند الامامية فهو جعفر الصادق . ويظهر أنه كان من الحُنكة السياسية بحيث كان يعمل على ألا يعرض شخصه ولا أنصاره للخطر الخارجى ؛ فرفض الخلافة من أبى سلمة الخلال حتى لا يصطدم مع العباسيين وأنصارهم الأبى هاشمية (من الكيسانية) الأقوياء الطامحين ، ورفض أن يعلن الثورة على العباسيين لكيلا ينال منهم ما ناله ابن عمه النفس الزكية ؛ وأعلن تبرأه من أبى الخطاب وغيره من الغلاة ، حتى لا يتعرض لسخط الرأى العام من جهة ، ويسهل على العباسيين الوصول إليه من جهة أخرى — واستطاع بفضل تلك السياسة الرشيدة أن يعمل فى الخفاء ، وأن يزيل شكوك العباسيين فيه ، ويمهد السبيل لأبنائه من بعده للوصول إلى الخلافة . ونعتقد أنه لولا نضج جعفر السياسى لما قامت للاسماعيلية والاثنا عشرية بعده قائمة . ولا نغالى إذا قلنا : إن جعفرا الصادق اتخذ من قيام الدولة العباسية وسيلة لبسط نفوذه وتدعيم تأثيره المذهبى : فلم يكتف بالضعف الذى أصاب الفريقين العلويين الآخرين وهما فريقا الحسنيين أتباع الحسن والحنفية أتباع محمد بن الحنفية بل أظهر نفسه لفلول هؤلاء جميعاً على أنه الوارث الحقيقى لعلى وفاطمة ، فأخذوا يتسابقون فى التقرب إليه وإلى أبنائه ، وكونوا طائفتى الإسماعيلية والاثنا عشرية وغيرهما . وعلى الرغم من أن جعفراً لم يدرك نتائج جهوده كلها ، فانه قد مهد السبيل لخلفائه الذين التف حولهم جميع فرق الجعفرية التى تدين له بالطاعة ، وغيرهم من الفرق الأخرى .

(١) إمامة إسماعيل بن جعفر

انقسم الإمامية بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ إلى فريقين : فريق نادى

يكون فيها سبعة أئمة أحدهم — وهو أولهم — الصوس أو الأساس . ويسمى الستة الآخرون الأئمة الصمت ؛ والأئمة الصمت عند الاسماعيلية هم الحسن والحسين وعلى زين العابدين ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ثم إسماعيل بن جعفر .

بأحقية إسماعيل[١] بن جعفر ، ويعرف هؤلاء بالاسماعيلية أو السبعية ، لأن إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع . ومن هؤلاء ظهر عبيد الله المهدى . وفريق آخر نادى بأحقية موسى الكاظم ، الابن الأصغر لجعفر الصادق ، وأبنائه من بعده حتى الإمام محمد الثانى عشر الذى اختفى بسرداب فى مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته ، ولذلك سمى الإمام المنتظر . وكانوا يعرفون بالموسوية — نسبة إلى موسى الكاظم بن جعفر — واشتهروا بعد ذلك باسم الاثنا عشرية لانتظارهم إمامهم الثانى عشر .

ويرتبط بإمامة إسماعيل نظريات كثيرة قال بها أو ابتدعها الاسماعيلية ، منها تعيين الإمام بالنص ، وأن النص الأول هو المعمول به ، لأن البَـداء[٢] من الله محال فيرى أنصار إسماعيل أنه كان أكبر أبناء أبيه جعفر وأحبهم إليه وأنه نص على إمامته بعده . ولذلك يرد الإسماعيلية على الموسوية والاثنا عشرية قولهم : إن موسى أحق من أخيه إسماعيل لأن إسماعيل مات فى حياة أبيه فنص هذا على إمامة موسى ، ويقولون لهم : إن التعيين الأول هو المعمول به ، وأما الثانى فباطل لأنه يعتبر بَداء وقد « نسيتم قول الصادق عليه السلام : إن البدء والمشيئة لله إلى كل شىء إلا فى الإمامة[٣] » . ويؤكدون لهم أن جعفرا الصادق كان يقول : « لو جاءكم أحد بدماغ ابنى هـذا (إسماعيل) فلا تشكوا أنه الإمام بعدى » ، وأنه كان يقول فيه أيضاً : هذا هو الإمام بعدى ؛ فما أخذتموه عنه فهو عنى[٤] » . كما لا يقر الإسماعيلية بموت إسماعيل فى حياة أبيه ، ويردون على الاثنا عشرية الذين يقول شاعرهم :

لما انبرى لى سائل لأجيبه ‏ ‏ موسى أحق بها أم اسماعيل ؟
قلت : الدليل معى عليك وما على ‏ ‏ ما تدعيه للامام دليـــل
موسى أطيل له البقاء فحازها ‏ ‏ إرثاً ونصاً والدعاة تقول :

---

(١) يعرف إسماعيل بالأعرج ، وكان أكبر إخوته وأحبهم إلى أبيه . وقد توفى فى حياة أبيه جعفر الصادق بالعريض فى المدينة المنورة ، ودفن بالبقيع فى سنة ١٤٥ هـ وهو الراجح وقيل فى سنة ١٣٨ هـ (أنظر صحاح الأخبار ص ٤٥) .

(٢) ومعناه أن الله يبدو له فيغير ما أراد .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥

(٤) المرجع نفسه

إن الإمام الصـــادق بن محمد عزى بإسماعيـــل وهو جديل
وأتى الصلاة عليه يمشى راجلا أفجعفر فى وقته معزول ؟ (١)

ويقول الإسماعيلية : إن جعفرا الصادق إنما أشهد على موت إسماعيل لابعاد خطر العباسيين ، ويؤكدون أن إسماعيل مات بعد وفاة أبيه لا قبله وأنه رئى بالبصرة فى سنة ١٥١ هـ وفعل المعجزات بها بإبرائه مريضاً مرضاً مزمناً ، وأنه قام بذلك « إعجازاً للخلائق بظهور القدرة من الله تعالى وبقاء الكلمة فى عقبه الطاهرين من بيته . لأن تتم الحكمة وتتصل إلى الخلائق رحمة وتكمل الحجة وتتم النعمة »(٢) ويعتقدون أن ما فعله إسماعيل هو نوع من الغَـيبة التى اشتهر الشيعيون بها ، لذلك يقولون : « إنه غيب شخصه فى حياة أبيه ستراً من أعدائه ومحنة لأوليائه(٣) » . وهكذا لم يعترف الاسماعيلية للموسوية بأحقيتهم بالامامة دونهم .

والواقع أن إسماعيل بن جعفر مات فى حياة أبيه ، وأن كثيراً من الإسماعيلية يؤمنون بذلك . ولكن الاسماعيلية جميعاً يؤمنون بأن النص لا يرجع القهقرى ، ولذلك يتخذون نظرية الاستقرار والاستيداع وسيلة للتدليل على إمامة إسماعيل دون بنى عمه موسى ، فيقول المعتدلون منهم : إن موسى الكاظم كان إماماً مستودعاً لإسماعيل وأبنائه ، لأنهم أئمة استقرار شأنه فى ذلك شأن الحسن مع الحسين وأبنائه . كما يقولون إن اسماعيل أوصى قبل موته أباه جعفرا بتعيين وصى لابنه محمد ابن اسماعيل ، فعين جعفر ابنه موسى الكاظم وصياً على حفيده محمد بن إسماعيل ليكون ستراً عليه(٤) . فكان هذا مصداقاً لقوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية فى

---

(١) كتاب أعيان الشيعة جـ ١١ ص ٢٧٥

(٢) الداعى إدريس عماد الدين : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٤٩ . والواقع أن إسماعيل مات فى حياة أبيه جعفر وأن موته كان سنة ١٤٥ هـ على الأرجح . ويرى الكثير من الاسماعيلية أنه مات فى سنة ١٣٨ ، ويرى آخرون أن ذلك كان فى سنة ١٤٣ هـ . وبهذا نرى أن ما ذهب إليه علماء الاسماعيلية من أنه مات بعد سنة ١٤٨ ضرب من ضروب التمويه .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٨١ (من المنتخب)

(٤) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٨١ . ويقول الداعى إدريس : « إن الصادق عليه السلام أقام موسى حجاباً على محمد بن إسماعيل وعلى من جعله له باباً الذى هو ميمون الستر عليه والكفيل » (زهر المعانى ص ٤٩) .

عقبه » . والحق أن هذا يتفق مع حرص الصادق الذى اشتهر به[١] . فقد كان يخشى العباسيين ، ولذلك أشهد الناس على وفاة ابنه إسماعيل حتى لا يثير شكوك العباسيين ، بل إن الاثنا عشرية يذهبون إلى القول بأن جعفراً « لما حضرته النقلة ، استخلف المنصور على أهله وولده ، كل ذلك صيانة لهم وستراً على ولى الله صلوات الله عليه »[٢] .

ويقول الداعى إدريس فى كتابه زهر المعانى : « إن موسى الكاظم لم يجعله الصادق عليه السلام إماماً إلا ستراً على ولى الأمر (أى محمد بن إسماعيل) ليتكتم أمره عن الأضداد ، ولئلا يطلع على ما خص به أهل العداوة والعناد » . ويقول : « والموسوية قالت بإمامة موسى بن جعفر ، وكان أكثر اجتماع شيعة الصادق عليه السلام على موسى وعلى القول بإمامته . وادعى موسى الامامة لنفسه . قيل إن ذلك تقية منه على الامام محمد بن إسماعيل ، وإنه لو ملك الأمر لرده إلى أهله وأحله محله[٣] » . من هذا كله يتضح مبلغ محاولة الاسماعيلية إثبات أحقية إمامهم إسماعيل الذى يعتقد بعضهم فيه ما يعتقده المسلم فى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم[٤] .

ولكن هل قامت الدعوة الإسماعيلية فى عهد إسماعيل ؟ الواقع أنها لم تتكون إلا فى عهد ابنه محمد بن إسماعيل[٥] وأبنائه من بعده . ونحن نشك كثيراً فى تكوين فرق الاسماعيلية فى حياة إسماعيل ، أو بالأحرى فى حياة أبيه جعفر الصادق ، اللهم إلا إذا افترضنا اندماج جعفر مع أنصار إسماعيل وابنه من الغلاة ، وافترضنا أنه تبرأ منهم تقية ، وهو مالم يوافق عليه أحد . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نقول على وجه التحقيق إن إسماعيل كان يدعو إلى نفسه فى حياة أبيه جعفر ، فإن

---

(١) المأثور عن جعفر قوله : « التقية دينى ودين آبائى . من لا تقية له فلا دين له » ، المنتخب ص ٩٢ .

(٢) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٨١ .

(٣) الدكتور محمد كامل حسين : المزيد فى الدين (رسالة) ص ١٣٥

(٤) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٤٧ (من المنتخب)

(٥) De Sacy : Recherches sur l'initiation à la Secte Ismaelienne, (J.A., 1824) p. 302.

هناك من الحوادث ما يجعلنا نميل إلى القول بأن إسماعيل كان على صلة بمؤسسى فرقته ، من ذلك اتهام الاثنا عشرية وغيرهم من السنيين إياه بشرب الخمر[1] الذى يبيحه الغلاة . ولا يبعد أن يكون قد فعل ذلك — إن صح — لاتصاله بمؤسسى فرقته كالخطابية والمباركية وسواهم ، أو بعبارة أخرى لا يبعد أن يكون اسماعيل قد أخذ يقول بالغلو الذى يعتبر من أهم مقومات المذهب الإسماعيلى . يؤيد ذلك حادثتان : الأولى قول أحد خاصّة جعفر الصادق : « كنت مع جعفر بن محمد صلوات الله عليهما ، فى باب الخليفة أبى جعفر بالحيرة حين أتى ببسام ، (أحد الغلاة) وإسماعيل بن جعفر بن محمد ، فأدخلا على أبى جعفر ، فأخرج بسام مقتولا ، وأخرج إسماعيلٌ بن جعفر بن محمد ، فرفع جعفر رأسه إليه وقال : أفعلتها يا فاسق ! أبشر بالنار .[2] »

والثانية : ما أورده الكاشى أن الصادق عليه السلام قال للمفضل[3] : يا كافر يامشرك ! ما لك ولابنى — يعنى إسماعيل — وكان منقطعاً إليه يقول فيه مع الخطابية ، ثم رجع بعده ، وفى رواية أخرى أأنت المفضل ؟ وقال له : يا كافر يامشرك ! ما تريد إلى ابنى ؟ تريد أن تقتله ؟ [4]. ومعنى ذلك أن إسماعيل كان على اتصال بجماعة الغلاة الذين قامت الدعوة الاسماعيلية فيما بعد على أكتافهم ، وخاصة بأبى الخطاب وأنصاره ، وهذا ما حدا بالأستاذ ماسينيون إلى القول بأن الكنية التى يكنى بها أبو الخطاب ، وهى « أبو إسماعيل » ، إنما تشير إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأن الخطاب هو الأب الروحى لإسماعيل بن جعفر[5]. وهكذا كان أبو الخطاب على اتصال دائم بإسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه ، وقد كانا يعملان معا على تنظيم مذهب اتخذ أساسا للمذهب الإسماعيلى فيما بعد ، كما كانا يعملان على

---

(١) يعتقد بعض الاسماعيلية فى إباحة شرب الخمر وارتكاب المحظورات على أيدى الرؤساء بدعوى أنه لاجناح عليهم ، وأن تكاليف الشريعة إنما جعلت للعامة وحدهم .

(٢) انظر أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥

(٣) هو المفضل بن عمر الجعفى أحد أنصار أبى الخطاب

(٤) أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥ — ٢٧٦

(٥) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, p. 42.

تكوين فرقة شيعية ثورية ، تمكنت فيما بعد من جذب جميع الفرق الشيعية الأخرى إليها . بحيث أخذ الجميع يتسابقون فى الاعتراف بإمامة إسماعيل وأبنائه من بعده .

وإذا صح ذلك فكيف نفسر إقرار إسماعيل أباه جعفرا على تبرئه من أبى الخطاب ؟ وهل كان ذلك تقية(١) منه ، أم أن ذلك يرجع إلى عقيدة راسخة فى نفس إسماعيل ؟ ويظهر أن إسماعيل كان يجارى أباه خوفا من العباسيين . هذا إذا صح أنه أقر أباه فى انتقاضه على أبى الخطاب ، لأن الرواية تذهب إلى أن إسماعيل كان لا يزال طفلا فى ذلك الحين . ونحن نعلم أن انتقاض جعفر الصادق على أبى الخطاب (٢) كان بعد قيام الدولة العباسية ، وأن إسماعيل لم يكن فى ذلك الوقت طفلا ، بل كان رجلا كامل الرجولة مما يبعث على الشك فى صحة هذا القول ؛ ويوحى إلينا فى الوقت نفسه بأن إسماعيل قد بدأ ينظر إلى الإمامة وزعامة العالم الإسلامى نظرة عملية .

من هذا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن بعض الأئمة العلويين قد غيروا ، منذ أيام إسماعيل ، السياسة التى سار عليها على بن أبى طالب مع ابن سبأ ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبى عبيد الثقفى الكيسانى ، وجعفر الصادق مع أبى الخطاب . وإن هذه السياسة الجديدة كانت تعنى باستغلال الفرص الملائمة لمصلحة الدعوة العلوية . ولذلك أصبحت سياسة هذا النفر من الأئمة العلويين سياسة تقوم على المنفعة وحدها ، وهذه السياسة لابد أنها لم تعجب المعتدلين من الشيعة أو الأئمة الآخرين . يتضح ذلك من موقف جعفر الصادق من ابنه إسماعيل وأنصاره . وعلى عكس ذلك

---

(١) أى أن يظهر خلاف ما يبطن خوفا .

(٢) ذكر الداعى جعفر بن منصور أنه ،، جاء عن بعض أصحابه (إسماعيل) ، وكان من دعوة أبى الخطاب ، أنه قال : رأيت إسماعيل عند منصرفه من الكتاب ، فأجلسته فى حجرى ، وقبلت رأسه ، وقلت : ما أعجب أمركم ... ؟ فقال : بأى الأمور تعجب يافلان ؟ فقلت : يقول لنا أبوك بالأمس أبو الخطاب معدن سرنا وعيبة (وعاء) علمنا ، واليوم يلعنه ويأمرنا بالبراءة منه ، فقال : يافلان ، وسماء ، إن الله جل وعز لما دعا السموات والأرض وذلك قوله : ،، ائتيا طوعا أو كرها قالتا : أتينا طائعين ،، ، فكانتا مطيعتين . وكذلك النطقاء والأوصياء والأئمة كانوا مطيعين فى إجابتهم ، فلذلك صاروا معصومين ، وسائر الأتباع لهم مستقر ومستودع . . . وإن أبا الخطاب عن استودعه الله علمنا ، فلذلك قال بولايتنا ، فلما أفسد فى دينه قبض الله وديعته ، فتبرأنا منه . فمن أى هذه الأمور أنت تعجب ؟ ،، أسرار النطقاء ص ٩٥ — ٩٦ .

وجدت هذه الحركة الاندفاعية الجديدة رواجا كبيرا بين غلاة أنصاره ، فحمل لواءها أخيرا ميمون القداح وأبناؤه ، وكانوا من أخلص تلاميذ هذه المدرسة ، وتركزت عصارة هذه الأفكار الجديدة فى جماعة الإسماعيلية .

والخلاصة أن جعفرا الصادق عهد إلى ابنه إسماعيل بالإمامة من بعده ، ولكنه نزل عن هذا التعيين الأول ، ومنحه ابنه الأصغر موسى الكاظم ؛ وذلك إما لوفاة إسماعيل فى حياة أبيه ، أو لاتهامه بشرب الخمر ، لكى يبعد الشكوك عن نفسه وعن جماعته ، بعد أن اتضح للعباسيين أن إسماعيل كان على صلة ببعض الغلاة ، أو أن جعفرا فعل ذلك ذرا للرماد فى العيون ، حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقى ، وهو محمد ابن إسماعيل ، النهوض بأعباء الدعوة سرا .

انقسام العلويين بعد جعفر الصادق

على أن موت جعفر الصادق أوجد حالة خطيرة من الاضطراب بين أتباعه وأبنائه ؛ فهناك جماعة ظلوا على وفائهم لجعفر الصادق ، ونادوا بمهديته وانتظاره وقالوا : إنه لم يمت ، وإنه سيعود ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، ويسمى هؤلاء « الجعفرية » ، إلا أن هذا الفريق ضعف وامحى على مر الزمن .

ومن هؤلاء الأنصار جماعة اعتقدوا إمامة عبد الله بن جعفر المعروف بالأفطح ، وفيهم يقول الداعى إدريس (١) عماد الدين : « اعتقدت فرقة أخرى إمامة الأفلح (الصواب الأفطح) عبد الله بن جعفر . فمات فى عصر أبيه وهو منقطع الولد ، فبطل مالفقوه من الترهات . . »

والواقع أن هذا الفريق قد قضى عليه لأمور منها : منافســـة الفرق القوية الأخرى له ، ولا سيما جماعة الاثنا عشرية والإسماعيلية ، ومنها أن الأفطح مات بعد حياة أبيه ، لا كما ذهب إليه إدريس ، ولم يعرف أن جعفرا الصادق نزل له عن الإمامة . أضف إلى ذلك أنه مات ولم يعقب ولدا ذكرا مما أضعف مركز المنادين بإمامته . ونستطيع أن ندرك من حركة الأفطحية كيف اتخذوا الانتماء إلى أهل

---

(١) زهر المعانى (من المنتخب من كتب الاسماعيلية) ص ٥٠

البيت وسيلة للتمتع بالنفوذ والجاه . ولا غرو فإن الأفطحية كانوا يدركون تمام الإدراك عدم أحقية الأفطح الذى تشيعوا له لهذا الغرض فحسب .

وهناك جماعة قالوا بإمامة محمد بن جعفر الصادق ، ويسمون « المحمدية » ؛ ويدعى هؤلاء أن محمد بن جعفر إمامهم ، وأنه ثار على العباسيين وحاربهم فى مكة . ولا يعترف الإسماعيلية له بالإمامة ، لأن جعفرا لم ينص عليه ، ولأنه حارب العباسيين فى الشهر الحرام وفى البلد الحرام ؛ ثم لأنه اتبع هو وأنصاره طريقة العلويين التى كان نصيبها الإخفاق ، فلم « يتخذوا لأنفسهم دار هجرة يعتصمون بها ، ويجاهدون عدوهم منها ، ثم يفتتحون بعد ذلك دار هجرة » [1] . هذا إلى أن العباسيين عبثوا به ، وجعلوه يقر على نفسه وعلى دعوته بالخطأ ، كما تبرأ هو من دعوته ، وأقر على نفسه بالضلال . « والشيعة بأسرها مجتمعون على أن الإمام الذى يقوم بمكة لا يُذَل له رأيه » [2] .

وقد تكونت جماعة قوية أخرى تنادى — على ما رأينا — بإمامة إسماعيل بن جعفر ، وهم الإسماعيلية ، وانضوى أكثر الشيعة تحت لواء موسى الكاظم ، وسموا — على ما رأينا — الموسوية [3] ثم الاثنا عشرية . على أن الأفطحية والمحمدية لم يكن لهم من الشهرة ما كان للإسماعيلية أو الموسوية .

ولا يعزب عن أذهاننا أن الاضطراب المذهبى الذى أعقب موت جعفر الصادق قد ساعد على نجاح فريق الإسماعيلية . فقد أخذ ابنه محمد يدعو إلى نفسه فى الخفاء ، واستغل اشتغال العباسيين بتتبع الطوائف العلوية الأخرى التى تكلمنا عليها من قبل .

(ب) إمامة محمد بن إسماعيل

مات إسماعيل حول سنة ١٤٥ هـ ، ولابنه محمد من العمر أربع عشرة سنة . وقد

---

(١) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٨٤

(٢) المصدر نفسه

(٣) Defrémery : Essai sur l' Histoire des Ismaéléens de la Perse, p. 12.

ولاه أبوه عهده ونص على إمامته فى حياة جده جعفر الصادق . أى قبل سنة ١٤٥ هـ ، فعل ذلك لأن الإمامة — على ما يقولون — لا ترجع القهقرى . ويرى بعض الإسماعيلية أن جعفرا الصادق لما عين موسى الكاظم ليكون سترا على محمد بن إسماعيل استبد موسى بالأمر دون محمد بعد موت الصادق [(١)] . ويرى بعض آخر أن جعفرا الصادق عهد إلى ميمون القداح — وكان من أخلص رجالهم — برعاية محمد بن إسماعيل . وأن ذلك كان فى طفولة محمد لا عند موت أبيه [(٢)] .

ويبدو أن محمد بن إسماعيل كان يعمل على نشر الدعوة لنفسه وهو بالحجاز . وقد اشتهر أمره بعد وفاة جده جعفر الصادق ، واستطاع أن يموه على العباسيين طوال عهد المهدى (١٥٨—١٦٩ هـ) والهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) وجزءا من عهد الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) ، وساعده على ذلك إمعان أنصاره فى التخفى واشتغال المهدى والهادى بحرب الزنادقة والعلويين الثوار . وكأن محمد بن إسماعيل قد تعلم من جماعة العباسيين السرية (الأبى هاشمية) التى استطاعت بفضل إمعانها فى التخفى أن تقلب العرش الأموى ؛ ولذلك فرق « دعاته السيارة فى جزائر الأرض [(٣)] ، وأمر أهل الجزائر بإقامة الدعوة باسمه ، فعمرت الأرض ، وانتشر الأمر ، وأقبلوا فى السياحة لنصب دار هجرة لهم » [(٤)] .

غير أن محمد بن إسماعيل أدرك استحالة بقائه فى المدينة بعد اشتهار أمره فى عصر الرشيد الذى يعتبر عهده العصر الذهبى للعباسيين ، والذى استطاع بنشاطه المتصل أن يخمد الثورات ويقضى على إدريس بن عبد الله وأخيه يحى ، كما استطاع فى الوقت نفسه أن يرقب حركات محمد بن إسماعيل ويعمل على اقتناصه . ولكن محمد ابن إسماعيل أدرك خطر الرشيد على دعوته ، فأعد للأمر عدته ، فاتخذ سردابا له فى داره بالمدينة ، حتى إذا ما شعر بدنو الخطر فر هاربا . وتتفق المصادر السنية والإسماعيلية فى القول بأن محمد بن إسماعيل استطاع أن يتوغل فى شرق المملكة

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٤٩ ، ٥١

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧

(٣) الجزيرة عند الاسماعيلية هى الاقليم الرئيسى من إقليم الدعوة .

(٤) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٦٠

الإسلامية . فيرى بعض (١) . أنه قصد فرغانة واستقر بها ، ويرى بعض آخر أن استقراره كان بنيسابور (٢) حيث تزوج هناك ، وأنجب ابنه عبد الله الرضى الذى عهد إليه بالإمامة من بعده (٣) ، على حين ترك ابنيه إسماعيل وجعفرا فى المدينة ، ولم يكن لهما من الإمامة شىء .

ويرى رشيد الدين (٤) أن محمد بن إسماعيل فر من المدينة إلى العراق فالرى ، ومنها إلى دوماوند ، وهو جبل قريب من الرى ، واستقر هناك بقرية تدعى سملا ، أطلق عليها فيما بعد « محمد أباد » (٥) نسبة اليه . وإن فرار الإمام محمد من المدينة لم يكن خوفا من العباسيين . وإنما كان لنشر الدعوة وإنفاذ أبنائه ودعاته إلى كافة أنحاء العالم الاسلامى ؛ لأنه كان من السهل على من يقيم خارج بلاد الحجاز أن يتصل بالبلاد الأخرى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن هرب محمد بن إسماعيل قد حدث بعد موت جعفر الصادق فى سنة ١٤٨ هـ . وكان قد أقام موسى الكاظم (+ ١٨٣ هـ) وصيا على محمد بن إسماعيل . ولعـــل موسى حاول الاستئثار بالإمامة دون محمد الذى خشى إفشاء سره على يد الموسوية ، وأدرك استحالة رواج الدعوة إليه إذا بقى بالحجاز ؛ ولذلك آثر الفرار منها إلى بلاد يسهل عليه التردد عليها من حين إلى حين . ولذلك نراه لا يفتر عن الانتقال ؛ فطورا نراه فى فرغانة والرى ، وطورا آخر فى سورية ، مما يدلنا على أنه كان يخاف بأس الرشيد ، ويؤيد بطلان الرأى القائل بأنه كان على وفاق مع هذا الخليفة ، « وإنه كان لا يترك السعى إلى السلطان من بنى العباس بعمه الإمام موسى الكاظم عليه السلام ، وهو مع ذلك يبره . وقد آل أمر سعيد به أن قبض عليه الرشيد وحبسه . . . حتى مات وحظى بعده ابن أخيه محمد بن إسماعيل هذا عند الرشيد ، ومات ببغداد » (٦) .

(١) Ivanow: The Rise of the Fatimids, p. 30.

(٢) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٥٤

(٣) نفهم من ذلك أن مولد الامام المستور الثانى ـ عبد الله ـ كان بعد فرار أبيه من المدينة فى عهد الرشيد ، اى بعد سنة ١٧٠ هـ بزمن طويل .

(٤) جامع التواريخ : المجلة الأسيوية الملكية سنة ١٩٣١ ص ٢٢٢

(٥) يقول الاسماعيلية إن موسى الكاظم ادعى الأمر له ولولده من بعده . المنتخب ص ٥١

(٦) عبد الله بن سراج : صحاح الأخبار ص ٤٥ ــ ٤٦ . ويتعارض هذا مع مراجعنا الاسماعيلية التى تذهب إلى القول بأن محمد بن إسماعيل مات فى فرغانة أو فى نيسابور .

هذا عن فرار محمد بن إسماعيل من المدينة . أما عن مركزه فى الدعوة ، فإنه يعتبر أول الأئمة المستورين الذين ينتهون بظهور سعيد وقيام الدولة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٩٦هـ . وكان يسمى قبل فراره « الإمام محمد » ، أما بعد ذلك فقد أصبح يطلق عليه « الإمام المكتوم أو المستور » ، وهو بذلك أول من أوجد دور الستر الأول عند الإسماعيلية .

ويعتبر الإسماعيلية محمد بن إسماعيل الناطق السابع ، وأن إمامته كانت بداية دور جديد فى تاريخ الإسماعيلية ، بل يذهبون إلى القول بأنه أتى بدين جديد ، نسخ به الشريعة التى سبقته ، حتى لقد فضله الاسماعيلية على أبيه إسماعيل خاتم الأئمة الصمت . فهو فى نظرهم قد جمع بين درجتى النطق والإمامة . ورفع عنهم التكاليف الظاهرية للشريعه بمناداته بالتأويل ، واهتمامه بالمعنى الباطن وغضه من شأن المعنى الظاهر ، ولذلك قيل فيه : « وإنما خص محمد بن إسماعيل بذلك ، لانتظامه فى سلك مقامات دور الستر ؛ لأنك إذا عددت آدم ووصيه وأئمة دوره ، كان خاتمهم الناطق ، وهو نوح عليه السلام ... وإذا عددت عيسى ووصيه وأئمة دوره ، كان محمد ﷺ متسلما لمراتبهم ، وهو الناطق الخاتم للنطقاء ، وكان وصيه عليه السلام بالفضل منفردا به . وإذا عددت الأئمة فى دوره كان محمد بن إسماعيل سابعهم[1] . وللسابع قوة على من تقدمه ، فلذلك صار ناطقا وخاتما الأسبوع ، وقائما وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس ، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها[2] » . ويقول فيه المعز لدين الله : « وعطلت بقيامه ظاهر شريعة محمد ﷺ [3] » « وتملأ به الأرض عدلا كما ملئت جورا وخبطا لما كان لمعانيها مبينا ، ولأسرارها كاشفا ومجليا ، فأزال عن أتباعه وأشياعه اعتقاد الظاهر على ما فيه من تعطيل وتشبيه للمبدع الحق بمخلوقاته[4] » .

---

(١) نعلم أن إسماعيل هو الامام السابع ، ويظهر أن الداعى إدريس يريد أن يقول : إن الامام الحق بعد جعفر الصادق (الامام السادس) هو محمد بن إسماعيل ، وأما أبوه فكان واسطة اتصال بين جعفر الوالد ومحمد الابن .

(٢) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٥٦

(٣) المصدر نفسه حيث يقول أيضاً هو ,, مترجم القرآن ومفسره ، ومظهر بيانه ومنوره ، وقائم يوم القيامة . ,,

(٤) ويقول الداعى ادريس (زهر المعانى ص ٤٧) عن ميمون القداح ,, هو ميمون بن غيلان

كان محمد بن إسماعيل يعتمد فى نشر هذه الدعوة على حجته ميمون القداح الذى يذكر الإسماعيلية أنه من نسل سلمان الفارسى ، وسنرى أن أسرة القداح سوف تلعب دورا هاما فى تاريخ الإسماعيلية ، وأن محمدا لم يمت حتى كان قد وضع مع حجته ميمون أسس الدعوة الإسماعيلية . ولا نعرف بالضبط سنةوفاة ميمون . على أن هذه الوفاة لابد أن تكون قد حدثت بعد سنة ١٨٣ هـ ، وهىالسنة التى توفى فيها موسى الكاظم ، لأن ميمونا عاش بعد الكاظم على ما ذهب إليه صاحب صحاح الأخبار .

ترك محمد بن إسماعيل كثيرا من الأولاد ، ومن هؤلاء عبد الله الذى ولاه أبوه عهده . أما إسماعيل وجعفر فقد رأينا أنه لم يكن لهما من الأمر شىء . ومن أولاد محمد ، على بن الليث وأحمد والحسين . وقد تمكن العباسيون من الفتك بابنه على ؛ ومن ثم هرب ابنه أحمد بن محمد إلى خوارزم ، ولا نعرف ما حدث له هناك . كما عين محمد بن إسماعيل ابنه الحسن ليعمل باسم ابنه وولى عهده عبد الله الرضى ، فظل مخلصا لأخيه لولا أن بعض الدعاة حاولوا إقامة الدعوة باسمه ، وإن كان ذلك على كره منه . ويقال إنه قصد خوارزم للاتصال بأخيه أحمد بن محمد بن إسماعيل ، فقبض عليه وقتل هو وجميع أقاربه ومن معه من أهل بيته ، حتى إنه لم يبق منهم إلا أحمد بن محمد بن إسماعيل ، وعبدالله الرضى . أما أحمد فلم نعرف عنه شيئا كما تقدم ، وأما عبد الله فقد انتقلت إليه الإمامة بعد أبيه .

(ح) إمامة عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل

ولد عبد الله بن محمد الملقب بالرضى والناصر أو العطار فى نيسابور ؛ ويعتبر أول الخلفاء[1] عند الإسماعيلية . ويذكر صاحب كتاب دستور المنجمين[2] أنه عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل . وقد ولد فى عهد الرشيد أو بعده . وأحاطه أبوه

= ابن بيدر بن مهران بن سلمان الفارسى ، كفيل محمد بن إسماعيل ومستودع أمره ... وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد إسحاق بن يعقوب أهل الاستيداع والقائمين بالبلاغ والابلاغ ».

( ) الخليفة الاسماعيلى هو الامام الصامت الأول ، فهو شبيه بالحسن بعد على

(٢) De Goeje : Memoires, vol. ii. p. 203.

بفريق من دعاته المخلصين ، كما غلا هو وأنصاره فى إخفاء أمر ابنه عبد الله هذا حتى لا يقع فى قبضة العباسيين . وهكـذا نصب « محمد بن إسماعيل » له حجبا ، وأمر كل واحد من الحجب والحجج أن يتسمى باسم الإمام . فمن أخذ العهد على مستجيب سمى له أحد أولئك الحجب . حتى يمضى الوهم اليه سترا على صاحب الأمر(١) ، وهـذا ما جعل التحقق من شخصية الأئمة المستورين متعذرا على النـاس سنين كانوا أم شيعيين ، وأصبح من الصعب التفريق بين الحجج والأئمة لاتفاق أكثرهم فى التسمية . أضف إلى ذلك أن رؤساء الدعاة فى جزر الدعوة الرئيسة وبحارها ، كانوا يختلفون فيما بينهم ، فى ذكر أسماء الأئمة حتى كان ذلك من أهم العوامل التى حفظت الأئمة المستورين وحالت دون التعرض لأشخاصهم .

اتخذ الإمام عبد الله الرضى من عبد الله بن ميمون القداح حجة له وحجابا . ولا ندرى هل كان لـكل من الإمام والحجة اسم آخر غـير اسمه الذى اشتهر به ؛ فإن محمد بن إسماعيل كان يسمى الميمون ، كما كان حجته يسمى ميمون القـداح . وتسمى الإمام عبد الله الرضى باسم حجة عبدالله القداح . ويظهر أن لكل منهما اسما بل أسماء أخرى . والمهم عندنا أن اتفاق اسمى الحجة والإمام ينبغى أن لا يجعلنا نخلط بين شخصيهما كما ذهب إليه ماور (٢) ، أو أن ننفى وجود واحد منهما كما نفاه بعض السنيين والإسماعيلية (٣) . يقول الداعى إدريس فى عبد الله هذا (٤) : إنه « كتم نفسه ، وستر حجته وحدوده ، فكان حجته وحجابه عبد الله بن ميمون ـ رضوان الله عليه . »

ويدلنا على إمعان عبد الله فى التخفى ، ما ذكره هذا الداعى نفسه : « وكان استتاره كظلمة الليل الشديد ، وذلك لما غلب الباطل على الحق ، واشتدة دولة

(١) زهر المعانى ص ٥٤ . ويزيد على ذلك : ,, وجرت بذلك السنة والعضية فى الأئمة المستورين الثلاثة . فى ذلك أن الدعاة فى أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ما اتفق منها فى ذلك اثنان ,,

(٢) Polemics on the Origin of the Ismailism, pp. 70-1

(٣) حيث يغلو السنيون فينفون وجـود الأئمة المستورين ويغلو بعض الاسماعيلية فينفى وجـود بنى القداح من الحجج

(٤) زهر المعانى ص ٥٩

الظلمة من آل العباس ، وعظم الريب والوسواس . وكان لشدة استتار الإمام عليه السلام إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد على مستجيبين لدعوته يقول له : وإنك سمعا وطاعة لولى العصر ، ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح فى العلم ، وعلت فيه درجته وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب . ولا يكشف له اسم إمامه ولا يبينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق » . وإذن كانت هنالك دعوة سرية إسماعيلية منظمة فى أيام المأمون ، وكان استتار الأئمة قد بلغ غايته . كما كانت بلاد خوزستان مكاناً رئيسا لنشاط الدعوة فى عهد الإمام عبد الله هذا ، حيث تزوج فى نهاوند ، واستقر بالأهواز ؛ إلا أنه كان كثير الترحال ، فنراه يقصد مازندران (طبرستان) ، ثم يعود إلى الأهواز .

أدرك الإمام عبد الله هذه النهضة العلمية الكبيرة التى راجت فى عهد الرشيد وبلغت ذروتها فى عهد المأمون . وتأثر بها ذلك الإمام وأثر فيها ، لكنه لجأ إلى الاستتار ، فلم يقم بما قام به ابنه العلامة أحمد بن عبدالله ، الذى قيل إنه واضع تلك الرسائل الذائعة الصيت التى تعرف برسائل إخوان الصفا . أما الإمام عبد الله فلم «يظهر علمه لأحد ولا أطلع عليه ولا عرفه إلا حملة العرش (كبار حدود دعوته) القائمون بأمر الله ، أمناء خليفته ، وفضلاء حججه المنصوبون فى دعوته » [١]

ويعرف الإمام عبدالله الرضى عند الإسماعيلية بالإمام عبد الله الأكبر ، ويعتبر أول الأئمة المستورين الذين استقروا بسلمية ؛ وذلك أن العباسيين تتبعوه فى عهد المأمون ، فقتلوا ابنه وفتكوا بعامة أسرته مما اضطره إلى الهرب مع ابنه أحمد ـ ولى عهده فى الإمامة ، والتنقل هنا وهناك ، فقصدا مازندران فالأهواز ، ثم اتجها إلى سامرا ومنها قصدا سلمية من أعمال حمص . فادعى عبد الله للهاشميين هنالك أنه واحد منهم ، وظل فى سلمية موضع الاحترام والتبجيل لتقواه وجوده ، كما لم يصرح باسمه ولا باسم ابنه أحمد . ولكن متى حدث ذلك ؟ مما ورد فى كتاب عيون الأخبار [٢]

---

(١) زهر المعانى ص ٥٩

(٢) Ivanow: The Rise of the Fatimids, pp. 33-34

نستطيع أن نقول إن ذلك حدث بعد أن عهد المأمون إلى على الرضا بالخلافة من بعده ، أى قبل سنة ٢٠٦ هـ .

وإذن لم يكن خروج عبد الله من الأهواز مع ابنه أحمد لنشر الدعوة فقط ، وإنما كان فرارا من الاضطهاد الذى حاق بأئمة الإسماعيلية وأمرائهم : ومن ثم كان هربه مفاجأة لكثير من دعاته الذين لم يستطيعوا العثور عليه إلا بعد مشقة(١). وكان موته بسلمية ، ويعتقد بعض الإسماعيلية خطأ أن الخلفاء الفاطميين أحضروا جثته من سلمية إلى القاهرة (٢) . ولكن هل كان حجته عبد الله بن ميمون القداح معه ؟ يبدو أن عبد الله لم يكن يفارق إمامه ، لأنه حجته ونائبه ، ورتبة الحجة تلى رتبة الإمام فى حدود الدعوة ، ولأن الحجة والإمام كانا يتخذان معاً من دار هجرتهم فى خوزستان وبخاصة فى الأهواز مستقرا . ولذلك لم يصب من كان بالأهواز منهم بسوء ، أما إخوة الإمام عبد الله وأبناؤه الآخرون الذين كانوا موزعين بين نهاوند والرى ونيسابور وخوارزم فقد فتك بهم العباسيون ، إلا أنه لا يبعد أن يكون عبدالله القداح قد بقى فى الأهواز يقيم الدعوة لإمامة من هنالك ، ليحوطه بسياج من التخفى والاستتار . ومهما يكن من شىء فإن موت عبدالله الرضى قد حدث فى أواخر عهد المأمون أو فى أثناء حكمه ببغداد على الأقل .

(ى) إمامة أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل

تولى أحمد بن عبد الله إمامة الإسماعيلية بعد وفاة أبيه عبد الله ، وكان ذلك بسلمية ، واتخذ عبد الله بن ميمون حجة له ، كما اتخذه أبوه من قبل . وعاصر هذا الإمام الخليفة المأمون ، وساهم لحد كبير فى النشاط الثقافى وقتئذ ، فألف كتابه المعروف باسم رسائل إخوان الصفا رغبة منه فى المحافظة على الدين الصحيح ، على ما ذهب علماء الإسماعيلية ، وحتى لا تطغى الفلسفة اليونانية التى راجت فى عهد المأمون على التفكير الإسلامى . بل لقد رمى الإسماعيلية المأمون العباسى بالميل إلى

(١) Ivanow: The Rise of the Fatimids, p. 29.

(٢) ومن أشهر أبناء عبد الله ابنه أحمد ثم إبرهيم . أما أحمد فهو خليفته ، وأما إبرهيم فلم نعرف عنه شيئاً كثيراً اللهم إلا أن أبناءه كانوا بسلمية عند فرار المهدى وأنهم قتلوا على يد الحسين بن زكرويه .

الإلحاد ، وقالوا فى سبب تأليف الرسائل : إن المأمون ، أراد أن يظهر علم الهيئة ، ويجعل معرفتها الدين ، وأن للهيئة المبدأ والمعاد ، وعلى معرفتها الحساب والثواب والعقاب ، ليرى الخلق أن الذى جاء به محمد ﷺ لا أصل له ، وأن الصحابة لما لم يتيقنوا ذلك عملوا بعلى عليه السلام ما عملوا ، وأنهم فى ذلك مصيبون ، وأن لا ذنب عليهم ولا عيب ينسب إليهم فى قتل ذرية النبوة قضاء بما طُل من دماء قريش ، فلما علم ولى الحق ذلك صنف الرسائل (١) » .

كذلك ذهب الإسماعيلية إلى أن تقرب المأمون إلى العلويين لم يكن عن عقيدة خالصة ، بل كان وسيلة للايقاع بصاحب الزمان الإمام المستور أحمد بن عبد الله ، وأن كثيرين من كبار الدعاة العلماء ذهبوا ضحية هذه السياسة ، لاعتقاد المأمون أنهم من الأئمة (٢) . ولا يهمنا أن نبحث عن سبب إخلاص المأمون للعلويين أو نفاقه معهم ، إنما يهمنا أن نقول إن هناك دعوة إسماعيلية سرية منظمة ، انتشرت بصورة أثارت مخاوف المأمون ، فعمل على استئصالها ، وأن أكثرية القائمين بهذه الدعوة كانوا من العلماء ؛ فإمامهم عالم كبير ومؤلف ذائع الصيت ، وحجتهم عبد الله بن ميمون القداح من أبرز علماء عصره ، ودعاتهم ممن نبغوا فى فى العلم فى عصرهم . وهكذا ساهم الإسماعيلية فى النشاط العلمى فى عصر المأمون .

وليس من شك فى أن الإمام أحمد بن عبد الله شاهد الثورات التى قامت فى وجه المأمون ، واشترك حجته عبد الله فى إحدى هذه الثورات . وليس من شك أيضا فى أنه أدرك ثورة بابك الخرمى وأنصاره الخرمية على العباسيين فى أواخر عهد هذا الخليفة . ولا يبعد أن يكون زعماء الإسماعيلية قد انتهزوا تلك الفرصة وعملوا على جذب فلول هؤلاء الثوار إليهم ، حتى أطلق بعضهم على جماعة الإسماعيلية اسم الخرمية . وصفوة القول أن سلمية قد اتخذها الأئمة الاسماعيلية دار هجرة منذ عهد المأمون ، وأصبحت المركز الرئيس للدعوة ، فكان ينتشر منها الدعاة فى الأقاليم

---

(١) زهر المعانى ص ٦٠ — ٦١

(٢) Ivanow ; The Rise of the Fatimids, pp. 36-7

ويذهبون إلى أن المأمون قتل عليا الرضا لأنه لم يكن كعلماء الاسماعيلية ودعاتهم فى المعرفة .

المختلفة لبث الدعوة باسم الامام أحمد بن عبد الله ، إلا أنهم كانوا يخفون اسمه عن الناس .

ولم تذكر المراجـــع الاسماعيلية والسنية تاريخ وفاة أحمد بن عبد الله ، إلا أنها تذهب إلى القول بأنه تزوج وهو بسلمية ، وأنجب فيها ابنه وخليفته الامام الحسين[١]، فكان أحمد ثانى الخلفاء ، وابنه الحسين ثالثهم . ويرى البعض أنه أنجب ابنا ثانياً هو محمد الملقب سعيد الخير[٢] .

(هـ) إمامة الحسين بن أحمد

ويكنى الحسين المقتدى[٣] أحيانا والزكى[٤] أحيانا أخرى . وكان أبعد شهرة من أبيه : فمن الناحية العلمية عمل على تثقيف أشياعه «وبث العلوم الشيعية وأظهرها» ، وشرح الرسائل فى كتاب أسماه « الجامعة »[٥] .

وأما من ناحية رواج الدعوة فقد انتشرت فى كثير من بقاع العالم الإسلامى فى عهد الحسين . ويرجع هذا إلى أن أمور الدعوة كانت قد مهدت من قبل ، ووضعت رياستها فى يد حجته المسمى أحمد الحكيم ، وهو الذى ذهبنا إلى أنه أحمد أبا الشلعلع ابن عبد الله القداح . ويمتاز أحمد بالمقدرة الفائقة ، ولذلك انتشرت الدعوة فى عهده بشكل أثار مخاوف العباسيين وأنعش قلوب الاسماعيلية حتى اعتقـدوا قرب ظهور المهدى . ويمتاز عهد الإمام الحسين بانتشار الدعوة الاسماعيلية فى اليمن على يد تابعه ابن حوشب ، وفى بلاد المغرب على يد الداعيين الحـــلوانى وأبى سفيان ، وبين القرامطة على أيدى أبناء القداح ، وفى بلاد فارس وخراسان على أيدى أبناء القداح أيضا[٦] .

---

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 35-36.

(٢) Ibid., p. 40.

(٣) الداعى عماد الدين : زهر المعانى ص ٦٣

(٤) Ivanow : The Rise, p. 36.

(٥) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 30

(٦) الداعى إدريس : عيون الأخبار فى The Rise of the Fatimids, pp. 36-7.

وقد استطاع الإمام الحسين أن يبلغ ذلك النجاح ، لأن الدولة العباسية قد أخذ الضعف يدب فى جميع أجزائها ، ولأن الخلفاء لم يعد لهم ذلك النفوذ الذى كانوا يتمتعون به فى العصر العباسى الأول . ولذلك أحدقت بهم الثورات ، حتى إنهم لم يستطيعوا التفرغ للقضاء على الإمام الحسين وعلى دعوته .

وقد نتساءل كيف استطاع الإمام الحسين البقاء فى سلمية آمنا مطمئنا دون أن تنــــاله يد العباسيين والسنيين ؟ الواقع أن جود الحسين وكرمه وثروته الضخمة ، وبذله الأموال الطائلة ، كان لكل هذا أثر يذكر فى تهدئة أعدائه وكم أفواههم . هذا إلى ادعائه أنه هاشمى ، وتفانيه فى إظهار حبه للهاشميين بسلمية ، وإمعانه فى التخفى ، وتفانى أنصاره فى طاعته ـ كل ذلك قد ساعد على إقرار الدعوة فى سلمية خاصة وفى كافة أنحاء العالم الاسلامى عامة . واليك هذا الوصف الرائع الذى أمدنا به محمد اليمانى عن سلمية :

« وكان (الحسين) يعاشر قوما من أهل سلمية هاشميين من ولد عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . وكان يظهر لهم أنه عباسى . . . وكانت الأموال والذخائر تحمل من كل بلد من قبل الدعاة إليه إلى سلمية . وكان الامام قد حفر سردابا فى الأرض من الصحراء إلى جوف داره بسلمية طوله اثنا عشر ميلا . وكانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال ، فيفتح لها باب السرداب فى الليل ، وتنزل فيه بأحمالها عليها ، حتى تحط فى داخل الدار وتخرج فى الليل ، ويعمى على باب السرداب بالتراب فلا يدرى به أحد . وكانت الأموال عظيمة ، حتى يقال : إنه ما كسب المهدى ـ قدس الله روحه ـ بعد أن فتح الله له إلا نحوا مما خلف بسلمية » (١) . بهذه الوسائل استطاع الأئمة المستورون وحججهم أن يلقوا شيئا غير قليل من النجاح .

وكان أبو محمد عبيد الله المهدى حجة للإمام الحسين فى أخريات حياته ، لأنه من سلالة القداح ـ على ما سيأتى ـ ولأنه اتخذ مستودعا لنقل الإمامة من الحسين إلى ولده أبى القاسم الذى ولى الخلافة بعد عبيد الله المهدى وتلقب القائم . وصفوة القول أن

---

(١) محمد بن محمد اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٨

الأئمة المستورين اتخذوا سلمية منذ أوائل القرن الثالث مركزا رئيسا لدعوتهم. واتخذوا من ضعف الدولة العباسية، واضطراب بلاد الشام خاصة فرصة سانحة لتحقيق أغراضهم. وعلى الرغم من تولية ابن طولون مصر، وعمله على تنظيم شئون بلاد الشام، فقد عرف عنه أنه كان يعطف على الشيعيين، حتى لقد نسب البلوى — مؤرخ سيرة ابن طولون — إلى الإسماعيلية. ونستطيع أن نقول إن اتخاذ سلمية مركزا للأئمة الاسماعيلية وحججهم قد حول الشرق الأدنى وبلاد المغرب إلى معسكرات إسماعيلية. ولا غرو فإن قرب سلمية من العراق وبلاد العرب، وخاصة بلاد البحرين واليمن، قد ساعد الاسماعيلية على المناداة بقرب ظهور المهدى؛ وتسابق القرامطة وابن حوشب — داعى اليمن — وأبو عبد الله الشيعى، داعى بلاد المغرب فى سبيل تكوين دولة إسماعيلية؛ وتم لهم ذلك فى بلاد المغرب على ما سنرى. وهكذا استطاع هؤلاء الأئمة وحججهم أن يديروا دفة الدعوة إدارة محكمة دون أن ينالهم أذى أو تلحق بهم سيوف العباسيين. ولما تولى عبيد الله المهدى أمر الدعوة، كان هؤلاء الأئمة قد مهدوا له السبيل، وأزالوا ما اعترضه من العقبات؛ وقد تم نجاحه المنقطع النظير على أيدى الأئمة الذين سبقوه.

٣ — نواب الأئمة الاسماعيلية من بيت القداح(١)

(ا) ميمون القداح:

كان ميمون القداح أول من اتخذه الأئمة المستورون حجة ونائبا لهم. وقد رأينا أن جعفرا الصادق جعله حجابا وسترا على حفيده محمد بن إسماعيل(٢) أول الأئمة المستورين. وتذكر المراجع السنية المعتدلة، والمصادر الاثنا عشرية أنه كان راوية للإمام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق، وأنه كان مولى لهما(٣)، كما ينسب أحيانا إلى عقيل بن أبى طالب.

---

(١) القداحة تطبيب العين من الماء النازل بها، وقد برع ميمون وابنه عبد الله فى هذه المهنة. ويبدو أنه اتخذ القداحة وسيلة لجذب الأتباع.

(٢) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٦٦

(٣) De Goeje: Mémoires sur les Carmathes du Bahrain, vol. ii. p. 10.

ويذكر الكاشى فى كتابه « معرفة الرجال » أن ميمونا يسمى ميمونا القداح المكى مولى محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وتغلو المراجع السنية ، فتذهب إلى القول بأن ميمونا كان ثنويا ديصانى المذهب ، شعوبيا خطرا يعمل على هدم الإسلام ويؤلف الكتب فى ذلك ، حتى إن كتابه « الميزان » إنما وضعه فى نصرة الزندقة[1] ، وأنه كان خُرميا يدين بعقائد مزدك ، وتقرن هذه المراجع اسمه باسم أبى الخطاب المتشيع الغالى .

أما المراجع الاسماعيلية ، وخصوصاً الظاهرية منها ، فلم تكن تذكر عنه شيئاً كما هو الحال مع القرامطة مع أنهم من أهم فروع الاسماعيلية . غير أن كتب الحقائق الاسماعيلية تناولت ميموناً وابنه فى شىء من الإيضاح . فأكدت ارتباطه بجعفر الصادق وإخلاصه له حتى جعله حجاباً على حفيده وحجة له ، وأرجعت نسبه إلى سلمان الفارسى ، مخالفة فى ذلك المراجع السنية التى تنسبه إلى ديصان . وتكاد تجمع مراجعهم على أن ميمونا كان من أشياع جعفر الصادق ، كما كان حجة حفيده محمد ابن اسماعيل ، وأنه لاقى كثيرا من المحن فى سبيل مولاه ونجاح مذهبه الجديد[2] .

وعلى الرغم من الاختلاف الذى قام بين السنيين والاثنا عشرية والإسماعيلية ، فإننا نلاحظ أمورا أهمها :

أولا : أن ميمونا القداح كان معاصرا لجعفر الصادق ، وكان مخلصا لأبناء إسماعيل .

ثانياً : أن بعضا يجعله مكيا . وبعضا آخر يجعله أهوازيا . وهذا صحيح إلى حد ما . فإن ميموناً كان يقيم فى بادىء أمره بمكة ؛ فلما فر إمامه وسيده محمد بن إسماعيل من الحجاز إلى الأهواز فر معه ، فسمى مكيا لبقائه بمكة حينا ، وأهوازيا لبقائه بالأهواز حينا آخر .

ثالثاً : ولا يبعد أن يكون ميمون محدثا وراوية . غير أننا نستبعد أن يؤلف كتابه « الميزان » فى نصرة الزندقة ؛ ونستطيع أن نقول إنه من الممكن أن يكون

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ الورقة ٢٥ .

(٢) أنظر ما ذكرناه عن إمامة محمد بن إسماعيل ص ٣٦ — ٤٠

قد ألف هذا الكتاب فى نصرة المذهب الإسماعيلى ، الذى يعتقد كثير من السنيين أن مبادئه إلحادية محضة .

رابعا : لا نستطيع أن نتفق مع الذين ذهبوا إلى أن ميمونا كان أول من أسس المذهب الباطنى فى الإسلام ؛ ومع ذلك فليس من شك فى أنه أول من ساهم فى إقامة صرح المذهب الإسماعيلى ، وهو مذهب باطنى كما نعلم .

خامسا : على أننا لا نتفق مع من ذهبوا إلى القول بأن ميمونا كان ديصانيا ثنويا ، ونعتقد أن هذه رواية رماه بها أعداء المذهب الإسماعيلى[1] .

ولذلك نرى ميمونا يذهب إلى فلسطين ، وينصرف إلى النسك ابتغاء جذب الأشياع إلى مذهبه ؛ ولا بد أن يكون قد رحل إلى تلك البلاد مع إمامه المستقر محمد بن إسماعيل ، الذى تذهب المراجع إلى القول بأنه قصد سورية فى أخريات حياته ، ثم قصد ميمون بعد ذلك طبرستان مع محمد بن إسماعيل أيضا ، واستطاع أن يضم إلى صفوفه جماعة من المخلصين لإسماعيل بن جعفر وابنه محمد . ويصح أن نسمى تلك الجماعة التى كونها ميمون « الميمونية » نسبة إليه ، أو الإسماعيلية الأوائل

---

(١) إن تحديد مولد ميمون ووفاته من المسائل التى يكتنفها الغموض والابهام ، إذ أنه على الرغم من أنه عاصر جعفرا الصادق المتوفى سنة ١٤٨ هـ كما عاصر حفيده محمد بن إسماعيل ، لا نستطيع تحديد الزمن الذى توفى فيه ، على أن النصوص التى بين أيدينا توضح فى جلاء أنه عاش فى عهد الرشيد ، ومات بعد وفاة موسى الكاظم سنة ١٨٣ هـ . يتضح ذلك من فرار ميمون من مكة إلى الأهواز التى اتخذها وطنا ثانيا له . وقد رأينا أن ذلك قد حدث فى عهد الرشيد . هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذهب رشيد الدين Blochet : Le Missianisme, pp. 89-90 إلى أن جعفرا الصادق ألحق ميمونا القداح بحفيده محمد بن إسماعيل ، وأنه ذهب معه إلى طبرستان ، مدعيا أن محمدا هذا هو الأب الحقيقى لولده عبد الله . ونعتقد أن هذه الرواية إن صحت فانها تنهض دليلا على أن وفاة ميمون القداح كانت بعد وفاة محمد بن إسماعيل ، لأنه لا يستطيع أن ينسب ابنه عبد الله إلى الامام محمد بن إسماعيل فى حياته ، أى أن هذا الانتساب لا يصح أن يوجد فى حياة المنتسب إليه ، وهو محمد بن إسماعيل ، لأن ميمونا غير محمد بن إسماعيل ، وعبد الله القداح غير عبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل . هـذا إلى أن بعض المصادر الاثنا عشرية تذكر أن محمد بن إسماعيل قد حظى عند الرشيد بعد موت عمه موسى الكاظم ، أى بعد سنة ١٨٣ هـ ، فاننا نستطيع أن نقول إن ميمونا القداح مات فى أواخر القرن الثانى الهجرى لا فى أوائله كما ذهب إليه إيفانو Ivanow وبرنارد لويس Bernard Lewis

وهؤلاء كانوا يتكونون — على ما يبدو — من فلول الخطابية ، والمباركية[١] وغيرهم من الجعفرية والمخلصين للمذهب الإسماعيلي الجديد [٢]. ويقول ابن الأثير[٣] في هذه الجماعة التي كونها ميمون حوله : « وتفرقت هذه الطائفة في البلاد وتعلموا الشعبذة ... والنجوم والكيمياء . فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق [٤] عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد » . وإذن كوّن ميمون جماعة دأبها التقية والتأثير في قلوب الناس ، وهما أهم مميزات المذهب الإسماعيلي .

وفي سبيل تكوين مذهب جديد عمل ميمون على الاتصال بالشخصيات البارزة في ذلك الحين . وينسبون إليه أنه لما قبض العباسيون عليه أخريات عهد أبي جعفر المنصور ، كوّن — وهو في السجن بالكوفة — مبادىء المذهب الإسماعيلي الجديد ، بالاتفاق مع أحد كبار عصره ، وأنه كان في الوقت نفسه من كبار أحرار الرأي ومن تلامذة الفلسفة اليونانية ، شأنه في ذلك شأن كثير من المتشيعين ، واستغل على ما ذكره أوليري « التعاليم الأرسططاليسية ، وتعاليم الأفلاطونية الحديثة ، ووضعها في قالب إسلامي جديد ، ووضع ذلك كله فيما أسماه المعنى الباطن للقرآن (التأويل) [٥] ، ولم يكن كتابه الميزان في نصرة الزندقة إلا وسيلة لتحقيق هذه السياسة الجديدة .

وأما ماذهب إليه مامور[٦] من أن ميمونا القداح هو محمد بن إسماعيل نفسه فقول مردود ، لاعتراف الإسماعيلية أنفسهم في كتبهم السرية خاصة أن محمد بن اسماعيل غير ميمون ، وأن هـــذا حجة وذاك إمام ، وأن ميمونا من نسل سلمان الفارسي ومحمد بن إسماعيل من نسل علي وفاطمة إلى غير ذلك .

---

(١) المباركية أتباع المبارك مولى إسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل . ويقال إنه اتصل بعبد الله القداح أيضا .

(٢) Ivanow : The Alleged Founder of Ismailism, p. 105.

(٣) جـ ٨ ص .

(٤) أي بما يروج عندهم ويتفق مع ميولهم .

(٥) ولا غرو فان محمد بن إسماعيل ، إمام ميمون ، ويعد من أعظم أساتذة التأويل بين الاسماعيلية خاصة .

(٦) Polemics, pp. 70—1

وهكذا أوجد ميمون القداح حركة سرية عملية منظمة ، ترمى إلى إحاطة الأئمة من أبناء إسماعيل بستار كثيف من التخفى والتستر ، والمناداة بأحقيتهم بالإمامة ، فلم تعجب هذه المبادىء الكثير من السنيين . حقا يعتبر عبد الله بن ميمون القداح المؤسس الحقيقى لهذه الحركة الاندفاعية النفعية ، ولكن ميمون هو الذى ألقى بذورها . وقد تعهد أبناء ميمون هذه الحركة وساهموا الى حد كبير فى رفع منارها ، واستطاعوا على مر الزمن أن يحولوها من المبادىء النظرية إلى أشياء عملية . وبفضل هذه الأسرة وتعاون أفرادها مع أئمتهم ، تكونت الدولة الفاطمية ، حتى إننا نستطيع أن نسمى — فى غير غلو أو إسراف — تلك الفترة المعروفة بدور الستر الأول[١]، الدور القداحى .

(ب) عبد الله بن ميمون

يعتبر عبد الله بن ميمون من أعظم حجج الأئمة الإسماعيلية فى دورهم الأول ؛ ويلقب بالقداح ، لأنه كان — كأبيه — يشتغل بالقداحة . وقد أحاط بتاريخه كثير من الغموض والمبالغات ، حتى لقد اعتقد بعض أنه لاوجود له إلا فى خيال بعض المؤرخين ، ولكننا سنرى أنه شخص تاريخى له مكانته عند الإسماعيلية .

يذكر معظم المراجع السنية أن عبد الله ديصانى المذهب كأبيه ، وأنه شعوبى[٢] من غلاة الشيعة ، وأنه لما مات أبوه ميمون ادعى الانتساب[٣] إلى على من طريق إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأنه لم يشتغل بالقداحة إلا لجذب الأشياع[٤]، وتحقيقا لسياسة المجوس فى هدم الإسلام ، وأنه اتخذ علم الفلك (النجامة) وسيلة للتغرير بالمسيحيين[٥] . وكان مغرضا فى تشيعه[٦] لارتداده عن العلويين وعن الإسلام

---

(١) وتبدأ باستتار محمد بن إسماعيل بعد سنة ١٤٨ وتنتهى بقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ، المنشور فى
Revista degli Studi Orientali (1930.) p. 264.

(٣) الجوينى : جهان كوشا ، ورشيد الدين : تاريخ المغول فى كتاب
Lewis : The Origins of Ismailism, p. 60.

(٤) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ، ورقة ٢٢ ، ٢٣

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧

(٦) Sayyed Ameer Ali : The Spirit of Islam, p. 326.

بعد ذلك [١] ، ولاغتصابه الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل وادعائه الإمامة لنفسه [٢]. ويعتبره الذهبي محدثا ومولى لجعفر الصادق . ويعتقد الكثير من السنيين أنه قام بدور هام فى تاريخ الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثالث ؛ فيرى ابن النديم [٣] والنويرى [٤] وغيرهما أنه اتصل بأحد الشعو بيين بعد منتصف القرن الثالث الهجرى ، ويقول بعض إنه كان معاصرا لجعفر الصادق [٥] .

أما مراجع الاثنا عشرية فتجعل من عبد الله راوية لجعفر الصادق ، كما كان أبوه من قبل . فيقول الطوسى[٦] : إنه كان محدثا . ويذكر لنا الأشخاص الذين رووا عنه ، كذلك ذكر الكاشى فى كتابه « معرفة الرجال » أن عبد الله كان راوية لمحمد الباقر وجعفر الصادق ، ويسميه « ابن ميمون القداح المكى » . وكذلك يجعلون منه مؤلفا ، ويذكرون له من الكتب كتاب « مبعث النبوة » وكتاب « صفات الجنة والنار »[٧]. ويكاد يجمع هؤلاء على أن عبد الله كان معاصرا لمحمد الباقر وابنه جعفر الصادق فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وأنه كان محدثا ، حتى لقد ذكر بعض أنه كان محدثا اثنا عشريا ، وأنه ظل على وفائه للامام موسى الكاظم . على أن هناك مرجعا اثنا عشريا آخر يتفق مع ماأورده السنيون فيقول : إن عبد الله اغتصب الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل . ثم دعا لابنه لا لنفسه[٨] . ولكنه مع ذلك لم يرمه بالإلحاد أو الزندقة أو الشعوبية أو غير ذلك مما رماه به السنيون .

على أن المراجع الإسماعيلية وخاصة الباطنية منها ، تحوط عبد الله بكثير من

---

(١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٦٨

(٣) الفهرست ص ٢٦٧

(٤) نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٢ ، ٢٣

(٥) أبو العلاء : رسالة الغفران ص ١٣

(٦) فهرست كتب الشيعة ص ٩٧

(٧) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 22-23

(٨) تبصرة العوام ص ١٨٦

مظاهر الإجلال . فقد رأينا الداعي إدريس في كتابه زهر المعاني يذكر أن عبد الله كان حجة للامامين عبد الله بن محمد بن إسماعيل وأحمد بن عبد الله . بل يعتقد بعض الدعاة أن عبد الله كان حجة محمد بن إسماعيل — وهو غير معقول بالطبع — ويرى الاسماعيلية فوق ذلك أن عبد الله من سلالة سلمان الفارسي [١] ، وكذلك نرى في دستور المنجمين [٢] أن عبد الله كان حجة الإمام محمد بن إسماعيل : ويتفق بعض المراجع الاسماعيلية مع مراجع الاثنا عشرية في أن عبد الله من أصحاب محمد الباقر وجعفر الصادق . ويتفق مؤلف كلامى پير [٣] الإسماعيلي مع مراجع الإسماعيلية القديمة في أن عبد الله كان حجة الأئمة في دور الستر . ويعتبره دعاة الدّرزية « أساس » الأئمة الإسماعيلية ، أي كالإمام المساعد في حياة كل نبي ناطق .

مما ذكره الإسماعيلية نرى أن عبد الله كان كأبيه شخصاً محترماً في نظرهم ، وأنه خلف أباه ميموناً في رياسة الدعوة . وليس معنى ذلك أن الأئمة لم يكن لهم معه وجود أو عمل ؛ وإنما نعني بذلك أن رياسة الدعوة العملية كانت في يد عبد الله بن ميمون القداح ، الذي كان الساعد الأيمن للامام المستور ، والعنصر المحرك للدعوة . ومما ساعده على الظهور ما كان يحوط الامام المستور من مظاهر الإمعان في التخفي . ومما ورد في هذه المراجع جميعها نستطيع أن نقف على أمور كثيرة أهمها :

أولا : إن عبد الله بن ميمون القداح كان شخصية ممتازة لها مكانتها في نفوس العلويين حتى أسلموا إليه قيادهم . وأما ماذهب إليه السنيون من أنه كان يحرض دعاته على العلويين فيقول لأحدهم : « ولا ترحم علويا ، فلو تمكن علوى كتمكن غيره من الأنبياء للقينا منه جهدا ، وغيّر بما يدعيه من حقوق جده على هؤلاء الحمير بما هو أكثر مما غيره جده . وإياك والإغضاء عمن تجده من ولد على : يعني اقتله إذا تمكنت من قتله [٤] — فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على إمعان عبد الله وإمعان دعاته في التقية التي أتقنها الشيعة عامة والاسماعيلية منهم خاصة . هذا إلى أن مارماه به السنيون من تحريضه الدعاة على العلويين قد يحدث في مراتب الدعوة العليا ، حيث

---

(١) أنظر ما كتبناه عن الامام عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(٢) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. ii. p. 202

(٣) نشره إيفانو ص ٦٨ .

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٣ ورقة ٨

يعطلون فيها الأئمة عن العمل ، ويخرج فيها المستجيب عن حظيرة الإسلام ، بل عن مذاهب الشيعة ذاتها ؛ كما أننا لا نستطيع أن نصدق ما ذهب إليه أبو العلاء المعرى من أن عبد الله ارتد عن المذهب الإسماعيلى ، وأنه كان يقول [١] :

هات اسقنى الخمر يا قنبر ... فليس عندى أننى أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنة ... يغرها من دينها جعفر
قد كنت مغرورا به برهة ... ثم بدا لى خبر يستر

ومما ينسب إليه قوله :

مشيت إلى جعفر حقبة ... فألفيته خادعا يخلب
يجر العلاء إلى نفسه ... وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقا ... لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا ... سما عمر فوقكم يخطب

لأن ذلك لو صح لما تخلف الإسماعيلية عن التصدى له وإثباته فى كتبهم .

ثانيا : لم تذكر المراجع الإسماعيلية أن عبدالله انتمى إلى بنى عقيل بن أبى طالب . وهذا يثير الشك فيما ذكره أخو محسن حين يقول : إن عبد الله القداح كان يقول لبنى عقيل « أنا من ولد عقيل بن أبى طالب ، داع إلى محمد بن إسماعيل [٢] . » لأن ذلك القول لم تؤيده المصادر الأصلية . ويبدو لنا أن عبد الله لجأ إلى بنى عقيل لحموه من العباسيين ، لأنه كان يدعو إلى بنى عمهم ، فاعتقد بعض أنه انتمى إليهم . ولو فرضنا صحة هذا الزعم فإن ذلك لا يعدو أن يكون لوناً من ألوان التمويه الذى برع فيه عامة دعاة الإسماعيلية .

ثالثا : وكذلك لا نستطيع أن نتفق مع القائلين بأن عبد الله كان ثنويا أو خرميا ، لأن شهرته كمحدث ، وتعشق الأئمة الإسماعيلية له وتعلقهم به ، وامتداح مؤلفى الإسماعيلية أخلاقه ، كل هذا يمنعنا من أن نجارى القائلين بثنويته . أما إذا كان القائلون بذلك قد قصدوا أنه كان ينادى بمبادىء قريبة الشبه من مبادىء المجوس

---

(١) أبو العلاء : رسالة الغفران ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ الورقة ٢٣

والثنوية فان هذا لا يبـــدو بعيد التصديق ، لأن نظريتى العقل الكلى Raison Universelle والنفس الكلية Ame Universelle وحلول النفس الكلية فى الإمام والعقل الكلى فى النبى ، تشبهان فى كثير من النواحى نظريتى إله الخير وإله الشر عند الثنويه .

رابعا : وهنا نسأل : هل كان عبد الله بن ميمون يعاصر محمدا الباقر وجعفرا الصادق فى أوائل القرن الثانى الهجرى ؟ أو أنه عاش فى القرن الثالث حتى قابل دندان الشعوبى بعد سنة ٢٦٥ ﻫ ثم انتقل بعد ذلك إلى سلمية ؟ . واذن كيف يمكن التوفيق بين القول بأن عبد الله توفى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وبين القول بأنه توفى فى سنة ٢٧٠ ﻫ ؟

على الرغم من قلة الوثائق التى تحت أيدينا نستطيع أن نقول : إن عبد الله مات فى النصف الثانى من القرن الثالث او حول منتصفه على الأقل . يدلنا على ذلك أمور منها :

أولا : أن عبد الله القداح ، على ما ذكرته المراجع الإسماعيلية ، كان حجة أو حجابا لعبد الله بن محمد بن إسماعيل ، الذى عاصر الرشيد وخلفاءه ، كما كان حجة وحجابا لأحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الذى عاصر المأمون وخلفاءه كذلك . واذن فقول ايفانو وبرنارد لويس ومن لف لفهما إن عبد الله كان يعيش فى القرن الثانى فقط لا يتفق وما ذهب إليه كثير من الإسماعيلية .

ثانياً : مما ذكره أبو المعالى فى كتابه بيان الأديان ، نستطيع أن نقول إن ميمونا القداح وزميليه ألحقوا عبد الله بمحمد بن اسماعيل بعد وفاته فى الوقت الذى كان فيه عبد الله حدثا [1] ، وأن ذلك الإلحاق كان فى أواخر القرن الثانى بالطبع ، لأن محمد ابن اسماعيل مات بعد وفاة عمه موسى سنة ١٨٣ ﻫ — على ما رأينا . ومعنى هذا أن عبد الله كان فى أوائل القرن الثالث فى دور الشباب ، وبهذا لا نستبعد عليه أن يشترك فى الثورات التى قامت فى وجه المأمون ، كما لا نستبعد عليه أن يتصل وقد بلغ الشيخوخة بمحمد بن الحسين (دندان) فى سنه ٢٦٥ أو بعدها .

ثالثا : يذكر النيسابورى أن الامام عبد الله الأكبر فر إلى سلمية ، وأن

---

(١) Mamour : Polemics, p. 52.

من دعاته أبا محمد زكرويه بن مهرويه صاحب قرامطة الشمال[١]، الذين ثاروا على العباسيين فى الشام فى أواخر حكم الطولونيين، وأن زكرويه نفسه قتل فى سنة ٢٩٤ هـ على ما تذكره المراجع السنية. وإذا كنا قد سلمنا، أن عبد الله القداح كان حجة عبدالله الأكبر ابن محمد بن اسماعيل، بل وحجة ابنه كذلك، أفليس من المعقول أن يعاصر عبد الله القداح الحجة زكرويه داعى الامام عبد الله الأكبر؟ ثم كيف نوافق بعد هذا برنارد لويس على أن زكرويه بن مهرويه - أبا محمد الكوفى - يعاصر من عاصر عبد الله القداح فى القرن الثانى، على حين أن أبناءه قد ثاروا على العباسيين بعد ذلك بقرن أو يزيد[٢]، وعلى حين أنه هو نفسه لم يمت إلا فى سنة ٢٩٤؟

وبهذا نرى أن عبد الله القداح لا بد أن يكون مولده فى أخريات حياة أبيه ميمون، أى فى أواخر القرن الثانى لا فى أوائله[٣]، وأن الحياة قد امتدت به وأصبح من المعمرين حيث مات فى سنة ٢٧٠ هـ، وقد طوى فى حياته نحو قرن من الزمان، وعاصر الثورات الكثيرة فى عهد المأمون والمعتصم، ورأى بعينيه ضعف هيبة الخلافة العباسية على يد الأتراك. فأحكم أمور الدعوة، ووضع لها أسسا متينة كانت سبب نجاح الإسماعيلية وبقاء دعوتهم إلى اليوم.

(ح) أثر عبد الله بن ميمون فى نهضة المذهب الاسماعيلى

استغل عبد الله بن ميمون القداح حالة التفكك الذى اعترى الشيعيين بانقسامهم على أنفسهم إلى حنفية وكيسانية وحسنية وحسينية، وتنكل العباسيين بهم، وتمزيقهم إياهم أيدى سبا، فعمل مع أئمته الإسماعيليين، على جمع شمل فلول الشيعيين فى جماعة ثورية جريئة. كما انتهز فرصة وجود مؤلهى جعفر الصادق وانقسامهم على أنفسهم، إلى جماعات كثيرة، وحاول أن يجمع هؤلاء كلهم تحت رايته؛ فضم جميع فرق الجعفرية، وأهمها الخطابية، إلى جماعته واستطاع أن يكون من هذه الفرق المبعثرة والمزيج المضطرب جماعة تخلص لإسماعيل بن جعفر.

---

(١) ويقصد بهم أتباع زكرويه الذين حاربوا فى العراق الغربى وبادية السماوة ثم فى بعض مدن الشام.

(٢) النيسابورى: استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ م) ص ٩٣

(٣) أما ذكر اسمه مقرونا باسم أبيه فى عهد الصادق فقد يكون المقصود به أخا ثانيا له.

كما عمل عبد الله على أن يضم العناصر الثورية إلى جماعته ، وكان يتوصل إليها بشتى الطرق . ومن هؤلاء ذلك الشعوبي محمد بن الحسين ويكنى دندان . فقد استطاع عبد الله أن يصل إلى قلبه عن طريق الشعوبية وتأثير النجوم والسحر والطب في نفسه . ومن الوثيقة التي أوردها النويري عن مقابلة دندان هذا لعبد الله بن ميمون القداح . نرى أن عبد الله كان يروج الدعوة قبل ذلك الوقت ، بدليل قوله لدندان في نحو سنة ٢٦٥ه : « إن لي أصحابا وأتباعا أبثهم في البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع ، ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر[١] » . كما أنه حين قبل منه هبته المالية الضخمة التي لم تقل عن مليوني دينار ، فرق المال ، في كور الأهواز وسواد الكوفة ، وبطالقان خراسان وسلمية من أرض حمص[٢] » . ألسنا نفهم من ذلك كله أن الدعوة في سنة ٢٦٥ه كانت منتشرة في سلمية وحمص وطالقان فارس ، وما إليها ؟ وهذا يتفق تماما مع ما ذكرته المراجع الإسماعيلية من أن الدعوة كانت رائجة في تلك البلاد منذ عهد محمد بن اسماعيل . وأهم من هذا كله ما يذكره النيسابوري من أن الذي ذهب إلى سلمية أولا هو عبد الله الأكبر وذلك قبل سنة ٢٦٥ ه ؛ أي أنه في الوقت الذي تقابل فيه عبد الله القداح مع دندان كانت الدعوة رائجة في سلمية على يد الأئمة وحججهم ودعاتهم . وإذا ليس عبد الله القداح هو أول من حط رحاله من الإسماعيلية في تلك البلدة الشآمية .

وقد شمر عبد الله عن ساعد الجد في نشر هذا المذهب وهو بالأهواز حتى سنة ٢٦٥ه حتى اشتهر أمره ، ففر إلى عسكر مُكرم ــ إحدى ضواحي مدينة الأهواز ــ فهاجمه المعتزلة ومعتدلو الشيعة وجنود الخلافة العباسية[٣] . ومن ثم لجأ إلى بني عقيل ابن أبي طالب بالبصرة فأكرموا وفادته . إلا أن العباسيين لم يتركوه آمنا هنالك ؛ فلم ير بدا من الفرار إلى سلمية حيث استقر بها مع إمامه المستور حتى مات . ولا بد أن يكون فراره من الأهواز ثم وصوله إلى سلمية بعد سنة ٢٦٥ه ، كما أن فراره إلى سلمية دون سواها دليل آخر على رواج الدعوة بها قبل ذلك .

---

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٢٣

(٢) النويري : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢١ ص ٢٣

(٣) لكن لماذا هاجمته الفرق الاسلامية كالمعتزلة ... الخ ؟ ألا يدل ذلك على تسرب بعض المبادئ التي كان عبد الله يقوم بنشرها ، فعدتها هذه الفرق كفرا وزندقة ؟ .

(ى) أثر عبد الله بن ميمون فى نشر الدعوة

ويذهب بعض المؤرخين السنيين إلى القول بأن عبد الله بن ميمون بذل جهوده فى وضع مشروع دينى سياسى خطير ، وكان غرضه الأول هدم الإسلام وإقامه دولة إسماعيلية ؛ « فعمل أبوابا عظيمة من المكر والحيلة والخديعة على بطلان الإسلام . وكان عارفا عالما بجميع الشرائع والسنن وجميع المذاهب كلها . . . ويدعى أنه على صدق هو وأهل مذهبه ، وغيرهم ضال مغفل . وكان عبد الله يريد بهذا أن يجعل المخدوعين آلة يستمد من أموالهم بالمكر والخديعة ؛ وأما فى الظاهر فإنه يدعو إلى الإمام من آل البيت ، محمد بن جعفر ليجمع الناس بهذه الحيلة » (١) . وعلى الرغم من غلو أخى محسن فى اتهام عبد الله القداح بشتى التهم ، يؤكد لنا أنه لم يخرج على سادته الأئمة الإسماعيليين ، وأن مشروعه كان قائما على الخداع . ولكى يصل إلى تحقيق أغراض المذهب الإسماعيلى سلك طرائق لم تعجب السنيين الذين اعتبروها إلحادا وكفرا ، وخاصة حين قال بنبوة محمد بن إسماعيل سابع النطقاء ، ونادى بالتأويل ، وقال كعامة الإسماعيلية : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ، صاحب التنزيل وعلى بن أبى طالب صاحب التأويل ، والتأويل لباب التنزيل . وعلى الرغم من دفاع الإسماعيلية بأن التأويل لم يعطل شريعة محمد ، بل إنه نوع من الشروح ومعرفة الباطن ، فان السنيين يعتبرون هذا خروجا عن الإسلام . يقول ميور (٢) :
« كان عبد الله يدعو إلى نظام يقصد من ورائه أن يجمع جميع الأديان فى دين عام ، ويسميه الدين السابع ، أو دين محمد بن اسماعيل » .

والواقع أن مشروع عبد الله القداح كان فذا فى نوعه ؛ فقد استغل فيه العناصر المختلفة ، واعتمد على عنصرى الشعوبية والتشيع ، وعلى التأويل وفكرة الجماعة السرية ، « تلك التى تستطيع أن تلعب بأقوى العواطف الإنسانية ، وتؤثر فى الضعف البشرى ، وتضم بين صفوفها جميع المتذمرين من كل نوع ، فى صورة مؤامرة ترمى إلى

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٢

(٢) The Caliphate, p. 558.

هدم النظام القائم[١]. والذى لاشك فيه أن عبدالله عمل على الاستفادة من التجارب الماضية، فلم يهتم بتكوين جماعة من صنف واحد، بل رأى أن يكون مذهبه موافقا لجميع الناس، فيتعشقه الشيعي والمجوسي والسنى والقبطى واليهودى. لأنه يعمل لإسعاد الجميع وتخليصهم مما يؤلمهم[٢]. وساعده على ذلك أن العصر العباسى الثانى كان مواتيا زاخرا بالفرص: فالدولة العباسية ضعيفة، والرعايا حانقون، والطوائف المختلفة ثائرة، والنهضة العلمية رائجة، فاستغل عبد الله ذلك كله، واستطاع أن ينال قسطا كبيرا من النجاح فى ناحيتى المذهب: النظرية والعملية.

ويمتاز مشروع عبد الله القداح بأمور كثيرة، أهمها:

التدرج: كانت الدعوة الإسماعيلية التى وضع أساسها عبد الله بن ميمون القداح، تعتمد على التدرج والسير فى خطوات متئدة تلائم عقول المدعوين. ولذلك ألف دعاته الكتب فى التدرج مثل كتاب «البلاغات السبعة» — الذى ألفه أحد دعاة عبد الله، وهى: كتاب البلاغ الأول للعامة، وكتاب البلاغ الثانى لمن يفوق هؤلاء قليلا، وكتاب البلاغ الثالث لمن دخل فى المذهب سنة، وكتاب البلاغ الرابع لمن دخل فى المذهب سنتين، وكتاب البلاغ الخامس لمن دخل فى المذهب ثلاث سنين، وكتاب البلاغ السادس لمن دخل فى المذهب أربع سنين، وكتاب البلاغ السابع، وفيه تتمة المذهب والكشف الأكبر[٣]. وهذا ما جعل المدعوين متعطشين دائماً إلى التطلع لما فوق الدرجة التى وصل إليها كل منهم، مما كان يبعث القوة والنشاط فى الدعوة نفسها. ولا غرو فقد كان عبد الله من كبار علماء النفس، فوجه غريزة حب الاستطلاع توجيهاً غريباً.

---

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 271.

(٢) وقد صدق دى بور فيما ذهب إليه من أن عبد الله «كان يحتال فى اجتذاب بعض بإظهار الشعبذة والمخرقة، وفى اجتذاب بعض بإظهار الزهد والعبادة والعلم. كان علمه أبيض اللون لأنه كان يزعم أن دينه دين النور الخالص الذى ستعرج النفوس إليه بعد مطافها على هذه الأرض. وكان يدعو إلى احتقار الجسد والاستهانة بالماديات، وإلى اشتراك جميع أعضاء الجمعية المتآخين فى الخيرات، وإلى تضحية النفس فى سبيل الجماعة، وإلى أن يكون الانسان مواليا لرئيسه مطيعا له حتى الموت، لأن تفاوت طبقات الجماعة يقضى بهذا». تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٩٧

(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٢٦٨

السرية : وكذلك لجأ عبد الله فى مشروعه إلى السرية ، كيلا يتعرض لخطر العباسيين والعلماء السنيين ، والشعب السنى كذلك . فكان العهد الذى يأخذه الدعاة على المستجيبين قائما على ألا يفشى أحد منهم سرا ، وإلا أصبح خارجا على الملة والجماعة ، واستبيحت أمواله ودماؤه . ولم نذهب بعيدا وقد استغل الإسماعيلية ، أئمتهم وحججهم ودعاتهم مبدأ السرية هذا ؟ فنادوا بالامام المستور للوصول إلى قلوب العامة يملئونها بالأمل فى الخلاص مما هم فيه بظهور المهدى أو الامام المستور حين تسنح له الفرصة . هذا بالاضافة إلى أن عبد الله قد أدرك ماسوف يحيط به من الأخطار إذا ما حاول تحقيق أغراضه السياسية والدينية ، فكان حتما عليه أن يلجأ إلى السرية يستمد منها العون ليصل إلى ما تصل إليه نفسه[1] .

وهكذا أدت تلك الوسائل إلى نتائج مدهشة تتلخص فى أن جمهورا عظيما من الناس كانوا يعتنقون مذاهب مختلفة ويعملون جميعا فى اتحاد وثيق لتحقيق غاية لا يدركها سوى عدد قليل منهم [2] .

الاعتماد على الفلسفة : ولانتشار فلسفة اليونان فى الشرق وقتئذ ، عمل عبد الله القداح على استغلال مبادىء الأفلاطونية الحديثة ، ليصل الى تعليم الأتباع كثيرا من المبادىء الإسماعيلية . فنظرية العقل الكلى والنفس الكلية ، وحلولها فى الناطق (النبى) والأساس (الإمام) مأخوذة كلها عن أصل يونانى . ونظرية خلق النفس الكلية من العقل الأول نظرية يونانية كذلك [3] . وكان لهذه التعاليم أثر بالغ فى نفوس السنيين الذين أمعنوا فى رمى عبدْ الله القـــداح بالإلحاد ، ورمى مشروعه بالزندقة . وهكذا كان المستجيبون مختلفين فى المذاهب والمشارب ، منهم الفيلسوف والداعى والجندى والتاجر وغير ذلك .

إعداد الدعاة : كما أدرك عبدالله القداح أهمية تنظيم الدعاية إلى مذهبه الجديد ، ولذلك كرس جهوده فى سبيل إعداد جماعة من الدعاة الذين مرنوا على فنون الإلقاء والتأثير فى النفوس ، وإجادة فنون التخفى . فنراهم تجارا ومتصوفين تارة ، ووزراءا

---

(١) Von Hammer: Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 3.

(٢) Dozy: Essai sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 262

(٣) O'Leary: A Short Hist. of the Fatimid Khalifate, p. 13.

وصناعا وعلماء تارة أخرى . واشترط في دعاته أن يكونوا على شيء كبير من الذكاء، ليسهل عليهم تفرس حال المدعوين . وكان يحتم عليهم التظاهر بالعلم والمعرفة كي يجذبوا القلوب إليهم ، ويحتم عليهم اللجوء إلى التأويل إذا ما أحرجوا ، كما كان يختارهم من ذوى الأصوات الحسنة لزيادة التأثير في تلاميذهم . وعلى الجملة كان هؤلاء الدعاة — كما يقول رشيد الدين[١] — « فصحاء ذوى جاذبية في الحديث ، يمتازون بالبلاغة والذكاء والتعقل » وقد عين عبد الله للدعاة مساعدين يعملون على زعزعة عقائد الناس . فإذا كان عمل الداعى أخذ العهد على المستجيبين ، ونشر الدعوة الإسماعيلية بينهم، فإن عبدالله أوجد بجانبه المأذون المكسر لمجادلة الأضداد وإظهار ما في عقائدهم من ضعف ، وترغيب المدعوين إلى الدخول في المذهب الإسماعيلي[٢]، مما يوحى إلينا بأن عبدالله أوجد هيئات علمية منظمة ، وخصص جماعة منهم لتدريب الدعاة ، وجماعة لتلقينهم فنون الجدل ، وآخرين لتدريبهم على فنون التخفى وغير ذلك.

وعلى الرغم من خلو مراجعنا الإسماعيلية من كل ما يتعلق بمشروع عبد الله ، فإن نتائج أعماله والطرق التي كان يسلكها الدعاة بين القرامطة وفي فارس واليمن وسواها ، تؤكد جميع ما ذكرناه . كما اتخذ عبد الله من الدعاة في الأقاليم المختلفة جواسيس ينبئونه بكل ما يحدث فيها ، مستعينين بحمام الزاجل . ولذلك خفى أمره وأمرهم على الحكومات القائمة . بل لقد كان لعبدالله ودعاته في بغداد نفسها أبراج لحمام الزاجل . فظهروا بسبب ذلك أمام العالم بالقدرة على الإتيان بالمعجزات ومعرفة الغيب وإجادة فنون الشعوذة[٣]

الاستعانة بالتأويل : وترجع محاولة عبد الله استخدام التأويل إلى رغبته في إحاطة جماعته وأئمته بهالة من التقديس والإجلال . وبعبارة أخرى ، رغب عبدالله في ربط جماعته بعضهم ببعض برباط لا ينفصم ، فجعل الأتباع يؤمنون بأن الأئمة وحججهم هم وحدهم الذين يستطيعون فهم حقائق الأشياء وبواطنها ، كما أنهم

---

(١) J. R. A. S. (1930), p. 518.

(٢) محمد بن نوح : الأزهار ج ٢ ص ١٢٥ (من رسالة الدكتور محمد كامل حسين)

(٣) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. II. p. 23.

يستطيعون بهذه الوسيلة تفسير القرآن حسبما يريدون ، مدعين أن ذلك من عمل الامام المستور ، وأنه لا يفهمه إلا طبقة الدعاة والحجج ، فيزداد التفاف الناس حولهم كما كان عبد الله يقول بأن فهم التأويل مقصور على عقول الخاصة ، وأن الشريعة الاسلامية وتكاليفها وقف على ضعاف العقول . ومن هذا نرى أن التأويل نوع من الفلسفة المذهبية ، أريد به بعث الأمل والحيوية فى نفوس طائفة الاسماعيلية . وهذا ما جعل دوزى يقول (١): « قرر عبد الله أن يكون حكام فرقته من خاصة المستجيبين ، كما قرر بقاء عامة الاسماعيلية على ولائهم لحكامهم ، وذلك بفضل دين قاس وواجبات شرعية قاسية كذلك» . ويعتقد بعض أن موجد التأويل بين الاسماعيلية هو محمد بن اسماعيل ، حتى سموه صاحب التأويل كعلى بن أبى طالب ؛ على أن ذلك لم يمنع عبدالله من أن يوجه التأويل الوجهة التى يريدها .

المناداة بنظرية الإمام المستور: كما نادى عبد الله القداح بنظرية الإمام المستور ، بدعوى أن هذا الإمام مصدر العلم والعرفان ، وأن الوصول إليه لا يكون إلا عن طريق حجته عبد الله القداح . وإنما قال عبد الله بذلك ليضع فى يديه وفى أيدى سلالته قوة لا تحد . كما أخذ يملأ قلوب أشياعه بالأمل بقرب ظهور الإمام المستور أو المنقذ من ولد على ، فعل كل هذا لإثارة الناس على حكوماتهم . وفى الحق أن عبد الله القداح أراد أن يتمتع بالتقديس الذى يتمتع به الأئمة ، وهذا هو السبب الذى جعله يقول : إنه بالنسبة لمحمد بن إسماعيل وابنه عبد الله ، كهرون بالنسبة لموسى عليهما السلام (٢) .

كما تمكن من قوله بنظرية الإمام المستور من أن يجذب هو وأبناؤه كثيرين من الشيعة الاثنا عشرية إلى المذهب الإسماعيلى ، لأن هؤلاء سيملون انتظار إمامهم الذى غاب ولم يعد ، ويرمون أنفسهم بين أحضان الإسماعيلية ، لأن إمام هؤلاء حى يترقب الفرصة للظهور ، وسيكون نجاح تلك الفكرة عظيم الأثر فى عهد أبنائه . على أن عبد الله أخذ ينادى بالمبدأ الإسماعيلى القائل : إن الإمام يدعو لنفسه إن كان

(١) Essai sur l'Hist. de L'Islamisme, p. 267.

(٢) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 273.

ظاهرا ، فإن اختفى ترك الأمر لنوابه ، وبذلك خلق عبد الله مبدأى الستر والظهور حبا فى الزعامة وتشييد المذهب الإسماعيلى[١] .

هكذا وضع عبد الله بن ميمون القداح مشروعه : ملأه بالعناصر المختلفة ، فظهر فى ثوب الملحد ، لأنه أراد أن يجعل من المذهب الإسماعيلى دينا سابعا بدل الاسلام ، الدين السادس عندهم ، وأن يجعل من إمامه محمد بن إسماعيل نبيا سابعا بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أتباعه طبقة ممتازة لا تعبأ بأوامر الشريعة . وظهر بثوب الشعوبى باستغلاله العناصر المناهضة للعباسيين ودينهم ، كما ظهر بثوب الفيلسوف العالم ، واستغل الفلسفة والتأويل لأغراضه السياسية ، كما ظهر بثوب المتشيع المخلص لاخلاصه لأئمته العلويين إخلاصا لا حد له ، وإشادته بمحمد بن اسماعيل ، وبمظهر المتشيع تشيعا قبيحا بمناداته ـ فى درجات الدعوة العليا ـ بالثورة حتى على الأئمة أنفسهم ، ومحاولته تركيز جميع أعمال الدعوة فى يديه وأيدى أبنائه ، مما جعله يبدو فى رأى بعض شخصا ماديا نفعيا . وهكذا نجح عبدالله ـ من الناحية النظرية ـ فى وضع أساس مذهبه ودعوته .

نجح عبد الله فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى كثير من البلاد الإسلامية ؛ إلا أنه وإن لم يجن كل ثمارها ، فقد رأى بعينيه ما بلغته من نجاح فى جهات كثيرة : فقد أرسل ، وهو بالأهواز (أى قبل سنة ٢٦٥ هـ) الحسين الأهوازى ، الذى يعتقد بعض أنه ابنه ، إلى سواد الكوفة ، حيث التقى بحمدان قرمط[٢] . ومعنى ذلك أن عبد الله القداح هو الذى وضع أساس الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة وهو فى الأهواز ، مما يبعث على الاعتقاد بأن شهرة عبد الله فى نشر الدعوة إنما وضحت للعباسيين فى ذلك الحين ، فطاردوه ، ولكنه استطاع أن يفر منهم ، ويتخذ طريقه إلى سلمية .

---

(١) الدكتور طه أحمد شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ص ٤١

(٢) وعلى الرغم مما يذكره بعض المراجع من أن الحسين الأهوازى صحب عبد الله فى هربه من الأهواز إلى البصرة فسلمية . لا يمنعنا هذا من القول بأن عبد الله فى أثناء إقامته بالأهواز قد أرسله إلى سواد الكوفة ، خصوصاً إذا علمنا أن الامام عبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل وابنه أحمد وحفيده الحسين ، كانوا قد اتخذوا من سلمية مركزا أساسيا قبل ذلك الوقت بكثير .

ويذهب نظام الملك (١) إلى القول بأن غلام جعفر الصادق الذى يدعى « المبارك » هو الملقب « قرمط » ، وأن عبد الله نجح فى التغرير به . ومن الواضح أن مباركا هذا غير حمدان قرمط مؤسس الدعوة الاسماعيلية بين القرامطة ؛ إلا أن عبدالله القداح استطاع أن يجذب المباركية ، أتباع المبارك(٢) إلى جماعته ؛ كما استطاع فى الوقت نفسه أن يمهد الدعوة فى فارس وخراسان ، بإرساله الداعى « خلف » إلى بلاد الرى وطبرستان ، وإرساله ابنه الثالث - على - إلى الطالقان . ومن هذا نرى أن تسمية أتباع عبد الله بالمباركية أو القرامطة أو الخطابية ، تسميه ناقصة ، وإنما التسمية الصحيحة هى « الإسماعيلية » ، لأن عبد الله استطاع أن يوحّد بين هؤلاء وأولئك .

والأمر الذى يلفت النظر حقا أن الكوفة وسوادها كانت فى عهد عبد الله القداح مركزا لنشاط الداعى المبارك وأتباعه ؛ فكأنه كان يمهد الطريق لحمدان قرمط ولقرامطةالسواد ؛ كما كانت الأهواز وقوهستان مركزا لنشاط عبداللهنفسه . ولم يكتفهذا بذلك ، بل أخذ يوفد دعاته إلىالبلاد النائية فى أنحاء فارسوخراسان . ونستطيع أن نقول إن عبد الله قسم العالم الإسلامى إلى مناطق رئيسة ، وجعل على كل منها واحدا من أبنائه أو أحد كبار دعاته المشهورين . وخلاصة القول أن الدولة الفاطمية قامت على يد أحد أحفاد عبد الله فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، كما قامت دولة القرامطة فى البحرين على أيدى دعاته ودعاة أبنائه ، كما لاقت الدعوة الاسماعيلية شيئا غير قليل من النجاح فى اليمن وغيرها . ومن ذلك نرى أن عبد الله القداح هو المؤسس الحقيقى للمذهب الإسماعيلى .

---

(١) Siasset Nameh, vol. II. p. 265.

(٢) يقول الأشعرى (جـ ١ ص ٢٦) إن المباركية يلقبون محمد بن إسماعيل الامام ، فهم إسماعيلية إذن ، غير أنهم يفترقون عن إمامية عصرهم فى اعتقادهم أنه ,, مات وأن الامامة فى ولده من بعده ، على حين يرى إسماعيلية عصرهم ,, أنه لم يمت ولا يموت حتى يملك ،، . والواقع أن الرأى الأول هو السائد بين الاسماعيلية .

(هـ) خلفاء عبد الله بن ميمون

١ — علاقتهم بالأئمة

اعتاد أئمة الإسماعيلية ، منذ أيام جعفر الصادق ، أن يعينوا نوابا عنهم ، أى حججا لهم ـ كما رأينا ـ واعتاد الأئمة أيضا أن يكون هؤلاء الحجج من سلالة ميمون القداح ، الذين يرجعون ـ كما يعتقد الإسماعيلية ـ إلى سلمان الفارسى فلوط عليه السلام ، وأن بيتهم فى الإسلام وقبله كان بيت الأئمة المستودعين . ومن ثم كان لزاما على الأئمة الإسماعيليين أن يتخذوا حججهم من بين هؤلاء النواب . يتضح ذلك من تنصيب ميمون القداح وابنه عبد الله حجتين لمحمد بن إسماعيل وأبنائه حتى الإمام أحمد بن عبد الله ـ على ما رأينا . وهذا يجعلنا نعتقد أن الإمام الحسين بن أحمد ، قد اتخذ حجته من بين أفراد ذلك البيت . وقد يوضح هذا ما ذكره الداعى الخطاب بن الحسين فى كلامه على الأئمة المستورين ، منذ أيام محمد ابن إسماعيل إلى قرب ظهور المهدى فيقول : فأودع إسماعيل « حجته المنصوبة بين يديه مقامه لولده ، وأقامه سترا عليه وقدمه بين يديه ، واستكفله إياه إلى بلوغه أشده ـ سلام الله عليه ! فلما بلغ أشده تسلم وديعته . ثم جرى الأمر فى عقبه خلفا عن سلف ، حتى انتهى الأمر به إلى على بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل » [١] . وقد رأينا قصر وظيفة « الحجة » على بيت القداح « خلفا عن سلف » فى عهد الأئمة المستورين الثلاثة الأوائل ، مما يوحى إلينا بأن الذى خلف عبد الله القداح فى رتبة « حجة » الإمام ، هو أحد أبنائه لا أحد العلويين .

ويذهب الداعى إدريس [٢] إلى أنه « كان حجة ثالث الخلفاء [٣] (أى الحسين بن عبد الله محمد بن إسماعيل) أحمد الملقب بالحكيم من ولد مولانا الحسين بن على بن أبى طالب صلعم ؛ تسلم مرتبته من عبد الله بن الميمون ـ قدس

---

(١) غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٦

(٢) زهر المعانى (من المنتخب) ص ٦٤

(٣) يقصد بالأئمة الخلفاء الذين ولوا محمد بن إسماعيل وهم : عبد الله الأكبر ، الخليفة الأول ، وأحمد بن عبد الله الخليفة الثانى ، والحسين بن أحمد الخليفة الثالث .

الله روحه ـ وهو أحمد الحكيم ، الحجة الجليل قدرها ، العظيم خطرها ، وأرفع الحجب وأسماها ، وألطفها وأعلاها » . ونرى أن عبارة « من ولد مولانا الحسين » يجب أن تكون وصفا لثالث الخلفاء ، لا لكلمة « الحكيم » التى تشير إلى أحمد . ونستطيع أن نقول ، إن المقصود بأحمد الحكيم ، أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . والدليل على ذلك سلسلة النسب التى يذكرها الدرزية فى رسائلهم حيث يعدون المهدى سعيد الخير بن أحمد بن عبد الله القداح . وسعيد الخير هذا هو حجة الإمام من نسل على بن أبى طالب ، مع أن الدرزية إسماعيلية ، مغرقون فى عقائد المذهب الإسماعيلى ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن سعيد الخير كان حجة للحسين بن أحمد أو لعلى بن الحسين الذى يسميه الدرزية « المعل » ، وأن عمه أحمد بن عبد الله القداح كان حجة للامام الحسين كذلك . وبالإضافة إلى هذا كله ، لا نعرف شيئا عن هذا الحجة المسمى أحمد الحكيم الذى يرجع نسبه إلى الحسين بن على ، وإنما أفاضت المراجع فى القول عن أحمد بن عبد الله هذا .

٢ — شخصية أبناء عبد الله بن ميمون

اشتهر لعبد الله أبناء ثلاثة ، قام كل منهم بدور هام فى تقوية الدعوة الإسماعيلية ، وهؤلاء هم أحمد والحسين وعلى . أما أحمد فتذهب المراجع السنية إلى أنه ولد بسلمية ، وهو قول مردود ؛ لأن عبد الله القداح لم ينتقل إلى سلمية إلا بعد سنة ٢٦٥ ه . وتولى أحمد هذا رياسة الدعوة بعد سنة ٢٧٠ ه . ويظهر أن ذلك الخطأ التاريخى راجع إلى أن كثيرا من المراجع يذهب إلى أن الحسين بن عبد الله أنجب فى سنة ٢٦٠ ه ولدا بسلمية ، هو سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، الذى عرف بعد ذلك باسم المهدى ؛ فخلط بعض المؤرخين بين أحمد وبين سعيد هذا (١) .

(١) يفرق بعض بين أحمد بن عبد الله ، وبين محمد بن عبد الله المعروف بأبى الشلعلع ، مع أن احمد هو نفسه محمد أبو الشلعلع على ما ورد فى رسائل الدرزية . وقد ذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن محمدا أبا الشلعلع كان وصيا على سعيد بن الحسين ، على حين أن عبد الله القداح توفى سنة ٢٧٠ ه ، وتولى بعده ابنه أحمد ، واستمر حتى ٢٨٠ ه . فلما توفى فى ذلك الوقت ألقيت مقاليد حجابة الدعوة فى يد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، الذى كان قد بلغ العشرين من عمره ، والذى كان عمه أحمد

وقد نقل عبد الله بن ميمون القداح الدعوة فى أخريات حياته من دور التأسيس والتكوين وخلق المبادىء النظرية إلى دور العمل ، واعتمد على أبنائه فى ترويج هذه الدعوة للأئمة المستورين المستقرين بسلمية ، فجعل على غربى العالم الإسلامى أكبر أبنائه وأحبهم لديه ، وهو الحسين ، وجعل مقره سلمية مع الأئمة المستورين . ومن ثم كان الإسماعيلية وقتئذ ينظرون إلى القائم بالدعوة من أبناء القداح هنالك نظرة تفوق نظرتهم لأقرانه . ولا غرو فهو فى صحبة الإمام المستور ، صاحب الزمان . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من سنة الإسماعيلية أن يتسمى دعاتهم وحججهم بأسماء الأئمة . ولذلك آثر عبد الله أن يكون ابنه الحسين فى صحبة الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، ليحيط إمامه بستار كثيف من السرية والغموض ؛ وهذا وحده هو السبب الذى حدا بالمؤرخين السنيين إلى أن يخلطوا بين الحسين بن عبد الله القداح ، وبين الامام الحسين بن أحمد بن عبد الله الأكبر ، فنسبوا إلى هذا تارة وإلى ذلك تارة أخرى التزوج من المرأة اليهودية ، وتنصيبه ابنها فى رياسة الدعوة وإمامتها(١) ، وهو قول لا يستند إلى أساس تاريخى صحيح .

ابن عبد الله وصيا عليه قبل سنة ٢٨٠ هـ . وهـذا يدلنا على أن محمدا أبا الشلعلع الوصى على سعيد هو نفسه أحمد بن عبد الله .

أما الحسين بن عبد الله ، فقد كان أكبر أبناء أبيه سنا ، وكان أبوه يعتمد عليه ، ويسعى دائما فى أن يحله محله فى رياسة الدعوة أى ليصبح حجة الامام مثله ، ولذلك جعله فى صحبة الامام المستور (أحمد بن عبد الله ثم الحسين بن أحمد) فى سلمية . وأما ما ذهب إليه ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٣) من أن الحسين هذا هو ابن أحمد بن عبد الله ، وأنه تولى رياسة المذهب الاسماعيلى بسلمية ، فقول مردود لأن أحمد هو الذى تولى رتبة الحجة بعد أبيه دون الحسين ، ولأن عامة المراجع تكاد تتفق على أن عبد الله القداح كان له ابن يدعى الحسين توفى فى حياة أبيه بعد سنة ٢٦٠ هـ ، فحل محله أخوه أحمد (الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى جـ ١ ص ٤٨) . يؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم (الفهرست ص ٢٦٥) حين يقول فى عبيد الله : ,, ثم قام بالدعوة بعد ذلك سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ،، ؛ وإذن فالحسين هو ابن عبد الله وليس حفيده .

(١) ينقض ذلك الادعاء نفسه بنفسه ، لأن الحسين ، سواء أكان هو الامام أم الداعى فانه لا يستطيع أن يقوم بذلك ؛ إذ لا يصح للحسين الامام الذى يرغب فى تزعم العالم الاسلامى أن يترك أقاربه وأبناءه ويهب الامامة لابن يهودى . كما لا يمكن الحسين الداعى أن يفعل ذلك مع وجود أخويه احمد وعلى وسواهما . ثم إنه يترتب على ذلك ان يكون هذا الابن اليهودى ، الذى أصبح المهدى صغيرا جدا

على أن الحسين بن عبد الله مات في حياة أبيه ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل حدث ذلك قبل فراره من الأهواز أو في خلاله أو بعـــده ، وإنما الذى نعرفه على وجه التحقيق أن عبد الله عهد بمعسكر سلمية الرئيس إلى ابنه أحمد بعد موت الحسين (١) ، وأنه اتخذ من مدن العراق ـ وخاصة الكوفة وبغداد ـ مركزا أساسيا لبث الدعوة . وفي الحق أن المعسكر الأوسط لم يكن أقل شأنا من المعسكر الغربي وهو سلمية ، فإن أحمد كان يعمل في معسكره بمدن العراق ، على حين كان عبد الله بن ميمون القداح ـ يعمل في إقليم الأهواز ؛ فنراه تارة في ساباط أبي نوح ، من قرى الأهواز ، ونراه تارة أخرى في عسكر مُكرَم ـ إحدى ضواحي هذه المدينة ـ أو في مدينة الأهواز نفسها . غير أنه بعد وفاة ابنه الحسين وفراره هو نفسه من الأهواز ، اضطر أن يركز قواه في سلمية ، واستمر بها حتى مات بعد سنة ٢٧٠ هـ . ومعنى هذا أن أحمد بقى في معسكره بالعراق حتى وفاة أبيه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى سلمية . فكأن سعيد بن الحسين كان في وصاية جده في تلك المدة (أى من سنة ٢٦٠ الى سنة ٢٧٠ هـ تقريبا) ، ثم أصبح بعد موت جده تحت وصاية عمه أبي الشلعلع (أحمد بن عبد الله) .

ولا يبعد أن يكون عبد الله القداح ، قد قصد سلمية بعد موت ابنه الحسين ، وخلوها من المحرك الأول للدعاية بها ، وخوفه على الإمام المستور من بقائه بسلمية وحيداً ؛ بمعنى أن خروجه من الأهواز لم يكن خوفا من العباسيين والفرق الإسلامية فقط ، بل كان للمحافظة على سلامة النظام الذى وضع أساسه لحفظ كيان الدعوة الإسماعيلية .

أما المعسكر الثالث من معسكرات الدعوة فكان في الطالقان(٢) بخراسان . وقد

= وقت هربه من سلمية إلى بلاد المغرب ، مع أنه كان رجلا كامل الرجولة ، ومعه القائم الذى يعتبره بعضهم ابنا له ، والذى ستراه يقود الجيوش بعد عشر سنوات تقريبا .

(١) وكان قد عهد إلى أحمد بن عبد الله برياسة الدعوة في قلب المملكة الاسلامية ، وخاصة العراق .

(٢) تطلق كلمة ,, طالقان ،، على بلدتين إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر .

أقام فيه عبدالله ابنا ثالثا كان على اتصال دائم بالقرامطة فى سواد الكوفة . يقول ابن النديم (١) : « وأقام قرمط بكلواذى (قرب بغداد) ، ونصب له عبد الله بن ميمون رجلا من ولده يكاتبه من الطالقان » . وسنرى الدور الخطير الذى سوف يمثله ذلك القداحى فى تنظيم الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة ، إذ أنه ما كاد يعلم بانتقاض حمدان قرمط وصهره عبدان على ابن أخيه سعيد بن الحسين وإمامه الحسين بن أحمد ، حتى تآمر على زكرويه بن مهرويه ، الداعى القرمطى النشيط ، على قتل عبدان . وإن نهاية قداح الطالقان مجهولة تماما ، وإن كان النويرى يرى أنه صاحب الناقة المشهور الذى قتل على أبواب دمشق سنة ٢٩٠ هـ ، وسنرى بطلان هذا الرأى .

٣ — مدى نشاط أبناء عبد الله بن ميمون

الواقع أن نشاط أبناء القداح يبدأ فى حياة أبيهم ، وينتهى بتقليد حفيده سعيد ابن الحسين سنة ٢٨٠ هـ رتبة حجة الإمام . أما متى بدأ نشاطهم بالضبط فإننا لا نعرفه ، ولكننا لا نستطيع أن نقول ، إنه بدأ قبل مقابلة عبد الله بن ميمون القداح دندان كاتب عبد العزيز بن أبى دلف فى سنة ٢٦٥ هـ ، وإن أبناء القداح هؤلاء استطاعوا فى ذلك الوقت أن ينشروا المذهب الإسماعيلى بين القرامطة ؛ إلا أنهم ضاعفوا جهودهم بعد هذه المقابلة ، وبعد أن أخذ أبوهم من دندان الهبة المالية الضخمة التى ساعدتهم على مضاعفة العمل . كما ساعد على نجاحهم ثورة صاحب الزنج (٢٥٥-٢٧٠ هـ) ، وانهماك العباسيين فى الصراع معه . وقد نشرت الدعوة الإسماعيلية على أيدى أبناء عبد الله بن ميمون فى خراسان وفارس ، وبين القرامطة ، وفى بلاد اليمن وبلاد المغرب . ولولا قيام الدولة الطولونية فى مصر والشام ، لظهرت آثار ذلك النشاط السريع ، لأنه على الرغم مما عرف عن ميل أحمد بن طولون إلى الشيعة عامة ، استطاع إقرار الأمور فى بلاده . ولذلك ضاعف عبد الله بن ميمون القداح وأبناؤه والأئمة الإسماعيلية جهودهم فى نشر الدعوة فى البلاد البعيدة عن مركزى القوة السنية ، فى بغداد بالعراق ، وفى القطائع بمصر .

---

(١) الفهرست ص ٢٦٥

ومما يدلنا على انهماك أبناء القداح فى نشر الدعوة الإسماعيلية ما يعزونه إلى أحمد ابن عبد الله من أنه هو الذى أرسل الحسين الأهوازى إلى القرامطة . فيرى أخو محسن : « أنه لما صار الأمر إلى أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان بعد أبيه ... بعث وهو بسلمية الحسين الأهوازى داعية إلى العراق ، فلقى حمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة »[1]. غير أننا لانستطيع أن نصدق كل ما أورده أخو محسن . لأن أحمد بن عبد الله لم يتول رياسة الدعوة إلا بعد قيام المذهب الإسماعيلى بين القرامطة فى أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، كما أن عبد الله لم يمت إلا بعد أن استقر هذا المذهب بين القرامطة فى السواد . وإذن فإن إرسال أول داع للقيام بنشر هذه الدعوة للمذهب الإسماعيلى بين القرامطة كان على يد عبد الله ابن ميمون القداح .

ويعتقد بعض المؤرخين أن الحسين الأهوازى الداعى الإسماعيلى الأول الذى قام بنشر المذهب الإسماعيلى بين القرامطة . هو الحسين بن عبدالله بن ميمون القداح . وإذن فخروج الحسين إلى سواد الكوفة إنما كان بأمر أبيه عبد الله القداح ، وهذا لا يحول دون مساعدة أحمد بن عبد الله لأخيه الحسين ، مما يؤكد نشر الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة فى حياة عبد الله بن ميمون . أما قول ابن عذارى عن عبد الله هذا : « إنه صحب قرمطا ودعاه إلى مذهبه فطاوعه على ذلك » ، فإنه يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عبد الله هو أول من أرسل الدعاة لنشر المذهب الإسماعيلى بين القرامطة . ولكن ابن عذارى قد جانب الصواب باعتباره أن عبد الله بن ميمون القداح هو الذى قام بالدعوة بنفسه بين القرامطة ، ثم لخلطه بين عبد الله هذا وبين الحسين الأهوازى الذى كان أول من دعا للمذهب الإسماعيلى بين القرامطة .

ولكن متى حدثت هذه الحركة من جانب القداحية ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن قبل قيام ثورة صاحب الزنج بكثير ؛ لأن الدعوة الإسماعيلية فى ذلك الحين لم تكن قد نظمت من الناحية العملية التنظيم الكافى . ولا بد أن يكون ذلك قد تم بعد قيام تلك الثورة ، وليس فى أوائل العصر العباسى الأول ، أو فى سنة ٢٧٨ هـ كما ذهب إليه بعض . وإذا نستطيع أن نقول إن هذه الحركة أخذت طريقها إلى القرامطة فى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٣٢ ورقة ٥٥

الوقت الذى قامت فيه ثورة الزنج ، لأنهم ينسبون إلى الحسين الأهوازى أو إلى حمدان قرمط ، أنه اتصل بصاحب الزنج وحاول الاتفاق معه على أن يمده بمائة ألف ضارب بسيف . ولا نستطيع أن نتصور رفض صاحب الزنج هذا العرض المفيد إلا إذا افترضنا أنه كان من القوة بمكان عظيم . ولا يمكن أن يكون كذلك إلا فى أخريات عهده ، أى قبيل سنة ٢٧٠ ه ، وذلك فى عهد إمامة الحسين بن عبد الله بن محمد إبن إسماعيل .

كما أن انتشار الدعوة فى بلاد اليمن إنما حدث على يد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح فى عهد أبيه ، أو بعبارة أخرى ، أن أحمد بن عبد الله لم يكن حين نظم الدعوة فى بلاد اليمن حجة الإمام المستور ، بل كان نائبا عن أبيه الحجة . ومهما يكن من شىء فقد تم على يد أحمد بن عبد الله إرسال الحسين بن حوشب[1] مع ابن فضل الجدنى إلى بلاد اليمن فى سنة ٢٦٧ه . وقد رأينا كيف استطاع الإمام الحسين ابن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل أن يحوله من مذهب الإمامية الإثناعشرية إلى مذهب الإمامية السبعية أو الإسماعيلية . وترى المراجع السنية أن الذى حول أبا القاسم بن حوشب إلى المذهب الإسماعيلى هو أحمد بن عبد الله ؛ لكننا نرى أن الإمام الحسين هذا هو الذى قام بذلك ، لأن ابن حوشب حين يصف مقابلته للامام يذكر أنه تقابل مع شخص مسن ، ولم يكن أحمد بن عبد الله كذلك . أما الذى تم على يديه إرسال ابن حوشب إلى بلاد اليمن هو وزميله ابن فضل ، فهو أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . ويهمنا هنا أن نقف على هذه الأمور :

إن ابن حوشب وابن فضل كانا من الإمامية الاثنا عشرية ، مما يدل على أن الاثنا عشرية كانوا دائماً منهلا تنهل منه الدعوة الإسماعيلية ، حتى إن كبار دعاتها ورجالاتها كانوا من الاثنا عشرية . ولا غرو فإنه من السهل على المرء أن ينتقل من مذهب شيعى إلى مذهب شيعى آخر . ثم إن الشخصيات الجريئة التى كانت لها مطامع تستطيع أن تحقق آمالها كاملة فى ظل إمام حى يترقب الفرصة للظهور ؛ وعلى عكس ذلك يقفون مكتوفى الأيدى مع إمام منتظر لا يعرفون عنه شيئا .

---

(١) يسميه المنصورى : رستم بن الحسين بن حوشب بن زادان النجار ، كما يسميه صاحب كتاب ,, استتار الامام ،، أبا القاسم الحسن بن فرح .

وإن ابن فضل وصل إلى الكوفة فى أوائل سنة ٢٩٧هـ ، وكان وصوله معروفا لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . فما السبب فى ذلك ؟ يظهر أن أحمد بن عبد الله والأئمة المستورين كانت لهم باليمن عيون . ومن البلاد التى نشروا فيها عيونهم «عدن لاعه» فى بلاد اليمن . ويلوح أنها كانت مركزا أساسيا للاسماعيلية قبل أن يفد إليها ابن حوشب . وكان لأحمد بن عبد الله وأئمته بها طيور تأتيه بأخبارها ؛ ولا يبعد أن يكون أحمد بن عبدالله قد عرف بوصول أحمد بن فضل عن طريق هذه الطيور . ومعنى ذلك أن المذهب الإسماعيلى كان منتشرا فى بلاد اليمن بجانب انتشار المذاهب الشيعية الأخرى . ومن ثم أخذ أحمد بن عبدالله بن ميمون يعد ابن حوشب ـ قبل مجىء ابن فضل الجدنى ـ للذهاب إلى بلاد اليمن ويقول له : «يا أبا القاسم ، إن الدين يمان ، والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من قبل اليمن فإنه يكون ثابتاً لثبوت نجم اليمن» (١).

وقد اختلف المؤرخون فى الشخص الذى عهد لابن حوشب وابن فضل بالسفر إلى اليمن : فمن قائل ، إنه الحسين بن عبدالله بن ميمون القداح ، وهذا غير مقبول كما تقدم . ومن قائل إنه ميمون القداح نفسه ، وهو قول لا يحتاج فى بطلانه إلى رد ، لأن ميمونا القداح كان حجة محمد بن إسماعيل ، فلا يعقل أن يكون حجة لحفيد ابنه الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل . ومن قائل إنه الإمام الحسين هذا . وليس هناك ما يمنعنا من تصديق هذا القول ، إذ أنه لا يتنافى مع وجود أحمد بن عبدالله بن ميمون فى رياسة الدعوة من الناحية العملية . وإذا كان الإمام الحسين قد شارك فى إرسال هذه السفارة فإن هذا يدل على أن الأئمة لم يظلوا ساكتين فى دور هجرتهم . وإن جذب ابن فضل اليمنى — أو اقتناصه إلى الدعوة الإسماعيلية كما كانوا يقولون — قد حدث فى الكوفة بالقرب من مشاهد أهل البيت عقب أداء فريضة الحج بمكة ، مما يدلنا على أن الأئمة الإسماعيلية وحججهم ودعاتهم كانوا يترقبون المستجيبين عند تلك المشاهد ، ثم اقتناصهم هنالك . ونحن لا نوافق ابن خلدون فيما ذهب اليه من أن إرسال ابن حوشب مع ابن فضل كان من سلمية ، لأن ابن حوشب يصف لنا رحلته وخروجه من الكوفة إلى القادسية فمكة .

(١) اليمانى : كشف اسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٢ — ٢٣

وكان وفد السفارة إلى اليمن يتكون من ابن حوشب وابن فضل دون سواهما ، أما القول بأن عبيدالله المهدى خرج معهما ، فإنه يبدو بعيد التصديق ، إذ لم نجد دليلا واحدا يؤيد ذلك . يقول ابن البطاريق[1]: «لما ترعرع عبيد الله سيره أبوه إلى اليمن فى سنة ثمان وستين ومائتين ، والمهدى يومئذ طفل عمره ثمان سنوات » .

كما أن سلوك أحمد بن عبدالله القداح والإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد ابن إسماعيل يدل على ذكاء نادر المثال ، وعلى مقدرة فى إدراك مافى نفوس الرجال ، وإلمام تام بحالة البلاد الاسلامية ؛ فقد أخذ أحمد بن عبدالله المواثيق على ابن فضل ، لما كان يخشاه من طموحه ، وقال له : «الله الله بصاحبك ! وقّره ، واعرف له حقه ، ولا تخالفه فيما يراه لك ، إنه أعرف منك ، وإنك إن خالفته لم ترشد[2]» . كما أمر ابن حوشب بالاستتار والاعتماد على التأويل فى نشر المذهب الاسماعيلى ، واتخاذ التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه ، وأمره أن يقول بقرب ظهور المهدى[3] وقال لهما : «أبعثكما إلى اليمن تدعوان إلى ولدى هذا ، فسيكون له ولذريته عز وسلطان [4]» ، لأن «أهل النجوم والحساب (كانوا) يذكرون ظهور المهدى بالله ، ويبشرون بدولته[5]» . ولا غرو فقد كانت الأحوال مهيأة لهم فى بلاد اليمن لانتشار التشيع بها ، وضعف حكامها ، ووهن ذلك الرباط الذى كان يربطها بالعباسيين . وهكذا استطاع سفيرا الإسماعيلية إلى اليمن — ابن حوشب وابن فضل — أن ينالا قسطا كبيراً من النجاح ، وأن يملكا معظم البلاد الجبلية فيها . ولم يمض عامان حتى احتل ابن حوشب جبل مسور من أعمال صنعاء ، واتخذ له منه دار هجرة ، وتسمى منذ سنة ٢٧٠ ﻫ «منصور اليمن» . ويرجع الفضل إلى تلك الحركة فى إقامة دولة الصليحيين بعد قرنين تقريبا . ولذلك فإنه لما أرسل ابن حوشب إلى أحمد بن عبد الله بعد ذلك ، وقد أصبح حجة الإمام ، يخبره بما فتح من البلاد ، ويتحفه بالكثير من تحف اليمن ، قال أحمد لابن أخيه سعيد : « هذه دولتك قد أقبلت ، ولكن لا أحب ظهورها إلا من

---

(١) صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٦

(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

(٣) Quatremère : Memoires (J.A., 1836) p. 148.

(٤) الداعى إدريس : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٦٥

(٥) الحمادى اليمانى : كشف اسرار الباطنية ص ٢٣

المغرب[١] . ولا يقل نجاح ابن فضل فى بلاد اليمن عن نجاح زميله ابن حوشب .

ومما يدل على مدى نشاط أحمد بن عبد الله القداح ورجاحة عقله ، ما قام به فى سبيل نشر الدعوة فى بلاد المغرب ؛ إذ يلوح لنا أنه هو الذى أرسل الداعيين الحلوانى وأبا سفيان إلى تلك البلاد ، وانتهز — هو وإمامه الحسين بن أحمد — بعد بلاد المغرب عن بغداد ، وانتشار التشيع بها ، وأرسلهما لنشر الدعوة وتمهيد الأمور للمهدى فيها ، أو بعبارة أدق لإعداد العدة لإقامة دولة إسماعيلية هنالك . وليس صحيحا ما يدعيه بعض من أن الذى أرسل هذين الداعيين إلى إفريقية (تونس الآن) هو جعفر الصادق فى سنة ١٤٥ هـ ، لأن أبا عبد الله الشيعى تقابل فى سنة ٢٧٨ هـ فى مكة ، مع حجاج كتامة ومنهم من أخذ على الحلوانى وأبى سفيان . فهل يعقل أن يعاصر هؤلاء جعفر الصادق فى منتصف القرن الثانى ، وابن حفيده الإمام الحسين فى أواخر القرن الثالث ؟ . الواقع أن ما ذكره صاحب كتاب « دستور المنجمين » وسواه ، إنما قيل حبا فى الأئمة بنسبة قيام الدولة الفاطمية إلى جهود الإمام جعفر الصادق . على أن كثيرا من مؤيدى الفاطميين ينسبون ذلك إلى سلف عبيد الله : فقد ورد فى كتاب عقد الجمان[٢] « واعلم أن الدعاة بالمغرب كانوا يدعون إلى محمد الحبيب — والد عبيد الله — وكان يسمى الهادى ، وكان بسلمية » . فهذا القول ينطبق على الإمام الحسين بن أحمد وحجته أحمد بن عبد الله القداح .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أشار بعض أعلام المؤرخين إلى أن ابن حوشب هو الذى أرسل الدعاة قبل أبى عبد الله إلى المغرب . فيقول العمرى : « كان قد أرسل ابن حوشب قبل ذلك دعاة إلى أرض المغرب ، فأجاب أهل كتامة » ؛ ولم نعرف أن هناك دعاة أرسلوا إلى المغرب قبل أبى عبد الله سوى الحلوانى وأبى سفيان . أضف إلى ذلك أن النصوص التى تذكر أن جعفرا الصادق هو الذى أرسلهما يتناقض بعضها مع بعض . من ذلك ما عزى إلى جعفر الصادق أنه قال لهذين الداعيين : « قولا لكل شىء باطن، واذهبا فالمغرب أرض بور فاحرثاها وأكرياها[٣]

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٢ .

(٢) العينى . عقد الجمان جـ ١٨ ورقة ١٥٣

(٣) أكرى الأرض : جعلها صالحة للزراعة . ويقصد هنا إعداد المغرب للدعوة الاسماعيلية

حتى يأتى صاحب البَذْر (١) ، فإن فكرة الباطن ، وفكرة صاحب البذر لم تكن قد نبتت فى عهد جعفر الصادق . وليس هذا وحده . بل يكاد المؤرخون يجمعون على أن ابن حوشب لما علم بموت هذين الداعيين أعد أبا عبد الله لنشر الدعوة بعدهما وقال له : « إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك » (٢) .

من هذا كله نستطيع أن نقول ، إن إرسال الحلوانى وأبى سفيان كان على يد ابن حوشب فى عهد أحمد بن عبد الله القداح ، وإن ذلك لا بد أن يكون بأمر الإمام الحسين وحجته أحمد بن عبد الله القداح ، لأنه لا يعقل أن ينفرد ابن حوشب بأمر دونهما . كما نستطيع أن نفهم اجتهاد هؤلاء جميعا فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى البلاد النائية ، فقد أدركوا نجاحها فى بلاد اليمن ، ومن ثم عملوا على أن يضعوها موضع التجربة كذلك فى إفريقية . كما نرى أيضا أن إرسالها يجب أن يكون بعد سنة ٢٧٠ هـ ، حيث نجح ابن حوشب فى أداء مهمته وتسمى « بمنصور اليمن » . ومن ثم خلق ابن حوشب من اليمن مستودعا هاما من مستودعات الدعوة الإسماعيلية .

كما دل إيفاد أبى عبد الله الشيعى إلى المغرب على كثير من المهارة السياسية التى كان يتحلى بها رؤساء الدعوة فى سلمية ، حججا كانوا أم أئمة . ولكن من الذى أرسل أبا عبد الله إلى تلك البلاد ؟ يبدو أن الذى أرسل الحلوانى وأبا سفيان هو نفسه الذى أرسل أبا عبد الله إلى المغرب ، كما أن إرساله إلى المغرب لم يكن من سلمية مباشرة ، بل كان عن طريق اليمن . ومما يلفت النظر فى سفارة أبى عبدالله أن رئيسَىِ الدعوة (الإمام والحجة) قد اختارا بلاد اليمن لتكون مدرسة لتعليم دعاة المَغرب ؛ فقد رأينا ابن حوشب يرسل الحلوانى وأبا سفيان وينصح لهما بأن يبتعد كل منهما عن صاحبه ، وأن يقولا : لكل ظاهر باطن ، ويحتميا بالتأويل ، ويمهدا بعملهما لظهور المهدى ودولته . وها هو ابن حوشب يمثل الدور نفسه مع أبى عبد الله الشيعى . فما الذى حمل رؤساء الدعوة على إرسال أبى عبد الله إلى ابن حوشب دون

(١) صاحب البذر : يشير إلى من ستقوم على يديه الدولة الاسماعيلية المنشودة ، أى كأنهما كانا يمهدان السبيل لأبى عبد الله الداعى .

(٢) المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٥ ورقة ١٤٥

توجيهه إلى المغرب مباشرة ؟ يظهر أن رؤساء الدعوة بسلمية كانوا يثقون فى ابن حوشب ثقة لاحد لها حتى لقبوه المنصور، وشبهوه بفجر الدعوة الذى مهد لشمسها بالظهور، فقالوا فيه : «كان (ابن حوشب) بمثابة الفجر المتنفس . وبه كشف الله عز وجل عن الأولياء الغمة، وأنار حنادس الظلمة» (١) .

كما ينسبون إلى أحمد بن عبد الله القداح أنه قال لأبى عبد الله حين أرسله إلى ابن حوشب : «امتثل سيرته، وانتظر إلى مخارج أفعاله فاعمل بها، ثم اذهب إلى المغرب» (٢) . ولا يبعد أن يكون رؤساء الدعوة قد استعانوا بابن حوشب فى تعليم دعاة المغرب، للتشابه العظيم بين اليمن وتلك البلاد، فإن كلا منهما بعيد عن مركز الخلافة العباسية ؛ كما انتشر التشيع فى كل منهما انتشارا كبيرا، وفيهما سادت الفوضى، ومن ثم رأى رؤساء الدعوة بسلمية أن يستفيدوا من خبرة داعى اليمن فى تثقيف دعاة المغرب .

وشيء آخر جدير بالملاحظة، هو أن أبا عبد الله الداعى كان قد أخذ العهد على نفسه، وأقر بارتباطه بالإسماعيلية دون أن يرى إمامه أو حجته أحمد بن عبد الله القداح، أو يعرف شخصيهما، وإنما أخذ هذه الدعوة عن أحد المقربين إليهما، وهو الداعى أبو على، الذى أسندت إليه الدعوة بمصر بعد ذلك . وأن أبا عبد الله قد أوفد من سلمية إلى بلاد اليمن جنوبا (سنة ٢٧٨ هـ) ، فبقى فيها عاما واحدا ثم توجه إلى بلاد الحجاز، وحط رحاله فى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ . ومعنى ذلك أن أبا عبد الله خرج وهو يدين بطاعة الإمام الحسين الإسماعيلى وحجته أحمد بن عبد الله القداح، واستقر ببلاد المغرب وهو يدعو إلى هذا الإمام تحت رياسة حجته سعيد الخير بن الحسين بن عبدالله القداح، وهو عبيدالله المهدى . فلما استودع الإمام حجته سعيدا الإمامة ليكون سترا على ابنه القائم، أخذ أبو عبدالله يدعو إليه وحده .

ولا نستطيع أن نوافق القائلين بأن عبد الله القداح هو الذى أرسل ابنه إلى المغرب، لأن عبد الله لم يقم بشيء من هذا . يقول صاحب أنباء الزمن : «بعث عبد الله بن ميمون القداح، وهو مولى جعفر بن محمد الصادق، إلى إفريقية الدعوة»،

---

(١) الخطاب بن الحسين : غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٦

(٢) المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٥ ورقة ١٤٥

ولده سعيدا . وقد غير اسمه وقال : أنا عبيد الله بن الحسين بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق »[1] . وإن هذه العبارة لتدل دلالة قاطعة على مدى جهل قائلها بالحقائق التاريخية الصحيحة .

من هذا نرى أن أحمد بن عبد الله رأى بعينيه نجاح الدعوة الإسماعيلية العظيم ؛ فقد امتدت فى عهده حتى شملت بلدانا مختلفة : فهؤلاء القرامطة ينتشرون فى سواد الكوفة وجنوبى فارس ؛ وهذه الدعوة الإسماعيلية تنتشر فى بلاد اليمن على يد ابن حوشب وزميله ابن فضل الجدنى ، كما تروج فى بلاد المغرب على يد داعييه الحلوانى وأبى سفيان . وهكذا جنى أحمد كثيرا من ثمار ما غرسه أبوه عبد الله القداح ، وسيجنى سعيد ابن أخيه ثمار ما غرسه هو . وهكذا نجحت الدعوة الإسماعيلية التى أقامها ميمون القداح ، ونعم سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح بذلك النجاح .

٤ — انتقال زعامة الاسماعيلية إلى عبيد الله

(ا) عبيد الله الحجة :

يسمى عبيد الله أبا محمد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، ويسميه بعضهم سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ فيعتبره أصحاب التسمية الأولى من سلالة ميمون القداح ، ويعتبره أصحاب التسمية الثانية من سلالة إسماعيل ابن جعفر الصادق . وسنرى أن التسمية الأولى هى الصحيحة .

آلت زعامة الدعوة الإسماعيلية من الناحية العملية إلى سعيد هذا منذ مات أحمد ابن عبدالله القداح فى سنة ٢٨٠ ﻫ ؛ فآلت إليه تبعا لذلك رتبة حجة الإمام المستور . وقد علمنا أن سعيدا هذا ولد فى سنة ٢٥٩ ﻫ ، أو على الأرجح فى سنة ٢٦٠ ﻫ ، وأنه كان تحت وصاية عمه أحمد أبى الشلعلع بن عبد الله القداح . فلما مات هذا فى سنة ٢٨٠ ﻫ كان عمر سعيد عشرين سنة أو يزيد ؛ فلم يكن فى حاجة إلى وصاية ، بل تقلد أمور الدعوة كحجة للامام . ولا بدع فى ذلك ، فإن وظيفة الحجة أصبحت وظيفة تقليدية فى بيت ميمون القداح منذ عين جعفر الصادق ميمونا فيها ، واستمرت

---

(١) كتاب أنباء الزمن ص ٢٥

هذه الوظيفة مقصورة على هذا البيت أكثر من قرن ، وقام هؤلاء الحجج بوظيفتهم فى رياسة الدعوة خير قيام ، حتى أثاروا إعجاب الأئمة العلويين وتقديرهم .

وإذن عهد إلى سعيد الحجة هذا تنظيم الدعاية ، وترويج المذهب الإسماعيلى فى كافة أرجاء العالم الإسلامى ؛ فقد ورث عن عمه أحمد بن عبدالله تراثا ضخما : كان عليه أن يحفظ شخص الإمام العلوى الحسين بن أحمد فى سلمية ، ويحيطه بذلك الستار الكثيف من التخفى ، كما فعل آباؤه القداحيون مع الأئمة العلويين المستورين منذ أيام محمد بن إسماعيل . وكان عليه أن يتعهد الدعوة فى بلاد اليمن والمغرب ، ويتصل بزعماء الدعوة هناك باسم الإمام . وكانت بلاد اليمن والمغرب أشد اتصالا بالإمام نفسه من اتصال قرامطة السواد به . لذلك نرى كثيرا من المراجع الإسماعيلية تشيد بدعاة هذه البلاد ، كما كان عليه — كرئيس للدعوة — أن يتصل بقرامطة السواد ، أى سواد الكوفة وهى الأراضى الزراعية فيها ، وأن يدعوهم فى صراحة إلى الإمام ، ويعلن لهم أنه حجته . ولهذا سنراهم ينتقضون عليه حين يخلع ثوب الحجة ويرتدى ثوب الإمام . ويبدو أن ارتباط رياسة الدعوة فى سلمية بالبلاد الشرقية كان أكثر غموضا ؛ ومع ذلك كانت الدعوة التى مهد لها عبدالله بن ميمون القداح فى خراسان وفارس قد أثمرت ، وأصبح على رأسها جماعة من الدعاة العلماء الذين سنتناولهم بالبحث فى الكلام على جهود عبيد الله الخليفة فى تلك البلاد . وإذن لمن كان سعيد هذا حجة ونائبا ؟ يرى أصحاب كثير من المراجع الإسماعيلية — وهى عمدتنا هنا — أن سعيدا كان حجة للامام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(ب) عبيد الله الإمام

أما انتقال إمامة الدعوة الإسماعيلية إلى سعيد هذا ، فإنه يكوّن فصلا شائكا فى تاريخ الإسماعيلية خاصة ، وفى تاريخ المسلمين عامة ، لما اكتنفه من شكوك وأحاطه من غموض ؛ إذ كيف يتحول الحجة إلى إمام ؟ وكيف يصبح أحد سلالة القداح إماما إسماعيليا يتمتع برتبتى النطق والإمامة اللتين كان يتمتع بهما الأئمة العلويون ؟ وهل استبد سعيد بالأمر دون الأئمة الحقيقيين ، فدعا لنفسه دونهم ؟ أو هل نستطيع أن نعتبر الخلفاء الفاطميين من سلالة القداح ، فنوافق منافسيهم حين يرمونهم بذلك ؟

وإذا كانوا من القداحية ، فلماذا يدافع عنهم دعاتهم ، وينسبونهم إلى علىّ وفاطمة ؟.

الحق أننا نستطيع فهم هذا الموضوع إذا أوضحنا الظروف التى أحاطت بنزول الإمام الحسين بن أحمد ، لسعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وأوضحنا المبادىء الإسماعيلية التى ساعدت على هذا التحول ، وشرحنا فى الوقت نفسه ما أحاط هذا النزول من اختلاف بين أنصار المذهب الإسماعيلى .

ومن أظهر المبادىء الإسماعيلية التى كان لها دخل كبير فى هذا التحول ، مبدأ « التبنى الروحانى » ، فإن الإسماعيلية يؤمنون بهذا المبدأ إيماناً قوياً ، فنراهم يقولون كثيراً : إن فلاناً ابن فلان ، يقصدون بذلك بنوته الروحانية لا الجسمانية . كما يقولون إن فلانا أبو فلان ويقصدون الناحية الروحانية . وهذا ما حدا بالعالم ماسينيو إلى القول بأن تلقيب أبى الخطاب ، أحد زعماء الإسماعيلية الأوائل ، بلقب أبى إسماعيل ، يقصد منه الأب الروحانى لإسماعيل بن جعفر الصادق . وخير دليل على صحة هذا ، ما نراه فى رسائل إخوان الصفا ، التى ذهب بعضهم إلى القول بأنها من تصنيف أحد الأئمة المستورين ، حيث يذكرون فيها كثيرا الابن الروحانى والأب الروحانى ، بل قد يروون أحاديث لتقرير هذا المبدأ ، فيقولون إن الرسول قال فى سلمان الفارسى « سلمان منا أهل البيت » وغير ذلك . حتى لقد قال نصير الدين الطوسى (١) فى بنوة سلمان هذا لعلى بن أبى طالب إنها بنوة روحانية ، كما قال إنه يوجد بجانب البنوة الروحانية أو الجسمانية بنوة مشتركة جسمانية وروحانية معا ، وضرب لكل منها أمثلة تكشف لنا عن اتجاه الإسماعيلية السياسى . فيرى الطوسى أن المستعلى (٢) بن المستنصر ابن جسمانى فقط له . وإنما لجأ إلى ذلك لينفى عنه دعواه الإمامة ، ويرى أيضا أن الحسين بن على بن أبى طالب ابن لعلى من الناحيتين

---

(١) لجأ هذا العالم إلى النزارية الاسماعيلية فى الموت — جنوبى بحر قزوين — فى أخريات حياتهم خوفا على نفسه من الخليفة العباسى المستعصم ووزيره ابن العلقمى . ومدح الاسماعيلية ، وأشاد بزعمائهم فى كتابه ,, اخلاق ناصرى ,, ، وساعد هولاكو فى الاستيلاء على قلاع الدعوة فى المشرق ، ومات فى سنة ٦٧٢ هـ .

(٢) هو حفيد بدر الجمالى ، ثار عليه أخوه نزار ، فانتصر عليه بمساعدة خاله الأفضل شاهنشاه فى سنة ٤٨٨ هـ ، فنادت جماعة بامامة نزار وسموا النزارية ، ومن نسلهم اغا خان الحالى ، ونادت جماعة اخرى بامامة المستعلى وسموا المستعلية . ومن أنصارهم اليوم جماعة البهرة فى اليمن والهند خاصة .

الروحانية والجسمانية معا ، وفى هذا إقرار من الإسماعيلية للحسين بالإمامة .

وإذا صح ذلك فإنه لا يبعد أن يقول الإسماعيلية ببنوة أبناء القداح — من الناحية الروحانية ، للأئمة المستورين ، خصوصاً لأنهم يرجعون نسبهم إلى سلمان الفارسى — كما رأينا فى الكلام على الأئمة العلويين من طائفة الإسماعيلية — وأنه إذا كان سلمان ابنا روحانيا لعلى بن أبى طالب ، فليس هناك ما يمنع أحفاده من الأئمة الإسماعيلية من تبنى أحفاد سلمان الفارسى ! ثم لم نذهب بعيداً ؟ ألم تر ماقاله رشيد الدين فى كتابه جامع التواريخ عن انتساب عبدالله القداح إلى محمد بن إسماعيل ، حيث ادعى ميمون أنه ابن روحانى للامام محمد هذا ، وأنه الوارث الحقيقى لمحمد ابن إسماعيل فى إمامته ، وأن الإسماعيلية لم يعارضوه فى دعواه هذه ؟ ومعنى هذا أن الإسماعيلية يوافقون على مبدأ انتقال الإمامة من الأئمة الحقيقيين إلى تلامذتهم.

ومن حسن الحظ أننا عثرنا على كثير من النصوص التى تؤيد ما ذهبنا إليه من انتقال الإمامة من شخص إلى آخر عن طريق البنوة التعليمية أو الروحانية . من ذلك ما ذهب إليه الداعى إدريس عماد الدين فى كتابه زهر المعانى[1] من أن الإمام الحسين الإسماعيلى استودع سعيد الخير الإمامة ليردها إلى ابنه القائم . وأن سعيدا هو المهدى ، الذى «كان شمس الله الطالعة ، وآيته الساطعة ، والحجاب الأعظم ، والباب الأشرف الأكرم ، حامل أمانة الله ووديعته ، ومسلمها إلى القائم بأمر الله ، ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته ، وهو خليفته ، القائم منه كعلى جده — أمير المؤمنين — من محمد رسول الله الأمين» . ألسنا نرى أن القائم بأمر الله لم يكن ابنا جسمانيا لسعيد الخير — المهدى — ثم ألا يعتبره هذا المؤلف الإسماعيلى المشهور ابنا لعمه ينتسب إليه بالتعليم والإفادة ، مع أن العم غير الأب كما نعلم ؟

ولم يكن هـذا التبنى الروحانى جديدا فى تاريخ الشيعة ، بل إنه من الممكن جدا عند الشيعة أن تنتقل الإمامة من شخص إلى آخر بطريق التفويض ، سواء أكان المنقول إليه قريبا للناقل أم غير قريب . من ذلك ما رأيناه فى تفويض الإمام الحسين بن على أخاه محمد بن الحنفية فى أمر الإمامة ، إذ أودعه إياها إلى حين يشب

---

(١) ص ٦٧ (من المنتخب) .

ابنه على زين العابدين ، ولذلك سمى محمد بن الحنفية حينئذ إماما بالتفويض . وأهم من ذلك انتقال الإمامة من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إلى العباسيين . فالعباسيون — تمشيا مع هذه النظرية — أئمة عن طريق التفويض ، وبذلك يكون قيام الدولة العباسية قد استند إلى نظرية إسماعيلية هى الإمامة بالتفويض . وإذا صدقنا ذلك عن العباسيين فلم لا نصدقه عن أبناء القداح ، حجج الأئمة المستورين ؟ وإذن لا نستبعد صحة ما ورد فى النصوص الاسماعيلية بل السنية ، التى تنسب عبيد الله المهدى إلى ميمون القداح ، وتؤكد أن عبيد الله كان حجة ثم استودع الامامة حينا ليكون سترا وحجابا على الإمام الحقيقى القائم بأمر الله . ولا غرو فقد أكد لنا ذلك ما أورده رشيد الدين ، وما ورد أيضا فى كتب الباطن عند الإسماعيلية وخاصة كتب الدرزية .

على أن هناك مبدأ إسماعيليا آخر ، لا يقل أثره عن مبدأ التبنى الروحانى ، ذلك هو مبدأ الاستيداع الإمامى الذى اتخذه الإسماعيلية وسيلة لتأييد مذهبهم ، فإنهم يعتقدون أن هناك أئمة استيداع انما يقومون بحمل الوديعة دون نقلها إلى سواهم ، وأنهم يتمتعون بها طول حياتهم . وكان لنظرية الاستيداع الإمامى أثرها فى تاريخ الشيعة عامة ، والإسماعيلية منهم خاصة ؛ فإن هؤلاء يعتقدون أن الحسن بن على بن أبى طالب كان إماما مستودعا ، حمل الوديعة لينقلها من بعده إلى أخيه الحسين . ولا نغلو إذا قلنا إن نظرية الاستيداع الامامى تنطبق على محمد بن الحنفية ، الذى حمل الوديعة (الامامة) من أخيه الحسين ، لينقلها إلى مستحقها على زين العابدين . وليس هذا وحده بل يرى الاسماعيلية أن موسى الكاظم كان إماما مستودعا ، حمل الامامة من أخيه إسماعيل ، ثم أعطاها محمد بن إسماعيل .

وكذلك كان لنظرية الاستيداع الامامى أثرها فى تاريخ الاسماعيلية . ونعتقد أن ميمونا القداح وسلالته من بعده ، كانوا أئمة استيداع ؛ فكان سعيد بن الحسين إماما مستودعا ، حمل الوديعة من الامام الحسين ، ليحفظها ثم ينقلها إلى ابنه القائم . وبهذا نستطيع أن نقول إن إمامة أبناء القداح ليست بعيدة الاحتمال أو التصديق ، ما دامت مبادىء الاسماعيلية تؤكد ذلك وتجيزه .

وهناك بعض الأدلة التى تؤيد انتساب عبيدالله الى ميمون القداح ، منها :

أولا : وهو مما نسر له ، أن كثيرا من كتب الباطن الاسماعيلية أو «كتب الحقائق» كما يسمونها ، قد ظهرت فى مكتبات العالم ، فكشفت لنا هذا الغموض ، وأنارت الطريق للباحث غير المتحيز ؛ فذكرت فى وضوح أن المهدى لم يكن ابن الامام المستور الحسين بن أحمد ، كما لم يكن الخليفة القائم بأمر الله ابن المهدى ، وإنما كان ابن الامام المستور الحسين بن أحمد ، وأن المهدى حمل الوديعة من الامام الحسين وردها عند وفاته إلى ابنه القائم ؛ فكان هذا الخليفة (القائم) أول خليفة فاطمى من سلالة علىّ الحقيقيين . ومعنى ذلك أن السنيين الذين ينكرون نسب الفاطميين إلى على وفاطمة ، كانوا على حق حين ذهبوا إلى القول بأن عبيد الله من سلالة القداح ؛ ولكنهم لم يكونوا على حق فى قولهم : إن جميع الفاطميين من سلالة القداح . ولسنا مغالين فيما ذهبنا إليه ؛ فهذا كتاب غاية المواليد ، الذى يعد من كتب الحقائق عند الاسماعيلية يقول : « إنه لما ظهر النور باليمن و بلاد المغرب ، سار ولى الله فى أرضه على بن الحسين صلوات الله عليه ! يريد بلاد المغرب ، حتى كان فى بعض الطريق ، فأظهر الغيبة[1] ، واستخلف حجته سعيدا[2] الملقب بالمهدى سلام الله عليه ! فثبت قواعد الدعوة وجرى عليهما من ضدهما (عدوهما) بسجلماسة من العمال بالمغرب ماجرى ، ووقى الله وليه — سلام الله عليه ! كيده ، لما كان من زحف أبى عبد الله عليه وظفره ، واستخراجه ولى الله سلام الله عليه من سجنه . فلما حضرت المهدى النقلة سلم الوديعة إلى مستقرها ، وتسلمها محمد بن على القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الامامة فى عقبه[3] » .

وقد يعترض بعض فيرى أن المهدى قد يكون ابن الإمام الحسين ، وأن عبارة غاية المواليد لا تؤكد أنه من سلالة ميمون القداح ، بل هو حجة فقط ، والحجة قد يكون علويا وقد يكون قداحيا . على أننا نرى أن وظيفة الحجة للامام المستور قد أصبحت وظيفة تقليدية تقريبا فى بيت القداح منذ عهد محمد بن إسماعيل وميمون القداح ، كما أن رسائل الدرزية الاسماعيلية تؤيد أن عبيد الله من سلالة القداح وتذكر أن اسمه سعيد .

(١) اى حضرته الوفاة بدليل خروج المهدى مع القائم فقط من مسلمية .

(٢) فى نسخة لأبى سعيد الخير .

(٣) غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٧ .

وليس الخطاب بن الحسين ، صاحب غاية المواليـــد ، هو الذى ذهب هذا المذهب ، بل إن الداعى إدريس عماد الدين اليمنى ، المؤلف الاسماعيلى المشهور ، يؤكد هذه الحقيقة ، وهى أن القائم ليس ابنا حقيقيا للمهدى ـ كما رأينا ـ ويرى أن المهدى كان إماما مستودعا للقائم ، ولكنه يقول إن المهدى ، سعيد الخير ، كان أخا للامام المستور الحسين بن أحمد . إلا أن سلسلة النسب عند الدرزية تؤكد أن سعيدا من نسل القداح . هذا بالاضافة إلى أنه أقر على نفسه حين انتقض حمدان قرمط عليه بأنه من ولد القداح ، وأنهم جميعا أئمة . وقد أدى هذا الاقرار إلى انفصال قرامطة السواد عن الدعوة الاسماعيلية . وإذن فسعيد الخير عند الداعى إدريس هو سعيد المهدى عند الداعى الخطاب ، وهو سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح عندنا . يقول الداعى ادريس[1] : «ثم إن الامام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدى فى كنفه ، فأظهر النقلة فى سفره ، وأوصى الى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير ، وتسمى بالامامة بأمر الناصّ عليه ، سترا على ولى الله وإخفاء لمقامه عن أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره ، وأمر الحدود بذلك ، وأن يكنوه بالشمس الطالعة ، سترا على ولى الله ولده القائم من بعده» . ويقول هذا الداعى فى موضع آخر : «ولما توطدت قوانين الدعوة الهادية ـــ سلام الله على وليها ! بالمهدية ، وظهر أهل الكهف من كهف التقية ، وآن الأجل ، وانقضى المهل ، سلم الإمام المهدى إلى ولده[2] القائم رتبته ، وأدى إليه وديعته وأمانته ، وأظهر الغيبة ، وانتقل لجوار ربه والقدوم عليه» .

من هاتين العبارتين نرى أن المهدى لا يمت إلى الأئمة الإسماعيليين بصلة القرابة . وثمة شيء آخر ، هو أن الدرزية ـــ وهم طائفة من طوائف الإسماعيلية ـــ يرون أن المهدى من معدن غير معدن من سبقه من الأئمة المستورين ، ومن لحقه من الخلفاء الفاطميين ، أو بالأحرى من فرع غير الفرع الذى ينتمى إليه الخليفة القائم ، فيجعلون المهدى فى رتبة الرسل ، والقائم وأباه فى رتبة الآلهة . وقد ورد فى كتابهم «النقط

---

(١) زهر المعانى (من المنتخب) ص ٦٦ ، ٧١

(٢) لو قصد بكلمة ,, ولده ,, ابنه الحقيقى لا التعليمى ، لتعارضت هذه الكلمة مع عبارة ,, أدى إليه وديعته ,, ، لأن أداء الوديعة لا يكون من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر .

والدوائر»(١) : «لما ظهر الناطق سعيد المهدى ، وأعطاه المبعل (أى الإمام المستور) الوديعة الذى (كذا) هو القائم تعالى بربيه ، وهو فى ظاهر الأمر طفل ، حاشاه من الأبوة والبنوة . فلما ظهر القائم وأخذ الإمامة الظاهرة ، وهى السلطة ، والخلافة الباطنة ، وهى دين التأويل . والإمامة المجازية التى تظاهر الرب بها . وهى بالحقيقة لقائم الحق ـ صلى الله عليه وسلم ! قيل إن المهدى مات . »

وليس هذا كل شىء . بل إن رسالة تقسيم العلوم للدرزية تؤكد انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، كما تؤكد أن ميمونا القداح وأبناءه من بعده كانوا أئمة استيداع حلوا من محمد بن إسماعيل ـ ناطقهم السابع ـ محل الإمام على بن أبى طالب من الرسول صلى الله عليه وسلم . وتسمى المهدى سعيدا ؛ وتنفى ارتباطه نسبا وقرابة من الأئمة الفاطميين ، مما يؤكد بطلان ما ذهب إليه النيسابورى فى كتابه «استتار الإمام»(٢) ، والداعى إدريس فى كتابه «زهر المعانى»(٣) أن سعيدا الخير ، أخو الإمام الحسين المستور . ومهما يكن من شىء فقد ورد فى رسالة تقسيم العلوم ما نصه : «وقام محمد صلى الله عليه وسلم ، وأساسه على بن أبى طالب ... وظهر ناطق غيره وهو محمد بن إسماعيل ، وإلى خلفاء المستودعين . وهو إلى أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله ابن ميمون القداح . وهو من ولده سعيد بن أبى الشلعلع المهدى » . وورد فى موضع آخر : «أن عبيدالله هو ابن أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح ، وأن مولانا المعل أمره بالبقاء فى خدمة مولانا القائم(٤)» . وهذا يؤكد نفى انتساب عبيدالله إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ثانيا : ـ انتقاض حمدان قرمط على سعيد بن الحسين :

سنرى أن قرامطة السواد ، وعلى رأسهم حمدان قرمط زعيمهم الأول ، وصهره عبدان القرمطى المؤلف الإسماعيلى . ينتقضون على سعيد بن الحسين بن عبد الله

---

(١) (طبعة سيلد) ص ٧٤

(٢) ص ٩٥ (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦)

(٣) ص ٧٠

(٤) De Sacy : Exposé, vol. I. pp. 72—3.

القداح ؛ لأنه ـ فى نظرهم ـ دعا إلى نفسه دون الأئمة المستورين ، وذلك أن عبدالله القداح وابنه أحمد كانا يعترفان فى صراحة بأنهما حجتان للأئمة المستورين The Concealed Imams . وأما سعيد فقد غيّر هذا النظام ودعا إلى نفسه ، حتى إنه لما وردت كتبه إلى حمدان قرمط ، « أنكر ما فيها وتبين فيها ألفاظا قد تغيرت ليس هو على النظام الأول[١] » . والحق أن هذا التغيير فى سلوك سعيد بن الحسين ، راجع إلى ما كان من نزول الإمام الحسين عن الإمامة له عن طريق الايداع ـ على ما رأينا ـ فلم يكن سعيد قد استبد بالأمر دون الأئمة المستورين ، ولكن قرامطة السواد عز عليهم أن يتقمص الحجة رتبة الإمام . ولذلك سار عبدان واتصل بسعيد فى سلمية ، « وسأله عن الحجة وعن الإمام بعده ، الذى يدعو إليه ، فقال :(سعيد) ومن الإمام ؟ قال عبدان : محمد بن اسماعيل بن جعفر ، صاحب الزمان الذى كان أبوك (يريد أحمد بن عبدالله القداح) يدعو إليه وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن اسماعيل لا أصل له ، ولم يكن الإمام غير أبى ، وهو من ولد ميمون بن ديصان وأنا أقوم مقامه[٢] » .

أليس فى هذا الانتقاض الدليل على أن سعيد بن الحسين من سلالة القداح ؟ الواقع أن هذه العبارة تبين فى وضوح فكرة الامام والحجة ، وكيف أن الحجج لم يكونوا حتى ذلك الوقت من سلالة محمد بن اسماعيل ، بل إنها تبين شيئا آخر هو أن الامام المستور لم يكن معروفا للقرامطة ، على حين أن الذى كان يتراسل معهم ويتصل بهم ، هو الحجة الذى كان يقر فى مكاتباته معهم بأنه نائب عن الامام لا إمام .

ونستطيع أن نحدد زمن ذلك الانقلاب الذى حدث بين القرامطة ورؤساء الدعوة فى سلمية فنقول ، إنه كان قبيل هرب المهدى من سلمية ، حيث لم يستطع البقاء فى مخبئه ودار هجرته ، لأنه انضم إلى العباسيين فى عدائهم له عدو إسماعيلى خطير هو القرامطة ، الذين أصبحوا فيما بعد خطرا على شخصه وعلى مذهبه ودعوته . أضف إلى ذلك أن انتقاض حمدان قرمط قد أحدث هزة عنيفة بين القرامطة ،

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٣ ورقة ٧٠

(٢) نفس المصدر والجزء والورقة

وظهر بسبب ذلك فرع قرمطى آخر ، هم قرامطة الشمال أتباع زكرويه بن مهرويه الذى قتل حمدان قرمط ، ذلك الفرع الذى ساعد على زوال دولة الطولونيين ، كما ساعد فى الوقت نفسه على خروج سعيد بن الحسين من سلمية . فقد أدرك سعيد استحالة بقائه فى سورية مع قرامطة السواد الحانقين عليه ، ومع قرامطة الشمال الذين عز عليهم أن يخرجهم سعيد من رياسة الدعوة بالكوفة ، فخاف انتقاضهم عليه . ولذلك آثر العافية فى الهرب ، والفرار إلى اليمن أو المغرب ، كما سيأتى . ومعنى ذلك أن انتقاض حمدان قرمط — الإسماعيلى المتطرف — على رياسة الدعوة التى تنتمى إلى بيت القداح قد أدى فى النهاية إلى فرار المهدى من الشام إلى أقصى شمال المغرب حيث ألقى عصا تسياره فى سلجماسة .

ثالثا : تصريح الحسن الأعصم [١] القرمطى بأن الفاطميين من أبناء ميمون القداح ، مع أن القرامطة كالدرزية فرقة هامة من فرق الإسماعيلية . ولم يتعرض المعز لدين الله فى رده المشهور على الحسن الأعصم لهذه الطعنة . حقيقة إن العباسيين والبويهيين هم الذين أثاروا الحسن الأعصم على سادته الفاطميين ، حتى جعلوه يخطب على منابر الشام للعباسيين ويذم الفاطميين ، وصحيح أيضا أن الحسن الأعصم حنق على المعز لتدخله فى شئون بلاده الداخلية ، وحجزه عنه الضريبة السنوية التى كان الإخشيديون فى الشام يدفعونها اليه . ولكن هذا كله لا ينهض دليلا على أن الحسن الأعصم رماهم بالباطل ، لأن المعز ، وهو على ما كان عليه من البلاغة والعلم ، كان يستطيع أن يدحض ما قاله الحسن الأعصم . وهكذا كان الحسن يقول من فوق منابر دمشق : « هؤلاء (أى الفاطميون) من ولد القداح ، كذابون مخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدهم القداح » [٢] .

وليس فيما ذهب إليه الحسن الأعصم لبس أو غموض ، إلا أننا نرى خطأه .

---

(١) هو الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الجنابى ، تولى زعامة القرامطة سنة ٣٥٩ هـ بعد أن فتك أبوه بأبناء أبى طاهر الجنابى صنيعة الفاطميين وحليفهم . ثار على المعز لدين الله وعلى ابنه العزيز ، وكاد يفتح مصر نفسها . ولم تخمد ثورته إلا بعد انتصار العزيز عليه فى سنة ٣٦٦ هـ وموته هو فى سنة ٣٦٧ هـ ، حيث عاد القرامطة إلى حظيرة الفاطميين من جديد .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٤

من ناحيتين : الأولى ، أن الفاطميين جميعا ليسوا من أبناء القداح ، وأن المهدى وحده هو الذى ينتمى إليهم حقا ، والثانية : أنه يجعل القرامطة أصلا والفاطميين فرعا لهم حين يقول : « ومن عندنا خرج جدهم القداح » . فلم يكن القداح — ميمونا كان أو عبد الله — قرمطيا ، بل كان أحد مؤسسى المذهب الإسماعيلى ، وعن أبنائه أخذ القرامطة . وكان الأولى به أن يعكس الآية فيقول : وعليه تخرج أجدادنا القرامطة . وعلى الرغم من ذلك كله إن إنكار الحسن الأعصم نسب الفاطميين إلى على وفاطمة ، وإلحاقهم بالقداح فيه شىء من الصحة ، لأنه يتفق والحقائق التاريخية التى أوردناها من قبل عن عبيد الله المهدى .

هذا أهم ما يمكن أن يقال فى تأييد فكرة قداحية المهدى . ولكن هل اتفق الإسماعيلية جميعا على تلك الحقيقة ، وهى أن مهديهم لا يمت إلى على وفاطمة بصلة القرابة ؟ الواقع أن كتب الظاهر جميعها تكاد تخلو من هذا ، بل تؤكد أن المهدى من سلالة الرسول ، وأنه علوى لحما ودما . ونرى فى كتاب « افتتاح الدعوة الزاهرة » لأبى حنيفة النعمان المغربى ، وفى غيره من الكتب الظاهرية ما يؤكد ذلك. ولعل السر فى هذا يرجع إلى اعتقاد الإسماعيلية — الذين برعوا فى استخدام التقية — أن هذه الكتب سيطلع عليها العامة والخاصة منهم ، ومن غيرهم . لذلك آثروا إبقاء جوهر مذهبهم ومبادئهم فى طى الكتمان ، ولم يشاءوا أن يتكلموا عن الاستقرار والاستيداع الإمامى ، أو يوضحوا لنا كيف تم انتقال الأمر من الأئمة المستورين إلى حججهم . أضف إلى ذلك أن كثيرا من المراجع الإسماعيلية الظاهرية (١) تختلف فيما بينها فى ذكر أسماء الأئمة ، وخصوصا سلف عبيد الله ، فيسميه بعض محمد الحبيب ، ويسميه بعض آخر الحسين أو عليا إلى غير ذلك ، مما يدلنا على أن مؤلفى كتب الظاهر إنما كانوا يؤلفون حسب مقتضياتهم السياسية ؛ فإن الدعوة فى مراتبها الأولى كانت تنحو منحى الظاهر ، ويختلف الدعاة أنفسهم فى

---

(١) تنقسم مراجع الاسماعيلية قسمين : ظاهرية exoteric وهى المراجع التى فى متناول الجميع سواء أكانوا من كبار الاسماعيلية أم من عامتهم . بل قد يباح للسنيين أحيانا أن يطلعوا عليها . والمراجع الباطنية ، أو السرية esoteric وتسمى أحيانا كتب الحقيقة ، وهى تتناول أسرار المذهب الاسماعيلى ؛ ولذلك لا يباح الاطلاع عليها إلا لخاصة أتباع المذهب الاسماعيلى .

ذكر أسماء أئمتهم ، ويخاطب السنى بما لا يخاطب به الشيعى . واليهودى بما لا يخاطب به المسيحى ، والمجوسى بما لا يخاطب به المسلم ، وهكذا .

ولذلك فإن كتب الظاهر كانت تخاطب الناس فى حدود هذه النظم الظاهرية . أما كتب الباطن فكانت على نقيض ذلك ؛ إذ يعتقد الإسماعيلية أنها من كتب الحقائق التى لا يطلع عليها إلا خاصتهم . ولذلك أخفوها ، وعدوا إباحة الاطلاع عليها — لغير خاصتهم — جريمة وكفرا [١] . ولولا تسرب بعض هذه المراجع وتداولها بين الناس ، لما استطعنا أن نعرف شيئا عن حقائق المذهب الإسماعيلى وأسراره .

ورب معترض يقول : لقد ثار أبو عبد الله الداعى وأخوه أبو العباس وكبار كتامة وقتئذ على المهدى . ألم يكن من المعقول حينئذ أن يرموه بأنه خارجى لا يمت إلى العلويين بصلة ؟ على أننا لم نرهم يعترضون عليه فى شىء من جهة النسب ، وإنما كرهوا منه استبداده بالأمر ، فموهوا على الناس أنه ليس المهدى . الواقع أن أبا عبد الله لو كان يعلم هو وأنصاره أن القائم بأمر الله هو الإمام الحقيق لنادوا به إماما فى ثورتهم على المهدى ، لكننا نعلم أن فرقة الإسماعيلية جماعة سرية ، وأن نقل الإمامة من شخص إلى آخر ، أو « استيداعها » فى إمام لتنقلها إلى إمام ، إنما هو أمر محوط بالأسرار والكتمان لا يطلع عليه إلا خواصهم . فليس من الضرورى إذن أن يعلم أبو عبد الله هذا السر ، خصوصا أنه كان داعيا لم يصل إلى مراتب الدعوة العليا ، التى قيل إنها كانت سبعا فى زمن عبد الله بن ميمون القداح ثم بلغت تسعا . ويبين لنا سرية هذا الأمر ما ورد على لسان أحد دعاتهم حين يقول : « فلم يطلع أحد عليه ولا وقف على سر الله فيه إلا الخلصاء الأبرار ، المصطفون الأخيار ، العارفون لسر الله فى أوليائه ، المطلعون على معرفة ما أظهر لهم من أصفيائه . » [٢]

ورب معترض يقول أيضا : إن أبناء القداح اشتهروا بالطموح ، وقد امتلأت

---

(١) حدثنا الأستاذ ما سنيون عن الدكتور حسين الهمدانى الهروى فقال : إن هذا الدكتور أخبره ان أباه أهانه إهانة بالغة ، وطرده ، فعاش عيشة فقر مدقع ، لأنه نشر بعض كتبهم ، وكتب مقالات لم يسلك فيها مسلك البهرة فى التقية . ولم تستقر حياة هذا العالم الاسماعيلى إلا بعد وفاة أبيه .

(٢) الداعى عماد الدين : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٦٦ .

بطون الكتب بذلك ، فلا يعقل أن يتركوا الخلافة بعد أن ظفروا بها ، أو بالأحرى ، كان من المحال عليهم أن يعهدوا الأمر لغيرهم . ومن دراستنا لأفـــراد هذا البيت نستطيع أن نقول إنهم ظلوا جميعا على إخلاصهم لبيت إسماعيل . ولو شعر الأئمة المستورون بميلهم إلى الزعامة والجاه ، أو إلى الاستبداد بالأمور دونهم ، لما أبقوا عليهم يوما واحدا . وما أحسن ما قاله الداعي إدريس الإسماعيلي [١] : « وأشار المهدى بالله إلى محمد القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، ونشر لأهل دعوته فضله المبين ، وأدى اليه أمانته ، وسلم اليه رتبته ، وأعطاه وديعته التي استودعها الله إياه ، لم يجعل لسائر أولاده فيها نصيبا ، بل أقر الحق في مقره ، وجعله في مستقره » .

وأما كيفية انتقال الإمامة الى سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، فيكفي أن نقول : انه لما بدا للأئمة المستورين في سلمية خطر الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) عليهم ، حيث أخذ يوالي البحث عنهم ، تحتم على الامام الحسين أن يحفظ الامامة من الضياع ، فعهد بها الى حجته سعيد . والواقع أن هذا نوع من الحيطة لحفظ الامامة والدعوة ، وليست هذه سنة جديدة جرى عليها الاسماعيلية ؛ فقد لجأ جعفر الصادق الى المحافظة على محمد بن اسماعيل ، كما لجأ اليها الأئمة المستورون في الدور القداحي ، أو دور الستر .

ويختلف العلماء من الإسماعيلية في الإمام الذي نزل للمهدي عن الإمامة : فيرى أكثرهم أنه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل [٢]، ويرى غيرهم أنه علي ابن الحسين [٣]. إلا أننا نستطيع أن نقول إن مجرى الحوادث — على ما أوضحنا في كلامنا على الأئمة — يجعلنا نعتقد أن الإمام هو الحسين لا ابنه علي ، خصوصا أن هـذا الزمن القصير لا يتسع لأن يلي الإمامة فيه إمامان هما الإمام الحسين ثم ابنه الامام علي ، الذي ولد له الإمام أبو القاسم وهو القائم بأمر الله فيما بعد . ونحن نعلم أنه كان قد تزوج قبل خروجه [٤] من سلمية سنة ٢٨٨ هـ ، وهذا لا يمكن أن يتحقق في هذه الفترة القصيرة .

---

(١) زهر المعاني ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦٥

(٣) الخطاب : غاية المواليد ص ٣٦

(٤) اليماني : سيرة جعفر الحاجب (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ١٠٨

على أن هناك خلافا آخر أشد من هذا ، ذلك أن مؤلفات الاسماعيلية غاصة كلها أو معظمها بذكر سعيد الخير على أنه المهدى . وقد رأينا كتب الدرزية ، وهى من الكتب السرية عند الاسماعيلية ، تسمى المهدى سعيد الخير كذلك . إلا أن هناك بعض العلماء من الاسماعيلية الآخرين يفرقون بين سعيد الخير وبين المهدى نفسه فيقولون : إن سعيدا أخو المهدى ، وإن الإمام الحسين استودعه الإمامة ، فحاول انتزاعها من أخيه ، لولا وفاة أبنائه جميعهم ، وإدراكه آخر الأمر أن الإمامة ليست من حقه ، فرد الوديعة إلى مستقرها . يقول النيسابورى[1] ، وكان معاصرا للمعز والعزيز : « ولد لأحمد بن عبد الله ، الإمام الحسين ، وهو والد المهدى وسعيد الخير ، وأقام الحسين إلى أن ولد له المهدى ع م . فلما أتته نقلته استودع له أخاه سعيد الخير ، إذ كان ولده يومئذ فى حال الطفولة . واستبد سعيد بالإمامة ونص بها على ولده ، فهلك الولد ، ثم نص على ولده الثانى فهلك . وكان له عشرة أولاد ، فلم يزل ينص على كل واحد منهم إلى أن هلكوا بأجمعهم ، فعلم حينئذ سعيد الخير أن الحق لا يفارق أهله ، فتاب وأناب إلى الله ، تبارك وتعالى ! وجمع دعاته وأعلمهم أنه مستودع للمهدى — صلوات الله وسلامه عليه ! وسلم إليه الامامة ، واعترف له بالوديعة . وتنصل إليه مما تقدم منه قبل ذلك ، وصارت الامامة الى المهدى ع م . فقال الشاعر :

الله أعطاك التى لا فوقها ... وكم أرادوا منعها وعوقها
عنك ويأبى الله إلا سوقها ... إليك حتى طوّقوك طوقها »

فكيف يمكننا إذن أن نوفق بين هذا ، وبين ما نعرفه من أن عبيد الله المهدى هو نفسه سعيد . وقد يسأل البعض : هل سعيد الخير هذا هو الذى ثار عليه حمدان قرمط ؟ وقد ذكرنا من قبل أن الذى قابله عبدان — داعى حمدان وصهره — ادعى الانتساب الى ميمون القداح ، ولم يذكر انتسابه الى الحسين بن أحمد العلوى . وإذن نفترض افتراضا آخر ، وان لم يقل به أحد من قبل ، وهو أنه لا يبعد أن يكون سعيد الخير هذا ، وهو الذى ذهبنا الى أنه المهدى ، قد حاول الاستبداد بالأمر دون القائم ، إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد ، بسبب موت أبنائه جميعا ، وإدراكه آخر الأمر أنه افتأت على حق القائم بأمر الله ، صاحب الحق الشرعى ؛ وخصوصا أننا

(١) استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٥ — ٩٦ .

رأيناه فى سجلماسة وليس معه سوى القائم . وإن صح هـذا الافتراض استطعنا أن نذهب إلى القول بأن سعيد الخير — المهدى — قد حاول ذلك وهو بسلمية ، أى قبل سنة ٢٨٨ هـ ، حين فر منها مع القائم ولم يكن معهما الا حفنة من الدعاة . واذا كان الاسماعيلية الموالون له يقولون : « ان له أبناء كثيرين ، لم يجعل لواحد منهم فى الامامة نصيباً (١) » ، حتى إننا لم نسمع عن واحد منهم بعد ذلك ، فإن هذا يقوى الشك عندنا فى أن سعيد الخير هو المهدى لا أخوه .

وهكذا أصبح سعيد بن الحسين بن عبد الله القـداح إماما . وكان تربعه على عرش الإمامة فى وقت ازدهرت فيه الدعوة أيما ازدهار ، حتى كثر التنبؤ بظهور المنقذ من أهل البيت . ولم يكن هذا المنقذ سوى سعيد هذا . على أن مهمته كانت شاقة عنيفة ، إذ كان عليه أن يفر من اضطهاد الأعداء وتجسسهم عليه ، كما كان عليه أن يربط بين بحار الدعوة - أى أقاليمها الرئيسية - برباط متين ، وأن يوجه الدعوة الاسماعيلية توجيها عمليا ، حتى يستطيع إقامة الدولة الإسماعيلية الفاطمية المنشودة . وقد استطاع سعيد أن يضطلع بهذا كله ، على ما سنفصله بعد .

---

(١) الداعى عماد : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٧٠

الباب الثانى

عبيد الله

منذ تولى زعامة الدعوة الاسماعيلية حتى قيام الدولة الفاطمية

١ — موقف عبيد الله من أنصار الدعوة الاسماعيلية

أصبح سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح حجة الامام المستور ، وهو الحسين ابن أحمد . وعلى الرغم من أنه كان الرئيس الفعلى للدعوة الاسماعيلية ، كان وجود الامام بجانب الحجة يحد من نفوذ هذا الأخير كرئيس دينى سياسى لجماعة ثائرة تسعى لقلب النظام القائم من جميع نواحيه . غير أنه بنزول الحسين عن الامامة لسعيد وإيداعه إياها ليسلمها لابنه القائم بعد وفاته . اجتمعت الرياستان الروحية والزمنية فى يد هذا الزعيم الشاب ، أو بعبارة أخرى تركزت فى شخصه وظيفتان كبريان من أسمى وظائف الدعوة الاسماعيلية وهما : رتبة الامام والحجة . فأصبح سعيد بذلك المهيمن على شئون الدعوة قاطبة . ومن ثم عمل على أن يربط أنصار الدعوة بشخصه وخصوصا القرامطة . أنصار حمدان قرمط ، والحواشب أنصار ابن حوشب فى اليمن ، والمغاربة أنصار أبى عبد الله الداعى ، « فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه » ، ولكنه استطاع أن يحارب بمن أطاعه من عصاه .

(ا) موقف عبيد الله من القرامطة

١ — من القرامطة فى سواد الكوفة

تكونت جماعة القرامطة كفرقة من فرق الإسماعيلية ، قبل أن يتربع سعيد على عرش الحجابة ثم الإمامة بأكثر من ربع قرن . وكان الداعى الحسين الأهوازى

على ما رأينا — أول داع إسماعيلى فيهم . وقد استطاع فى عهد عبد الله بن ميمون القداح أن يبث الدعوة فى سواد الكوفة ، ويستميل اليه حمدان قرمط الذى تنسب إليه هذه الفرقة ومعه جماعة كبيرة . ومما ساعده على ذلك أن حمدان كان على رأس جماعة يؤمنون بنظرية المهدى ، حتى اعتقد بعض أنهم بقايا الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية وأبنائه من بعده . وكانت سلمية تغذى القرامطة بالمبادىء والدعاة من حين إلى حين . كما استطاع هؤلاء القرامطة أن ينشئوا لهم فى سواد الكوفة دار هجرة (سنة ٢٧٧ هـ) كانت مثالا احتذاه الإسماعيلية الآخرون ، وخاصة فى بلاد المغرب واليمن ثم البحرين ، كما استطاعوا بعد قليل أيضا أن يزعجوا العباسيين. ولو انضم هؤلاء إلى صاحب الزنج فى ثورته (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) لقضوا على الدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى .

ولما أصبح سعيد بن الحسين « الحجة » ، واستقل بالإمامة ، كانت الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة منتشرة فقط فى سواد الكوفة وفى جزء من جنوب فارس الغربى . وكان من أثر تولية سعيد الإمامة أن تغير تنظيم الدعوة بين القرامطة ؛ فثار حمدان قرمط عليه . وكان لثورته نتائج بعيدة المهدى ؛ منها إلقاء بذور الدعوة الإسماعيلية فى بلاد البحرين على الخليج الفارسى غربا ، على يد أبى سعيد الجنابى رئيس الجنابية ، وتكوين جماعة قرمطية أخرى عملت على أن تتربع على عرش الدعوة القرمطية لتحل محل قرامطة السواد ، وهؤلاء هم قرامطة زكرويه بن مهرويه أو قرامطة الشمال .

وتعتبر ثورة حمدان قرمط أول امتحان لمقدرة سعيد كزعيم دينى ؛ فقد عز على حمدان زعيم القرامطة ، أن يرى على عرش الامامة داعيا لا يمت الى العلويين بنسب ، كما عز عليه أن يفاجأ بهذا الانقلاب دون سابق معرفة بذلك . ويدعى المؤرخون السنيون أن بنى القداح ادعوا الانتساب الى عقيل بن أبى طالب ، وأنهم ظلوا على ذلك الادعاء ، حتى تولى سعيد رياسة الدعوة ، فخرج على تقاليد أسرته ، وادعى الانتساب الى على بن أبى طالب عن طريق محمد بن اسماعيل [1] . والحق أن ادعاء أسرة القداح النسب الى عقيل بن أبى طالب كان - اذا صح - نوعا من التقية ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٣ ورقة ٧٠

شأنهم فى ذلك شأن أئمتهم المستورين ، الذين ادعوا فى سلمية أنهم من بنى هاشم العباسيين ، واستطاعوا بفضل ذلك أن يمهدوا للدعوة حتى أحرزوا كثيرا من النجاح .

وأما ادعاء سعيد النسب الى محمد بن اسماعيل ، فلم يكن بسبب طموحه ، كما ذهب اليه الشريف أخو محسن[1]، بل كان تلبية لنداء واجبه الدينى ، كما كان تلبية لنداء إمامه المستور ، وحفظا لكيان جماعته . ويظهر أن حمدان قرمط لم يستطع أن يستسيغ هذا الانقلاب ، كما لم يستطع أن يفهم نظرية الاستقرار والاستيداع ، أو على الأقل لم يقم سعيد القداح بإيضاح هذه النظرية للقرامطة . ولاعجب فى ذلك ، فإن رئيسهم حمدان قرمط كان بقارا لا يستطيع فهم هذه النظريات . على أننا نرى أن سفيره الى سعيد كان عبد الله الداعى العالم النشيط . وهل يرجع ذلك الى أن سعيدا كان يريد إبعاد حمدان وعبدان عن زعامة الدعوة بالعراق ، وأن يعين بدلها شخصا يثق به ؟ أو بعبارة أخرى ، هل كان سعيد يريد أن يولى على عرش الدعوة بالعراق شخصا يؤمن بالحركة الانقلابية الجديدة التى أحدثها الإمام الحسين بتولية سعيد بن الحسين الإمامة ؟ الواقع أن سعيدا قد ولى على العراق داعيا جديدا ـ كما سنرى ـ ومنحه السلطة المطلقة هنالك[2] . إلا أن هـذا التغيير قد يكون نتيجة لانتقاض حمدان لا سببا له . فهل يرجع ذلك الانتقاض إلى أن حمدان قرمط من الكيسانية ، وأنه قد أصبح يحن إلى مبادئهم ، فانتهز فرصة انتقال الإمامة من بيت على إلى بيت القداح ، فانتقض على الدعوة الإسماعيلية ؟ ولـكن هذا الافتراض ، رغم وجاهته ، يقف فى وجهه بقاء القرامطة فى السواد على إخلاصهم لمحمد بن إسماعيل حتى عهد أبى طاهر الجنابى (٣٠٥ — ٣٣٢ هـ) . ومهما يكن من شىء فقد دل انتقاض حمدان قرمط على سعيد الخير على أن هناك شيئا من عدم الاستقرار فى الدعوة الإسماعيلية ، كما دل فى الوقت نفسه على أنه كان هنـاك بعض زعماء من القرامطة يخشى بأسهم .

اختفى حمدان من ميدان الدعوة الاسماعيلية ، ولا نعلم عنه بعد ذلك شيئا ، فهل قتل ؟ واذا كان كـذلك فمن الذى قتله ؟ وإن اختفاءه بعد ذلك الانتقاض وفى ذلك

(١) من العلويين العلماء الذين نبغوا فى القرن الرابع الهجرى

(٢) النيسابورى : استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٦ .

الوقت بالذات يدل على أن سعيدا ، أو على الأقل أنصاره ، قد تخلصوا منه (١)، أو هل عاد حمدان قرمط إلى حظيرة الإسلام على المذاهب السنية ؟ لو أنه فعل ذلك لما سكت المؤرخون السنيون . ويبين لنا هذا الحديث الذى دار بين عبدان وبين على بن عبد الله القداح (أو ابنه) عقيدة القرامطة بعد انتقاضهم ، إذ عرّفه «عبدان أنهم قد قطعوا الدعوة ، وأنهم لايعودون فيها ، وأن أباه كان قد غرهم وادعى نسبه من عقيل بن أبى طالب كذبا ، ودعا الى المهدى ، فكنا نعمل ذلك . فلما تبيّنا أنه لا أصل لذلك ، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان ، وأنه صاحب الأمر تبنا إلى الله مما تحملنا ، وحسبنا ما كفرنا أبوك ، فتريد أن تردنا كفارا ؟ انصرف عنا إلى موضعك (٢)» .

على أن ارتداد القرامطة عن المذهب لم يكن عاما ، لأن زعماءهم لم يستطيعوا اقتلاع مبادىء هذا المذهب من البلاد البعيدة ، «ولم يمكنهم قطعها من غير ديارهم ، لأنها كانت قد امتدت فى سائر الأقطار وامتد شرها(٣)» . ولكن ألم يكن سعيد يتوقع حركة كهذه يقوم بها القرامطة ؟ وإذا كان كذلك فما الجهود التى بذلها فى هذه السبيل ؟ يبدو أن سعيدا كان يتوقع ثورة القرامطة عليه ، ولذا أوجد فى معسكر حمدان وعبدان جماعة من دعاة الهزيمة ممن يوافقونه ويخالفونهم . يتضح ذلك من مخالفة الداعى ابن مليح لرئيسه حمدان حين حاول إرساله إلى سلمية ليتعرف أمر سعيد . ولو كان ابن مليح على رأى أستاذه حمدان لأجاب طلبه .

ولم يكن هذا كل ما كان يعول عليه سعيد ، فقد عين فى رياسة دعوته داعيا جديدا يثق به . حقا لم تذكر المراجع الاسماعيلية كلمة واحدة عن حمدان قرمط ، وكأنهم بذلك يتجاهلون الدور الخطير الذى قام به فى نشر الدعوة الاسماعيلية بين القرامطة ، ولكنهم يذكرون أن أول عمل قام به المهدى حين أصبح إماما أنه ولى داعيا جديدا ،

---

(١) كان ذلك فى سنة ٢٨٦ هـ أو قبلها بقليل ؛ لأن زكرويه اختفى منذ هذه السنة تحت ضغط أتباع حمدان وعبدان .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٣ ورقة ٧٠ . مما يدلنا على أن السنيين كانوا يعتقدون تكفير بيت القداح ويرمونهم بأنهم ثنوية ، على عكس ما يعتقده الاسماعيلية .

(٣) نفس المصدر والجزء والورقة

ولابد أن يكون هذا التعيين الجديد قد تم بعد انتقاض حمدان قرمط عليه ، ليستطيع مواجهة موقفه الجديد . ولذلك نرى هذا الداعى يتدخل فى شئون الدعوة بالعراق ، فيعزل من يشاء ويولى من يشاء ، مما يدل على أن رد المهدى على حمدان وأنصاره كان سريعا وحازما . يقول النيسابورى[1] : « فأول ما عمل المهدى ع م بعث فى طلب أبى الحسين بن الأسود الى مدينة حماة ، وكان رجلا عاقلا فقال: يا أبا الحسين! قد قدمتك على جميع الدعاة ، فمن قدمت فهو المقدم ، ومن أخرت فهو المؤخر . . . وكان الدعاة يأتون الى أبى الحسين ويؤدون إليه زكاتهم وهداياهم ، فيوجه بها أبو الحسين إلى المهدى » . وكان أول ما قام به أبو الحسين أن عزل أبناء زكرويه عن سواد الكوفة . مما يدل على أن تعيينه قد تم بعد حادث انتقاض حمدان .

ولم يكن ما فعله المهدى كافيا لاقرار أمور الدعوة فى بلاد العراق ، لا سيما إذا علمنا أنه كان هناك فى الطالقان زعيم قداحى آخر ، هاله انتقاض حمدان على الدعوة أو على قريبه سعيد ، فقدم العراق وحاول اجتذاب حمدان وعبدان وإعادتهما إلى حظيرة هذه الدعوة . غير أن رد عبدان عليه كان ينطوى على الغلظة والشدة ، مما جعل ذلك القداحى يتآمر مع زكرويه على قتل عبدان . ويقلده رياسة الدعوة بسواد الكوفة متخطيا زعامة قريبه سعيد . فكأن قداح الطالقان جعل بذلك من نفسه الرئيس الأعلى للدعوة ، كما جعل من زكرويه نائبا عنه فى العراق[2] . ومعنى ذلك أن سعيدا واجه خطرا مزدوجا من قرامطة حمدان وعبدان ، ثم من قرامطة عمه على بن عبد الله بن ميمون القداح وزكرويه بن مهرويه . ولا ندرى أكان قداح الطالقان قد اعتزم الثورة على ابن أخيه سعيد ، أم أنه رأى أن يقوم بهذا العمل السريع إنقاذا للموقف الخطير الذى أصبح فيه زعماء سلمية . إلا أننا نستطيع أن ندرك من إقصاء بيت زكرويه عن رياسة الدعوة بالكوفة ، ثم من تشكك المهدى فى إخلاص أبناء زكرويه ، بأن ماحدث على يد على بن عبد الله بن ميمون القداح كان على غير هوى المهدى .

---

(١) استتار الامام (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦) ص ٩٦

(٢) شرح زكرويه لأنصاره موقف هذا القداحى منه ، ,, فعرفهم أنه ابن الحجة ، وأن الحجة توفى وأن ابنه هذا يقوم مقامه . فأجلوه وعظموه ،، . النويرى : ج ٢٣ ص ٧٠

ولهذا نرى أن ثورة حمدان قرمط كانت بعيدة الأثر ، فقد فككت وحدة القرامطه ، وأدت إلى تكوين فرع قرمطى جديد بزعامة زكرويه ، وعلى بن عبد الله ابن ميمون قداح الطالقان . على أن موقف ذلك الفرع من عبيدالله المهدى الإمام ، لم يتضح تمام الوضوح ، على الرغم من وجود جماعة أخرى من أنصار حمدان قرمط ظلت على ولائها لمحمد بن إسماعيل والدعوة الإسماعيلية . وقد بقى هؤلاء مستقلين عن قرامطة زكرويه فى الشمال وقرامطة أبى سعيد الجنابى فى البحرين . وقد أدى هذا الفريق واجبه كفرع من فروع الإسماعيلية ، فثاروا على العباسيين بسواد الكوفة فى سنة ٢٨٧ هـ ، كما ثاروا فى سنة ٢٨٩ بزعامة أبى الفوارس أخلص دعاة حمدان وصهره عبدان ، وكانوا فى هاتين الثورتين عنيفين كل العنف ، كما كانوا مستقلين عن القرامطة الآخرين .

ويدلنا رد الداعى أبى الفوارس على الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) على إغراق هذه الجماعة فى حب العلويين ، كما يدلنا فى الوقت نفسه على الجرأة والإقدام اللذين امتاز بهما قرامطة السواد . فانظر إلى هذا الحديث الذى دار بين أبى الفوارس والخليفة المعتضد العباسى ؛ قال المعتضد : « هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل فى أجسادكم ، وتعصمكم من الزلل ، وتوفقكم لصالح العمل ؟ فقال له : ياهذا ! إن حلت روح إبليس فما ينفعك ؟ فلا تسل عما لا ينفعك ، وسل عما يخصك . فقال (المعتضد) : فما يخصنى ؟ قال : أقول : إن رسول الله ﷺ — مات وأبوكم العباس حى ، فهل طلب الخلافة ؟ أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر ، وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ، ولا أدخله فيهم ؛ فماذا تستحقون اسم الخلافة ، وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها[1] ؟ » .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل إننا نشاهد فى سنة ٢٩٥ هـ ، أى قبل قيام الدولة الفاطمية بسنة واحدة ، ثورة خطرة تقوم فى سواد الكوفة على يد خليفة أبى الفوارس — ويدعى أبا حاتم البورانى — رئيس البورانية الإسماعيلية . وهذا يدلنا على أنه كانت هناك جماعة من قرامطة السواد ، ظلت على ولائها لمحمد بن إسماعيل ، وأنها كانت من أخلص الناس لحمدان قرمط . فهل نفهم من هذا

(١) المقريزى : رتبة الفكرة ج ٥ ص ١٢٨

أنهم لم يعودوا إلى حظيرة سعيد الخير الإمام ؟ الواقع أنهم أفادوا سعيدا فائدة جمة حين شغلوا جيوش العباسيين عنه من سنة ٢٨٧ إلى سنة ٢٨٩ هـ ، حتى استطاع الإفلات من سلمية آمنا . كما شغلوهم هم وغيرهم من القرامطة فى سنة ٢٩٥ هـ . وبذلك لم يستطع العباسيون إنقاذ الأغالبة الذين تعرضوا لهجمات الإسماعيلية العنيفة بقيادة أبى عبد الله الداعى من قرامطة الشمال .

والآن ننتقل إلى الكلام على موقف قرامطة زكرويه بن مهرويه من سعيد الخير. كان أبو محمد زكرويه بن مهرويه من كبار دعاة حمدان قرمط ، وكان يخضع مباشرة لصهره عبدان الرئيس الثانى للدعوة الإسماعيلية بين قرامطة السواد . فلم يكن زكرويه أول داع إسماعيلى بين القرامطة — كما زعم المقريزى (١) . ويبدو أن زكرويه كان من تلامذة مدرسة القرامطة الأولى ، حتى عده النيسابورى (٢) الإسماعيلى من دعاة عبد الله الأكبر ، أى من دعاة عبد الله القداح الحجة ؛ ولذلك فإن حمدان لما انتقض على سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وجد على بن عبد الله ، الذى كان بالطالقان ، فيه الرجل الذى يعول عليه ، فأحله محل حمدان قرمط فى رياسة الدعوة بالسواد ، على ما تقدم .

وهنا نقف قليلا لنرى سعيدا الخير حائرا فى سلمية أمام حالة التقلقل التى أوجدها انتقاض حمدان عليه . لذلك لم يقر عمه عليا ، قداح الطالقان ، على ما فعل ، كما لم يرض عن تعيين زكرويه أو أبنائه على الكوفة ، بدليل ما قام به داعى دعاته أبو الحسين من عزل أبناء زكرويه عن الكوفه . ولكن كيف نفسر قول النيسابورى(٣): « لما مات أبو محمد - زكرويه - داعى الكوفة ، وكان قد خلف ثلاثة أولاد ، وهم أبو القاسم (صاحب الناقة) وأبو مهزول (صاحب الشامة) وأبو العباس ؛ وكان معهم زوج أختهم فقتلوه ، وقالوا له : أنت مبغض لنا ومخالف على مولانا . وصاحت أختهم وقالت : قتلتم زوجى ! فقالوا : نعم ! لأنه منافق . فخلع أبو الحسين (داعى الدعاة) أبا القاسم بن أبى محمد عن دعوة الكوفة ، فغضب أبو القاسم وإخوته

(١) اتعاظ الحنفا ص ١٠٧

(٢) استتار الامام ص ٩٣

(٣) المصدر نفسه ص ٩٦

غضبا شديدا ، وكتبوا إلى المهدى صلوات الله عليه يقولون : لمَ نزع أبو الحسين منا دعوة الكوفة بلا ذنب ولا خيانة ؟ فلم يرد عليهم المهدى جوابا . واجتمع الإخوة الثلاثة ، وتحالفوا وتعاقدوا على أنهم ينحدرون إلى سلمية فيقتلون ابن البصرى ، هذا الذى كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ولا نتركه ، وقالوا : حتى ينقطع ذكر على بن أبى طالب من الدنيا ، ونقتل بعده أبا الحسين ، وإلا وشينا بذلك إلى عمال الشام » ؟

من ذلك نرى أن أبناء زكرويه قاموا بعمل يستحقون عليه ثناء المهدى ، ولكنهم قوبلوا بعكس ما كانوا يؤملون : قتلوا زوج أختهم لأنه مخالف للمهدى ، ولا نعرف أنه كان هناك بين القرامطة مخالف غير حمدان وعبدان . ولما كانت المراجع السنية الكثيرة التى بين أيدينا تؤكد أن قتل عبدان كان على يد زكرويه وأنصاره ، فلا يبعد أن يكون عبدان زوجا لابنة زكرويه . ثم لماذا لم يقابل المهدى هذا العمل بالتقدير وإنما قابله بعزل فاعليه ؟ يبدو أن المهدى أقدم على ذلك ، لأن زكرويه وأبناءه لم يفعلوه بأمره بل بأمر سواه ، فاعتبرهم منتقضين عليه كحمدان وعبدان سواء بسواء . ثم ما المقصود بعبارة ابن البصرى ؟ يظهر من سياق هذه العبارة أنه المهدى . وبهذا يتفق الإسماعيلية مع الطبرى وعريب بن سعد وسواهما[١] فى إطلاق اسم ابن البصرى على المهدى . كما نفهم من منطوق تلك العبارة مدى الاضطراب الذى أصاب هذه الدعوة فى العراق ، والعلاقة السيئة التى قامت بين إسماعيلى هذه البلاد ورياسة الدعوة فى سلمية . وهنا نلاحظ أن النيسابورى يذكر فى شىء من التأكيد أن زكرويه لم يكن حيا فى ذلك الوقت أى فى سنة ٢٨٦ هـ ، مع أنه حارب العباسيين ، ودوخ جيوشهم فى العراق وفى البادية حتى قتل فى سنة ٢٩٤هـ . ويبدو أن النيسابورى اعتقد موت زكرويه فى الوقت الذى اختفى فيه .

وإذا كانت هذه هى آراء الإسماعيلية فى الاتجاهات الجديدة بعد موت عبدان واختفاء حمدان وانتقاضه على سلمية ، فإن السنيين يذهبون إلى القول بأن زكرويه لما قتل عبدان ، تتبعه قرامطة السواد (وهم أنصار حمدان وعبدان) ، فاضطر إلى الاختفاء فى مطمورة (حفيرة فى الأرض) بإحدى قرى سواد الكوفة ، وأمعن

---

(١) صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٢٧ .

فى التخفى منذ سنة ٢٨٦ هـ [١]. ويرى ابن خلدون أن استخفاءه كان راجعا إلى تتبع جيوش العباسيين له ، وإخفاقه فى اجتذاب أحياء كلب إلى دعوته الجديدة [٢]. والواقع أن هذين السببين معا هما اللدان حملاه على الاستخفاء . ويصح أن نضيف سببا ثالثا ، هو رغبته فى أن يقوم بتمثيل دور الأئمة المستورين ؛ فيعمل وهو فى مخبئه ، حتى يستطيع بذلك أن يحتفظ لدعوته الجديدة بالحيوية والقوة ما دام الرأس المفكر فيها لم يمسسه أحد بسوء . أضف إلى ذلك خوفه من أن يناله ما نال حمدان على يد رؤساء الدعوة بسلمية . وبهذا نرى أن زكرويه قد ثار على قرامطة السواد ، وأغضب رؤساءه فى سلمية ، « فخالفه القوم إلا أهل دعوته [٣] » .

وجه زكرويه نشاطه نحو الشمال ، فلم يتجه جنوبا خوفا من نشاط أبى سعيد ، كما لم يستطع الإبقاء على دعوته فى بلاد السواد ، حتى لا يعترضه الفرع القرمطى الرئيس ، وهم أتباع حمدان الذين ظلوا على ولائهم له وللدعوة الأساسية . ومن ثم وجه أبناءه ولاسيما أبا القاسم يحيى (صاحب الناقة) وأبا مهزول (صاحب الشامة) إلى بادية السماوة وبلاد الشام . ولا غرو فقد كانت بادية السماوة فى قبضة جماعة من الأعراب الذين اعتنقوا المذهب الإسماعيلى ، كما كانت بلاد الشام نفسها فى حالة من الضعف لا تستطيع معها مقاومة أو نضالا . ولم يكن للعباسيين نفوذ أو سلطان فى هذه البلاد ، لأنها كانت فى قبضة الطولونيين الذين دب إليهم الضعف واعتراهم الوهن أيضا فى عهد هارون بن خمارويه . أضف إلى ذلك أن أهالى تلك البلاد كانت لهم دراية وإلمام بالمذهب الإسماعيلى ، منذ اتخذ الأئمة المستورون سلمية موطنا ودار هجرة . فلا يبعد أن تكون الدعوة الإسماعيلية قد أخذت تتسرب من سلمية إلى بعض مدن الشام ، وأنه قد أصبح لها أنصار وأتباع فى كثير من المدن الشآمية وباديتها [٤] .

فهل كان اتجاه أبناء زكرويه إلى بلاد الشام دليلا على رغبتهم الخالصة فى الاتصال برئيسهم الأكبر فى سلمية ؟ لقد حاولوا الاتصال بالمهدى غير مرة ، واعتذروا له عما فرط منهم ، وأعلنوا أنهم يريدون أن يكوّنوا دولة الفاطميين المنشودة فى

---

(١) النويرى : نهاية الأدب ج ٢٢ ورقة ٧٠ ، ٧١

(٢) العبر ج ٤ ص ٥٦

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١١٥

(٤) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية فى الحياة السياسية ج ١ ورقة ١٠٢

بلاد الشام نفسها . هذا ما حاول الأستاذ إيڤانو [١] الذهاب إليه ؛ ولكن المراجع الإسماعيلية تنفى ذلك ، وتذهب إلى الإسراف فى لعن أبناء زكرويه . ودليل آخر هو أن سعيدا الخير إنما خرج من سلمية خوفا من أبناء زكرويه ، وأنه لم يستمع لاعتذاراتهم المتتالية ، مما يدلنا على عدم ثقته فيهم . كما أن الحسين بن زكرويه عمل على التخلص من جميع أقارب سعيد الخير ، حتى إنه لم يُبق له منهم عينا تطرف . ولو كان من أنصاره لما فعل ذلك .

والذى نلاحظه فى حركة أبناء زكرويه ، أنهم كانوا على قدر كبير من الذكاء ؛ فقد استغلوا حالة الانحلال السياسى فى تلك البلاد ، وتأثير المذهب الإسماعيلى فيها ؛ فنادوا بإمامة محمد بن إسماعيل وانتموا إليه . ومن قائل إنهم ادعوا نبوته ، ومن قائل إنهم زعموا أن أباهم حجة الإمام المستور ، وإنهم فروا من وجه العباسيين ، ولجئوا إلى قبائل بنى كلب الذين اعتنق كثير منهم هذا المذهب ، وتفانوا فى طاعتهم ، واعتقدوا أنهم يعاونون بذلك أبناء الرسول ، وسموا أنفسهم الفاطميين . ولا بد أنهم كانوا قبل ذلك موالين لرياسة المذهب ، وأنهم أسندوا رياستهم إلى « يحيى بن زكرويه » ، وهو أبو القاسم بن أبى محمد ، الذى استغل هذه الظروف المواتية ، وادعى أن النصر حليفهم ، وأن ناقته مأمورة ، إن تبعوها ظفروا وإلا أخفقوا . ومن ثم سمى « صاحب الناقة » ، وسماه أنصاره « الشيخ » ، فتمكن من قلوب أنصاره فى بادية السماوة منذ سنة ٢٨٩ هـ . يقول الطبرى [٢] : « إن يحيى تسمى بمحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وزعم أن أباه المعروف بأبى محمود داعية له ، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع ، فانحازوا له وتسموا الفاطميين ودانوا له » . ونحن نشك كثيرا فيما ذكره الطبرى ؛ لأن محمد بن إسماعيل أنجب عبد الله الرضا ، وهو عبد الله الأكبر ، الذى اعتبره الإسماعيلية الإمام الثانى من الأئمة المستورين . إلا أن عبارة الطبرى تشير فى الوقت نفسه إلى فكرة الحجة والإمام ، وتبين أنه لو صدق أبناء زكرويه ، لكان أبوهم حجة قد حل من أئمة الدعوة العلويين محل أبناء القداح ، وفى ذلك معنى الثورة الصريحة على سعيد الخير . وإذا كان يحيى قد أعلن هذا وهو ببادية السماوة فى سنة ٢٨٩ هـ ، فقد اشتم منه سعيد رائحة الشر ، ومن ثم

---

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, p. 91

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ١١ ص ٢٧٧ — ٢٧٨

غادر قصوره وأهله بسلمية، واتجه جنوبا مع إمامه المستقر أبي القاسم (القائم بأمر الله) وبعض المقربين إليه من الدعاة.

ويتفق مؤلفو الإسماعيلية معنا في اعتقادهم أن مجيء أبناء زكرويه إلى بلاد الشام كان السبب المباشر لهرب سعيد الخير من سلمية، فقد رأيناهم يتآمرون فيما بينهم على قتله وقتل كبير دعاته أبي الحسين. ولا يبعد أن يكون ما ذهب إليه الطبري صحيحا من ناحية أنهم ادعوا أن أباهم داع لمحمد بن إسماعيل، وأنهم لا يعترفون بإمامة غيره، أى بإمامة سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح؛ بل لقد اعتبروه خارجا على المذهب نفسه. يدلنا على ذلك تلك العبارة القيمة التي أوردها النيسابوري الإسماعيلي في كتابه استتار الإمام[1]، حين يتكلم على علاقة أبناء أبي محمد زكرويه مع المهدي فيقول: ولما اتصل خبر مجيئهم « بدعاة بغداد . . . وجماعة من الشيعة، كتبوا إلى المهدي (ع م) أن بني أبي محمد قد عزموا على قتالك، وقتل أهلك. فإن كنت قاعدا فقم، فإنهم زحفوا إليك، وهم عازمون على قتالك، فإن لم يجدوا إلى ذلك سبيلا. وشوا بك إلى « هارون بن » أحمد بن طولون. وهم يقولون إنك مخالف للمذهب، ويشهرون أمرك. فاعمل على خلاص نفسك، ولا تقم ساعة واحدة » ، وذلك مما دعاه إلى الفرار. ولم يكن هؤلاء القرامطة إذن يرمون من وراء حركتهم هذه إلى تكوين دولة تخضع لسعيد الخير، وإنما كانوا يريدون قتله وقتل أهل بيته؛ فلما لم يتمكنوا منه قضوا على جميع أسرته.

ولا يهمنا أن نتتبع هنا حروب أبناء زكرويه في بلاد الشام، وإنما يهمنا جلاء بعض المسائل الغامضة لتوضيح العلاقة بين المهدي وقرامطة الشمال. ومن هذه المسائل:

أولا: أن المراجع الإسماعيلية تذكر أن سعيدا القداح خرج من سلمية قبل وصول أبناء زكرويه إلى الشام في أواخر سنة ٢٨٩ ﻫ بسنة واحدة، وأنه قضى هذه المدة أو ما يقرب منها وهو يختلف إلى مدن سورية وفلسطين، ولا سيما الرملة التي بقى بها حتى تمت هزيمة يحيى بن زكرويه وأخيه الحسين بن زكرويه في أوائل سنة ٢٩١ﻫ. ومعنى ذلك أن المهدي خرج من سلمية في سنة ٢٨٨ ﻫ، واستمر بالرملة. فهل كان

(١) مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦، ص ٩٦ — ٩٧.

سعيد يقف تلك الوقفة الطويلة رجاء نجاح أبناء زكرويه فى احتلال الشام، ثم يعود هو إليهم ؟ أو أنه أراد أن يجلس على عرش أقامه منافسوه من أبناء زكرويه ؟ إننا نشك كثيرا فى ذلك، لأن الحسين بن زكرويه اتصل به فى سنة ٢٨٩ ﻫ وهو فى مدينة الرملة، وحاول إغراءه ليعود إلى سلمية، فى الوقت الذى كان أخوه يحيى ابن زكرويه (أبو القاسم) على حصار دمشق . فماذا قال ابن زكرويه ؟ وبماذا أجاب المهدى ؟ قال ابن زكرويه للمهدى : «يامولانا ! أخرجنا من بلدنا أنا وإخوتى ندور عليك . فالحمد لله الذى جمع بيننا وبينك . أخى (يقصد أخاه يحيى المكنى أبا القاسم) قدم بالعسكر، وحصر دمشق وتركته على أخذها . فارجع فقد استقام لك الأمر، فما جئنا من بلدنا إلا لترضى عنا، ولا تكن ساخطا علينا . وهـــذا من فعل أبى الحسين الذى أقلقنا وأقلقك، فإن كنت لا تمضى أنت، فاكتب كتابا إلى أخى ليرضى عنى، فإنه ساخط على[1] » .

ولو أن الحسين بن زكرويه كان موضع ثقة المهدى، أو أنهما كانا على وفاق، لأجابه على الفور وانتقل معه إلى دمشق . وإنما الذى فعله المهدى، أنه كتب إلى أخيه يحيى بن زكرويه كتابا قال فيه : « ارض عنه، ولا تؤذه بشىء، وأنا قادم فى إثر كتابى[2] » ، كما أرسل إلى داعى دعاته أبى الحسين كتابا آخر يطلب فيه أن يمنحه بعض المال . ومع ذلك لم يعبأ المهدى ولا داعى دعاته بهؤلاء .

ويظهر أن ما فعله الحسين (أبو مهزول) بن زكرويه كان خدعة حربية، رمى من ورائها إلى الحصول على شخص المهدى والتخلص منه بعد ذلك، أو أنه كان يرمى إلى الحصول على رسالة منه يستغلها فى إثارة حماسة أتباعه من القرامطة . ولا يبعد أن بنى زكرويه لما رأوا احتدام الصراع بينهم وبين طغج بن جف ـــ أبى محمد الإخشيد صاحب مصر ـــ وكان على دمشق من قبل هارون بن خمارويه، وأن المصريين سوف يمدونه بالمال والرجال، رأوا أن يستغلوا شخص المهدى وماله، فإنهم قبل الذهاب معهم إلى دمشق قالوا : إنه نائبهم وحجتهم، واتخذوه تكأة للحصول على كل ما تصبو إليه نفوسهم، وإلا أخذوا منه مالا يستعينون به

(١) النيسابورى : استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٨

(٢) المصدر نفسه

على الفتح ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، أخذوا منه رسالة تدل على رضائه عنهم للتأثير فى الذين لا يزالون على حب المهدى ، حتى لا يكونوا من عوامل هزيمتهم . وإذا صح ماذهبنا إليه ، دل على مهارة أبناء زكرويه . وقد أفاد يحيى بن زكرويه (أبو القاسم) وأخوه الحسين (أبو مهزول) من تلك الرسالة ، إذ وافق أنصار يحيى ، وكان عامتهم من إسماعيلية المهدى وصنائع أبى الحسين داعى دعاته ، على تولية الحسين عهد أخيه . ولم يلبث أن قتل يحيى على أبواب دمشق على أيدى الجنود المصريين ، وعلى رأسهم بدر الحمامى قائد أحمد بن طولون ، وذلك فى أوائل سنة ٢٩٠ هـ ، وتسلم الحسين (أبو مهزول) زمام الأمور بين قرامطة الشمال .

أما المراجع السنية فتذهب إلى القول بأن أبناء زكرويه نادوا بالاشتراكية وحملوا « موالى بنى العليص (وهم فرع من قبيلة كلب) على صريحيهم (رؤسائهم) ، فقتلوا جماعة منهم واستذلوهم [١] » . وقد انتصروا هم ومن انضم إليهم من الكلبيين على والى الرصافة فى سنة ٢٨٩ هـ [٢] . ومن ثم توغلوا فى بلاد الشام نفسها ، فلم يستطع طغج بن جف والى الشام أن يصدهم ، فهزموا جيوشه فى مواقع متكررة ، حتى ضربوا الحصار على دمشق فى العام نفسه سبعة أشهر ، إلى أن قتل على أبوابها يحيى ابن زكرويه . وهكذا لم يتعرض المؤرخون السنيون للعلاقة القائمة بين المهدى وهؤلاء القرامطة ، ولم يذكروا أين كان يختفى المهدى وقتئذ ، كما لم يذكروا الدور الذى قام به الحسين بن زكرويه مع المهدى . وكل ما قالوه إن يحيى بن زكرويه ضرب نقودا كتب على أحد وجهيها : « قل جاء الحق وزهق الباطل » ، وعلى الوجه الآخر : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » ، مما يدلنا على أن يحيى كان ينادى بأحقية العلويين ، وأن دعوته نالت كثيرا من النجاح حتى تقرمط « أكثر من حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوها »[٣] .

وقد أخطأ كثير من العلماء السنيين فقالوا : إن يحيى بن زكرويه الذى قتل على أبواب دمشق ، هو على قداح الطالقان ، الذى اتفق مع زكرويه على قتل عبد الله

(١) الطبرى : الأمم والملوك جـ ١١ ص ٣٧٧

(٢) رصافة هشام : غربى الرقة ، بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٣٢٢ ، والغوطة هى الكورة المحيطة بدمشق .

والذهاب مع أبنائه إلى بلاد الشام[١] .

ثانيا : وأنه بعد اضطلاع الحسين بأمور الدعوة القرمطية ، حاول اتخاذ حمص محل دمشق . وقد نجح فى ذلك نجاحا يذكر ؛ لأنه نظم جيوشه ، وعين أقاربه والمخلصين فى حبه عليها : فجعل ابن عم له قائدا من قواده ، ولقبه المدثر وولاه عهده ، وعهد إلى قريب آخر بقتل أسرى المسلمين ، لئلا يكونوا عبئا عليه ، وغالى فى التظاهر — على ما يقوله السنيون — بالإخلاص للمذهب الإسماعيلى ، فتسمى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وسمى ابن عمه المدثر عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل . ومما يلفت النظر حقا ، سرعة استيلائه على حمص ، إذ استطاع قتل حاميتها المصرية ، واتخذها قاعدة لنشاطه وقوته ؛ بل تذهب المراجع الإسماعيلية إلى القول بأن أهلها كتبوا «إلى أبى مهزول : أن اقدم علينا ، ودع دمشق ، فإنا فى طاعتك . فقدم حمص ، وخلى عن دمشق [٢] » . ذلك أن أهل حمص كانوا أكثر استعدادا لتقبل المذهب الإسماعيلى . ولا غرو فإن سلمية — المقر الرئيس للأئمة الإسماعيلية المستورين — أقرب منها إلى دمشق . ومن ثم خطب على منابرها ، وتلقب بلقب

---

(١) ولا يمكننا أن نوافق على هذا للأسباب الآتية : —

(أ) إن المقريزى ، وهو الذى ذكر ذلك ، ذكر فى موضع آخر أن زكرويه أكد بأنه أرسل ابنيه يحيى والحسين إلى بلاد الشام فقتلا هنالك (المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١١٥) .

(ب) وإن على بن عبد الله القداح (قداح الطالقان) كان من الذكاء بحيث لم يلق بنفسه فى معامع الحروب ، وكانت الطريقة المألوفة عند زعماء القداحية أن يعملوا فى الخفاء إلى أن تحين الفرصة للظهور . ولا نتصور أن يفعل هذا من تمكن بدهائه من القضاء على زعماء من ذوى الشأن ، كحمدان قرمط وصهره عبدان ، ومن تمكن فى نفس الوقت من النجاح فى تكوين حزب قوى جديد برياسة زكرويه استطاع أن يقف فى وجه الطولونيين والعباسيين معا .

(حـ) إذا كان من الثابت أن يكون يحيى هذا قد دعا إلى نفسه وانتمى إلى محمد بن إسماعيل ، وأن أخاه الحسين قد دعا إلى نفسه أيضا ، وانتمى إلى محمد بن إسماعيل ، وأقر غير مرة أنه أخو يحيى ، فكيف يعقل أن يصدق أنصاره القرامطة ذلك ، إذا لم يكن معروفا لديهم أن يحيى المقتول على أبواب دمشق هو أخوه بالطبع . أضف إلى ذلك أن المراجع الاسماعيلية المعاصرة تؤكد أن المقتول بيد الجنود المصرية على أبواب دمشق هو يحيى بن زكرويه ، وليس قداح الطالقان . وهكذا انتهى هذا الدور باخفاق أبناء زكرويه فى استمالة المهدى ، وعجزهم عن الاستيلاء على دمشق ، لاتخاذها قاعدة لملك جديد .

(٢) النيسابورى : استتار الامام ص ٩٩

أمير المؤمنين . وفى هـذا التلقيب دليل آخر على ثورته على النظام الإسماعيلى وعلى المهدى نفسه . كما جعل يكاتب عماله بذلك ، واستطاع أن يكوّن فى الشام حكومة قرمطية ثائرة عاصمتها حمص ، وسمى أنصاره «المؤمنين» ، وسمى المسلمين «الكافرين» . والواقع أن هذه سنة الإسماعيلية الذين يسمون أنفسهم «الموحدين» وغيرهم الكافرين والفاسقين .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان الحسين يكتب لأنصاره : «من عبد الله أحمد بن عبدالله المهدى ، المنصور بالله ، والناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعى إلى كتاب الله ، الذاب عن حريم الله ، المختار من ولد رسول الله[١]» .

كما يخيل إلينا أن الحسين بن زكرويه كان كأخيه قد اعتمد اعتمادا كليا على الإسماعيلية الذين كانوا قد استجابوا لسعيد الخير ؛ فإن أخاه أبا القاسم يحيى بن زكرويه تمكن من جذب قلوب جماعة من قبائل كلب ، لأنهم كانوا يدينون بالمذهب الإسماعيلى . وهكذا «وقع اختياره عليهم دون القبائل ، وكانت الدعاة تدعو فيهم ، وكانوا من دعوة أبى الحسين[٢]» داعى دعاة سعيد الخير . كما نراه يعتمد عليهم ويبجلهم ، حتى إنه لما قبض على الداعى أبى الحسين وضيق عليه (فى سنة ٢٩٠ هـ) وشهره هو وابنه ، وأركبهما جملا ، وكبلهما بالحديد ، «أتاه مشايخ القاصبين فقالوا له : إن هذا الرجل الشيخ ، نحن من دعوته ، فلا تحدث فيه حدثا . فقال لهم : ما يناله منا مكروه[٣]» . وكذلك «كان الرجال الذين أخرجهم فى العسكر لحرب محمد بن سليمان الكاتب القائد العباسى ، محبين للمهدى ، وكانوا من دعوة أبى الحسين[٤]» . من هذا كله نرى أن أنصار قرامطة الشمال كانوا من أتباع المهدى ، وممن استجابوا لسلمية لا للكوفة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن علاقة هذا الفرع العدائية الهجومية ضد المهدى لم تكن قد بدأت بعد .

وأما موقف الحسين بن زكرويه العدائى من المهدى فيبدأ مذ تاقت نفسه إلى

---

(١) العينى : عقد الجمان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ١٠٦

(٢) النيسابورى : استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٠

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٣

أخذ سلمية ، ومذ قتل داعى دعاة المهدى (أبا الحسين) فى منتصف سنة ٢٩٠ هـ . ذلك أنه ترك حمص فى رعاية أنصاره ، وعم شطر سلمية . وليس من شك فى أن الحسين كان ينوى الشر فى اتجاهه هذا ، ويخشى بقاء أبى الحسين داعى الدعاة . ولذلك كان يهمه ألا يفلت هذا منه ؛ فلما هرب تتبعه حتى أدركه ، ولم يستمع لنصائح أتباع أبى الحسين . ومن الغريب أن الحسين ، بعد أن قتل داعى المهدى ومثل بالهاشميين العباسيين فى سلمية ، أرسل إلى المهدى يستميله للحضور إليها ، ويخبره فى الوقت نفسه أنه قتل «أضداده، ومن كانوا سببا فى تشتيت أهله وأقاربه . وهكذا «بعث إلى المهدى كتابا سرا يقول له فيه : إنى قتلت أعداءك الذين عملوا على خروجك، ودفع ابن عمك ، وولده إلى العراق فى الأول ؛ فأقدم ولا تتأخر[١]» .

لو أن هناك ثقة متبادلة وحبا متبادلا بين الفريقين ، لما تأخر الحسين فى أن يمهد لدولة المهدى . ويمثل الدور الذى سوف يمثله أبو عبد الله الشيعى . ونحن نقر ماقاله النيسابورى : « وكان ذلك مكيدة منه ليطمئن المهدى إليـه حتى يرجع » . ثم بماذا نفسر ذلك الرد اللين الذى بعث به المهدى إليه ؟ أكان يخشاه فيظهر له الود على حين كان يخافه حتى لا يفشى للنـاس سره وهو بالرملة ؟ أم أنه اضطر إلى البقاء بالرملة هذه المدة الطويلة لا يظهر حنقه عليه حتى لا يعبث بقصوره ولا بأهله ؟ يدل على هذا أنه حين رآه يعبث بهؤلاء جميعا غادر بلاد الشام . ومهما قيل فى نفور المهدى من الحسين هـذا ، فإنه لم يظهر له وهو بالرملة شيئا يثيره ؛ ولذلك رد على كتابه بتلك العبارة التى يتظاهر فيها بحبه له وثقته به ، وفيه يقول : «قد أحسنت فيما عملته ، ولو لم تفعل هذا ما كنت من شيعتنا وأوليائنا ؛ وأنا قادم على إثر كتابى هذا إن شاء الله[٢] » .

وبم نستطيع أن نفسر أيضا قوله : إنه قادم اليه من فوره ، على حين أن الحسين ظل ينتظره أربعة أشهر كاملة ؟ وبماذا نفسر اعتقاد الإسماعيلية أن المهـــدى أنقذ حياته بامتناعه عن الذهاب إلى سلمية حيث يقولون : « لما قرأ الفاسق كتاب المهدى

---

(١) النيسابورى : استتار الامام ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه

فرح به وأطمعه فيه ، وأبى الله أن يتم للفاسق أمله ، وأن لا يبلغ المهدى ما هو أهله[١] ! » والذى نعتقده أن الحسين لم يكتف بقتل داعى دعاة المهدى ، بل كان يطمع فى قتل المهدى نفسه ، وأن دعاة المهدى فى بغداد كانوا على حق في تصويرهم أبناء زكرويه ، ووصفهم بالغدر والميل للفتك بالمهدى . لذلك لما طال انتظار الحسين وصول المهدى دون جدوى ، وأدرك أن الجيوش العباسية قادمة إليه ، عمل على التخلص من الدعاة المخلصين للمهدى ، فأخرجهم فى عسكره لحرب محمد بن سليمان ؛ ولم يبق بجانبه إلا نفر يسير منهم ، لا يخشى بأسهم ، ثم انقض على سلمية وعلى قصور المهدى ، فقتل أهله وأسبابه وحاشيته . ومن هؤلاء جارية المهدى وابنه منها ، وأتى إليه بجميع من فى ذلك القصر من صغير وكبير من الرجال والنساء ، فقتلهم كلهم ... وكانوا ثمانى وثمانين نفساً[٢] » .

وكان من أثر سياسة الحسين الخرقاء أن حلت به الهزيمة أمام جيوش محمد بن سليمان ، قائد العباسيين فى موقعة « تمنع » ، على ما يقوله السنيون ، أو « السيل »[٣] على ما يقوله الإسماعيليون . وذلك أن الحسين وجه كل جهوده للقضاء على العلويين بسلمية ، ولم يحفل بمقابلة محمد بن سليمان الكاتب ؛ فلم يخرج للقائه ، وترك قواده يلاقون قضاءهم المحتوم ، مع أنه كان يجدر به أن يكون فى طليعة جيشه . أضف إلى ذلك أن كثيرا من رجاله الموالين للمهدى ، قد شكوا فى تصرفاته فحذروه — وهم بالجيش — سوء عاقبة الإقدام على ما يضر المهدى وأسرته . ومما يدل على ارتياب الدعاة فيه ، هذه العبارة التى وردت على لسان أحد هؤلاء الدعاة حين دخل أبو الحسين قصر المهدى : «قال الدعاة الذين كانوا فى عسكر الفاسق لأبى محمد الداعى : أنت مدل على هذا الرجل ، فاعرف ما يريد بهذا القصر ، وعرفه أن صاحب هذا القصر له فى رقابنا بيعة ، وأبو الحسين دعانا لصاحب هذا القصر . ودخل اليه أبو محمد ... فقال له : يا هذا الرجل ! إنى رسول الجماعة اليك . إنهم يقولون لك إن صاحب هذا القصر له فى رقابنا بيعة ، فلا تحدث فيه حدثاً ولا تؤذهم بشىء[٤] » .

(١) النيسابورى ـ استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٢

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٥

(٣) وتقع على مقربة من حماة

(٤) النيسابورى : استتار الامام ص ١٠٤

ثالثا : أننا لا يهمنا أن نتتبع حركات الحسين حتى قبض العباسيون عليه وفتكوا به ، ولا أن نبحث أثر هذه الموقعة فى إضعاف الطولونيين ، ولا أثر حركة أبناء زكرويه فى بلاد الشام عامة ، كما لا يهمنا أن نذكر الجهود التى بذلها أخوه الثالث وبعض أنصاره بعد ذلك ، لأن هذا كله لا يدخل فى نطاق هذا البحث . إنما يهمنا أن نقول إن الحسين كان حربا على المهدى وهو بالشام ، كما كان حربا عليه بعد القبض عليه . وكأنه قد آلمه ، بعد أن قبض العباسيون عليه ، أن يفلت المهدى بحشاشته ، فوشى به ، وأمد العباسيين بجميع المعلومات التى تساعدهم على القبض عليه . ولذلك أجاب الحسين العباسيين حين سألوه عن الشخص الذى يدعو إليه بقوله : «ما أنا من أهل الرياسة ، ولا من أهل القرامطة ، إنما أمرنى بالخروج رجل هو فلان بن فلان ، من مدينة سلمية ، يعنى المهدى ع م . وهو ممن صفته كذا وكذا ، بصفته وحليته ، وكتبت صفته على ما وصف » (١) .

وفى الحق أن هزيمة الحسين حملت المهدى على مغادرة الرملة ، بعد أن مكث بها عامين . وفى أوائل سنة ٢٩١ ﻫ ترك بلاد الشام التى درجت فيها الدعوة الإسماعيلية منذ قرن تقريبا ، وآوت جميع أئمة الاستتار . ومن ثم زال عهد زعامة سلمية ، وقضى المهدى بعد ذلك خمس سنوات مغتربا متألما . فإنه لما فر من الرملة قصد المغرب ، وألقى به فى غياهب سجون سجلماسة ، حتى حمله أبو عبد الله من السجن إلى العرش فى سنة ٢٩٦ ﻫ .

وهكذا لقى سعيد الخير من قرامطة السواد ومن قرامطة الشمال ما آلمه وأقض عليه مضجعه ، فغادر مسقط رأسه سلمية ، ولم يستطع أن يستمرىء سياسة هؤلاء فى بلاد الشام ، ولكنه لم يستطع أن يحتج عليها ، وظل قابعا مترددا فى مدينة الرملة ، حتى حلت الهزيمة بصاحب الشامة ، وعبث بأهل المهدى وأقاربه ، فكان ذلك آخر عهده بالمشرق . وبهذا نرى أن قرامطة الشمال لم يقوموا ـ كما ادعى برنارد لويس ـ بوحى من الأئمة أنفسهم ، لكى يمهدوا السبيل ويزيلوا من أمامهم العقبات (٢) ، بل قاموا يطلبون الأمر لأنفسهم ، فكان نصيبهم الإخفاق (٣) .

---

(١) النيسابورى ـ استتار الامام ص ١٠٦

(٢) Bernard Lewis: The Origins of Ismailism, p. 74.

(٣) Lamemnse: Islam Beliefs and Institutions, p. 159.

٣ — صور قرامطة البحرين :

وأما موقف سعيد الخير من أبى سعيد الجنابى [١] (٣٠١ هـ) مؤسس دولة القرامطة بالبحرين ، فلا نعرف عنه كثيرا قبـــل قيام الدولة الفاطمية . غير أننا لا ننكر أن قيام دولة القرامطة فى البحرين على يد أبى سعيد ، يرجع إلى حد كبير إلى حركة حمدان قرمط وانتقاضه على سلمية ومن بها . فقد كان أبو سعيد من أخلص الناس لحمدان قرمط ، ومن كبار دعاته فى جنوب فارس الغربى ; وقد صادف هنالك شيئا غير قليل من النجاح . إلا أن مصاعب كبيرة اعترضته ، « فقبض على ما جمعه من المال ، واتخذه من الخزائن والعدد ، وأفلت بحشاشته . فلم يزل فى خفية حتى كتب إليه حمدان قرمط من كلواذى (بالقرب من بغداد) بالشخوص إلى ما قبله ; ولم يكن رآه . فلما عاينه رأى فيه نافذا فيما يكلفه ، ورأى أن ما دار عليه ليس من سوء سياسته ، لكن وجوه [٢] وقعت كالضرورة [٣] » .

وفى الوقت الذى دعا فيه حمدان أباسعيد الجنابى . حدث الانتقاض على سلمية : فمن قائل إن حمدان قرمط عين أباسعيد على الدعوة فى القطيف وبلاد البحرين ، فظل هذا على إخلاصه له ، حتى سمى أتباعه ـ على ما ذهب إليه دى ساسى [٤] ـ القرامطة

---

(١) نسبة الى جنابة على الخليج الفارسى شرقا .

(٢) أمور أو ظروف فوق مقدوره .

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢١٠ .

(٤) نرى أن الداعى أبا زكريا الصمامى ، قد يكون على المذهب الاسماعيلى على عقيدة حمدان وعبدان . فلما انتقضا على الدعوة وأرسلا أبا سعيد بمبادىء وعقائد إسماعيلية جديدة ، قتل زكريا الصمامى ، لأنه لم يعد على رأيه . ولا بد ـ إن صح ذلك الافتراض ـ أن يكون أبو سعيد قد اتفق مع حمدان على ذلك قبل مجيئه إلى القطيف ، وإلا اعتبر خارجا عليه ، كما لا يبعد أن يكون حمدان وعبدان قد طلبا الى زكريا ـ داعيهما على القطيف ـ الخروج على الدعوة الأولى التى يرأسها أبناء القداح . فلما لم يجبهما إلى ما طلباه منه أرسلا إليه أبا سعيد ففتك به .

ولا يبعد أن يكون قداح الطالقان قد عمل هو وزكرويه بن مهرويه على إرسال أبى سعيد إلى بلاد القطيف ، فقتل هذا أبا زكريا الصمامى لبقائه على طاعة عبدان وحمدان . وقد يؤيد ذلك ، مجىء شخص يدعى يحيى بن المهدى إلى القطيف بعد ذلك ، واتصاله بأبى سعيد ، وإخلاص هذا له . ومن المحتمل جدا =

نسبة إليه ، ومن قائل إن الذى أرسله إلى إقليم البحرين هو قداح الطالقان - على بن عبد الله القداح . وإلا كيف نفسر قتله أبا زكريا الصمامى داعية عبدان فى بلاد القطيف[١] ؟

وسواء أكان أبو سعيد قرمطيا يدين بالطاعة لحمدان أو لزكرويه ، فإن تعيينه على القطيف والبحرين ، قد تأثر لحد كبير بالعلاقة الرئيسية بين سلمية من جهة وبين سيده حمدان قرمط من جهة أخرى . ومما يسترعى النظر حقا ، أن أبا سعيد كان يعمل وهو أشبه بملك مستقل ، حتى إن ابن فضل الجدنى حين ثار على ابن حوشب وعلى عبيدالله المهدى ، ادعى أنه فعل ما فعله أبو سعيد فقال : « إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها ، ولى بأبى سعيد الجنابى أسوة ، لأنه خلع ميمونا وابنه[٢] ودعا إلى نفسه ، وأنا أدعو إلى نفسى[٣] » . من ذلك نرى أن أبا سعيد لم يتقيد فى سياسته بزعماء الدعوة الإسماعيلية ، وذلك يعلل فتور العلاقة بينه وبين الدولة الفاطمية الناشئة ، لأنه لم ينفذ مطالبها على النحو الذى كانت تؤمله منه .

(ب) موقف عبيد الله من أنصار الدعوة فى اليمن والمغرب وفارس

لم تكن رياسة الدعوة بسلمية تهتم بنشر الدعوة بين القرامطة وحدهم ، بل كان اهتمامها بنشرها فى بلاد اليمن والمغرب وفارس لا يقل شأنا عن ذلك ، حتى إنها وضعت فى رياسة تلك الأقاليم الرئيسة ، أو على حد تعبير الإسماعيلية « بحار الدعوة » ، دعاة من الأفذاذ الذين خلدوا أسماءهم فى عالم الدعوة .

= أن يكون يحيى بن المهدى هذا على ماذكره بعض هو على قداح الطالقان . ومما يؤيد هذا الرأى محاولة زكرويه فى أخريات حياته الاتصال بأبى سعيد الجنابى ، ولو لم يكونا على وفاق لما حاول ذلك أو فكر فيه .

(١) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, vol. i. pp. cxxx. vi-vii.

(٢) يقصد أحمد بن عبد الله القداح وابن أخيه سعيد الخير .

(٣) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

١ — فى بلاد اليمن

فى بلاد اليمن ضاعف ابن حوشب وابن فضل جهودهما فى نشر الدعوة الإسماعيلية ، وفتح البلاد السنية ، وضمها إلى بلاد الدعوة . وقد نجحا فى ذلك نجاحا كبيرا ، حتى لقب ابن حوشب «منصور اليمن» ، واستطاع ابن فضل أن يستولى على أقاليم كثيرة أهمها إقليم صنعاء . ومما لا شك فيه أن ابن حوشب كان يدعو إلى الإمام الحسين بن أحمد . فلما ولى عهده أو نقل الإمامة — مؤقتا — إلى سعيد الخير ، عن طريق الاستيداع الإمامى . لم ينتقض عليه كما انتقض حمدان قرمط من قبل ، ولم يثر عليه كما ثار زكرويه وأبناؤه ، بل إنه لما « كتب له الإمام . . . بالعهد لعبيد الله ، وأذن له بالحرب . قام بدعوته وبثها فى اليمن ، وجيّش الجيوش ، وفتح المدائن . . . وفرّق الدعاة فى اليمن وعمان واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب »[١] ، وكان يراسل — فوق ذلك — الإمام وولى عهده ، حتى إن الحسين حين أدرك نجاح ابن حوشب قال لسعيد الخير : « هذه دولتك قد أقبلت ، ولكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب[٢] » .

وبفضل جهود ابن حوشب انتشرت الدعاية على ما رأينا فى بلاد المغرب على يد داعيه الحلوانى وأبى سفيان أولا ، ثم على يد أبى عبد الله الداعى ثانيا . كما تعاون ابن حوشب مع سلمية فى نشر الدعوة بمصر ، فتكون بها — تبعا لذلك — جماعة من الإسماعيلية كانوا من حاشية النوشرى ، والى مصر بعد سقوط الطولونيين ؛ فساعدوا المهدى على الإفلات ، وهو فى طريقه إلى المغرب . ولا يخفى أن كثيرا من المصريين كانوا على عقيدة الإسماعيلية فى الوقت الذى مر سعيد الخير بمصر ، حتى إنه لجأ — على ما سنرى — إلى الاختفاء فى دور كثير منهم . وقد حدث كل هذا بفضل تعاون ابن فضل مع سلمية فى ذلك الوقت .

وكان عبيدالله حين فراره من سلمية يقصد بلاد اليمن ، حيث كان يقيم ابن حوشب

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٠

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٢

الذى أطلق عليه الإسماعيلية « فجر الدعوة المتنفس [١] » . ومما زاد فى عظمة مركز ابن حوشب أن « باب أبواب المهدى » ، أى كبير دعاته ، كان أستاذا لابن حوشب . يقول جعفر الحاجب ، وكان فى صحبة المهدى حين فراره من سلمية : « وأمرنا المهدى بالأخذ فى أهبة السفر والخروج معه ، وأظهر لنا أنه يريد اليمن [٢] » ، ويؤكد أبو حنيفة النعمان المغربى [٣] قاضى قضاة الفاطميين فى المغرب ، وداعيهم الأكبر ، أن المهدى لما وصل إلى مصر فى سنة ٢٩١ هـ ، كان يأمل أن يقصد اليمن ، وأن الذين صحبوه كانوا جميعا على هذا الاعتقاد .

ولكن إذا كان فى نية سعيد الخير أن يقصد اليمن ، فما الذى منعه من تنفيذ تلك النية ؟ من المحتمل جدا أن يكون رسل العباسيين وجواسيسهم قد سبقوا إلى تلك البلاد ، أو أن بعض أخبار هرب المهدى إلى اليمن قد عرفه العباسيون . كما لا يبعد أن يكون لما ذكره ابن عياش ، الذى نزل المهدى فى داره بمصر أثر فى امتناع المهدى عن قصد اليمن . فقد قال ابن عياش للنوشرى عامل العباسيين على مصر ، حين سأله عن حقيقة المهدى المختفى عنده : « أما الرجل النازل علىّ فوالله لا وصل إليه شىء إلا ما يصل إلىّ ، لأنه رجل هاشمى شريف تاجر ، من وجوه التجار ، معروف بالفضل والعلم واليسار . والذى أتى الرسول فى طلبه ، قد أعطيت خبره أنه توجه إلى اليمن قبل ورود هذا الرسول بمدة طويلة [٤] » . ومما يجعلنا نميل إلى الأخذ بهذا الرأى أن المهدى عدل عن قصد اليمن بعد وصوله إلى مصر .

على أن هناك من يقول : إن جماعة من الدعاة الذين يضمرون الكراهة والبغضاء للمهدى ، قد قصدوا اليمن ، فأفسدوا عقول كثير من أهلها ، وعلى الأخص الزعيم الثانى ابن فضل ، مما جعل المهدى لا يرحب بفكرة إقامة الدولة الفاطمية المنشودة فى بلاد تضم أمثال هؤلاء المتآمرين . وهذا يدلنا على بعد نظر المهدى ؛ فقد كان للثورة التى أشعلها ابن فضل على ابن حوشب بعد ذلك ، أثرها فى إضعاف الدعوة

---

(١) الخطاب : غاية المواليد ص ٣١

(٢) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠

(٣) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ (من المنتخب)

(٤) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣

الإسماعيلية فى تلك البلاد . بل فى قلب مشروعات الفاطميين فى بلاد المشرق رأسا على عقب . يقول أبو حنيفة النعمان المغربى [١] : « وكان تقدم بعض دعاته فقصد اليمن قبله وفسد أمره . فأتى إلى أبى القاسم ، صاحب دعوة اليمن ، فأراد أن يستزله فوجده ثابتا فى أمره ، فانصرف عنه إلى على بن الفضل صاحبه ، وكان فى ناحية من اليمن ، فاستماله ، فأفسده ، فكان يقال فى ذلك الوقت : أتى عراقى إلى عراقى يطلب أن يسخر منه فلم يمكنه ذلك ، فأتى اليمانى فسخر منه ، فانسلخ على بن الفضل من أمره وأمر أوليائه . . . فحارب أبا القاسم . . . واتصل ما كان من ذلك بالإمام ، فكره دخول اليمن على هذه الحال » .

وعلى الرغم من عدم صحة كل ما أورده النعمان ، وخاصة أن ابن الفضل لم يقم فى وجه على بن حوشب إلا بعد قيام الدولة الفاطمية بأربع سنوات تقريبا ، تبين عبارته فى وضوح أن هناك من حذا حذو حمدان قرمط وأنصاره . بل حذا حذو زكرويه وأبنائه ، فى الانتقاض على سعيد بن الحسين ، مما يجعلنا نميل إلى القول بأن تقليد سعيد الخير الإمامة قد أوجد حركات انقلابية بين الإسماعيلية ، وأن هذه الحركات لم تقتصر على القرامطة وحدهم ، بل شملت بعض دعاة اليمن [٢] .

---

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤١

(٢) لا ندرى إذا كان النعمان يقصد بالعراقى الخائن ,,فيروز،، ، الذى كان ,, داعى الدعاة وأجل الناس عند الامام وأعظمهم منزلة ، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده وهو باب الأبواب إلى الأئمة،، ، والذى انتقض على سعيد الخير حين علم أنه يقصد المغرب دون اليمن ، لأنه عز عليه أن يترك بلاد الشرق الأدنى ويقصد بلاد المغرب المقفرة ، كما عز عليه أن تضعف زعامته أمام سطوة أبى عبد الله الداعى فى تلك البلاد . ولا غرو فان فيروز لم يكن على صلة وثيقة بأبى عبد الله الداعى ، مع أنه سيكون صاحب الزعامة المطلقة على تلميذه ابن حوشب داعى دعاة اليمن ، وعلى صهره أبى على داعى دعاة مصر . فاذا كان النعمان يقصد ذلك الداعى فقد أخطأ ، لأنه فر من مصر إلى اليمن ، واستمر ردحا من الزمن موضع تقدير ابن حوشب ، حتى أتى إليه الخبر من المهدى وأبى على داعى دعاة مصر يحثانه على قتل فيروز . ولعلنا نشك فى أن وصول رسائل المهدى وأبى على إلى ابن حوشب انما كان بعد خروج المهدى من مصر . يقول جعفر الحاجب : ,, خرج المهدى ع م من مصر وخالفه فيروز قبل خروجه من مصر ومضى الى اليمن ،، . أضف الى ذلك أن ثورة على بن الفضل على ابن حوشب كانت بعد سنة ٢٩٩ هـ — على ما سيأتى — أى أنها كانت ثورة على العرش الفاطمى ، ولم تكن اذا فى الوقت الذى خرج فيه المهدى من مصر (٢٩٨ هـ) ، بل كانت بعد ذلك بنحو ثمانى سنين أو أكثر .

ومن المسائل الشائقة فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية فى اليمن ، اعتبار الأئمة الإسماعيلية تلك البـــلاد أماكن استراتيجية هامة للنهضة بالدعوة بعد قيام الدولة الفاطمية المنشودة فى بلاد المغرب ، لأنه يسهل على الدولة الشيعية التى تقوم فى بلاد المغرب ، أن تتحرك شرقا إذا ما أرادت أن تغزوالعالم الإسلامى[1] ، وترث بغداد ، على حين أنه قد يتعذر عليها أن تفعل ذلك إذا قامت فى بلاد اليمن ؛ إذ يصعب على الجيوش اليمنية ، مهما كان عـددها وإعدادها ، أن تخترق بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال ، وأن تمر ببلاد من أوعر بلاد العالم وأكثرها فقرا فى طرق مواصلاتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحيـة أخرى فإن مراجعنا الإسماعيلية أوضحت أن هناك أفكارا كانت تجول فى أذهان كبار الدعاة والأئمة ، تتلخص فى أنه إذا قامت الدولة الفاطمية فى المغرب وتحركت بجيوشها نحو المشرق لفتح مصر وغزو العـالم الإسلامى ، فإن اليمن تمدها بالنجدة ، وتتلاقى جيوشها مع الجيوش المغربية فى تلك البلاد ، وبعبارة أخرى يقوم إسماعيلية اليمن بمساعدة الفاطميين فى الوقت الذى تقوم فيه القرامطة ، فتلتقى فى مصر الجيوش الفاطمية المغربيـة بالجيوش الإسماعيلية القرمطية واليمنية . يتضح لنا ذلك مما ذكره اليمانى فى كلامه عن فرار فيروز إلى ابن حوشب ، وتبريره بقاءه فى اليمن ، بادعائه « أن الإمام بعث به مشرفا عليه إلى أن يقدم من المغرب بالعساكر إلى مصر ، ويكتب إليه ليستقبله بعساكر أهل اليمن » .

= وعلى أية حال لم يصب النعمانى كما لم يصب جعفر الحاجب فى سيرته حين يدعى أن ابن حوشب قاتل ابن فضل وانتصر عليه ، وأن ذلك كان بسبب فيروز ، لأننا سنرى ما يخالف ذلك عند كلامنا على علاقة الخليفة المهدى بابن فضل . واذن نستطيع أن نقول ان المهدى لم يشأ أن يقصد بلاد اليمن فى سنة ٢٩١ ه . وعلى الرغم من نجاح الداعيين — ابن حوشب وابن فضل — هناك ، لم تستطع الدعوة أن تغزو تلك البلاد ، كما أنها لم تستطع أن تتغلب على المذاهب السائدة فيها . أضف الى ذلك أن كلا من ابن حوشب وابن فضل كان يعمل مستقلا عن زميله فى كثير من الأحيان ، وأن ابن فضل لم يشعر فى ذلك الوقت بالتبعية لابن حوشب . ومن ثم كان من الصعب على المهـــدى أن يقصد بلادا لم تتوحد زعامتها تحت راية اسماعيلية واحدة ، تستطيع أن تهيء الملك والسلطان كما فعل ابو عبد الله الشيعى (اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ ، ١١٥) .

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥

هذه فكرة جريئة . ولا بد أنها جالت بخاطر المهدى ، فرددها فيروز داعى دعاته وباب أبوابه .

٢ — فى المغرب

راجت الدعوة الإسماعيلية فى المغرب رواجا عظيما على أيدى دعاة ابن حوشب كالحلوانى وأبى سفيان ، وتسنمت الدعوة هناك غاربها على يد داعيه وتابعه أبى عبد الله الشيعى . وكان نجاحه سريعا ؛ فقد خرج إلى المغرب ، وهو يدين بالطاعة للامام الحسين بن أحمد العلوى وحجته أحمد الحكيم بن عبد الله القداح ، ووصل إلى المغرب وهو يدين بالطاعة للامام الحسين وحجته الجديد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وهو سعيد الخير . ولسنا بصدد بحث عوامل نجاحه السريع ، ولا بصدد شرح صراعه مع منافسيه من زعماء البربر وملوك الأغالبة ، وإنما يهمنا أن نبين الرابطة التى كانت بينه وبين سعيد الخير منذ توليته عرش الإمامة إلى حين توليته عرش الخلافة .

كان لفكرة المهدى أثرها فى بلاد سادها الجهل ، وملأها تعسف الحكام السنيين ألما وضجرا . وكانت الأحاديث تكثر فى بلاد المغرب بقرب ظهور المهدى ، وأن الشمس ستشرق من مغربها ، أى أن دولة العلويين المنشودة ستقوم من بلاد المغرب . ولم يكن إرسال الحلوانى وأبى سفيان إلا للتمهيد لهذه الفكرة ، وحرث الأرض « لصاحب البذر » الذى يبذر بذور الدولة ويمهد لإقامتها . لذلك كان أبو عبد الله يتغنى للكتاميين بقوله : « أنا صاحب البذر ، الذى ذكره لكم أبو سفيان والحلوانى » .

وفى الحق أن نجاح أبى عبد الله فى بلاد المغرب يرجع لحد كبير إلى حسن علاقته بالمهدى وإشادته بفضله . ولم يكن التفاف المغاربة حوله إلا لأنه كان يخبرهم بأنه البشير للمهدى ، وأنه ملأ قلوبهم بالأمل فى امتلاك الأرض جميعها إذا ما رفعوا السيف فى وجه أعداء المهدى . وقد وضع للكتاميين من الأحاديث والتنبؤات ما أثار حماستهم ؛ فمن قوله لهم فى فج الأخيار : « هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم . ولقد جاء فى الآثار ، أن للمهدى هجرة تنبو عن الأوطان ، ينصره فيه الأخيار ، من أهل ذلك الزمان ؛ قوم اشتق اسمهم من الكتمان ؛ فأنتم كتامة ، وبخروجكم من هذا

الفج سمى فج الأخيار» . والواقع أن أبا عبد الله كان يستغل اسم المهدى فى نشر دعوته ، وكان فى الوقت نفسه يخلص له الإخلاص كله .

ومما لا مراء فيه أن تأميم سعيد بن الحسين على يد إمامه الحسين بن أحمد العلوى ، لم يثر فى نفس أبى عبد الله من الحنق ما أثاره بين القرامطة . فظل على ولائه لسلمية ، وأخذ يرسل رسله وهداياه إلى الإمام الحسين المستقر أولا، ثم إلى الإمام المستودع سعيد الخير ثانيا ، بما جعل الأول يتنبأ للثانى بقرب قيام دولته فى المغرب ، فيقول له : « هذه دولتك قد أقبلت . ولكنى لا أحب ظهورها إلا من المغرب » . ويقول أيضا : إنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة تنبو بها عن الأوطان ، وتلاقى محنا شديدة ، مشيرا بذلك إلى رحلته إلى بلاد المغرب ؛ ولذلك آثر الإمام المستودع — سعيد الخير — بلاد المغرب على اليمن ، لحسن العلاقة التى كانت قائمة بينه وبين أبى عبد الله داعى بلاد المغرب ، حتى إننا نراه فى سفره يصحب رسل أبى عبد الله ، فكان – كما يقول أبو حنيفة النعمان المغربى[١] – « معه بعض الكتاميين الذين كانوا ينفذون إليه » . ويقول جعفر الحاجب فى رحلة المهدى : إنه كان مع المهدى جماعة « من الكتاميين الذين كانوا ينفذون إلينا إلى سلمية[٢] » . كل هذا يجعلنا نقول فى كثير من الاطمئنان : إن اتجاه المهدى إلى بلاد المغرب كان بوحى من أبى عبد الله الشيعى . يقول المقريزى[٣]: « وسير أبو عبد الله إلى عبيد الله بن محمد[٤] رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له ، وأنه ينتظره ، فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص » . ويقول النيسابورى[٥]: « ومع ذلك كانت كتب أبى عبد الله تترى تطلبه حيثما نزل ، فكتب إليه أن اقدم فقد استقامت لك العساكر » .

وإذا صح ذلك ، فما هى الدوافع التى دفعت بأبى عبد الله إلى طلب المهدى ليقيم بجواره ، مع أن ذلك قد يحد من نفوذه ؟ الواقع أن أبا عبد الله كان يعتقد أن ظهور

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤٢ .

(٢) اليمانى (سيرة جعفر الحاجب) ص ١١٦ .

(٣) الخطط : ج ٢ ص ١١

(٤) يقصد محمد الحبيب الذى يقال إنه هو الحسين بن أحمد العلوى .

(٥) كتاب استتار الامام ص ١٠٦

المهدى بين ظهرانى أنصاره يشحذ عزائمهم . خصوصا أنه كان قد انتهى من صراعه مع المغاربة ، فى السنة التى خرج فيها المهدى من سلمية وبدأ صراعه مع دولة الأغالبة ، أى أنه بدأ حربه مع دولة منظمة ، لها جيشها الثابت الدائم : وهذا يحتاج إلى مؤازرة معنوية ، قد يجدها فى وجود المهدى بجانبه . لذلك كان يؤكد لأنصاره أن المهدى سيفاجئهم بالظهور بينهم . ويبدو أن كثيرا من أنصار أبى عبدالله قد جزعوا من سجن المهدى فى سلجماسة ، وخافوا على حياته ؛ إلا أن أبا عبدالله كان يؤكد لهم ولجميع أصحابه ، « الذين استجابوا لدعوته ، أن الله سبحانه يحفظ المهدى ويقيه ، ويدفع عنه ، حتى يظهره ويعز نصره » . وكان من أثر ذلك أن « قويت بصائرهم ، وخلصت نياتهم » [١].

على أن اتجاه المهدى إلى بلاد المغرب ، وتحقق أبى عبد الله من وجوده فى شمال إفريقية ، جعله يجزم بقرب ظهوره ، ويستغل ذلك فى الحط من شأن أعدائه الأغالبة . فكان للدعاية إلى المهدى وهو فى سجنه بسجلماسة ، أثره الفعال فى التفاف الناس حوله . ولهذا كان من أهم ما كان يذيعه بين الناس : « المهدى يخرج فى هذه الأيام ، ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر إلىّ وأطاعنى [٢] » . كما جعل « يغرى الناس بأبى مضر زيادة الله ويعيبه » [٣] ، ويذكر كرامات المهدى وما يفتح الله له [٤] . وهكذا كان للاتصال السرى بين أبى عبد الله وإمامه فى سلمية أو فى طريقه إلى المغرب أو فى سجنه بسجلماسة ، أثره الكبير فى التفاف الناس حوله ، ثم فى نجاحه بعد ذلك .

وعلى الرغم من سجن المهدى بسجلماسة فى أقصى بلاد المغرب ، كان أبو عبدالله على اتصال دائم به ، حتى إنه لما انتصر على زيادة الله فى حربه الأولى معه ، بشره بذلك . يقول ابن خلدون : [٥] « وكتب الشيعى بالفتح إلى المهدى ، مع رجال من

(١) النعمان : شرح الأخبار (من المنتخب) ص ٣٣

(٢) المنصورى : زبدة الفكرة جـ ٥ ورقة ١٥٥

(٣) المصدر نفسه

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١

(٥) العبر جـ ٤ ص ٣٥

كتامة أخفوا أنفسهم حتى وصلوا إليه ، وعرفوه بالخبر . ويقول المنصورى[١] : « وعظم أمر أبى عبد الله ، واستقرت دولته ، وكتب . . . كتابا إلى المهدى وهو فى سجن سجلماسة يبشره ، وسير الكتاب مع بعض ثقاته ، فدخل السجن فى زى قصاب يبيع اللحم ، فاجتمع به وعرفه ذلك » . وهذه الأمثلة تدل على ما كان هنالك من اتصال بين رياسة الدعوة فى منفاها وبين رجالها ، كما تدل فى الوقت نفسه على الطرق المحكمة التى كان يتبعها الدعاة فى سبيل الاتصال برؤساء الدعوة .

ومع أن أبا عبد الله كان يحب أن يقيم إمامه فى شمال إفريقية ، ليتخذ من قربه منه ، مع أنه كان مسجونا ، وسيلة للتأثير فى أنصاره ، إلا أنه كان يشفق عليه ، ويخاف على حياته ، حتى إنه لما قضى على آخر جيوش الأغالبة ، وفر زيادة الله إلى المشرق ، لم يشأ أن يتسرع فى ذكر اسمه ، وإعلان خلافته ، خوفا على حياته . لذلك أمر « بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الحسين وفاطمة[٢] » . وضرب السكة منقوشا على أحد وجهيها « بلغت حجة الله » ، وعلى وجهها الآخر « تفرق أعداء الله » . وكتب على السلاح « عدة فى سبيل الله » ، ونقش على خاتمه الذى يختم به « فتوكل على الله إنك على الحق المبين[٣] » ، وعلى خاتمه الذى يستخدمه فى الطبع على السجلات « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » . وإذا ركب نودى فى الخيل « ياخيل الله اركبى » ، وكتب على أفخاذ الخيل « الملك لله » ، وعلى أعلامه أى بنوده « سيهزم الجمع ويولون الدبر[٤] » . كما أن الخطباء لما طلبوا منه أن يذكر لهم اسم من يخطبون له . لم يذكر اسم أحد ، ولم يعين أحدا [٥] .

وقد يسأل بعض : هل كان أبو عبد الله يجهل اسم المهدى حتى لا ينادى باسمه ؟ أو أن المهدى أمره بذلك ، حتى لا يتسرب شىء عن شخصيته ، فيكون فى ذلك نهايته ؟ أما أن أبا عبد الله لم يكن يعرف اسم المهدى ، فهذا غير معقول ، بعد أن رأيناه

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٥ ورقة ١٥٨

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٦

(٣) سورة النحل آية ٧٩

(٤) سورة القمر آية ٤٥

(٥) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٣

من تبادل القواد والرسائل بينهما . حقيقة أن أبا عبد الله لم يكن قد رأى المهدى مطلقا ، ولكن عدم رؤيته إياه ليس معناه أنه يجهل اسمه أو حقيقته ، كما لا يبعد أن يكون عبيد الله هو الذى أمره بذلك .

لم يكن أبو عبد الله يعمل على تكوين ملك لنفسه أو لأهله، بل إنه أظهر منتهى الإخلاص فى خدمة سادته من الأئمة ، حتى انتهى به الأمر إلى تكوين دولة لهم فى سنة ٢٩٦ ﻫ . ولم يكن كأبى سعيد الجنابى يعمل مستقلا أو شبه مستقل ، أو كعلى بن الفضل الذى أسكرته نشوة الانتصار والتملك ، فخرج عن مألوف جماعته ، ونادى بالثورة على الفاطميين والإسلام جميعا. بل لم يكن أبو عبد الله كالقرامطة الذين ملأ الحقد نفوسهم حين رأوا «حجة» إمامهم يحل محل الإمام ، فانتقضوا على الإمامة الجديدة ، وحاربوها فى غير هوادة ، وإنما كان أبو عبد الله يعمل – منذ وطئت قدماه بلاد المغرب – فى إخلاص للفاطميين ، ويعرض نفسه وصحته للفناء فى سبيل إمامه ومذهبه . كان يعمل لتشييد ملك ، وإقامة دولة ، وخلق خلافة ، لكنه لم يكن يطمع فى رياستها ، فلما دنت له القطوف سلمها إلى مستحقها وهو المهدى ؛ لذلك كان حتما عليه أن يبذل ما فى طاقته لإحضار المهدى من سجلماسة سليما معافى . وإن أشد أيام أبى عبد الله وأحلكها كانت تلك الأيام التى قضاها بعد أن أزال دولة الأغالبة ، وأسس دولة إسماعيلية قوية فى رجب سنة ٢٩٦ ﻫ ، كان هو نائب رئيسها . وكان يعنيه أن يرى المهدى فوق عرشه ، وإلا انتقض عليه جميع من حملوا السيف معه . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم هذا الملك الجديد ، واستمر ينظمه وعينه ترنو إلى ذلك الرجل الذى كان محبوسا بسجلماسة لثلاثة أشهر [١] .

خرج أبو عبد الله بجيش ضخم من إفريقية (تونس) قاصدا بلاد المغرب الأقصى إلى سجلماسة ، فخافته جميع القبائل المغربية . وهو فى طريقه إلى تلك المدينة ، فسلمت قيادها إليه . وكان أبو عبد الله يستطيع أن يسحق بجيشه الكبير ملك بنى مدرار ، ويستولى فى زمن قصير على حاضرتهم سجلماسة ؛ ولكنه رأى ألا يلجأ إلى السيف إلا إذا أعجزته الحيلة ، فأرسل إلى اليسع بن مدرار يستلينه ويطمئنه ،

---

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب (من المنتخب) ص ١٢٣ . دخل أبو عبد الله رقادة فى رجب سنة ٢٩٦ ﻫ ، وخرج منها إلى سجلماسة فى شوال من السنة نفسها .

ويقسم له أغلظ الأيمان أنه لم يأت لحربه ، وإنما فعل ذلك ليحفظ على المهدى حياته.
يقول أبو حنيفة النعمان [١] : «وأرسل أبو عبد الله رسلا من الخدم إلى اليسع بن مدرار ، وكتب إليه كتابا يؤمنه من جانبه ، ويتلطف له فيه ، ويذكر أنه إنما قدم لحاجة ، ولم يقدم للحرب ، ووعده الجميل من نفسه ، والبر والإكرام ، وأكد ذلك له وبالغ فيه . فلما وصلت الرسل بكتابه إليه رمى به بعد أن علم مافيه ، وأمر بقتلهم فقتلوا » . كما أن أبا عبدالله لم يذكر لليسع أية إشارة عن اسم المهدى . حتى لا يثير حفيظته وحنقه عليه ، وإنما لجأ إلى الملاينة والتورية ، فكتب من جديد لليسع بخبر المهدى ، « وأنه إليه جاء ، ويسأله ترك التعرض له ، ويعده بالجميل » [٢]. بل لقد أرسل الداعى الى اليسع ثلاث مرات ، وتناسى جفاءه وقتله رسله . كل ذلك ليحكم الحصار حول سجلماسة ، ولا يثير كراهية صاحبها اليسع .

وقد لجأ أبو عبد الله إلى السيف حين أعجزته الحيل وأخفقت السياسة . ومن حسن الحظ أن المهدى لم يكن هو الشخص الوحيد الذى يدعو له أبو عبد الله بسجلماسة ، حتى إن اليسع أمسك عن الفتك به . وعلى أية حال ، فقد أحاط أبو عبدالله بسجلماسة . وحاربه اليسع ساعة ، ثم حال الليل دون احتلال الجيش الإسماعيلى هذه المدينة ، « وبات أبو عبد الله ومن معه تلك الليلة فى غم عظيم ، لا يعلمون ما صنع بالمهدى[٣] » ، على حين كان اليسع ومن معه من أقاربه قد أفلتوا بحشاشاتهم .

على أن جعفرا الحاجب ، الذى شاهد كل هذه الحوادث فى سجلماسة ، يقول إن اليسع أخرج المهدى ، وتمكن من الإفلات ، فى الوقت الذى كان فيه أبوعبدالله وأنصاره مشتغلين باستقبال المهدى . ثم أحضر القائم ، وكان مسجونا فى منزل غير منزل المهدى ، كما أحضرت حاشية المهدى ، الذين شاركوه فى بأسائه وضرائه ، ومنهم جعفر الحاجب ؛ وتتبعوا اليسع ، وقبضوا عليه وقتل .

وهكذا سر الناس سرورا عظيما ، حتى كادت تطيش عقولهم ، وحف المؤمنون بالمهدى والقائم ، والدعاة يمشون حولهما ، وأبو عبد الله يمشى بين يدى المهدى ويقول :

---

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠
(٢) شرح الأخبار ص ٣٣
(٣) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٥

« هذا مولاى ومولاكم أيها المؤمنون ، ويحمد الله ويشكره ، ويبكى من شدة الفرح »[١] . وهكذا تكللت أعمال أبى عبد الله الشيعى بالنصر والظفر ، وأقام دولة الفاطميين المنشودة ، وانتهى فى اليوم نفسه ذلك الدور المعروف بدور الستر ، أو بدور الأئمة المستورين ، ودخل تاريخ الإسماعيلية فى طور جديد هو دور الظهور ، أى ظهور الأئمة الإسماعيلية ، الذين بدءوا يجهرون باسم الخلفاء الأئمة . ووصل المهدى - كما سنرى - إلى إفريقية فى أوائل سنة ٢٩٧ هـ ، «ولم يبق أحد من العرب والعجم من وجوه الناس وغيرهم إلا استقبلوا المهدى عم ، يوم دخوله إفريقية[٢]» .

٣ — فى فارس

اتخذت الدعوة الإسماعيلية طريقها إلى فارس منذ هرب محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومعه حجته ميمون القداح ، من الحجاز إلى شرق المملكة الإسلامية . وكان للجهود الجبارة التى بذلها عبدالله بن ميمون القداح حجة الإمامين المستقرين : عبد الله الرضا وابنه أحمد ، أثر كبير فى تلك البلاد . واشتهر من دعاته هناك داع يسمى « خلفا » ، استطاع أن يكوّن فى بلاد الرى جماعة من الإسماعيلية سميت « الخلفية » نسبة إليه . وكان يشرف عليها بنفسه تارة ، ويشرف عليها ابنه أحمد بن خلف تارة أخرى . وبفضل هذه الجهود الأولى انتشرت الدعوة الإسماعيلية فى الرى وطبرستان وآذربيجان ، وانضم إليها بعض الوجوه الممتازين فى العلم والأدب خاصة . فمن هؤلاء الداعى «غياث» الذى استعان بأدبه ، وألف كتابا أسماه «البيان» ، نحا فيه منحى الإسماعيلية جميعا فى التأويل ، فأوّل - كالإسماعيلية - معانى الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من التكليفات الشرعية ، كما كانت له مواقف حاسمة فى مناظرة العلماء السنيين . وقد تمكن الداعى غياث بفضل بيانه من الوصول إلى قلوب سامعيه ، فانتحل كثير مذهبه ، وأقبلوا على دعوته جماعات . وكان يطلق على أشياعه اسم «الخلفية» أحيانا ، و «الغياثية» أحيانا أخرى[٣] .

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٥

(٢) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١٣١

(٣) نظام الملك : سياسة نامة ج ٢ ص ٧٢

ذاع صيت الداعى غياث في الوقت الذى أسندت فيه رياسة الدعوة وإمامتها إلى سعيد الخير ، وهو عبيد الله . وبينما كان صاحب الشامة (الحسين بن زكرويه) يفتك بأفراد بيت المهدى فى سلمية ، كان الداعى غياث يدعو له فى المشرق ويحاول أن يجذب إلى إمامه كبار الأمراء والحكام . فاستقر بمرو الروذ بخراسان ، وتمكن من جذب الأمير الحسين بن على المروروذى إلى المذهب الإسماعيلى . وكان لهذا الأمير نفوذ لايحد فىخراسان ، وخصوصا فى بلاد الطالقان وهراة والغور . وكانت الدعوه الإسماعيلية بفارس تمتاز بأمور ثلاثة :

الأول : ميل الفرس إلى الدعوة الإسماعيلية لما كان بينهم وبين العلويين الحسينيين من علاقة طيبة ، لما بينهم من صلة النسب من جهة ، ولرغبة كثير من الفرس فى الانتقام من الأمويين والعباسيين من بعدهم من جهة أخرى ، ثم لأنه يسهل على كثير منهم أن يحققوا مآربهم الشعوبية عن طريق التقرب من أهل بيت على ، بعد أن عجزوا عن طريق العباسيين .

الثانى : أن القائمين بالدعوة الإسماعيلية فى تلك البلاد كانوا من العلماء ، فلم يكن كبير الدعاة هنالك يبيح نشر الدعوة إلا لمن كان ضليعا فى العلم والمعرفة ، وذلك بسبب انتشار الثقافة بين الفرس . ومن ثم اتخذ الداعى غياث من الفيلسوف أبى حاتم معروف النيسابورى نائبا عنه فى نشر الدعوة الإسماعيلية . وكان أبو حاتم هذا من العلماء الفلاسفة ، كما كان شاعرا ، عالما بتاريخ العرب وفلسفة اليونان . ولذلك كان تأثيره فى العامة عظيما كتأثير أستاذه غياث .

الثالث : رواج نظرية المهدى في تلك البلاد . ولاغرو ، فقد شغلت هذه النظرية أذهان الفرس ، وآمنوا بها إيمانا جعلهم ينضوون تحت لواء الإسماعيلية بسهولة تامة ، ليحققوا من ورائها آمالا كبارا كانت تجيش فى صدورهم . غير أن الدعاة هناك كانوا يسرفون فى الإيمان بها ، حتى كانوا يحددون موعد ظهور المهدى . ولا بدع فقد كانت الإمامة ترنو ببصرها إلى الناحية الغربية من المملكة الإسلامية ، لا إلى الناحية الشرقية . وقد أخطأ الداعى معروف ، كما أخطأ زعيمه غياث ، فى تحديد كل منهما موعدا لظهور المهدى ؛ فلما لم تتحقق نبوءتهما انفض كثير من حولهما ، واشتد السنيون عليهما ، واتخذوا من ذلك ذريعة للنكاية بالإسماعيلية فى الرى

وخراسان ، واتهموا غياثا وتلميذه بالكذب ، بل لقد انضم إلى السنيين فى هذا جماعة من الشيعة الذين كانوا يخلصون لعلى وأبنائه جميعا . فكان من أثر ذلك أن فرغياث[1] . ولابد أن يكون ذلك قد حدث قبل سنة ٢٩٦ هـ ، أى قبل ظهور المهدى.

غير أنه من حسن حظ الداعى أبى حاتم معروف النيسابورى ، أن مات آخر سلالة الداعى الأول خاف ، وترك هذا أمور الخلفية إلى أبى حاتم ، فذاع صيته فى عالم الدعوة ، وعمر طويلا ، حتى إنه عاصر المهدى حين كان حجة وإماما مستورا ، كما عاصره حين أصبح خليفة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء العلماء الدعاة كانوا يناصرون نظرية المهدية قبل قيام الدولة الفاطمية ، وينادون بقرب ظهور المهدى الذى سيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، لجذب الناس إلى الالتفاف حول منقذهم المنتظر وحول دعاته . فلما قامت الدولة الفاطمية ، وظهر المهدى ، باسم الخليفة الفاطمى ، عمل هؤلاء العلماء على إحاطة الأئمة الخلفاء بهالة من التقديس ، حتى لقد وصلوا بهم إلى درجة العبادة . وعلى أية حالة كان لهذه النهضة المذهبية فى فارس فى عهد عبيدالله أثر بعيد ، حتى لقد أصبحت هذه البلاد بعد قرنين مستودعا هاما لجماعة النزارية ، أتباع نزار بن المستنصر ، الذين أنشأهم الحسن الصباح ، ومن سلالتهم أغا خان اليوم .

٣ — رحلة عبيد الله إلى بلاد المغرب

لم تعد سلمية منذ أن ولى الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) مكانا صالحا لإيواء الأئمة المستورين ، كما لم يعد الإمام الإسماعيلى المستودع المستور ، يتمتع بما كان يتمتع به أئمة الاستقرار قبله ؛ فثار القرامطة فى وجهه . هذا بالإضافة إلى أن رواج الدعوة الإسماعيلية رواجا كبيرا فى كل من اليمن وبلاد المغرب ، قد آذن بقرب زوال عهد سيادة سلمية ، إذ كان لا بد للامام المستور من أن يظهر ، وللدور الستر من أن ينتهى ، وللمذهب الإسماعيلى من أن ينهض على أكتاف أئمة خلفاء . لكل

---

(١) طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ح ١ ورقة ١٦٠

هذه الأمور بدأت رحلة المهدى — سعيد الخير — فى سنة ٢٨٧ هـ ، وانتهت بإخراجه من سجن سجلماسة ، وتربعه على عرش الخلافة الإسماعيلية فى أوائل سنة ٢٩٧ هـ .

ويمكننا تقسيم رحلة عبيد الله من سلمية إلى رقادة إلى مراحل أربع :

(١) من سلمية الى الرملة :

وفى هذه المرحلة نتناول أسباب هجرة المهدى من سلمية . وقد أشرنا إلى تلك الأسباب عند كلامنا على علاقة المهدى بالقرامطة فى دور الإمامة ، وخصوصا قرامطة الشمال وقرامطة السواد ، وعند كلامنا على أبى عبد الله الشيعى ، وموقف المهدى منه . والحق أن ثورة القرامطة على سعيد بن الحسين ، وإغراء أبى عبد الله إياه بالذهاب إلى بلاد المغرب — كان ذلك كله من أسباب هجرته . أضف إلى ذلك تنبه الدولة العباسية إلى خطورة مركز سلمية فى القرن الثالث الهجرى ؛ فقد أدرك كل من المعتضد (٢٧٩—٢٨٩ هـ) والمكتفى (٢٨٩—٢٩٥ هـ) أن الدعوة لإمام إسماعيلى مستور قد بلغت ذروتها : فهاهى ذى بلادالسواد تموج بأتباعه على الرغم من أنها كانت تقع تحت سمعه وبصره ، وهاهو ذا ابن حوشب وزميله ابن فضل يستوليان على أحسن بقاع اليمن ويبشران بقرب ظهور المهدى من ولد إسماعيل ، وها هو ذا أبو عبد الله الشيعى ينشر الدعوة لذلك الإمام الإسماعيلى المستور ، ثم يأخذ بتلابيب دولة الأغالبة المتداعية . وليس هذا وحده ، بل لقد أدرك العباسيون أن حركة كهذه قد اختمرت فى فارس وخصوصا فى الرى وطبرستان وخراسان ، أدركوا هذا كله ، كما أدركوا أن نشاط الإسماعيليين يزداد فى سلمية فى حزم وتؤدة . فلم يكن بد إذن من أن يعمل العباسيون على القضاء على هذه الحركة قبل أن يستفحل خطرها . ومما ساعد العباسيين أن أحد ولاة سلمية من قبلهم قد ثارت شكوكه حول ذى مقام كبير فى هذه المدينة ، واعتقد أنه هو الذى تروج الدعوة باسمه فى كافة أنحاء العالم الإسلامى . وكان ذلك الوالى صادق الفراسة ، لأن هذا الكبير لم يكن سوى المهدى نفسه الذى تزعزع مركزه بعد انتقاض حمدان عليه ، ومحاولة أبناء زكرويه الفتك به . لذلك أدرك الإمام الإسماعيلى استحالة بقائه فى سلمية ، وعزم على الهرب

منها . وسرعان ما عمل دعاة المهدى ببغداد على عزل والى سلمية(١) ، ولفتوا نظره إلى الخطر المزدوج من العباسيين ومن أبناء زكرويه ، وبعثوا إليه بهذه الأخبار ، على أجنحة الطيور ... فسبقت كتب الدعاة إلى سلمية قبل التركى(٢)، أى الوالى .

وكان بقصور المهدى عدد كبير من الأهل والأقارب والأتباع ، فلم يستطع أن يصحبهم فى فراره ، واختار جماعة ممن برعوا فى فنون الحيلة والتخفى ، وترك داعى دعاته أبا الحسين لتنظيم شئون الدعوة فى سلمية ، وأخذ معه ولى العهد ، أبا القاسم الإمام المستقر ، وفيروز باب أبوابه ، وجعفرا الحاجب ، الذى كتب سيرته محمد اليمانى، وأبا العباس محمد بن أحمد بن زكريا أخا أبى عبد الله الشيعى ، واثنين آخرين . أما نساء قصر المهدى ، فلم يأخذ منهن سوى أمه وابنتيه وابنتى أخيه ، وقهرمانته . وترك قصوره تموج بأهله (٣) . وقد قيل إنه لم يأخذ سوى أبى القاسم واثنين آخرين ، أحدهما جعفر الحاجب (٤) .

وكان خروج عبيد الله المهدى من سلمية وقت العصر ، كما كانت وجهته مدينة حمص . وقد استعان ببعض أتباعه من زعماء العرب ، فرافقوه ليلا حتى حط رحاله بحمص فى اليوم التالى ، ومنها قصد طرابلس الشام . ويرى النيسابورى (٥) أنه قصد الرملة بعد أن بقى فى طرابلس يوما واحدا دون أن يمر بدمشق . ويبدو أن جعفرا الحاجب أصدق من النيسابورى ، لأنه كان فى حاشية المهدى ، فيذكر أنهم حطوا رحالهم بدمشق ، ثم قصدوا طبرية ، إلا أنهم اضطروا إلى مغادرتها فورا ، ويمموا شطر الرملة ، واستقروا بها من رجب سنة ٢٨٩ ﻫ إلى منتصف سنة ٢٩١ ﻫ.

---

(١) كان والى سلمية هـذا تركيا ، هاله وجود رجل هاشمى فى سلمية ، وقد سمع بأذنيه تهامس الناس عليه ، وتحقق منهم ،، أن هذا فعله فى كل من يلى البلد (سلمية) حتى يردهم له خولا وعبيدا ، لأنه يرى له بأس عظيم . ويقال إنه يملك المشرق والمغرب ، وله فى كل بلد داع ، وأمواله أكثر من أموال الخليفة ،، (سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٩) . ولما بدا جشع هذا الوالى ، أمر المهدى دعاته فى بغداد بالعمل على عزله من سلمية ، فلما عزل أسر بتشكيكه هذا الخليفة المعتضد .

(٢) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠

(٣) المصدر نفسه ص ١١٠ ، ١١١

(٤) النيسابورى : استتار الامام ص ٩٧

(٥) المصدر نفسه

كانت رحلة المهدى سريعة ؛ فإنه لم يستقر هو وأصحابه فى بلد ما أكثر من يوم واحد ، وربما كانوا لا يمكثون ساعة واحدة ، كما كانت الحال فى طبرية . وكانت هذه الرحلة منظمة تنظيما دقيقا ؛ فبينما يصحب رحلَ النساء بعض خواص المهدى ، إذا بجماعة آخرين يشرفون على الأمتعة ، ويسير غيرهم فى ركابه دون أن يظهروا اتصالهم به [1] . ومن أهم مايسترعى النظر حقا فى هذه الرحلة نظام الجوسوسية الإسماعيلية الدقيق ؛ فقد كان المهدى يعرف فى دقة تامة ، الخطر الذى يتعرض له عن طريق حمام الزاجل ، فيعرف أخبار العباسيين وأخبار أتباعه فى سلمية ، يعرف هذا كله بفضل دعاته المقيمين [2] . من ذلك أنه عرف بعد مغادرته دمشق أن رسول الخليفة العباسى سيصل إليها بعد حين ، ووجد الداعى المقيم فى طبرية ينتظره على الطريق ليقول له : « يامولانا ! إن كتاب الداعى المقيم بدمشق وصل إليه على جناح طائر ، يعرفه فيه أن الرسول ورد من بغداد إلى عامل دمشق فى طلبنا اليوم الذى خرجنا فيه ، ويسألنا ألا ننزل بطبرية لكيلا يدركنا » [3] .

وهذا نوع دقيق من أنواع الاتصال بين رياسة الدعوة وبين الأنصار ، بما يجعلنا نعتقد أن رياسة الدعوة ، سواء فى سلمية أو فى أثناء رحلة المهدى ، كانت تتصل بالأتباع بشبكة محبوكة الحلقات متصلة الأطراف ، من البريد الجوى عن طريق حمام الزاجل ، الذى برع فى استخدامه دعاة الإسماعيلية المقيمون ، كما نعتقد أن جماعة الإسماعيلية كانت فى ذلك الحين منظمة تمام التنظيم ، حتى أصبحت مثلا أعلى للجاسوسية المنظمة فى العصور الوسطى . ولسنا نغلو إذا قلنا إن الجمعيات السرية اليوم وهيئات الجاسوسية فى كافة أنحـــاء العالم ، تلاميذ لتلك الجاسوسية الإسماعيلية .

ويخيل إلينا أن خطوات هذه الرحلة كانت قد درست دراسة وافية ؛ فلم نجد

---

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١١

(٢) الداعى المقيم هو الذى يتعين عليه البقاء فى بلد ما ، وإليه يرجع الفضل فى تنظيم الاتصال بينه وبين رياسة الدعوة ، بل بينه وبين غيره من الدعاة المقيمين فى المدن الأخرى ، وأخذ العهد على المدعوين . أما الداعى السيار فهو المتنقل .

(٣) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢

ثمة صعوبة اعترضت المهدى فى طريقه إلى المغرب إلا تغلب عليها ، بفضل هذه الخطة المحكمة . وها هى ذى الدولة العباسية قد عرفت أنه كان يقيم بسلمية وأنه فر منها ميمما شطر الجنوب ، فتتبعته فى دمشق وطبرية والرملة . ومع ذلك لم تستطع أن تنال منه غرضا ؛ كل ذلك كان راجعا إلى هذه الجاسوسية المنظمة ، وإلى إخلاص دعاته له . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كان المهدى وغيره من أئمة الإسماعيلية وحججهم ودعاتهم يعملون على جذب بعض الحكام إليهم . فبينما نرى بعض الحكام الذين دخلوا فى خدمة العباسيين ، يتظاهرون بأنهم يدينون بالعقائد السنية ، إذا بهم يدينون فى الباطن بعقائد المذهب الإسماعيلى ، وينتصرون لقضية الإسماعيلية ، ويشايعون المهدى المنتظر ، ويعملون على نجاح دعوته . وكان عامل مدينة الرملة من قبل الطولونيين من أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى ؛ فقد كان إسماعيليا يتستر على المهدى وعلى حاشيته . وفيه يقول جعفر ، وهو من الذين صحبهم المهدى فى رحلته كما تقدم : « كان مأخوذا عليه ، فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ع م كيف يخدمه ، ورفع المهدى فوق رأسه ، وقبل يديه ورجليه[1] » . ولذلك لما وردت إليه رسالة والى دمشق وفيها وصف دقيق للمهدى ، كتب هذا الوالى إليه يقول « بأنه ما رأى هذا الرجل ، ولا هذه الصفة ، ولا علم بجوازه ، إن كان قد جاز . وإن لم يكن قد جاز ، فنحن نترصده على كل طريق إن شاء الله[2] » . وكان من أثر ما أظهره هذا العامل من إخلاص ومحبة أن جدد المهدى بيعته .

ومما يسترعى النظر فى هذه المرحلة الأولى من رحلة المهدى ، اهتمام الإسماعيلية - أئمتهم وعامتهم - بعلم النجوم ، الذى كان له أثر بعيد فى نفوس كثير من الخلفاء الفاطميين . فقد أكد المهدى لسامعيه غير مرة أنه سيكون صاحب دولة ، معتمدا فى ذلك على بعض الظواهر الفلكية ؛ ومع أن هذه أمور قد يلجأ إليها بعض الزعماء لتشجيع الأشياع وإثارة حماستهم ، فإنها كانت تقابل من المهدى ومن أتباعه على أنها حقائق ثابتة . ولا غرو ، فقد بشر المهدى تابعه ، عامل الرملة ، بأنه سيقضى على العباسيين ، واستغل بعض الظواهر الفلكية ، فقال : إنها أمارات على قيام دولته . ويذكر جعفر

---

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢

(٢) المصدر نفسه ص ١١٢

الحاجب أن عامل الرملة تألم أشد الألم ، حين قرأ رسالة العباسيين بالقبض على المهدى ، وبكى : « فقال له المهدى : طب نفسا وقر عينا ، فو لذى نفسى بيده ، لا وصلوا إلىّ أبدا ، ولتملكن أنا وولدى (أى الدائم الإمام المستقر ، والابن التعليمى للمهدى) نواصى بنى العباس ، ولتدوسنّ خيولى بطونهم . فلا تخش علىّ شيئا مما ترى ... وسقطت فى تلك الليلة نجوم ؛ فخرج المهدى والقائم .... والعامل والجماعة إلى سطح دار العامل ينظرون وقد انقلبت المدينة بصراخ الناس ، والابتهال إلى الله عز وجل . . . فرأيت المهدى ع م قد شد يده على يد العامل وقال : هذه النجوم إحدى دلائلى . ومن بعض علاماتى[١] » .

(ب) من الرملة الى الفسطاط

خرج عبيد الله من الرملة [٢] بعد انتصار محمد بن سليمان الكاتب على الحسين بن

---

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢

(٢) الواقع أننا نرى أنفسنا أمام نصوص قيمة متعارضة ؛ فان جعفرا الحاجب ، وقد شاهد بعينيه تلك الحوادث ، يؤكد أن قافلة المهدى لم تمكث بالرملة سوى يوم وليلة من سنة ٢٨٩ هـ ، على حين يؤكد النيسابورى الاسماعيلى أن المهدى استمر سنتين (من رجب سنة ٢٨٩ إلى منتصف سنة ٢٩١ هـ) وأنه لم يغادر الرملة بفلسطين إلا بعد لحاق الهزيمة بابى مهزول الحسين بن زكرويه فى أوائل ص ٢١١ هـ .

إذن كيف نوفق بين ما ذكره جعفر الحاجب من أنهم خرجوا من الرملة فى رجب سنة ٢٨٩ هـ ، وما ذكره النيسابورى من أن خروجهم من الرملة كان بعد نحو عامين ؟ والذى يبدو لنا أن جعفرا الحاجب لم يشأ أن يذكر بقاء مولاه فى الرملة هذه المدة الطويلة ، حتى لا يحيط اللثام عن اتصاله بالقرامطة ، لأن الاتصال بالقرامطة ، والتقرب إليهم — ولو ظاهريا — كان من الأمور غير المرغوب فيها عند الأتقياء خاصة . أما النيسابورى فقد ذكر ما ذكره على حقيقته ، وبرأ فى الوقت نفسه مولاه المهدى من الاتصال بالقرامطة .

وقد نسأل بعد ذلك : هل كان محمد بن سليمان أو عيسى النوشرى — اللذان تقابل معهما المهدى فى مصر — على حكم مصر سنة ٢٨٩ هـ ؟ كلا ! بل كان الطولونيون لا يزالون يحكمون مصر فى ذلك الوقت ، ولم يتول محمد بن سليمان أو عيسى النوشرى تلك البلاد إلا بعد أن قضى محمد بن سليمان على القرامطة أولا ثم على الطولونيين فى مصر ثانيا . وكان قضاؤه على الطولونيين وتخريبه مدينة القطائع فى سنة ٢٩٢ هـ . وإذن يكون ما ذكره النيسابورى فى كتابه استتار الامام (ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠) ، صحيحا ، وما ذكره جعفر الحاجب (سيرة جعفر ص ١١٢ ، ١١٣) على العكس من ذلك .

ﺑﻦ ﻛﺮﻭﻳﻪ ﺍﻟﻘﺮﻣﻄﻲ ، ﺍﻟﻤﻌﺮﻭﻑ ﻋﻨﺪ ﺍﻹﺳﻤﺎﻋﻴﻠﻴﺔ ﺑﺄﺑﻲ ﻣﻬﺰﻭﻝ ، ﻭﺑﻌﺪ ﺃﻥ ﺗﺤﻘﻖ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻣﻦ ﺃﻥ ﺍﻟﻘﺮﺍﻣﻄﺔ ﺃﻓﻨﻮﺍ ﺃﺳﺮﺗﻪ ﻭﺃﻫﻠﻪ ﻓﻲ ﺳﻠﻤﻴﺔ ، ﻭﺃﻥ ﺑﻘﺎﺀﻩ ﻓﻲ ﺍﻟﺸﺎﻡ ﻗﺪ ﺃﺻﺒﺢ ﺃﻣﺮﺍ ﻣﺤﻔﻮﻓﺎ ﺑﺎﻟﻤﺨﺎﻃﺮ . ﻭﻟﻴﺲ ﻣﻦ ﺷﻚ ﻓﻲ ﺃﻥ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻛﺎﻥ ﻭﻫﻮ ﺑﺎﻟﺮﻣﻠﺔ ، ﻋﻠﻰ ﺍﺗﺼﺎﻝ ﺩﺍﺋﻢ ﺑﺪﻋﺎﺗﻪ ﻓﻲ ﺍﻷﻗﺎﻟﻴﻢ ﺍﻟﻤﺨﺘﻠﻔﺔ ، ﻭﺧﺼﻮﺻﺎ ﺑﺘﻠﻚ ﺍﻷﻗﺎﻟﻴﻢ ﺍﻟﺘﻲ ﻣﺮ ﺑﻬﺎ . ﻭﻟﻴﺲ ﻣﻦ ﺷﻚ ﺃﻳﻀﺎ ﻓﻲ ﺃﻥ ﻭﺟﻬﺔ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻟﻢ ﺗﻜﻦ ﻣﻌﺮﻭﻓﺔ ﻷﺗﺒﺎﻋﻪ ﻋﻠﻰ ﻭﺟﻪ ﺍﻟﺘﺤﻘﻴﻖ ؛ ﻓﻘﺪ ﻛﺎﻧﻮﺍ ﺟﻤﻴﻌﺎ ﻳﻌﺘﻘﺪﻭﻥ ﺃﻧﻬﻢ ﺳﻴﻠﻘﻮﻥ ﻋﺼﺎ ﺗﺴﻴﺎﺭﻫﻢ ﻓﻲ ﺑﻼﺩ ﺍﻟﻴﻤﻦ ، ﻋﻨﺪ ﺩﺍﻋﻴﻬﻢ ﺍﻟﻤﺨﻠﺺ ﺍﺑﻦ ﺣﻮﺷﺐ ، ﻭﻣﻦ ﺛﻢ ﺧﺮﺝ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻓﻲ ﺭﺣﻠﺔ ﻣﻦ ﺍﻟﺮﻣﻠﺔ ﻣﻴﻤﻤﺎ ﺷﻄﺮ ﻣﺼﺮ ﻓﻲ ﻣﻨﺘﺼﻒ ﺳﻨﺔ ٢٩١ ﻫ .
ﻭﺗﻤﺘﺎﺯ ﺗﻠﻚ ﺍﻟﻤﺮﺣﻠﺔ ﻣﻦ ﺭﺣﻠﺔ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﺑﺄﻣﻮﺭ ﻣﻨﻬﺎ :

ﺃﻥ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻭﺟﺪ ﻟﻪ ﻓﻲ ﻣﺼﺮ ﺃﺷﻴﺎﻋﺎ ﻛﺜﻴﺮﻳﻦ ؛ ﻓﻬﺎ ﻫﻮ ﺩﺍﻋﻴﻪ ﺍﻟﻤﻘﻴﻢ ، ﺃﺑﻮ ﻋﻠﻲ ، ﺻﻬﺮ ﺑﺎﺏ ﺃﺑﻮﺍﺑﻪ ﻓﻴﺮﻭﺯ ﻳﺴﺘﻘﺒﻠﻪ ﺑﻬﺎ ، ﻭﻳﺨﺘﺎﺭ ﻟﻪ ﻣﻦ ﻳﻨﺰﻝ ﻋﻨﺪﻩ ﻣﻦ ﺍﻷﺷﻴﺎﻉ ﺫﻭﻱ ﺍﻟﻤﻜﺎﻧﺔ . ﻭﻗﺪ ﻭﻗﻊ ﺍﺧﺘﻴﺎﺭ ﺍﻟﺪﺍﻋﻲ ﻋﻠﻰ ﺍﺑﻦ ﻋﻴﺎﺵ ، ﻟﻤﺎ ﻛﺎﻥ ﻳﺘﻤﺘﻊ ﺑﻪ ﻣﻦ ﻣﻨﺰﻟﺔ ﺭﻓﻴﻌﺔ ﻋﻨﺪ ﻭﻻﺓ ﻣﺼﺮ ، ﻭﻣﺎ ﻛﺎﻥ ﻣﻦ ﺇﺧﻼﺻﻪ ﻟﻠﻤﺬﻫﺐ ﺍﻹﺳﻤﺎﻋﻴﻠﻲ ﻭﺃﻧﺼﺎﺭﻩ . ﻭﻗﺪ ﺍﺳﺘﻄﺎﻉ ﺍﺑﻦ ﻋﻴﺎﺵ ﺃﻥ ﻳﻤﻮﻩ ﻋﻠﻰ ﻭﺍﻟﻲ ﻣﺼﺮ ﻭﻗﺘﺌﺬ (ﻭﻫﻮ ﻣﺤﻤﺪ ﺑﻦ ﺳﻠﻴﻤﺎﻥ ﺍﻟﻜﺎﺗﺐ ، ﺃﻭ ﻋﻴﺴﻰ ﺍﻟﻨﻮﺷﺮﻱ) ، ﻭﻳﺤﻮﻝ ﺩﻭﻥ ﺍﻟﻘﺒﺾ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ . ﻭﻟﻴﺲ ﻣﻦ ﺷﻚ ﻓﻲ ﺃﻥ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻛﺎﻥ ﻋﻠﻰ ﺍﺗﺼﺎﻝ ﻭﺛﻴﻖ ﺑﺪﺍﻋﻴﻪ ﺃﺑﻲ ﻋﻠﻲ ﺍﻟﺬﻱ ﻭﺿﻊ ﻟﻪ ﺑﺮﻧﺎﻣﺞ ﺍﻹﻗﺎﻣﺔ ﻓﻲ ﺗﻠﻚ ﺍﻟﺒﻼﺩ ، ﻭﺍﻟﺬﻱ ﻛﺎﻥ ﻣﻮﺿﻊ ﺛﻘﺘﻪ . ﻭﻻ ﻏﺮﻭ « ﻓﺈﻥ ﺃﻛﺜﺮ ﺩﻋﺎﺓ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻣﻦ ﻗﺒﻠﻪ » . ﻭﻣﻦ ﺛﻢ « ﺗﻘﺪﻡ ﺇﻟﻴﻪ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻉ ﻡ ﻗﺒﻞ ﺩﺧﻮﻟﻪ ﻣﺼﺮ ﺑﺄﻥ ﻻ ﻳﻨﺰﻟﻪ ﻋﻨﺪﻩ ، ﻭﻻ ﻋﻨﺪ ﻣﻦ ﻳﺸﺎﺭ ﺇﻟﻴﻪ ﺑﺸﻲﺀ ﻣﻦ ﺃﻣﺮﻧﺎ ، ﻭﺃﻥ ﻳﻨﺰﻟﻪ ﻋﻨﺪ ﻣﻦ ﻳﺜﻖ ﺑﻪ ، ﻓﺄﻧﺰﻟﻪ ﻋﻨﺪ ﺍﺑﻦ ﻋﻴﺎﺵ [1] » .

ﻛﻤﺎ ﻛﺎﻥ ﺃﻧﺼﺎﺭ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﺑﻤﺼﺮ ﻳﺴﺎﻋﺪﻭﻧﻪ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺘﺴﺘﺮ ﺑﺸﺘﻰ ﺍﻟﻄﺮﻕ ؛ ﻭﻟﺬﻟﻚ « ﺃﻗﺎﻡ ﻣﺴﺘﺘﺮﺍ ﻓﻲ ﺯﻱ ﺍﻟﺘﺠﺎﺭ ، ﻓﺄﺗﺖ ﺍﻟﻜﺘﺐ ﻣﻦ ﺑﻐﺪﺍﺩ ﺇﻟﻰ ﺻﺎﺣﺐ ﻣﺼﺮ ﺑﺼﻔﺘﻪ ، ﻭﺍﻷﻣﺮ ﺑﻄﻠﺒﻪ ﻭﺍﻟﻘﺒﺾ ﻋﻠﻴﻪ ، ﻭﺇﻟﻰ ﺍﻟﻌﺎﻣﻞ ﺑﻬﺎ . ﻭﻛﺎﻥ ﺑﻌﺾ ﺃﻫﻞ ﺧﺎﺻﺔ ﺫﻟﻚ ﺍﻟﻌﺎﻣﻞ ﻭﻟﻴﺎ ﻣﺆﻣﻨﺎ (ﺃﻱ ﺇﺳﻤﺎﻋﻴﻠﻴﺎ ﺃﻭ ﻋﻠﻰ ﺍﻷﻗﻞ ﻳﻌﻄﻒ ﻋﻠﻰ ﺍﻹﺳﻤﺎﻋﻴﻠﻴﺔ ، ﻭﻧﻈﻨﻪ ﺍﺑﻦ ﻋﻴﺎﺵ) : ﻓﺄﺳﺮﻉ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻤﻬﺪﻱ ﻉ ﻡ ﺑﺎﻟﺨﺒﺮ ، ﻭﺃﻣﺮﻩ ﺑﺎﻟﺘﺴﺘﺮ ، ﻭﻟﻄﻒ ﻓﻲ ﺃﻣﺮﻩ ﺇﻟﻰ ﺃﻥ ﺧﺮﺝ ﻣﻦ ﻣﺼﺮ » [2] .

---

(١) ﺍﻟﻴﻤﻨﻲ : ﺳﻴﺮﺓ ﺟﻌﻔﺮ ﺍﻟﺤﺎﺟﺐ ﺹ ١١٣

(٢) ﺍﻟﻨﻌﻤﺎﻥ : ﺍﻓﺘﺘﺎﺡ ﺍﻟﺪﻋﻮﺓ ﺍﻟﺰﺍﻫﺮﺓ ﺹ ٤١ (ﻣﻦ ﺍﻟﻤﻨﺘﺨﺐ)

وقد بذلت الخلافة العباسية فى هذه المرحلة جهودا كبيرة للقبض على المهدى ، ولكنها لم تستطع ، لما اتخذه من كافة وسائل الحيطة والحذر ، وما قدمه له أنصاره من معونة . وهكذا فانه لما جاءت أوامر بغداد إلى والى مصر بالقبض على المهدى ، وأرسلت أوصافه اليه ، تمكن أنصاره من إيهام الوالى أن عبيد الله لم يعدُ أن يكون رجلا هاشميا يحترف التجارة ، وأن الشخص المقصود قد فر إلى اليمن . ولم يكن الوالى وفيا للعباسيين ، فنظر إلى الأمر من ناحيته الشكلية وحدها . وأمر بالقبض على بعض غلمان المهدى وقررهم ، وضربهم ضربا خفيفا . وإنما فعل ذلك ، « خوفا من أصحاب الأخبار » . وقد خصص العباسيون عشرة آلاف دينار لمن يدل على المهدى ، مما جعل مركزه فى مصر محفوفا بالأخطار .

يؤيد ذلك القول هاتان الحكايتان اللتان ذكرهما أحد أحفاد أبى على الداعى المقيم بمصر، وقد نقلهما المقريزى فى كتابه المقفى الكبير عن المسبحى قال : « وأخبرنى ... ابن محمد بن أبى على الداعى ، أن الإمام المهدى صلى يوما الصبح فى الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ، ومعه أبو على الداعى . فلما خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم الإمام وقال له : قد حصلتْ لى عشرة آلاف دينار ، فقال له : وكيف ذلك ؟ : قال : لأنك الرجل المطلوب ، فضحك المهدى ، ثم ضرب بيده إلى الرجل الذى ضرب بيده إلى كمه ، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أننى إذا جمعتُ بينك وبين الرجل الذى تطلبه ، كان لى عليك ولصديق هذا خمسة آلاف دينار . ثم أخذ بيده ، وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وفارقه ، فخرج من الجانب الآخر ، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة »[١] .

هذا ، ويقص علينا المسبحى حكاية أخرى نقلها عن هذا الداعى[٢] نفسه ننقلها للقارىء أيضا قال : « وكنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الإمام المهدى ، إلى أن سمعت الجرس والنداء عليه : ألا برئت الذمة من رجل آوى رجلا صفته كذا وكذا ، ونعته كذا — ووصف صفة المهدى — ومن أتى به فله عشرة آلاف

(١) حسن ابرهيم : الفاطميون فى مصر (نقلا عن المقريزى : المقفى الكبير ورقة ٢١٨)
(٢) يقصد أبا على ، داعى المهدى المقيم بمصر .

دينار حلالا طيبا ، فقال المهدى : يا أبا على ! المقام بعد هذا عجز ؛ ثم ركب الجسر وسرت معه ، وسألته أن أرحل معه إلى بلاد المغرب ، فقال : علىّ من أدع ، من لى هنا ؟ فبكيت ، فأنشدنى شعر امرىء القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له : لا تبك عينك إنمـــا ... نحاول ملكا أو نموت فنُعذرا »

وقد رأينا أن المهدى فكر — وهو بمصر — فى قصد بلاد المغرب ، وذكرنا ذلك فى شيء من الإسهاب . ويهمنا هنا أن نقول إن المهدى فقد رجلا من خيرة أعوانه ، خرج من معسكره لينضم إلى صفوف أعدائه ، فآلمه ذلك أشد الألم ، وعز عليه أن يكون النفاق نهاية داعى دعاته وباب أبوابه فيروز . وقد عبر المهدى عن ألمه لداعيه المقيم بمصر وهو أبو على ، حين طلب هـذا منه أن يصحبه إلى بلاد المغرب فقال له : « إنى لأعجب من رجلين مؤمنين : أحدهما تغمه فرقتنا ، والآخر تغمه صحبتنا[1] » . وقد قرر المهدى الرحيل من مصر بعد أن بث العباسيون العيون

---

(١) وهناك مسألة يجب تجليتها ، وهى : فى عهد مَنْ من ولاة مصر كانت هذه الحوادث ؟ يخلط كثير من العلماء بين كل من الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) والمكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) ، ويرون أن هذه الحوادث كانت فى عهد المعتضد . والصواب أنها كانت فى عهد المكتفى ، الذى قضى على قرامطة الشمال فى بلاد الشام . والذى لا نشك فيه أن مرور المهدى بمصر لم يكن فى عهد الطولونيين ، بل كان فى الفترة التى تلت سقوط دولتهم مباشرة ، وذلك على يد محمد بن سليمان . ونحن نعلم أن هارون بن خمارويه قتل فى صفر سنة ٢٩٢ هـ ، وأن محمد بن سليمان بقى فى مصر منـذ ذلك الوقت حتى اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها ، بعد أن أقام فيها أربعة أشهر تقريبا ، وأن الذى خلفه فى ولاية مصر هو عيسى النوشرى . إلا أن هذا الوالى لم يبق فى الحكم أكثر من ثلاثة أشهر ، حيث اغتصب منه الأمر ابن الخليج — أحدُ قواد الطولونيين — الذى ولى مصر ثمانية أشهر ، استرد عيسى النوشرى نفوذه بعدها .

وتختلف المراجع السنية فى شخص الوالى الذى قابله المهدى فى مصر : فيرى المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٢٧) أن محمد بن سليمان ألقى القبض على المهدى ، ولكنه أطلق سراحه بعد إرشائه بالمال . ويرى ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) أن عيسى النوشرى هو الذى ألقى القبض على المهدى . وتكاد تنحصر أقوال المؤرخين فى محمد بن سليمان وعيسى النوشرى ، مما يجعلنا نجـزم بأن المهدى لم يمر بمصر فى عهد ابن الخليج ، وبالأولى فى عهد ولاية عيسى النوشرى الثانية (من سنة ٢٩٣ الى سنة ٢٩٧ هـ) ، وخصوصا أننا رأينا المهدى يخرج من الرملة فى منتصف سنة ٢٩١ هـ ، وأن محمد بن سليمان يشهد مهرجان ═══

عليه ، حتى كادت تصيبه سهامهم ، وبعد أن قبض على بعض أتباعه وضربوا بالسياط ، وبعد أن أيقن المهدى مما أصابه أبو عبد الله الشيعى من نجاح فى بلاد المغرب[١] .

(ح) من الفسطاط الى طرابلس

أخذت رسل أبى عبد الله الشيعى تفد على عبيد الله منذ خرج من سلمية . وقد تأكد أبو عبدالله من زوال دولة الأغالبة ، بعد أن مات عاهلهم إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٢٨٩ ﻫ ، وتولى بعده ابنه أبو العباس الذى اضطربت أمور الأغالبة فى عهده ، وتأكد المهدى أن دولته قائمة ؛ فخرج من مصر وقصد بلاد كتامة ، بمكان يسمى الطاحونة فى طريقه إلى طرابلس .

وقد عانى المهدى وصحبه فى هذه المرحلة صعابا جمة ، بدأت بهجوم عيسى النوشرى عليه قبل أن يغادر حدود مصر . وذلك أن العباسيين لم يكتفوا بما قام به محمد بن سليمان للقبض على المهدى ، بل اتهموه بالرشوة ، ونهب مال مصر ، وولوا عيسى النوشرى مصر . ولما كان كثير من حاشية هذا الوالى يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلى ، فقد حذروا عبيد الله مما قد يحيق به من خطر العباسيين ؛ فتزيا بزى التجار ، وخرج من الفسطاط . إلا أن النوشرى لحق به ، وقبض عليه ؛ لكنه أطلقه لما كان يظهره من تقوى وورع ، أو لأنه رشاه بمال كثير .

وتعزو بعض المصادر نجاح عبيدالله فى الإفلات من النوشرى إلى حادث طريف

= التمثيل بصاحب الشامة فى بغداد ، ثم يعود بعد ذلك الى مصر للقضاء على الدولة الطولونية . ومن ذلك نرى أن محمد بن سليمان هو الذى رشاه المهدى ، وغرر به أنصاره ، وأنه لم يقبض عليه ، كما ذهب اليه المقريزى وغيره من المؤرخين ، وانما الذى قام به هو تعذيب بعض أتباعه خوفا من أصحاب الأخبار — على ما ذكرنا — وأن النوشرى هو الذى قبض عليه بعد خروجه من مصر — على ما سنرى — وتخلص منه المهدى بالمال أو بالخديعة . ونكون بهذا قد اتفقنا مع مصادرنا الاسماعيلية التى تذهب الى القول بأن والى مصر كان يعطف عليه ، ومع مصادرنا السنية كذلك . والخلاصة أنه إذا كان عبيد الله قد دخل مصر فى عهد ولاية محمد بن سليمان فقد خرج منها فى عهد النوشرى .

انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » ص ٧٨ — ٧٩

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٤ - ١١٥

يتلخص فى أن أبا القاسم ، ولى عهد المهدى ، كان قد نسى كلبا له فى الدار التى كان النوشرى قد حبس المهدى ورفاقه فيها . ولما كان أبو القاسم يعتز بهذا الكلب ، اضطر المهدى ومن معه إلى العودة للبحث عنه ؛ فلما رأى النوشرى ذلك ، وكان قد عزم على اللحاق بالمهدى من جديد ، قال لأصحابه : « قبحكم الله ! أردتم أن تحملونى على قتل هـذا حتى آخذه ، فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريبا لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ، ولا كان رجع فى طلب كلب ، وتركه [١] » . والحق أن أبا القاسم كان جد مغرم بكلاب الصيد ، حتى إنه بعد خروج المهدى من دمشق سنة ٢٨٩ هـ اشترى كلبة سلوقية ، وأجبر رجال القافلة على البقاء حتى تم له شراؤها ، وكادت قافلة المهدى تقع فى قبضة العباسيين بسبب ذلك ، مما جعل المهدى يحـذر من معه مغبة التوانى والإبطاء بسبب المساومة فى شراء هذه « الجروة السلوقية البيضاء » ، ويقول لهم : « اليوم يرد الرسول إلى دمشق فى طلبنا » [٢] .

ولم تقف متاعب عبيدالله عند هذا الحد ، فقد هجم على القافلة التى كان فيها وهى فى طريقها إلى طرابلس جماعة من البربر عند الطاحونة [٣] ونهبوها ، ونهبوا بعض متاع المهدى . « وكانت عنده كتب وملاحم [٤] لآبائه [٥] » ، « فكان أسفه عليها أشد من أسفه على غيرها مما ضاع له [٦] » . ويدلنا على ذلك أن أبا القاسم (القائم) حين استردها فى غزوته الأولى على مصر (٣٠٠ — ٣٠١ هـ) قال المهدى : « لو لم تكن هذه الغزوة إلا لرد هـذه الكتب لكان ذلك فتحا عظيما ، وسر باسترجاعها سرورا عجيبا » ، ويسمى الإسماعيلية هذا اليوم الذى طورد فيه المهدى وقافلته « يوم السلب » . ولم يقف رفاق المهدى مكتوفى الأيدى أمام هجوم البربر على المهدى ؛ فقد قاوموهم مقاومة شديدة جرح فيها أبو العباس أخو أبى عبد الله . وسنرى كيف يكون انتقام

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٣

(٢) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١١

(٣) الطاحونة : موضع فى برقة بين مصر وطرابلس

(٤) الملاحم : التنبؤات عن الحوادث المستقبلة .

(٥) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٤

(٦) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥

حباسة ، قائد المهدى على مصر ، من هؤلاء البربر بعد ذلك . وقد حدث ذلك كله قبل وصول المهدى إلى طرابلس .

وكانت الصعاب التى لقيها عبيد الله فى طرابلس تفوق تلك التى عاناها فى مصر ، لأنها قلبت برنامجه الذى كان قد أعده رأسا على عقب . ذلك أنه لما وصل إلى طرابلس ، بعث إلى داعيه أبى عبد الله الشيعى يبشره بقرب ظهوره ، ويخبره أنه فى طريقه إليه . ومن هؤلاء الرسل الذين حملوا بشرى وصول المهدى إلى المغرب ، أبو العباس أخو أبى عبد الله الشيعى وجماعة من الكتاميين الذين اعتمد عليهم أبو عبد الله فى نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية فى المغرب . غير أن زيادة الله الأغلبى قبض على أبى العباس بالقيروان ، وعذبه عسى أن يقر على المهدى فلم يقر . وليس هذا فقط ، بل إن زيادة الله أرسل إلى عامله بطرابلس يأمره أمرا لا هوادة فيه بالقبض على المهدى أو التاجر . ولكن عبيد الله وصل هذا الوالى وأمده بأموال كثيرة ، فأرسل إلى زيادة الله يخبره بأن هذا التاجر قد أفلت منه وأنه لم يدركه .

ويجدر بنا أن نقرر هنا أن عبيد الله أصبح أكثر تعرضا للقبض عليه . فقد وقع الحسين بن زكرويه القرمطى — صاحب الشامة — فى قبضة العباسيين سنة ٢٩١ هـ ، لأن هذا القرمطى كان يعرف عبيدالله ، ويعرف مكان اختبائه فى الرملة . فلما نقل هذا القرمطى أخبار أبى عبد الله إلى العباسيين ، ضاعف هؤلاء جهودهم فى استقصاء أخباره ومطاردته والقبض عليه ، وأيقنوا أن التاجر ، الذى أفلت من مصر فى عهد ولاية النوشرى لم يكن غير عبيد الله ، وأنه لم يقصد بلاد اليمن كما زعم بعض . ومن ثم تتبعوه أنى سار ، وكادوا يقبضون عليه ، لولا ما أوتيه من ذكاء وحيلة وبعد نظر ، وما كان ينفقه من أموال اشترى بها ضمائر ولاة العباسيين وعمالهم . وهكذا «كان قصد المهدى إلى أبى عبد الله ببلاد كتامة ، ولكن بلغه أن الكتب وصلت إلى زيادة الله — صاحب المغرب — بطلب المهدى وصفته ، وأنه أفلت منهم بمصر[1] » . وقد أخبر عنه من كان فى صحبته من التجار ، فذكروا أنه تخلف عنهم بطرابلس ، وأن أبا العباس كان من رفقائه . وبهذا أصبح المهدى

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٦

معروفا للخاص والعام فى طرابلس والقيروان ، وأنه الشخص المطلوب من العباسيين ، وأنه إن بقى فى طرابلس فسوف يقبض عليه ، وإن ذهب إلى القيروان تحقق الأغالبة أنه صاحب أبى عبد الله وقبضوا عليه وقتلوه .

إزاء هذه الصعاب قرر عبيد الله أن يفلت بحشاشته ، وألا يتجه إلى كتامة من طرابلس ، حتى لا يثير شكوك الأغالبة . ومن حسن حظه أنه كان قد أرسل وهو بمصر ، جعفرا الحاجب إلى سلمية ؛ فأحضر له مالا ونيرا كان قد طمره فيها ، واستطاع هذا الداعى المخلص أن يصل بهذا المال إلى طرابلس ؛ فتشجع المهدى وقرر عدم المسير إلى القيروان ، وقصد قسطيلية رأسا[١] .

(ى) من طرابلس الى سجلماسة

لم يغادر عبيد الله مدينة « طرابلس » إلا بعد أن أدرك خطورة مركزه ، ولم يقصد القيروان لأنها كانت تحت سمع الأغالبة وبصرهم ، بل قصد قسطيلية ، وكان يرجو أن يلحق منها بأبى عبد الله الشيعى . غير أنه عدل عن رأيه حين أدرك تشمير زيادة الله الأغلبى فى البحث عنه والقبض عليه . والواقع أن عبيد الله لم يغير رأيه ويعدل عن الاتجاه نحو كتامة ويقصد سجلماسة إلا بعد أن ألقى عصا تسياره بتوزر ، أحد بلاد قسطيلية . ولا بد أنه لم يغير اتجاهه إلا بعد أن وصلته أخبار تحذره المسير فى هذا الطريق ؛ لذلك نراه يلح على رئيس القافلة بأن يسير من توزر إلى سجلماسة على غير موعد ، ويتفوه لأنصاره بعبارات نفهم منها أن رسل زيادة الله سوف تلحق به فى « توزر » إذا لم يبرحها . ومن ثم أفلت عبيد الله من هذه القافلة قبل وصول رسل زيادة الله إلى توزر بيوم واحد . وكانت رحلة عبيد الله من توزر إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى شاقة حقا ؛ فقد فقد الاتصال المباشر الذى كان ينشده بأبى عبدالله الشيعى . هذا إلى أن البلاد التى قصدها بلاد صحراوية قَحِلة . ولخوفه من زيادةالله ، وتحذير دعاته له ، أرشى الأدلاء فكانوا يواصلون السير ليلا ونهارا ، حتى كلت قوى رجال قافلته التى استطاعت أن تقطع فى ليلة واحدة مالم تكن تستطيع قطعه فى ليال عدة . والواقع أن رسل زيادة الله الأغلبى وصلوا إلى توزر بعد أن

---

(١) قسطيلية : فى إقليم تونس ، وهى كورة كبيرة من مدنها توزر .

خرجت القافلة التى كان بها عبيد الله فى طريقها إلى سجلماسة . وأنهم لم يستطيعوا اللحاق به . يقول ابن الأثير[١]: «ولما سار (عبيدالله) من قسطينية وصل الرسل فى طلبه ، فلم يوجد ، ووصل إلى سجلماسة فأقام بها ، وفى كل ذلك العيون فى طريقه» .

أسباب نجاح عبيد الله فى فراره

وقد نسأل عن الأسباب التى سهلت على عبيد الله سبيل الفرار وقطع هذه المسافات الشاسعة فى بلاد الأعداء دون أن تناله أيديهم . الحق أن هذا النجاح يرجع إلى أسباب كثيرة ، نذكر منها :

أولا : الاضطراب الذى ساد البلاد التى مر بها ؛ فقد خرج من سلمية ببلاد الشام تاركا القرامطة يأخذون بتلابيب الطولونيين والعباسيين فى هذه البلاد ، مما سهل عليه الفرار إلى الرملة . أضف إلى ذلك أن الدولة الطولونية كانت فى دور الاحتضار حين بدأ عبيدالله رحلته ، كما زاد الاضطراب فى مصر نفسها عقب زوال هذه الدولة ؛ ويرجع ذلك إلى كثرة تعيين الولاة بها . وضعف شأنها ، حتى إن أحد الثوار استطاع أن يحكمها ثمانية أشهر ، وهذا يدلنا على أن جميع الظروف فى مصر والشام كانت مهيأة لهرب عبيد الله . على أن حالة إفريقية (بلاد تونس الحالية) كانت أسوأ منها فى مصر والشام ، لأن دولة الأغالبة قد هرمت ، ودب الضعف فى صفوف أمرائها . واستطاع أبو عبدالله الشيعى أن يوجه إليهم أعنف الضربات ، فأقفرت خزائنهم من المال وبلادهم من الرجال ، ونشر بينهم الفوضى والاضطراب . وفى وسط هذه الأحوال السيئة كان عبيدالله يقوم برحلته .

ثانيا : انتشار التشيع فى البلاد التى مر بها عبيدالله ؛ فقد كان لتركيز المذهب الإسماعيلى جهوده غربى المملكة الإسلامية خاصة أثره فى تكوين جماعات أو بيئات تعطف عليه فى بلاد الشام ومصر وطرابلس وتونس . وقد انتشرت فى القرن الثالث تنبؤات عن قرب ظهور المهدى ؛ ولذلك نرى الذين يعاونون المهدى على الهرب من سلمية إلى حمص ، من العرب الذين يؤمنون بحب العلويين ، كما نرى المهدى يجد فى

(١) جـ ٨ ص ١٤

دمشق والرملة ومصر عددا غير قليل يخلصون لدعوته ، ويساعدونه على الفرار . ولا غرو ، فقد كان لجهود داعي دعاته فيروز ، و « داعيه على طريق مصر » وهو أبو الحسين - وداعي مصر المقيم وهو أبو علي - أثر كبير في نشر المذهب الإسماعيلي بين الناس ، حتى إن حاشية عيسى النوشري - والي العباسيين على مصر - كانت من الإسماعيلية أو على الأقل ممن يعطفون عليهم . كما كان لانتشار التشيع بين وزراء الأغالبة أثر كبير في تهاون القائمين بالبحث عن المهدي ، حتى استطاع أن يفلت منهم أخيرا .

ثالثا : الجاسوسية المنظمة ؛ وهي أهم العوامل التي ساعدت عبيد الله على الفرار ؛ فقد كان يهمه أن يظل خبره سرا مكتوما ، وأن يعرف دعاته الذين سيمر بهم جميع حركاته صغيرها وكبيرها . وقد أجاد هو وأنصاره استخدام حمام الزاجل في مراسلاتهم ، كما كان دعاتهم السيارة من أكبر عوامل التجسس التي ساعدت عبيد الله على الإفلات من الشام ومصر خاصة . وقد رأينا عبيد الله يعلم وهو في طريقه - من داعيه المقيم في دمشق - أن رسل العباسيين تبحث عنه في دمشق ، وأنهم سائرون في إثره . كما رأينا داعيه المقيم بطبرية يستحثه على الفرار منها إلى الرملة ، لأن الأعداء يلاحقونه ، ووجد في مصر وفي بلاد المغرب كل عون من جاسوسيته المنظمة التي كانت تفوق في إتقانها حد الوصف . ونستطيع أن نتصور ما كان يحدث للمهدي من اضطراب في أثناء هربه لو لم تساعده هذه الجاسوسية .

رابعا : المال : وكان لكثرة ما أنفقه المهدي من الأموال أثر كبير فيما أصاب من نجاح . حقا كانت سلمية تغص بالأموال التي تأتيه من أشياعه الكثيرين عن طريق دعاته في كافة أرجاء العالم الإسلامي ؛ فكان يأتيه خمس صاحب الزمان ، والجزى ، والتبرعات وسواها من فارس والعراق واليمن والمغرب وغيرها . فامتلأت خزائنه بالمال ، حتى لقد قالوا : إن ما كان له بسلمية كان يفوق بكثير ما حصل عليه في عهد خلافته . وقد استغل المهدي هذا المال أحسن استغلال ؛ فجعل ينفق وهو في طريقه الى المغرب ذات اليمين وذات اليسار ، حتى كم الأفواه ، فلم يستطع أن ينال العباسيون منه غرضا . ألم يسكت عبيد الله بماله الكثير محمد بن سليمان والي مصر ، ويفعل مثل ذلك مع خليفته عيسى النوشري ، الأمر الذي

ساعده على الفرار من الشرق الأوسط إلى بلاد المغرب ؟ وقد رأينا كذلك كيف كم فاه والى طرابلس بالمال فتركه يأخذ طريقه إلى سجلماسة . وهكذا كان كلما حل بلدا أفضل على العامل عليه ، ووصله وأهدى اليه ؛ فمنهم من لم يعرفه وأكرمه لذلك ، ومنهم من عرفه وترك التعرض له لما كان منه إليه ، ومنهم من عرفه ذلك وحذره (١) . ولما كان المهدى يعرف أثر المال فى النفوس ، تظاهر بمظهر التجار من ذوى اليسار ، وأكثر من شراء السلع حتى يحبك مؤامرته على الأغالبة ، كما حبكها على العباسيين وولاتهم فى مصر والشام . ولم يكتف بما حمله معه من الأموال ، بل بعث فى طلب أحمال أخرى غيرها أرسلت إليه من سلمية ، وكانت خير عون له وهو فى طريقه من طرابلس إلى سجلماسة ، وبعد استقراره بها .

خامسا : طرق التخفى : كان لطرق التخفى التى نهجها عبيد الله ورفاقه أثرها البالغ فى وصوله سالما من المشرق إلى المغرب، فنراه يدعى تارة أنه هاشمى وأخرى أنه تاجر ، وثالثة أنه من الأشراف . ولم يشأ أن يرهق رحله بالأحمال ؛ فوزعها بين الأتباع وفرق بعضهم عن بعض . أضف إلى ذلك إيمان أتباعه به إيمانا لا حد له ؛ فقد كانوا يعذبون أحيانا بقضم أظافرهم وتقطع أجسامهم ، ومع ذلك كانوا لا يقرون بشىء . من ذلك ما فعله زيادة الله مع أبى العباس محمد بن زكريا أخى أبى عبدالله الشيعى ، فقد عذبه عذابا لا طاقة لأحد به ، ومع ذلك ظل صامتا لا ينبس ببنت شفة . وكذلك نرى اليسع بن مدرار يعذب أتباع عبيد الله عذابا لم نسمع بمثله ، من قلع الأظافر ، إلى تأريق دائم ، إلى تحريق ، دون أن ينال منهم غرضا ؛ ثم نرى عبيدالله يترك نساءه فى عهدة بعض رجاله المخلصين ، فيسلكون سبلا غير السبل التى كان يسلكها هو ، ونرى رجاله موزعين هنا وهناك ، يجتمعون سرا ويفترقون سرا . وبفضل هذا كله نال عبيد الله ما ناله من نجاح .

---

(١) شرح الأخبار ص ٣٢

(هـ) عبيد الله فى سجلماسة

لما دخل عبيد الله سجلماسة اتبع طريقته المعهودة ، فأغدق على واليها اليسع بن مدرار ، حتى إنه كان « يوجب حقه وتعظيمه »[١] . « وكان يخصه ويكرمه ويوجب حقه » . واستأجر عبيد الله فى الوقت نفسه دارا تليق بشخصه ، كما اتصل ببعض أهالى القيروان ، وأوفده إلى أبى عبد الله الداعى ، وتراسل معه عن طريقه كما تقدم ، واشترى بعض المماليك لخدمته . كل هذا يدلنا على أن المهدى أقام بسجلماسة حرا طليقا فترة من الزمن[٢] .

وعلى الرغم من أن زيادة الله الأغلبى أخذ يرسل كتبه إلى اليسع ، يقول فيها إن عبيد الله هو الرجل المقصود ، ويغريه بالقبض عليه ، تركه حرا فى بيته ، حتى إن أنصاره وأعوانه كانوا يتصلون به . إلا أن هذه المعاملة الطيبة تبدلت بعد انتصار أبى عبد الله على الأغالبة وإزالة دولتهم فى سنة ٢٩٦ هـ ، وعزمه على قصد سجلماسة ، فإن اليسع بدأ يتغير من ناحية المهدى ، لكراهيته أبا عبد الله ؛ فقرر عزل المهدى وفصله عن القائم ، وقبض على أعوانه وأنصاره ، وعذبهم عذابا شديدا .

وبهذا نرى أن الحرية التى نعم بها عبيد الله وأنصاره قد تبدلت . وعلى الرغم من هذا التشدد الذى بدا من اليسع ، كان المهدى يبعث بخادمه إلى ابنه القائم فى داره ، وإلى أنصاره وعبيده فى سجونهم ، فيستطلع أخبارهم . وقد وصف جعفر الحاجب[٣]

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٣

(٢) يقول النعمان (افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٤) : « فلما قرب أبو عبد الله أرسل اليسع إليه ، فسأله عن نسبه وحاله ، وهل إليه قصد أبو عبدالله ، فاعترف له ع م بالنسب إذ لم يسعه إنكاره ، ولم يعترف له فى ذكر أبى عبد الله فقال : ما رأيته ، ولا أعرفه ، وكذلك كان لم يره ... وقال إنما أنا رجل تاجر ، وذلك أنه خاف على نفسه ، ورأى منه إنكارا لقدوم أبى عبد الله ، وأنفة من دخول بلده فغلظ له فى القول فى ذلك ، فلزم كلامه الأول . فأنزل الله له بأكثر الهيبة فى قلبه والجلالة فى عينه ، فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله فى دار ، وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القائم بأمر الله فى دار أخرى ليفرق بينهما ، ويختبر قول كل منهما . وكان قولهما واحدا ... وامتحن رجالا كانوا معهما بالعذاب ليقروا عليهما ، فلم يكن منهم إلا ما قالاه » .

(٣) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٢

تلك الحالة بقوله : « والمهدى والقائم ع م مبجلان معظمان فى منزلهما ، قد هيبهما الله عز وجل فى عين صاحب سجلماسة ، وعظمهما فى قلبه ، وإنما كانت صولته علينا ، يعذبنا كل يوم بالسوط » . والواقع أنه كلما اقترب أبو عبد الله الشيعى من سجلماسة أمعن اليسع فى تعذيب أتباع المهدى ، حتى لقد أقر واحد منهم بعض الإقرار لهول ما لاقاه من التعذيب ؛ وقال أحدهم لمعذبيه : « ياقوم ! إن كان قد صح عندكم ما قيل فينا فاقتلونا وأريحونا من هذا العذاب الذى نحن فيه » [١] .

وتذهب بعض المصادر إلى أن أبا عبد الله لما اقترب من سجلماسة ، قتل اليسع عبيد الله فى سجنه . ويظهر أن هذا الزعم لا يستند إلى أساس سليم . حقيقة عقد اليسع مؤتمراً من المقربين إليه ، حين أدركوا جميعا خطورة استيلاء أبى عبد الله على سجلماسة ، وبخاصة بعد قتل رسله إليهم ؛ فأشار بعضهم بقتل جميع المتهمين بالتشيع فى حاضرته ، ليفل من شوكة أبى عبد الله وأنصاره ، وأشار بعض آخر بالإحسان إليهم حتى لا يتعرضوا لسخط أبى عبد الله وحنقه ، وأشار بعض آخر أيضا بإخراج من يشتبه فى أمرهم وإرسالهم إلى أبى عبد الله ؛ وفى ذلك الوقت يستطيع اليسع الإفلات بنفسه وبمن معه . ولا يبعد أن يرجع أبو عبد الله بالمهدى إلى إفريقية على جناح السرعة ، خوفا على ملكه الجديد من أن يقع فى يد زيادة الله الأغلبى [٢] ؛ فأخرج رجلا غير المهدى ، فلم يعبأ أبو عبد الله به . ولما خرج المهدى ، اليهم ، أخذ الفرح منهم كل مأخذ [٣] ، فانتهز اليسع ومن معه هذه الفرصة وأمعنوا فى الهرب . ثم أمر المهدى أبا عبد الله بفتح سجلماسة وتخريبها .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٣

(٢) يقول جعفر الحاجب فى هـذا الرأى الأخير (استتار الامام ص ١٢٤) : ,, وقال له بعض من كان يثق به ويرجع إلى رأيه ؛ القوم قد أحاطوا بنا من كل جانب ، وليس لنا بهم طاقة . فان كنت قتلت هؤلاء القوم قتلوك بهم وقتلونا . والرأى لنا ولك أن تخرج هؤلاء الرجال إليهم واحدا واحدا ، فمن كان منهم صاحب القوم اشتغلوا عنك وعنا وقت خروجه إليهم . فعند ذلك نجد نحن لاشتغالهم الفرصة للهرب ؛ ومع ذلك فانه إذا وصل إليهم صاحبهم ، لم يكن له ولا لهم اهتمام إلا القفول إلى افريقية خوف أن يبلغ زيادة الله بن الأغلب الهارب من بين أيديهم أنهم انصرفوا من افريقية إلى سلجماسة ، فيرجع اليها طمعا منه ، ليمد ما بين البلدين ، ويحشد بها العرب ويتحصن منهم ، فيصعب الأمر عليهم . فاذا انصرفوا عن البلد بصاحبهم ، رجعنا إليه ،، .

(٣) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٤ .

كان على عبيد الله بعد ذلك أن يعمل على إحضار الإمام المستقر — ولى العهد أبى القاسم . وقد وضع لذلك خطة محكمة تذرع بها لتخليصه ؛ وتتلخص فى أن يرسل أبو عبد الله إلى السجن من يطلق أتباعه ليدلوه على موضع القائم . وقد عثر رجال أبى عبد الله عليه بشق النفس ، لأن السجن قد فُتح وفر من كان به ، واهتدوا إلى عبيد المهدى الذين دلوهم على موضع القائم . ولم يحتفل المهدى بالبيعة له إلا بعد أن التأم شمل جماعته وأتباعه .

والذى يلفت النظر حقا ما حدث فى اليوم الذى أخذت فيه البيعة للمهدى بسجلماسة ؛ فقد قلد المهدى أبا عبد الله سيفا وخلع عليه ، كما خلع على أتباعه الذين حضروا بخلع وسيوف كان قد حملها معه من سلمية . ويعتبر يوم البيعة من أبهى أيام عبيد الله ؛ فقد جلس على سرير فخم نصب له فى ميدان كبير بسجلماسة ، ووقف ولى عهده — القائم — عن يمينه ملتصقا بالسرير ، وحولهما أتباعهما الذين حضروا معهما من سلمية ، وكانوا يسمون المكان الذى نصب فيه سرير المهدى « السماء » . وجعلوا على باب هذا المكان جعفرا الذى كان فى صحبة المهدى ، وأطلقوا عليه اسم « الحاجب » منذ ذلك اليوم ، لأنه كان قائما « على باب السماء » . وأخذ أبو عبد الله يقدم إلى المهدى أشياعه وأنصاره ثلاثة أيام كاملة . ثم رحل عن سجلماسة بعد أن قبض على اليسع وضرب بالسياط ، وقتل من معه . أما هو فلم يقتل لأنه وهبه للقائم ، فمات بعد قليل .

وكانت رحلة المهدى من سجلماسة إلى إفريقية رحلة ممتعة حقا ؛ فلم تكن كتلك الرحلة التى عانى فيها الأمرين من قبل . لقد خرج من سلمية لا يعرف له مستقرا ، يخشى القريب والبعيد ، ويتألم لحاله وحال من معه ، ويشفق على نفسه من الموت أو السجن . كان يعيش على الأمل المنشود ، ويسعى للملك سعى إليه العلويون من من قبل . أما اليوم فقد أصبح المهدى سيد إفريقية بلا منازع ؛ يخرج فى حفل هائل « من العساكر العظيمة التى لم يجتمع لملك قبله مثلها » .

يمم المهدى نحو المشرق عائدا من سجلماسة إلى كتامة ، الى البلاد التى ناصره أهلها ، إلى فج الأخيار ، حيث دار الهجرة ، والأموال الضخمة ، التى أودعها داعيه أبو عبد الله الشيعى . ومن هناك غادر المهدى هذه البلاد التى كانت يوما ما

نقطة ارتكاز للهجوم على الأغالبة حتى حط رحاله فى إفريقية ، التى لم يبق أحد من إهلها إلا تلقاه بالترحيب ، وأخذ من مدينة رقادة قاعدة لملكه .

وهكذا انتهى الدور الأول من حياة عبيد الله بجلوسه على عرش الخلافة الفاطمية بإفريقية فى أوائل سنة ٢٩٧ هـ ، فترك حياة التخفى والاستتار ، ولم يعد ذلك الإمام المستور ، بل بدأ حياة جديدة : أصبح خليفة وإماما ، وأصبحت الدعوة الإسماعيلية تهدف إلى الالتفاف حول شخصه وملكه ومذهبه ، والدفاع عنها جميعا . ومنذ ذلك الحين أخذ المهدى يمد سلطانه شرقا وغربا ، ليقيم ملكه على أساس متين ، ويجدد ملك على بن أبى طالب ، ويحيى ما درس من خلافته ، ويعمل على تقويض دعائم الدولة العباسية المتداعية ، ليقيم على أنقاضها دولة الفاطميين الفتية ، وإن لم يستطع أن يحقق جميع آماله الواسعة ، فقد وضع الخطة التى سار عليها خلفاؤه من بعده .

٤ — نسب عبيد الله

أسس عبيد الله ـ على ما سنرى ـ دولة تعرف بالدولة الفاطمية ـ نسبة إلى فاطمة بنت الرسول وزوج على بن أبى طالب ، أو الدولة العلوية نسبة إلى على . وتسمى أحيانا الدولة العبيدية نسبة إلى عبيد الله نفسه . وليس من شك فى أن الدولة التى أسسها عبيد الله دولة إسماعيلية ، وأن خلفاءها قاطبة إسماعيلية ؛ وإنما الشك ينصب على شخصية عبيد الله : هو إسماعيلى من سلالة إسماعيل ، أم هو إسماعيلى من أنصاره لا من سلالته ؟

اختلف العلماء فى نسب عبيد الله اختلافا كثيرا ، فهناك جماعة يرون صحة نسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وجماعة ينكرون صحة هذا النسب : فيرون أن عبيد الله من سلالة ميمون القداح ، أو من سلالة موسى الكاظم . وبهذا نرى المؤيدين نسب عبيد الله إلى علىّ وفاطمة ثلاث طوائف : طائفة تقول إنه إمام من الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية ، وطائفة تنسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وهم من الإسماعيلية ، وجماعة من السنيين يرون صحة انتسابه لإسماعيل . أما المؤيدون نسب عبيد الله لميمون القداح ، فهم قلة من الإسماعيلية أنفسهم ، والغالبية العظمى من العلماء السنيين .

(أ) نسب عبيد الله الى على وفاطمة

امتلأت بطون الكتب الشيعية خاصة بأحاديث ، معظمها موضوع ، عن المهدى المنتظر ، وآمن بذلك الإسماعيلية والاثنا عشرية وكثير من السنيين . ولذلك يرون أن عبيد الله إمام من نسل الرسول ، وأنه المقصود بهذه الأحاديث ، وأن نسبه لا غبار عليه مطلقا .

١ — السنيون الذين يؤيدون صحة النسب

وهناك طائفة كبيرة من العلماء السنيين يثبتون صحة نسب عبيد الله إلى على وفاطمة . ومن هؤلاء ابن الأثير وابن خلدون والمقريزى . فيذهب المقريزى إلى القول بأن الله لا يملك الدعى ولا ينصره ، وقد ملك الفاطميون نحو ثلاثة قرون (٢٩٦ — ٥٦٧ ﻫ) حيث يقول : « إن الكاذب لا يملك البلاد ولا يمكن له فى الأرض » [١]. ويستدل المقريزى بحديث لموسى الكاظم عن ظهور المهدى بالمغرب ، وانتشار الدعوة الإسماعيلية شرقا وغربا فيقول : « نقل عن أئمة آل البيت عليهم السلام الإشارة إلى أمر عبيد الله المهدى ؛ فمن ذلك أن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سئل عن ظهور القائم متى يكون ، فقال : إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب وأسفله بالمشرق . وكذلك كانت بداية أمر المهدى عبيد الله ، فإنه ابتدأ من المغرب وانتهى أمره على يد بنيه إلى المشرق ، فإنه ظهر بسجلماسة سنة ٢٩٦ ﻫ ، وهى أقصى مسكون المغرب ، ودعى المستنصر ببغداد فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة . » [٢]

على أن تلك العبارة التى أوردها المقريزى لا تنهض دليلا على صحة ما ذهب إليه ؛ فإن هذا القول الذى ينسب إلى موسى الكاظم ، يراد منه أن ظهور المهدى سيكون أمرا واقعيا يعرفه الخاص والعام ، وينتشر حتى يصل إلى أقاصى الدنيا ،

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٠

(٢) يقصد بذلك ثورة أبى الحارث البساسيرى على الخلافة العباسية ، وفتحه بغداد ، وإقامته الخطبة للمستنصر الفاطمى من ذى القعدة سنة ٤٥٠ إلى ذى القعدة سنة ٤٥١ ﻫ .

وليس معناه قيام الدولة الفاطمية بالمغرب وإقامة الخطبة لها بالمشرق . ثم من ذا الذى يقول بأن الإمام موسى الكاظم أو سواه يعلمون الغيب الذى اختص به الله تعالى ؟

وأغرب من ذلك تحديد بعضهم السنة التى يظهر فيها المهدى ، وإرجاع ذلك التحديد إلى أحد الأئمة الاثنا عشرية ؛ فيقول المقريزى (١) : « إن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم كان يقول فى سنة أربع وخمسين ومائتين ، ستكشف عنكم الشدة ، ويزول عنكم كثير مما تجدون ، إذا مضت عنكم سنة اثنتين وأربعين . يشير بذلك إلى البداية من تاريخ وقته ؛ فيكون المراد منه سنة ست وتسعين ومائتين » ، أى بإضافة ٤٢ سنة إلى سنة ٢٥٤ هـ ، وهى السنة التى قامت فيها الدولة الفاطمية فى المغرب .

كما يستدل المقريزى على صحة نسب عبيد الله من اتجاه ميول بعض الأمراء المسلمين نحوه ، مثل نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان ، ومرداويج بن زيار الديلمى ، ويوسف بن أبى الساج أمير الرى ، مما لا يترك مجالا للشك فى أن نسب عبيد الله إلى على وفاطمة كان أمرا معترفا به فى ذلك الوقت (٢). يقول المقريزى(٣) : « وبعث إليه نصر بن أحمد — أمير خراسان — يقول : أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعونى ، وليس على المهدى بهم كلفة ولا مئونه ؛ فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه ، وامتثلت أمره ... الخ . وكتب إليه مرداويج الجيلى بمثل ذلك ، وكتب إليه يوسف بن أبى الساج ... وأنفذوا رسلهم مع الأموال ، فوقع على ظهر كتبهم : « الزموا مراكزكم ، لكل أجل كتاب » .

ويستند من يثبت صحة نسب الفاطميين من السنيين إلى قصيدة الشريف الرضى ، وكان من العلويين النابهى الذكر فى عهد الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) صاحب محاضر الطعن فى نسب الفاطميين . وفى هذه القصيدة يثبت هذا العلوى صحة نسب هؤلاء الخلفاء فى مصر ، ويظهر عطفه عليهم . ويعلق ابن الأثير أهمية كبيرة على هذه القصيدة فى إثبات صحة النسب ؛ هذا إلى ما ينسبه بعض إليه من امتناعه عن توقيع المحضر الذى طعن فى نسب الفاطميين ، وصرفه عن المناصب التى كان يتقلدها

(١) اتعاظ الحنفا ص ٣٠

(٢) حسن ابرهيم : الفاطميون فى مصر ص ٧٣

(٣) المقفى الكبير - مخطوط - عن كتاب ,, الفاطميون فى مصر ,, للدكتور حسن ابرهيم ص ٧٤

من قبل العباسيين . وزاد ابن الأثير (١) هذه المسألة بيانا فقال ، إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا فى أن الفاطميين من أولاد على .

ومما جاء فى قصيدة الرضى التى اعتمد عليها ابن الأثير كثيرا فى إثبات نسب عبيد الله قوله : —

ما مُقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حَمِىّ (٢)
وإباءٌ محلق بى عن الضيم كما راغ طائر وحشىّ
أى عذر له إلى المجد أن ذلّ غلام فى غمده المشرفىّ
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى (٣) وبمصر الخليفة العلوىّ
من أبوه أبى ومولاه مولاى إذا ضامنى البعيد القَصِىّ (٤)
لفّ عرقى بعرقه سيدا النا س جميعا محمد وعلىّ
إن جوعى بذلك الربع شبع وأوامى بذلك الظل رىّ (٥)
مثل من يركب الظلام وقد أسرى ومن خلفه هلال مُضِىّ (٦)

والحق أنه لو ثبت ذلك الشعر لأحد العلويين ، لكان ذلك دليلا قاطعا على صحة نسب الفاطميين . لكنه ، على مايظهر ، كان من صنع دعاة الإسماعيلية لتقويه مركز الفاطميين فى بلاد المشرق وفى العراق خاصة . يدل على ذلك أن الشريف الرضى نفى نسبة هذا الشعر إليه ، وأقسم الأيمان المغلظة أن هذه الأبيات لم تكن من نظمه . أضف إلى ذلك أنها لم ترد فى ديوانه كما لم يروها الرواة عنه . ولم يكن امتناعه عن إثبات ذلك الإقرار كتابة فى محضر العباسيين إلا خوفا من دعاة مصر . يقول

---

(١) جـ ٨ ص ٨ - ٩

(٢) كناية عن قدرته البلاغية وعزة نفسه ودليلا على تذمره من العيش فى بلاد العباسيين

(٣) الأعادى هنا هم العباسيون

(٤) يصرح باعترافه بصحة نسب الفاطميين ويرى أنهم أحبابه لأنه منهم ، وأن العباسيين أعداؤه لأنهم غرباء عنه .

(٥) يتمنى أن يكون بمصر وينتبأ بالسعادة فيها ولو مع فقره .

(٦) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩ .

ابن كثير : « لما سمع الخليفة القادر بأمر الله هذه القصيدة انزعج ، وبعث إلى أبيه الموسوى يعاتبه ، فأرسل إلى ابنه ، فأنكر أن يكون قالها بالمرة ، والروافض من شأنهم التزوير . فقال أبوه : إن لم تكن قلتها ، فقل أبياتا تذكر فيها أن الحاكم بمصر دعيّ لا نسب له ، فقال : إنى أخاف غائلة ذلك . . . وترددت الرسائل من الخليفة إليهم فى ذلك ، وهم ينكرون ذلك ، حتى بعث الشيخ أبا حامد الأسفرايني والقاضى أبا بكر الباقلانى إليهما ، فحلف لهما الأيمان المؤكدة أنه ما قالها »[1] .

وقد أكد أبو الرضى نفى هذا الشعر عن ابنه ، ونسبه إلى أعدائه ، كما سجل الرضى ذلك على نفسه ، وأبدى خوفه من دعاة الإسماعيلية ، كما نرى ذلك فى قول أبى الرضى : « أما هذا الشعر فما لم نسمعه منه ، ولا رأيناه بخطه . ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه وعزاه اليه » . وأما امتناع الشريف الرضى عن تسجيل اسمه فى محضر القادر فيرجحه قوله : « لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر . وأنكر الشعر ، وكتب خطه بأنه ليس بشعره ولا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يسطر خطه فى المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخاف دعاة المصريين وغيلتهم ، فإنهم معروفون بذلك »[2] .

وأما ابن خلدون ، وهو من المتعصبين لمذهب الشيعة ، فقد دحض فى مقدمته هذه الأقوال التى أنكر فيها المؤرخون والكتاب صحة هذا النسب حيث يقول : « ومن الأخبار الواهية ما يذهب اليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات فى العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن فى نسبهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس ، تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفننا فى الشماتة بعدوهم ... ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات ، وأدلة الأحوال التى اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم ، فإنهم متفقون فى حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب ، لما دعا بكتامة للرضا من آل محمد ، واشتهر خبره ، وعلم تحويمه على عبيدالله المهدى وابنه أبى القاسم ، خشيا على أنفسهما ، فهربا من المشرق محل الخلافة ، واجتازا مصر ، وأنهما خرجا

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٤

(٢) المقريزى : اتعاظ ص ١٦ .

من الإسكندرية فى زى التجار (١)».

والذى نلاحظه على هذه الأقوال :

١ — أنها تقوم على أساس العاطفة ، فلسنا نؤمن بما ذهب إليه المقريزى بأن عبيد الله من أصل فاطمى حقيق ، لأنه أقام الدولة الفاطمية التى ملكت زمناطويلا ، والله لا يملك الظالم ؛ لأن الله قد يملك الظالم وقد لا يملكه ، إلى غيرذلك مما لا يصلح أن يكون أساسا للحكم الصحيح على صحة نسب عبيدالله إلى على وفاطمة .

٢ — أن أصحاب هذه الآراء يختلفون فيما بينهم فى ذكر سلسلة نسبهم ؛ فنرى ابن الأثير يقول إن عبيد الله هو ابن أحمد بن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ، ويذكر فى الوقت نفسه سلسلة أخرى فيها أن عبيدالله بن عبد الله ابن ميمون بن محمد بن إسماعيل (٢). ونرى ابن خلدون يأتى بأكثر من سلسلة واحدة للنسب ، يؤكد فيها جميعها أن عبيدالله من سلالة إسماعيل ، ويقول : إنه ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم . وهذه السلاسل تختلف كثيرا عما أورده المقريزى فى مقفاه الكبير حيث يقول : إن عبيد الله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ، ونرى ابن النديم يورد سلسلة من النسب تتفق مع ما يذكره الإسماعيلية أنفسهم ، من أن عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر .

والحق أننا لو تقصينا سلاسل النسب ، التى أوردها العلماء السنيون الذين يقولون بصحة نسب عبيدالله ، لبلغت المئات عدا ، وكلها تختلف فى ذكر أسماء الأئمة المستورين ، الذين يفصلون بين محمد بن إسماعيل وعبيدالله ، بل فى ذكر عدد الأجيال التى تفصل بين هذين الإمامين ، وأن هذا الاختلاف إن دل على شىء فإنما يدل على عدم تحقق هؤلاء العلماء من شخصيات الأئمة المستورين ، مما يجعلنا لا نميل إلى الأخذ بصحة كل ما ذهبوا إليه ؛ فهؤلاء العلماء إنما زادوا الموضوع غموضا .

٣ — وبتقصى آراء العلماء السنيين المؤيدين صحة النسب ، نستطيع أن نتحقق

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١ .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ٨

أنهم كانوا يجهلون الحقائق عن أصول المذهب الإسماعيلى ونظمه السرية ، وأنهم لم يقفوا على حقيقة نظامى الاستقرار والاستيداع الإمامى . ولو عرفوا أن من نُظُم الإسماعيلية المحببة إليهم أن الإمام قد يكون مستقرا ، بمعنى أن الإمامة تستقر فيه ، وأنه ينقلها إلى سواه ، وأنه قد يكون مستودعا لهذه الإمامة ، بمعنى أنه لا يستطيع نقلها إلى سواه ، وأن المستودع من الأئمة قد يكون من بيت الإمام المستقر ، أو من غير بيته ، وربما لا يمت إليه بقرابة ، كأن يكون من نوابه أو من حججه وحجبه — لو أنهم عرفوا ذلك لما غاب عنهم أن كثيرا ممن ذكروهم كانوا أئمة استقرار ، أو أئمة استيداع ، وأنه يمكن فصل هؤلاء عن أولئك . ولو فعلوا ذلك لما حدث هذا الاضطراب والغموض ؛ بل لو أنهم قرءوا أو عثروا على بعض كتب الحقائق عند الإسماعيلية لعلموا أن عبيد الله من أئمة الاستيداع[1]، على حين كان أبو القاسم الذى تسمى بعد ذلك بالقائم لم يكن ابنه من الدم ، وإنما كان ابنه من جهة التعليم فقط .

٢ — الاسماعيلية الذين يؤيدون صحة النسب

ليس من شك فى أن غالبية الإسماعيلية يؤيدون نسب عبيد الله إلى على وفاطمة ؛ إلا أن هناك جماعة منهم يقولون إن عبيد الله من الأبناء الروحيين للأئمة المستورين ، وإنه ، وإن كان إماما ، فإن إمامته إنما قامت لأنه استودع لينقلها إلى سواه ، فلم يكن والحالة هذه من الأبناء الحقيقيين للأئمة المستورين ، وإنما انتقلت الإمامة عن طريقه من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر ، وهؤلاء هم الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى على وفاطمة .

وفى الحق أننا لا نجد عالما أو مؤلفا واحدا من الإسماعيلية الذين ألفوا كتب

---

(١) انظر ص ١٧ — ١٨

(٢) تكاد تتفق المراجع الاسماعيلية على أن عبيد الله بن الحسين التقى بن أحمد الوفى ، بن عبد الله الرضى بن محمد المكتوم ، على حين ترى صحائف الداوودية أنه ابن الحسين الزكى بن أحمد التقى ابن عبد الله الرضى بن محمد الوفى .

الظاهر لا يربط نسب عبيد الله بمحمد بن إسماعيل ، ولذلك نرى القاضى النعمان المغربى (٣٦٥ هـ) يؤكد صحة نسب عبيد الله ، فى كتبه الظاهرية ، كافتتاح الدعوة الزاهرة ، والداعى جعفر بن منصور اليمن ، يؤكد نبوة عبيد الله الجسمانية للأئمة المستورين . ويكاد يتفق علماء الإسماعيلية ، الذين يؤيدون نسب عبيد الله ، على أنه ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد بن عبيد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، كما ذكرنا فى كلامنا على هؤلاء الأئمة المستورين فى الباب الأول من هذا الكتاب . ولكن هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم فى ذكر ألقاب هؤلاء الأئمة ، فقد يلقبون أحدهم بالتقى والوفى وغير ذلك ، مع أن هذا غير ذاك .

والصعوبة التى تعترض الباحث هنا ، أن بعضهم قد يذكر الألقاب ويهمل الأسماء ، مما يثير كثيرا من الغموض . مثال ذلك ما أورده صاحب كتاب دستور المنجمين - وهو من كتب الإسماعيلية [١] - عن الأئمة المستورين الذين يفصلون بين محمد ابن إسماعيل وعبيدالله ، فقد اكتفى بذكر ألقابهم ، فقال : هم الرضى والوفى والتقى .

والواقع أن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، يكادون يتفقون على أن عبيد الله المهدى بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ إلا أن جماعة ممن يدعون الانتصار للفاطميين يغلون فى تأييد نسب عبيد الله إلى على . من ذلك محاولة مامور Mamour [٢] إثبات أن محمد بن إسماعيل هو ميمون القداح ، وأن عبد الله بن ميمون القداح هو نفسه عبدالله الرضى . ولعل لمامور بعض العذر ؛ فقد ألف كتابه فى سنة ١٩٣٤ م ، ولم تكن كتب الإسماعيلية السرية خاصة قد انتشرت انتشارها اليوم . ومن ثم لم يقرأ مثلا « كتاب أسرار النطقاء » للداعى جعفر بن منصور اليمن ، أو كتابى عيون الأخبار ، وزهر المعانى ، للداعى عماد الدين إدريس المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، كما أنه لم يقرأ كتاب غاية المواليد للداعى الخطاب بن الحسين المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، ليرى أن محمد بن إسماعيل يمثل فرعا من

---

(١) De Gœje : Memoires súr les Carmathes, vol. ii, p. 204.

(٢) Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 68.

فروع الأئمة ، وأن القداح يمثل فرعا من فروع الحجج أو نواب الأئمة ، وأن هؤلاء غير أولئك ، وأن الإسماعيلية جميعا لا يوافقون «مامور» على ما ذهب إليه .

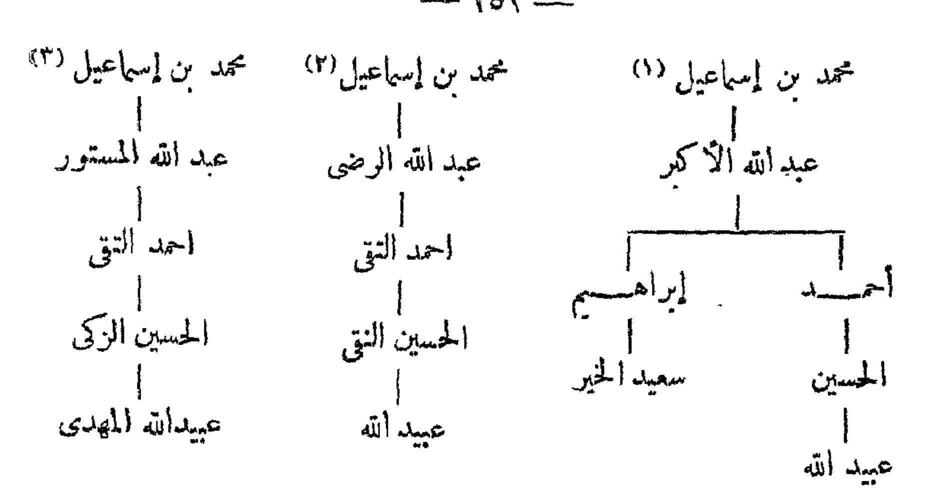
ولا نستطيع أن نوافق على ماذهب إليه مامور من القول بأن اضطهاد العباسيين للأئمة العلويين من طائفة الإسماعيلية قد أدى إلى اتخاذ هؤلاء أسماء مستعارة ، وأن اسم محمد بن إسماعيل المستعار هو ميمون . فقد رأينا أن الإمام محمد بن إسماعيل كان فى صحبة ميمون القداح منذ أيام جعفر الصادق ، وأنه استمر معه فى المدينة المنورة ، وهاجر معه أيضا . ثم هل نصدق مامور ، ومن يرى رأيه فيما زعموه ، ولا نصدق كتب الإسماعيلية الأساسية التى تنقض كل ما قالوه ، والتى تدل على أن مثل هذه الفروض وما ترتب عليها من نتائج لا يقوم على شىء من الصحة ؟ ومع ذلك هل يستطيع هؤلاء أن يفسروا بعض النصوص التاريخية التى تؤكد أن القداحية ليسوا علويين ، وإنما هم جماعة من كبار الدعاة ؟ فهذا الحسن الأعصم الإسماعيلى القرمطى يعلن من فوق منابر دمشق بأن المعز لدين الله من سلالة القداح [١]، وأن القداح وأسرته كانوا كالقرامطة يدعون للأئمة المستورين . هذا إلى أن السواد الأعظم من الإسماعيلية ينفون انتساب الفاطميين إلى القداح وأبنائه ، ويذهبون إلى أنهم جميعا كانوا حججا للأئمة ، والأئمة غير الحجج بالطبع [٢] .

وقد أوضحت المراجع الإسماعيلية هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن الأئمة المستورين لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم ، وأن عامتهم لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأئمة . كما أن الدعاة كانوا يختلفون فى ذكر أسمائهم كى يحيطوهم بسياج من المنعة والتخفى ؛ ومع هذا كله فإنهم يكادون يتفقون على ذكر أسماء الأئمة الحقيقيين فى مؤلفاتهم الظاهرية والسرية ، ويتفقون كذلك مع بعض المعتدلين السنيين فى ذكر أسماء أئمتهم المستورين . وهاك أهم سلاسل النسب عند مؤيدى نسب عبيد الله من الإسماعيلية :

---

(١) لا نوافق الأعصم على أن المعز من سلالة ميمون القداح إلا إذا تحققنا أن الخليفة القائم ابن لعبيد الله ، وهو ما لم نذهب إليه .

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد ج ١ ص ١٨٨



ولكن هل كانت عقيدة انتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل ذائعة فى عهده ؟ نعم ! كانت هذه عقيدة الإسماعيلية قاطبة ، مع استثناء حمدان قرمط ومن على شاكلته ، ممن لم يوافقوا على إمامة حجة الإمام ؛ وهؤلاء كانوا قلة إذا ووزنوا بغيرهم . هذا إلى أن كثيرا من مراجعنا ترجع إلى العصر الذى عاش فيه عبيد الله ، أو أن مؤلفيها أخذوا عمن عاصروا عبيد الله ، وهؤلاء جميعا ، إلا قليلا منهم ، يقولون بانتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل وعلى وفاطمة .

انتساب عبيد الله إلى الموسوية

على أن هناك جماعة ألحقوا نسب عبيد الله بعلى وفاطمة عن طريق موسى الكاظم ؛ فيعتبره بعض ابنا للحسن العسكرى الإمام الحادى عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وأخا للمهدى المنتظر (٤) ، ويعتبره بعض ابنا لأخى الحسن العسكرى (٥) . كما يعتقد بعض أنه محمد المنتظر نفسه ، وهو الإمام الثانى عشر عند طائفة الموسوية (٦) .

---

(١) النيسابورى : استتار الامام ص ٩٥
(٢) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٦٤
(٣) Fayzée : A Chronological List (J.B.B.R.A.S, 1934) p. 10
(٤) Fayzee : A Chronological List (J.B.B.R.A.S, 1934) p. 10
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٣
(٦) Mamour : Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 93.

ونحن نشك كل الشك في أن تلك الأقوال كانت تجد لها مكانا فى أدمغة المعاصرين لعبيد الله ؛ لأن فكرة الانتساب لإسماعيل والاستماتة فيها كانت ذائعة متسلطة على عقول المنتسبين إلى إسماعيل فى ذلك الحين . بل إننا نجد حوارا حادا يدور بين مؤلفى الإسماعيلية ودعاتهم فى صدر الدولة الفاطمية . يتضح ذلك من كتاب «أسرار النطقاء» لجعفر بن منصور اليمن ، الذى عاصر المهدى والقائم والمنصور والمعز ؛ وفى هذا الكتاب ينحى جعفر بن منصور باللائمة على جماعة الموسوية ، لادعائهم إمامة موسى الكاظم ، كما يعيب عليهم القول بالإمام المنتظر ، لأنه مات ولن يعود ، وينقض إمامة أئمتهم الذين ولوا موسى الكاظم نقضا يدل على كراهية هؤلاء لأولئك ، كما يدل فى الوقت نفسه على بعد تصديق إلحاق عبيد الله بموسى الكاظم، فى ذلك الحين على الأقل . وليس هذا وحده ، بل إننا نرى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى دعاة المستنصر ، يشيد بالأئمة الإسماعيلية ويحط شأن الأئمة الموسوية ، ويرميهم بالجهل والارتماء فى أحضان المعتزلة ، مما يوحى بأن الإسماعيلية كانوا حتى ذلك الوقت يناوئون الاثناعشرية ولا يتقربون إليهم .

ولسنا نشك كذلك فى أن إلحاق عبيد الله بالأئمة الاثنا عشرية إنما هو من صنع الإسماعيلية أنفسهم ؛ لأن الاثنا عشرية كانوا ، ولا يزالون ، ينتظرون إمامهم الثانى عشر ، ولو كانوا ممن يؤمنون بصحة انتساب عبيدالله الفاطمى إلى موسى الكاظم لكانوا عونا للفاطميين ، ولانضموا إليهم فى عهده وبعد عهده . مع أننا نرى الاثنا عشرى الحديث يبغض الإسماعيلى الحديث ، بهريا كان أو أغاخانيا ، بغضه للسنى أو أشد . ويخيل إلينا أن محاولة إلحاق عبيد الله المهدى بالأئمة الاثنا عشرية قد حدث فى أخريات الدولة الفاطمية ، وفى العصر الذهبى للنزارية . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى محاولة جعل المذهب الإسماعيلى ملائما للجميع ؛ بمعنى أنه ليس هناك اثنا عشرى أو إسماعيلى ، وهذا نوع من التقية والدفاع عن المذهب ذاته .

وإذا صح هذا فإنه يدل على صحة ما نسب إلى عبد الله بن ميمون القداح ، المؤسس الحقيقى للمذهب الإسماعيلى ، من أنه كان يحاول خلق مذهب عام يتفق مع مشارب الجميع وميولهم ، وأن سياسته هذه قد تحققت بعد قرنين من زمانه . أضف إلى ذلك أن الاثنا عشرية كانوا قوة لا يستهان بها ، ولا سيما فى فارس وخراسان .

فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يهدموا مبادىء الإسماعيلية وعقائدهم . لذلك ترامى للقائمين بأمور الإسماعيلية فى ذلك الحين أن يتجنبوا الصراع مع أبناء عمومتهم وأنصارهم . ولم تكن التقية أو الرغبة فى تجنب الصراع مع الاثنا عشرية هى التى حدت بالإسماعيلية الى إلحاق رئيسهم ومهديهم بأئمة منافسيهم الاثنا عشرية ، بقدر ماسيطرت الرغبة الملحة فى جذب أكبر عدد ممكن إلى صفوف الإسماعيلية ، لأن الاثناعشرية كانوا فى ذلك الوقت المعين الذى لا ينضب لإمداد الإسماعيلية بالأنصار ، ولأن كثيرا من مبادئهم لا يختلف عن مبادىء الإسماعيلية فى شىء . لذلك لا يعدو انتساب عبيد الله إلى موسى الكاظم ، أن يكون نوعا من التطور المذهبى عند الإسماعيلية والاثنا عشرية .

كان القرن الخامس والسادس ، بل السابع الهجرى ، مسرحا من مسارح ذلك الاندماج بين الإسماعيلية والاثنا عشرية ، حتى إن أعلام النزارية كانوا من الأئمة الاثنا عشرية . فهذا الحسن الصباح ، مؤسس الدعوة النزارية ، الذى يعد من أعظم الشخصيات فى التاريخ الإسلامى ، كان إماميا اثنا عشريا . ولا بد أنه حاول جذب كثير من أقرانه فى المذهب ، وأنه حاول التوفيق فى العقائد بين هؤلاء الإسماعيلية وأولئك الاثنا عشرية . ولا يقل سنان راشد الدين ، مقدم الدعوة فى بلاد الشام فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، عن زعيمه الأول الحسن الصباح . فقد كان اثنا عشريا نصيريا ؛ ولذلك تلوث المذهب النزارى فى بلاد الشام خاصة بكثير من مبادىء النصيرية ؛ مما سهل على كثير من دعاة النزارية خاصة أن ينادوا بالاتصال بين الإسماعيلية والاثنا عشرية فى شخص عبيد الله المهدى .

وقد شهدت مصر نفسها تتزعم هذا المذهب الإمامى الاثنا عشرى فى أشخاص وزرائها العظام . فإن بيتى بدر الجمالى ، وطلائع بن رزيك ، كانا يدينان بمبادىء الاثنا عشرية ؛ وكثيرا ما حاول هؤلاء رفع شأن مذهبهم فى مصر على حساب المذهب الإسماعيلى ، بل لقد تعدى تأثيرهم إلى الخلفاء الفاطميين أنفسهم ، حتى إن الخليفة المستنصر اتخذ من بدر الجمالى الاثنا عشرى بابا من أبواب دعاته ، وجعل يشيد به لأتباعه فيقول للسيدة الملكة أروى الصليحية(١) : « وطالعى الوالد السيد الأجل

---

(١) هى ثالثة ملوك الصليحيين ، وكانت زعيمة الدعوة الإسماعيلية فى اليمن ، وتولت الحكم بعد وفاة زوجها المكرم الصليحى سنة ٤٧٩ هـ ، واستمرت لسان الدعوة الناطق هناك حتى سنة ٥٣٢ هـ .

أمير الجيوش ... بدرا المستنصرى ... فهو خليفتنا ، وباب دعوتنا ، الحال منا محلا لم يحله أحد قبله ، القائم من أمورنا مقام الأساس ، لمشكلات الالتباس[١] » .
وكان أبناء ذلك الوزير أشد إمعانا منه فى الإشادة بمذهبهم الاثنا عشرى .

وإنما أتينا بهذه الحقائق لنقيم الدليل على أنه منذ القرنين الخامس والسادس الهجرى ، كان تأثير الإسماعيلية فى الاثنا عشرية عظيما ، حتى إن بعض دعاة الإسماعيلية استطاعوا أن يجذبوا الاثنا عشرية إلى صفوفهم . كما لا يبعد أن يكون مصدر انتساب عبيد الله إلى موسى الكاظم نوعا من نفى ارتباطه بسلالة ميمون القداح ؛ ونعتقد أن ذلك لون من ألوان الدفاع الرخيص .

وغنى عن البيان أن انتساب عبيد الله الى الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية لا يقوم على أساس تاريخى صحيح ؛ فإن الموسوية غير الإسماعيلية بالطبع ، وأن الحركة التى أنجبت عبيد الله ، والتى قامت منذ أيام جعفر الصادق على يد الأئمة الإسماعيلية وأنصارهم لا تؤيد هذه الدعوى بحال من الأحوال .

وإليك نسب عبيد الله إلى موسى الكاظم :

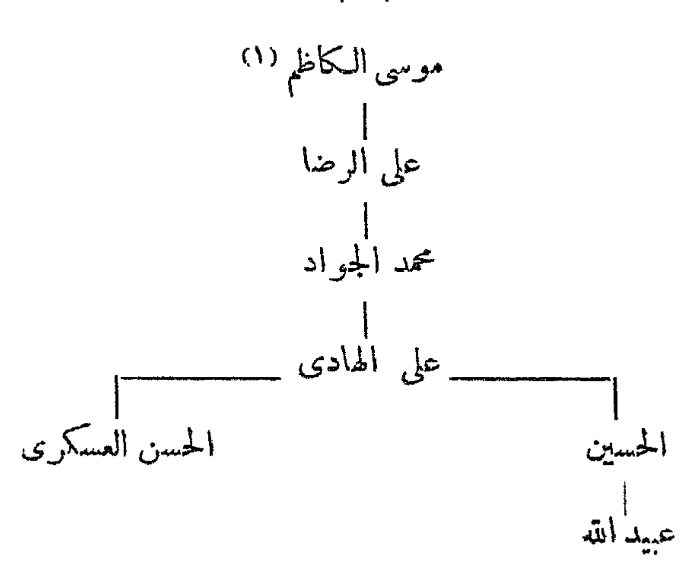
موسى الكاظم[٢]	موسى الكاظم[٣]	موسى الكاظم[٤]
على الرضا	محمد الوصى	على الرضا
محمد الجواد	احمد الوفى	محمد الجواد
على الهادى	القاسم التقى	على الهادى
الحسن العسكرى	عبد الله الرازى	الحسن العسكرى
محمد المنتظر (عبيد الله)	محمد المهدى (عبيد الله)	محمد المنتظر — عبيدالله

(١) Al-Hamdani : The Letters of Al-Mustansir (B.S.O.S, 1943), p. 315

(٢) O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Khaliphate, p.37.

(٣) Sirdar Ikbal: Aga Khan (London, 1930), p. 240.

(٤) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 95.



(ب) نسب عبيد الله إلى ميمون القداح

شغلت أسرة ميمون القداح مكانا كبيرا فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية فى دورها الأول ، وهو دور الستر، واعتمد الأئمة العلويون عليهم اعتمادا تامّـا منذ عهد جعفر الصادق (١٤٨ ﻫ) ، واستمروا يغذون الدعوة بخِـططاهم ، ويرعونها بجهودهم ، حتى كان الأئمة ــ على ما رأينا ــ يكلون إليهم جميع شئونهم الداخلية والخارجية . فكان ميمون القداح اليد المحركة للامام محمد بن إسماعيل ، وكان عبد الله بن ميمون اللسان الناطق ، واليد الباطشة لعبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل ، ولابنه الإمام أحمد الوفى . واستطاع أحمد بن عبد الله القداح أن يكون مع الإمام الحسين التقى كما كان أبوه وجده مع الأئمة السابقين . وعلى يد أحمد بن القداح « الحجة » وإمامه الحسين ، راجت الدعوة رواجا كبيرا حتى شملت اليمن والمغرب وفارس وخراسان بل والعراق . كما لم تخل بلاد الشام ومصر من أنصار هذا المذهب . كل هذا جعل الإمام الحسين ينزل عن إمامته طواعيـة لحجته سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، لـكى يردها لابنه أبى القاسم (القائم) إذا بلغ رشده ، ويقوم بجميع شئون المذهب والدعوة ، ويعمل على إقامة الدولة الفاطمية التى ظلوا ينشدونها أكثر من قرن ؛ حتى لقد يستطيع المرء أن يسمى دور الستر بالدور القداحى .

(١) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٣.

وقد ظل الناس لا يعرفون علاقة بيت القداح بالأئمة الإسماعيلية إلا عن طريق السنيين الذين اتخذوا من ذلك وسيلة للغض من شأن هؤلاء الأئمة ، فرموهم بأقذع التهم ، ووصفوهم بأخش الصفات ـ على ما رأينا ـ إلى أن وقعت بين أيدينا بعض كتب الإسماعيلية ، التى تتضمن شيئا غير قليل عن علاقة ميمون القداح وأبنائه بالأئمة الإسماعيلية ، وهى تؤكد بعض ما يعتقده السنيون من أن عبيد الله المهدى من سلالة ميمون القداح .

١ — آراء الإسماعيلية :

تناولنا فى الباب الأول موضوع تأميم عبيدالله بشىء من التفصيل ، وبينا بعض الأسس التى قام عليها هذا التأميم ، وقلنا إن من مبادىء الإسماعيلية أنهم إذا وجدوا إمامهم الحقيقى فى خطر ، جاز لهم أن ينقلوا هذه الإمامة بطريق الإيداع إلى شخص يثقون به ، حتى ينقلها هذا بدوره إلى مستحقها عند ما تحين الفرصة لذلك . ويسمون هذا المودَع ، أى الذى كان واسطة اتصال بين إمامين حقيقيين ، إماما مستودعا . ويعتقد بعضهم أن عبيدالله من الأئمة المستودعين . ويرى بعض المراجع الإسماعيلية ـ كما تقدم ـ أن عبيدالله جمع بين رتبتى الحجة والإمام ؛ واستندت هذه المراجع إلى أن الإمام الحسين استغل مبدأ التبنى الروحانى عند الإسماعيلية ، فاعتبر سعيدا (وهو عبيد الله) ولدا روحيا له ، وورثه الإمامة الوقتية ، كما اعتمد على مبدأ الاستيداع ، وهو إمكان نقل الإمامة من الإمام الحقيقى أى المستقر إلى شخص آخر لم يكن إماما حقيقيا أى مستقرا .

وقد أتينا ببعض النصوص الأصلية التى تثبت هذا الاعتقاد ، وتبين أن الخليفة القائم كان ابنا روحيا لعبيد الله ، أو بالحرى « ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته » . كما أتينا بما يؤيد نزول الإمام الحقيق لحجته سعيد الخير ، وأثبتنا أن سعيدا الخير (عبيد الله) قداحى ، حتى إن الدرزية يجعلونه فى مرتبة الإمامة ، على حين يجعلون الخليفة القائم وأباه من قبله فى رتبة الألوهية ، ويأتون بسلسلة نسبه ، ويؤكدون أنه من أبناء ميمون القداح ؛ كما يجعل الحسن الأعصم الفاطميين ـ ومنهم عبيد الله ـ من القداحية . وقد أشرنا إلى ما هنالك من خطأ فى تعميم الأعصم حكمه ، لأن

النصوص الأساسية تدحضه ، واستشهدنا بانتقاض حمدان قرمط على سعيد الخير هذا ، وقلنا : إن هذا الانتقاض من الحجج الدامغة ، التى تؤيد ما ذهبنا اليه من أن عبيد الله من نسل القداح ، ورددنا على ما يمكن أن يعترض به القائلون بأن عبيد الله إمام إسماعيلى ، فنفينا أن يكون مغتصبا للامامة ، أو أن آباءه كانوا يميلون إلى اغتصاب حقوق الأئمة . واستبعدنا أن يكون أبو عبدالله الشيعى يعلم أن المهدى إمام مستودع ، وأن القائم إمام مستقر ؛ لأنه لم يتدرج فى الدعوة إلى آخر خطواتها ، وقلنا : إن تأميم سعيد الخير كان نوعا من أنواع المحافظة على كيان الإمامة نفسه ، ولم يكن هدما لها ، على ما ذهب إليه من ينكر نسب عبيد الله . وخلصنا من ذلك كله إلى أن سعيدا لم يكن ابنا جسمانيا للامام الحسين بن أحمد ، أو أخا للمهدى ، بل كان حجة للامام الحسين ثم أضحى إماما فمهديا[1] . فلما مات سلم الإمامة إلى القائم الإمام المستقر . وإليك ثَبَتاً يوضح هذا :

ميمون القداح
|
عبد الله القداح
|
أحمد الحكيم — الحسين — على (قداح الطالقان)
|
(الحسين) ← عبيد الله

ومن الجدول الآتى نرى ارتباط الحجج بالأئمة المستورين

	الحجة		الإمام
١	ميمون القداح	١	محمد بن إسماعيل
٢	عبد الله بن ميمون	٢	عبدالله الأكبر (الرضى)
٢	« «	٣	أحمد بن عبدالله
٣	احمد الحكيم[2]	٣	أحمد بن عبد الله
٤	سعيد الخير	٤	الحسين بن أحمد بن عبد الله
٤	سعيد الخير	٥	القائم الإمام لا الخليفة

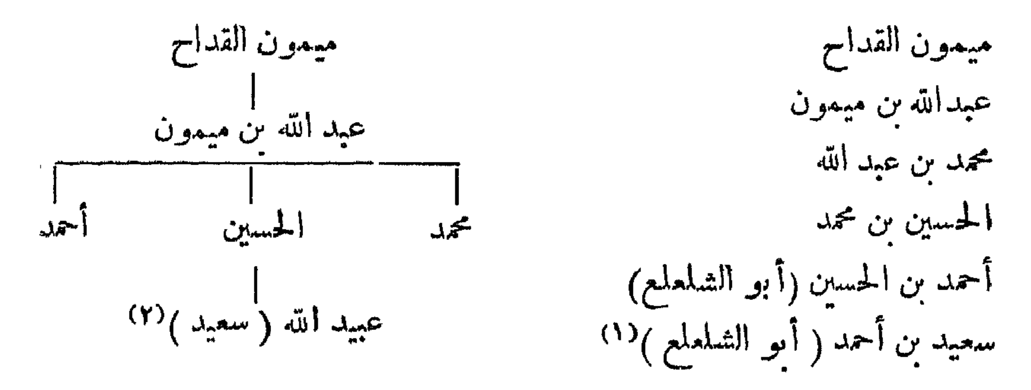
(١) انظر ما كتبناه فى تأميم عبيد الله .

(٢) هذا ما أمكننا أن نستنتجه من المصادر الاسماعيلية ، التى لم تذكر سوى أحمد الحكيم .

وأما سلسلة النسب التي تذكرها رسائل الدرزية ، فإنها تخالف مراجعنا الإسماعيلية الأخرى في عدد هؤلاء الحجج ، فتذكر بين عبد الله القداح وعبيد الله ثلاثة أجيال . وإذا علمنا أن عبيد الله كان حجة للامام عبد الله الذى قصد سلمية بعد عهد الرشيد ، وأنه عاصر الإمام أحمد الذى عاش في عهد المأمون وخلفائه على ماذكرنا في الباب الأول ، فإن المدة التي تفصل بين عهد عبد الله بن ميمون القداح وعهد عبيد الله المهدى لا يمكن أن تشمل ثلاثة أجيال .

ونعتقد أن ذلك الخطأ المادى الذى وقع فيه الدرزية ، راجع الى أن عبد الله القداح لما استقام له أمر الدعوة ، استعان بأبنائه ، ومنهم أحمد الذى يسميه بعض محمدا أبا الشلعلع ، والحسين ، وأنه ـ على ما تقدم ـ وضع ابنه الحسين في معسكر سلمية ، وأحمد في معسكر الكوفة . فلما مات الحسين في حياة أبيه ، انتقل أحمد بن عبد الله إلى معسكر سلمية الرئيس ، فاعتقد الدرزية أن أبناء عبد الله القداح يمثلون ثلاثة أجيال مختلفة . والحق أنهم إنما يمثلون جيلا واحدا ، لأن أحمد هو محمد ، وهو في الوقت نفسه أخو الحسين . ومهما يكن من شيء فإن سلسلة نسب عبيد الله على ما جاء في رسائل الدرزية تؤكد انتساب عبيد الله لميمون القداح برغم هذا الخطأ .

وهاك نسب عبيد الله عند الدرزية مع تصحيح خطئهم .



الذى ذهبنا إلى أنه أحمد بن عبد الله ، وكان حجة للحسين وأبيه ، وسعيد الخير ، حجة الامام الحسين ، ومستودع الامامة للامام أبي القاسم الذى تسمى بالقائم بعد وفاة عبيد الله ، والذى تؤكد المراجع الدرزية أنه قداحي .

(١) النقط والدوائر ص ٧٤ (نشره سيبلد سنة ١٩٠٢) .

(٢) استنتجنا هذا من بحثنا في تاريخ أشخاص حجج الأئمة ، انظر الباب الأول

ولا يختلف الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى على وفاطمة ، عن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة هذا النسب إلا فى عدد الأئمة ، وفى شخص عبيد الله . ولذلك لا يذكر هؤلاء المنكرون عبيد الله ضمن أئمة الاستقرار ، كما يتضح من هاتين السلسلتين :

محمد بن إسماعيل	محمد بن إسماعيل
عبد الله الأكبر	عبد الله الأكبر
أحمد بن عبد الله	أحمد بن عبد الله
الحسين بن أحمد	الحسين بن أحمد
القائم (الخليفة الفاطمى الثانى) (١)	على بن الحسين
	القائم (الخليفة الفاطمى) (٢)

٣ — آراء السنيين المعارضين :

ويرى السنيون المعارضون أن نسب عبيد الله إلى على وفاطمة غير صحيح ، ويذهبون - وهم على حق كما رأينا - إلى القول بأن عبيد الله ينتمى إلى الدعاة لا إلى الأئمة ، ويرمون أجداده بالزندقة تارة ، والمجوسية أخرى . فيرى عَريب ابن سعد أن عبيدالله ينتمى الى أحد الزنادقة الذين فتك بهم المهدى العباسى (١٦٩) ، أو أنه من سلالة أحد الدعاة الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدعوة لأهل البيت . والحق أن عريب بن سعد ، مع قرب عهده بعبيد الله ، يخلط فى عباراته خلطا يدل على عدم تحققه من نسب عبيد الله فيقول : « إن عبيد الله المهدى بن عبد الله ابن سالم من أهل عسكر مكرم ... وسالم جده قتله المهدى (العباسى) على الزندقة ... وأن جده كان ينزل عند بنى سهم بن باهلة بالبصرة . وكان يدعى أنه يعرف مكان الإمام القائم ، وله دعاة فى النواحى يجمعون له المال بسببه ؛ فوجه إلى ناحية المغرب رجلا يعرف بأبى عبد الله الصوفى المحتسب » (٣) . ولا نستطيع أن نصدق

---

(١) يكاد يجمع المؤرخون من الاسماعيلية على أن القائم بن الحسين لا على .

(٢) الخطاب : غاية المواليد ص ٣٦ (من المنتخب)

(٣) صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٢٧

ما قيل من إرسال جد عبيد الله المهدى أبا عبد الله إلى بلاد المغرب ؛ لأنه وصل إلى هذه البلاد فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، على حين أن جد عبيد الله كان يعاصر الخليفة العباسى المهدى ، الذى توفى سنة ١٦٩ هـ .

كذلك ذكر عطا ملك الجوينى أن المهدى كان من سلالة عبد الله بن سالم البصرى ، أحد دعاة الدعوة الإسماعيلية (١) . ويرى ابن النديم (٢) والنويرى (٣) أن عبيد الله ينتمى إلى ميمون القداح ، إلا أن ابن النديم يرى أن عبيد الله هو ابن الحسين بن عبد الله القداح ، على حين يرى النويرى أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله القداح . ولو حاولنا تقصى آراء السنيين القائلين بانتساب عبيد الله إلى ميمون القداح لبلغت آراؤهم المئات عدّا ، وذلك مما يخرج بنا عن نطاق هذا البحث . ونحن لا ننكر أن كثيرا من هذه المراجع السنية على شيء من الصواب .

على أن هناك من يغلو فى دعوى انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، فيقولون إن الحسين أبا عبيد الله تزوج حين كان بسلمية من أرملة يهودى حداد ، وإن عبيد الله - سعيدا - كان ابن ذلك اليهودى ، فأحبه الحسين ورباه . ولما لم يكن له وارث عهد بالأمر اليه . ولكننا نشك فى أن الحسين لم يكن له ولد ، لأنه إذا كان المقصود هو الحسين بن عبد الله القداح ، فقد رأينا فى الباب الأول أن سعيدا هو ابن ذلك الحسين ؛ وإن كان المقصود الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن

---

(١) Blochet : Le Missianisme, p. 83.

وليس من شك فى أن عريب بن سعد والجوينى خلطا بين عبد الله بن ميمون القداح وأبيه ميمون ، وبين عبد الله بن سالم وجده سالم ؛ لأن المعروف أن ميمونا اتهم بالزندقة فى عهد أبى جعفر المنصور والمهدى ، وأن كلا من ميمون القداح وابنه عبد الله كان من دعاة الاسماعيلية ، حتى إن أوصاف عبد الله بن سالم البصرى تتفق تماما مع أوصاف عبد الله بن ميمون . وشيء آخر هو أن القرامطة الشماليين كانوا يسمون المهدى « ابن البصرى » . وقد ينهض هذا دليلا على أن ابن البصرى الذى يقصده القرامطة هو البصرى الذى يذكره عريب والجوينى ، وأن سعيد بن البصرى لا يمت إلى العلويين بصلة النسب .

(٢) الفهرست ص ٢٦٥

(٣) نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ورقة ٧

إسماعيل . فإن المراجع الإسماعيلية تكاد تجمع على أن أبا القاسم (القائم) هو ابنه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى أما كان يوجد فى بيت الحسين من يضطلع برياسة الدعوة الإسماعيلية بدل ذلك اليهودى ؟ ويظهر أن القول بأن عبيد الله من أصل يهودى قد ولدته كراهة العباسيين والعلماء السنيين للفاطميين . خصوصا وأنهم كانوا لا يرون غضاضة فى الاستعانة بوزراء من اليهود كابن كلس . ولو أخذنا برأى الذين يقولون بانتساب عبيد الله المهدى إلى عبد الله بن ميمون القداح . لاستحال علينا أن نأخذ بالرأى القائل بأنه من أصــــل يهودى . لما اشتهر عن هؤلاء من الطموح والميل إلى الزعامة . ولذلك لا يمكن أن يسمحوا لهذا الحسن أن يعبث بالدعوة التى قامت على أكتافهم وانتشرت بفضل جهودهم ، وأن يلقيها فى يد لا تمت إليهم بصلة . ومهما يكن من شىء فقد رمى عبيد الله بأن أباه « من نسل القداح الملحد المجوسى . وقيل : كان والد عبيد الله هذا يهوديا من سلمية من بلاد الشام . وكان حدادا . وعبيد الله هذا كان اسمه سعيدا . فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى . وادعى نسبا ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العلويين ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه[1] » .

ويظهر أن الذين ينكرون صحة نسب عبيد الله أكثر اختلافا من الذين يقولون بصحة هذا النسب ، مما يجعل الاهتداء إلى رأى قاطع فى هذا الموضوع — عن طريقهم — من الصعوبة بمكان . فمن هؤلاء من يقولون إن عبيد الله من أصل يهودى — كما رأينا — ، ومنهم من يثبت أن عبيد الله أقر على نفسه أنه من أصل قداحى [2] ; ومنهم من يقول إن الحسين بن عبد الله القداح زوجه من ابنة عمه محمد أبى الشلعلع ، فأنجبت منه ولدا أسماه عبد الرحمن الذى تولى الخلافة بعده وتلقب بالقائم ; ومنهم من يقول إن سعيدا لم يكن يسمى عبيد الله ، فلما وصل إلى سجلماسة تسمى بذلك الاسم . يقول الباقلانى — من علماء القرن الخامس الهجرى : « جد عبيد الله كان مجوسيا ، ودخل عبيد الله المغرب ، وادعى أنه علوى ، ولم يعرفه

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١

(٢) راجع ما ذكرناه عن مقابلة عبدان ، داعى حمدان ، سعيد بن الحسين .

أحد من علماء النسب ، وكان باطنيا خبيثا حريصا على إزالة ملة الإسلام[١]» .

وقد دفعت العاطفة الجامحة بعض من ينكرون نسب الفاطميين إلى القول بأن اليسع بن مدرار — صاحب سجلماسة — سجن عبيد الله (سعيد بن الحسين) ، ولكنه قتله حين حضر أبو عبد الله الشيعي إلى بلده ، فأخرج أبو عبد الله خادم المهدي ، وادعى أنه هو المهدي[٢] . إلا أنه لا يمكن الأخذ بهذا القول ، لأن اليد التي قتلت عبيد الله تستطيع أن تقتل ولي عهده القائم . وليس هناك ما يمنع أبا عبد الله من أن ينادي بالقائم على أنه المهدي المنتظر ، وبذلك يضع أبو عبد الله الأمور في نصابها . كما يمنعنا من تصديق ما أورده الذهبي أن القائم ظل على وفاق مع عبيد الله المهدي حتى سنة ٣٢٢ هـ ، وأنه كان ساعده الأيمن في الحروب التي شنها على أعدائه في الشرق والغرب . ولو لم يكن عبيد الله هو المهدي نفسه ، لشق القائم عليه عصا الطاعة ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث . أضف إلى هذا أن المؤامرة التي أخذ أبو عبد الله الشيعي يحيك شراكها حول المهدي تؤيد ذلك ؛ ولم تكن هذه المؤامرة في حقيقة الأمر إلا محاولة تذرع بها هذا الداعي لاسترداد ما فقده من نفوذ . ولو كان عبيد الله المهدي قد قتل في سجلماسة ، لكان أول ما يرمى به من المتآمرين أنه خادم المهدي وليس المهدي نفسه . ويدحض هـذا ما بين أيدينا من المراجع الإسماعيلية ، التي تتفق فيما بينها على أن شيئا من ذلك لم يحدث . ونستطيع أن نخلص مما ذكره السنيون الذين ينكرون صحة هذا النسب إلى أمور أهمها :

أولا : أن هؤلاء المؤرخين يكادون يجمعون على أن عبيد الله من سلالة ميمون القداح ، ويذكرون في الوقت نفسه أن ميمونا القداح وأبناءه كانوا من دعاة الأئمة الإسماعيلية المستورين ، ثم اغتصبوا الأمر لأنفسهم .

ثانيا : يرى هؤلاء أيضا أن عبيدالله وآباءه كانوا من الزنادقة المجوس ، الذين حاولوا تقويض دعائم الإسلام ، عن طريق التأويل تارة ، والقول بالباطن أخرى ،

---

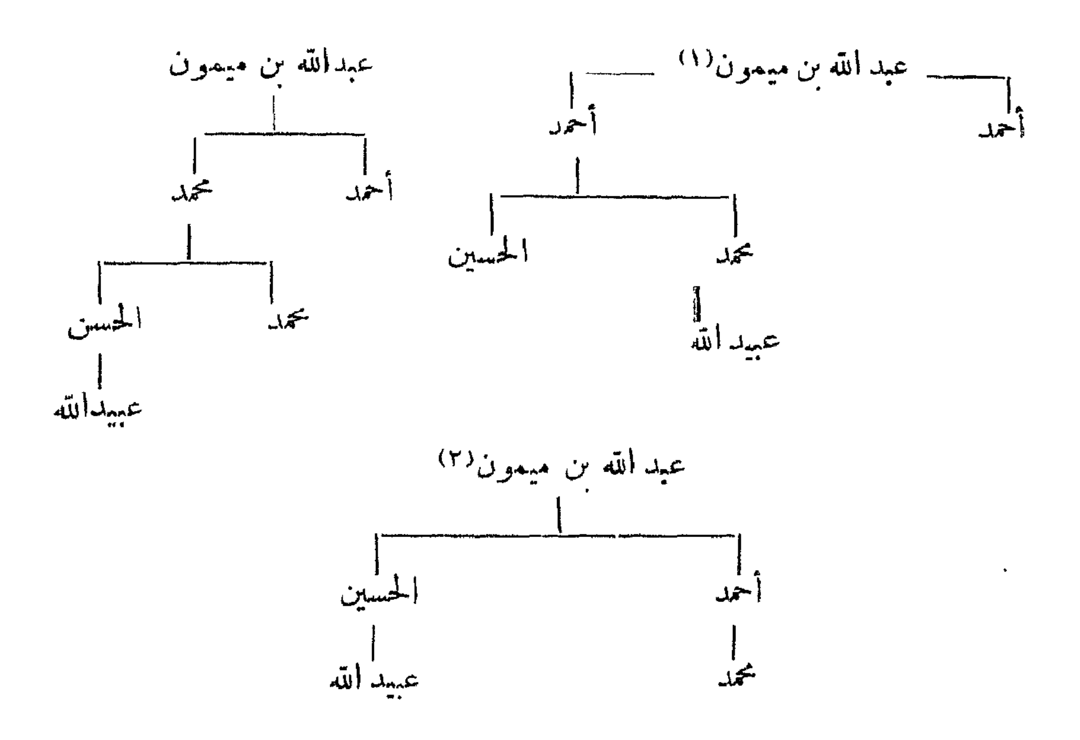
(١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، مخطوط ، جـ ٣ ص ٨٥ . وقريب من هذا ما ورد في كتاب أبناء الزمن (ص ٢٥) من أنه « اتفق النسابون وأهل التاريخ على بطلان نسبهم ، وأنهم غير فاطميين . وإنما يرجع نسبهم إلى ميمون القداح مولى جعفر الصادق » .

(٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، مخطوط جـ ٣ ص ٨٥

أو عن طريق محاولة إحياء عقائد المجوسية ، أو ما إلى ذلك .

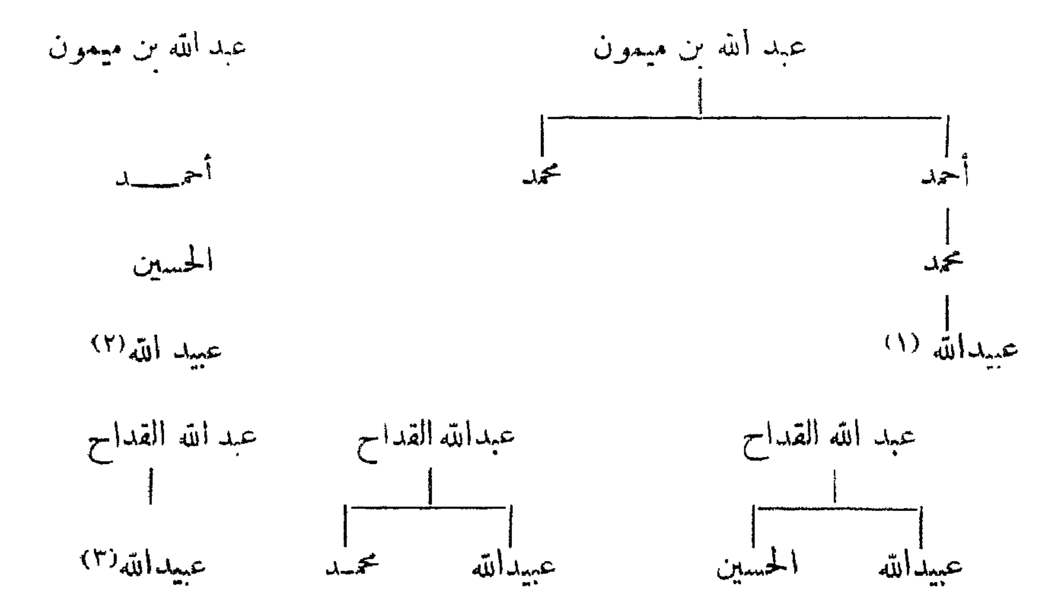
ثالثا : أنهم يرجعون عبيد الله إلى أصل يهودى ، ويذهب بعض إلى أنه قتل فى سجلماسة . وسنرى أن المعارضين فى صحة هذا النسب على شىء من الصواب ، فيما يتعلق بالأمرين الأول والثانى . وأنهم لم يصيبوا فيما ذهبوا إليه مما يتعلق بالأمر الثالث .

رابعا : اختلف كثير من هؤلاء المؤرخين فى ذكر أسماء آباء عبيد الله ، وفى عدد الأجيال التى تفصل بينه وبين جده عبد الله بن ميمون القداح ، المتوفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ؛ فيقول بعض إنها ثلاثة أجيال ، ويقول بعض آخر إنها جيلان ، ومنهم من يقول إنها جيل واحد فقط ؛ بل إن هناك من يعتقد أن عبيد الله هو ابن عبدالله القداح نفسه . وهاك أهم آراء السنيين الذين ينكرون صحة نسب عبيد الله المهدى ، على ما نراه فى الجدول الآتى :



(١) Mamour : Palemics on the Origins—pp. 137-9

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٥



والآن وقد استعرضنا نسب عبيد الله من جميع نواحيه ، نستطيع أن نهتدى إلى النتائج الآتية :

١ — يجب أن نطرح جانبا القول بأن عبيد الله المهدى من سلالة موسى الكاظم ، لأن هذا القول أقرب إلى الخرافات منه إلى الحقائق التاريخية .

٢ — إن ما ذكره الإسماعيلية الذين قالوا بصحة هذا النسب لايجانب الصواب من ناحية الأئمة المستورين . أما عن انتماء عبيد الله إلى الإمام المستور الذى تولى زعامة الدعوة الإسماعيلية قبله من ناحية القرابة ، فقد أصبح مثارا للشك ، بعد أن شهد شاهد بل شهود منهم على بطلانه . ونعتقد أن كثيرا من هؤلاء الكتاب الإسماعيليين الذين اعترفوا بصحة هذا النسب ، كانوا يعرفون حقيقة عبيد الله ، ولكنهم كانوا لا يريدون أن يثيروا الرعية عليهم إذا علموا أن مؤسس دولتهم الأول لم يكن من الفاطميين العلويين ، خصوصا وأن السواد الأعظم من رعايا الفاطميين كانوا لا يعرفون شيئا عن أصول المذهب الإسماعيلى ، التى قام عليها تأميم عبيد الله المهدى — أى إسناد الإمامة إليه — بمعنى أنهم لم يعرفوا نظامى الاستقرار والاستيداع

(١) Mamour : Polemics, pp. 137-9.

(٢) أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص ٢٩ (مخطوط) .

(٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٩

الإمامى ، والتبنى الروحانى وغير ذلك من النظم الإسماعيلية الأساسية . وإذا كان كثير من الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيدالله إلى على وفاطمة عن طريق القرابة . فإن بعضا منهم كانوا ، على العكس من ذلك ، يرون أن عبيد الله ينتسب إلى عبد الله القداح . ولكن هؤلاء لم يريدوا أن يثيروا فى وجـــه الفاطميين متاعب جديدة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن عبيد الله إمام حقا . فإذا أقروا بأنه من سلالة على وفاطمة جعلوه أحد أئمة الاستقرار ، وإذا أرجعوه إلى أصله الحقيقى ، أى إلى أبناء ميمون القداح ، جعلوه فى هذه الحالة أحد أئمة الاستيداع . والعامة لا تدرك أكان عبيد الله إمام استقرار أم إمام استيداع ، وإنما تعتقد أنه إمام من سلالة على وفاطمة . وإذا علموا غيرذلك لما أحجموا عن شق عصا الطاعة على الفاطميين ، والغض من شأنهم ، وإثارة الفتن والقلاقل فى وجههم .

٣ — أما مايراه السنيون الذين يقولون بصحة هذا النسب ، فإنه على الرغم من أنهم استندوا فيما ذكروه إلى ما جاء فى كتب الإسماعيلية ، وأنهم وصلوا فى كثير من الأحيان إلى بعض ما وصل إليـه الإسماعيلية أنفسهم فى كتبهم السرية ، فإن ما ذكروه لا يمكن أن نعتمد عليه كثيرا . لاختلافهم فى أشخاص آباء عبيد الله ، ولأنهم كانوا على جهل تام بكثير من أساليب الدعوة السرية لهـذا المذهب . ولو أنهم ألموا بهذه الأساليب لكان لآرائهم كثير من الاعتبار والتقدير . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يندفعون كثيرا ما وراء عواطفهم وميولهم ، على ماذكره ابن الأثير والمقريزى وغيرهما . لذلك نستطيع أن نقول إن آراء هؤلاء السنيين الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله . لا تصلح لأن تتخذ أساسا للحكم فى موضـوع انتساب عبيدالله إلى على وفاطمة ، وإن كان لهـذه الآراء اعتبارها فيما يتعلق بالأئمـة المستورين ، الذين جاءوا قبل عبيد الله .

٤ — إن المعلومات التى ذكرها السنيون الذين ينكرون صحة هذا النسب ، تمتاز بغزارة مادتها ، وكثرة إلمام أصحابها بالموضوع الذى نحن بصدد بحثه واستقصائه ، ولـكنهم كانوا ينظرون إليه نظرة غير عميقة ، وإنما نظروا اليـه نظرة تنطوى على الـكراهية والمقت للفاطميين خاصة ، إرضاء لميولهم ورغباتهم من جهة ، وإرضاء للعباسيين السنيين وغيرهم من الأمراء ، من جهة أخرى . ولـكنهم استطاعوا برغم ذلك أن يصلوا إلى بعض الحقائق ؛ فقد قرر أكثرهم أن عبيـد الله ينتسب إلى

ميمون القداح ، وأثبتوا فى الوقت نفسه أن أفراد أسرة القداح كانوا دعاة للأئمة المستورين ؛ وهذا ما ذهب إليه الإسماعيلية أنفسهم . وأما القول بأن هؤلاء القداحية قد استبدوا بالأمر دون العلويين ، فإنه ينطوى على شىء غير قليل من المبالغة . وذكر هؤلاء السنيون فى الوقت نفسه اعتناق أسرة القداح مبادىء الزندقة والمجوسية الخ . وفى الحق أنه على الرغم من هذه المبالغة والتفنن فى تصويرها ، فهناك شىء من الحقيقة ؛ ذلك أن السنيين فى جميع العصور كانوا ينظرون إلى المذهب الإسماعيلى نظرتهم إلى الزندقة والمجوسية وما إليهما . فإن هناك مذاهب يقول بها الأئمة الإسماعيلية وأنصارهم ، تنطوى على شىء كثير من التطرف والخروج على كثير من أصول الشريعة الإسلامية . من ذلك أنهم يقولون بنبوة محمد بن إسماعيل ، وأنه صاحب الشريعة السابعة ، أى شريعة التأويل .

وصفوة القول أن اتهام القداحية بالزندقة والمجوسية وغيرهما ، إنما هو اتهام قصد به النيل من المذهب الإسماعيلى ، والأئمة الإسماعيليه وأنصارهم . ولكننا نأخذ على السنيين الذين ينكرون صحة نسب عبيد الله أنهم شوهوا الحقيقة ، بإسرافهم فى الغض من شأن أسرة القداح ، ورميهم إياه بالإلحاد والمروق عن الإسلام . وليس بهذا نستطيع فهم الحقائق التاريخية .

أما الذى لا نستطيع أن نصدقه ولا أن نؤمن به ، فهو هذه المحاولات التى قصد بها نفى انتساب عبيدالله إلى بنى القداح ، فإن فيما ادعاه هؤلاء الذين قالوا بأن عبيدالله من أصل يهودى نوع من التجنى ، لأننا لو علمنا أن المذهب الإسماعيلى ، فى درجاته الأولى ، يرمى إلى جذب الناس إليه عن طريق التظاهر بالتقشف والورع والتقوى ، وإذا كانت التقوى تعتبر أساس المذهب الإسماعيلى ، ووسيلة لجذب الناس إليه ، فكيف يعقل أن يميل الناس إلى قبول مذهب يدعو إليه قوم من اليهود ؟ ثم كيف يعقل أن يحمل الفاطميون العالم الإسلامى على الإقرار بزعامتهم من الناحيتين الروحية والزمنية اللتين حاربوا العباسيين من أجلهما . ولا غرو فإن الفاطميين يدّعون — وهم على حق — أنهم أولى الناس بالزعامة الروحية للعالم الإسلامى ، لأنهم ورثوها عن الرسول عليه الصلاة والسلام . بعد هذا كله نرى أن القول بأن عبيد الله من أصل يهودى نوع رخيص من الدعاية العباسية ، خصوصا إذا علمنا أن أبناء القداح لا يستطيعون أن ينزلوا عن

الزعامة لغيرهم . وأن الزعامة الروحية التى كان الأئمة الإسماعيلية يسعون إلى تحقيقها تحول دون ذلك . كما يحول دون الأخذ بهذا الرأى المصادر الإسماعيلية الأصيلة ، التى تكلمت على الدعوة من الناحية السرية ، والتى أوضحت بطلان هذا الرأى .

ومثل ذلك أيضا القول بأن عبيد الله مات مقتولا على يد اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة ، لأن القائلين بذلك بنوا آراءهم على حقيقة يقر بها الإسماعيلية ، وهى أن أبا عبد الله الشيعى لم يكن يعرف شخص المهدى . ولكن جهل أبى عبدالله بمعرفة زعيمه عبيدالله ، لايجعلنا نحكم بأنه مات مقتولا ، وأن غيره وضع فى مكانه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد دلل القائلون بهذا القول على أنهم غير جادين فيما ذهبوا إليه ، لأنهم لو علموا أن رسل أبى عبدالله كانت ترد عليه تباعا فى سلمية ، ثم وهو فى طريقه إلى المغرب ، فماذا يكون موقف المهدى وموقف أبى عبدالله الشيعى لو أشاع الرسل أن هذا الشخص ليس إمامهم الذى نادوا بزعامته ، وقابلوه فى سلمية وفى طريقه إلى المغرب ؟ وأمر ثالث هو : ما الذى يمنع أبا عبد الله الشيعى من أن يقر بالحقيقة لو أن عبيد الله قد مات ، فيقيم الإمام المستقر وهو القائم مقامه ؟ أما أنه يضع خادما موضع الإمام فى الوقت الذى يكون فيه بين يديه إمام مستقر ، فإن ذلك يعتبر خروجا على المذهب الإسماعيلى الذى يقول بتعيين إمامه بالنص . ولا شك فى أن القائم كان منصوصا على إمامته .

٥ — أما ما ذكره الإسماعيلية القائلون بأن عبيدالله من نسل ميمون القداح ، فإن ما ذهبوا إليه كان عن عقيدة راسخة ويقين ثابت . ولا عجب ، فإن هؤلاء قد أدركوا الحقيقة فذكروها مجردة عن كل ميل أو هوى ؛ رأوا أن عبيد الله كان إماما لكنه مستودع ، وأنه من سلالة العلويين روحانيا فقط . وأنه ابن الأئمة التعليمى لا الجسمانى ؛ كما رأوا أن الإقرار بهذه الحقائق لايضير الدعوة ، ولا يضير الدولة ، وأدركوا عبث التمادى فى التفسيرات التأويلية Esoteric Interpretation الخاصة بشخص عبيد الله . ومن ثم لجئوا إلى التصريح دون التلميح . وكان لما فعلوه أثره فى إظهار الحقيقة ناصعة جلية ، وهى أن عبيد الله من أصل قداحى ، وأن سائر الخلفاء الفاطميين من أصل علوى . وإذن فإن هؤلاء لم يقولوا ما قالوه ليبعدوا الشكوك عن الدولة الفاطمية — كما يقول بعض — إذ كيف يزيلون الشكوك بإضافة شكوك أخرى ؟

ثم كيف نستطيع أن نفسر الحقيقة التالية : يأتى العباسيون ، المنافسون الخطرون للفاطميين . فى سنة ٤٠٢ ه ، فيعلنون فى محاضر عامة ، أن الخلفاء الفاطميين ، وعلى رأسهم عبيد الله ، ليسوا علويين . ثم يأتى علماء الإسماعيلية الذين لا يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، فيقولون إنه قداحى لا علوى . لا ! بل يكتب الدرزية وهم — كما نعلم — فرع من الإسماعيلية بعد ست سنوات ، يؤكدون انتساب عبيد الله إلى بنى القداح . ومعنى ذلك أن هؤلاء الإسماعيلية إما أنهم ذكروا الحقيقة مجردة ، وإما أنهم أقروا العباسيين على دعواهم فيما ذهبوا إليه ، من أن الفاطميين من أصل غير علوى . ولا يمكن أن يدافع الإسماعيلية عن خصومهم ، أو أن يرموا أنفسهم بنفس التهم التى رماهم بها هؤلاء العباسيون . ومن ثم لا يساورنا الشك فى أن هؤلاء الإسماعيلية الذين يؤيدون انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، كانوا على حق فيما ذهبوا إليه .

من ذلك كله نستطيع أن نقرر هنا أن عبيد الله هو الإمام المستودع سعيد الخير ابن الحسين بن عبدالله بن ميمون القداح ، وأنه كان كجده حجة للأئمة المستورين ، الذين عينوه إماما مستودعا ، لينقل الإمامة إلى أبى القاسم بن الحسين بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، الذى تلقب بالقائم حين ولى الخلافة بعد عبيدالله المهدى فى سنة ٣٢٢ ه . ونعتقد أنه لم يعد هناك ما يمكن أن نسميه مشكلة النسب الفاطمى ؛ فإن عبيد الله مستودع من نسل القداح . وبذلك يتفق بعض المصادر الإسماعيلية مع المصادر السنية القديمة والحديثة فى نسبة عبيد الله إلى أبناء القداح ، وفى أن الفاطميين علويون نسبا وقرابة إلا عبيد الله ، وأنه ليس فى ذلك حطٌّ لعبيد الله أو للفاطميين ، لأنها الحقيقة المجردة أولا ، ولأن عبيد الله كان إماما مستودعا ثانيا ، وإن لم يكن من بيت على وفاطمة . أما إخلاصه للأئمة الإسماعيلية وللمذهب الإسماعيلى ، فلم يكن موضع شك أو ريبة فى يوم من الأيام .

الباب الثالث

عبيد الله المهدى والخلافة

قامت الدولة الفاطمية فى إفريقية بعد أن قضى أبو عبد الله الشيعى على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ ، فكان قيام هذه الدولة نهاية عهد استتار الأئمة ، الذى بدأ بمحمد بن إسماعيل ، وطورا من أطوار النزاع الذى قام بين العلويين الشيعيين والعباسيين السنيين ، والذى لم ينته إلا بقضاء هولاكو على بقايا الإسماعيلية فى خراسان وطبرستان وقوهستان (٦٥٥هـ) ، وعلى الدولة العباسية نفسها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

لم يقنع الفاطميون بتكوين دولتهم فى بلاد المغرب النائية ، ولذلك لم يكن بد من أن ينتزعوا أهم بلاد العالم الإسلامى من جسم الدولة العباسية ، وأن يرثوا الأدارسة بعد أن ضعفت شوكتهم ، ويضعوا جميع بلاد المغرب (تونس والجزائر ومراكش) فى داخل نطاق إمبراطوريتهم المنشودة . وقد أدى هذا كله إلى صراع عنيف ، قام به عبيدالله فى الشرق والغرب ، كما أدى إلى صراع سياسى عنيف آخر ، قام بين المهدى فى المغرب والأمويين فى الأندلس .

١ — علاقة عبيد الله بالعباسيين

أسباب هذا العداء :

ويرجع هذا العداء الذى قام بين التشيع Shiism والسنية Sunnism إلى عوامل كثيرة . فقد كان العلويون والشيعيون والمتشيعون جميعا يعتقدون أن عليا أحق بالخلافة من سواه ، فثاروا على الأمويين . ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اعتقد العلويون أنهم اغتصبوا الأمر منهم ، وحمل الإسماعيلية لواء الفريق المناوىء

للعباسيين ، وظلوا يعملون فى الخفاء ، حتى أزالوا دولة الأغالبة ، وأقاموا دولة شيعية على أنقاضها . واتخذوا من تلك الدولة نقطة ارتكاز أغاروا منها على ممتلكات العباسيين . وقد رأينا مادار من نقاش بين وزير المقتدر وأحد أتباع عبيدالله ، الذى نعى على العباسيين اغتصابهم الأمر من الفاطميين ؛ كما كان عبيد الله ، كعامة الإسماعيلية ، يعتقد أن العباسيين غير جديرين بالزعامة الروحية والسياسية ، لأنهم لم يغتصبوا الحق من أهله فقط ، بل أضحوا فى نظرهم من الخارجين على الدين ، حتى قال داعيهم للمقتدر : « لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين » .

ولا ننسى أن الضرورة الملحة كان لها أثر كبير فى تكييف سياسة عبيد الله مع العباسيين ؛ فقد كانت إفريقية بلادا فقيرة معدمة ، لا تستطيع أن تمد دولة تريد أن تتزعم العالم الإسلامى بالمال والرجال ، وكان يفصلها عن العالم المتحضر فى مصر والعراق وفارس وغيرها . الصحراء الغربية القَحِلة . وقد رأى عبيد الله أن القيروان أو المهدية لا تصلح أن تكون قاعدة لإمبراطوريته المنشودة . ولذلك كان الصراع بين الفريقين أمرا لا مفر منه ؛ فعبيد الله يريد أن ينتزع زعامة العالم الإسلامى من المقتدر العباسى ، وهذا يريد أن يحتفظ بتلك الزعامة مهما كلفه الأمر . ويدلنا على رغبة عبيد الله المهدى فى ابتلاع بلاد المشرق ، تلك الأبيات التى مدحه بها ابن سعدون الورّجيلى(١) :

هذا أمير المؤمنين تَضَعْضَعَتْ لقدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطمى ومَنْ به أمنت مغاربها من المحذور
والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور(٢)

وهناك أمر جدير بالنظر ، هو أن الدولة الفاطمية قامت عقب صراع عنيف شنه الكتاميون بزعامة الداعى أبى عبدالله الشيعى ، وأن هؤلاء الذين تعودوا شن الحروب والدفاع والهجوم خمس عشرة سنة ، لا يستطيعون الهدوء أو البقاء دون حرب . لذلك كان من الحنكة السياسية أن يعمل عبيد الله على استغلال هذا الروح

(١) يحتمل أن يكون هذا اللفظ نسبة إلى ورجلان ، وهى كورة بين شمال إفريقية وبلاد الجريد ، التى يسكنها قوم من البربر . انظر معجم البلدان لياقوت . حسن ابرهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٧٢ هامش (١)

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤٤

الحربى" لمصلحة دعوته ومذهبه ، وفى سبيل إقامة دولة شاسعة الأرجاء يرث فيها دولة العباسيين . فكان عبيد الله يتشبه فى عمله بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ! حين أراد أن يشغل المسلمين بالحروب التى يجرون من ورائها المغانم ، ويشيدون للإسلام مجدا ودولة مترامية الأطراف .

وهكذا دل عبيد الله على مقدرة فائقة فى الناحية السياسية ؛ ولا غرو فقد رأى بعينيه مؤامرة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس وكثير من زعماء كتامة عليه ، ورأى فى الوقت نفسه أن قتل أبى عبد الله الشيعى (سنة ٢٩٨هـ) قد أحدث هزة عنيفة فى أركان هذه الدولة الناشئة ، فعمل على أن يشغل الناس بشن الحرب على العباسيين ، ومحاولته الاستيلاء على مصر واتخاذها قاعدة جديدة لمد نفوذه إلى بلاد العراق .

(ا) امتداد نفوذ عبيد الله فى المشرق

اتخذ هجوم الفاطميين على العباسيين شعبا أربعا ؛ كانت الشعبة الأساسية تتركز فى الاستيلاء على مصر . على حين وجه نشاطه نحو العراق مستعينا بالقرامطة ، ونحو بلاد المشرق كخراسان وسواها مستعينا بالدعاة العلماء ، ونحو بلاد المغرب ليرث الأدارسة ، ويقضى على البقية الباقية من الولايات السنية فى تلك البلاد . والواقع أن إغارة الفاطميين على مصر كانت لونا من ألوان الصراع الذى قام به الفاطميون فى وجه العباسيين .

١ — الهجوم الفاطمى على مصر

كانت بلاد المغرب أكثر البلاد صلاحية لنشر المذهب الإسماعيلى ، ولكنها لم تكن صالحة لإقامة دولة قوية . لذلك كانت مصر هى الهدف الذى تهدف إليه الدولة الفاطمية لإقامة دولة ترث العباسيين . وعلى الرغم من أن محاولات عبيد الله فتح مصر قد منيت بالإخفاق ، إلا أنه ورّث خلفاءه هذا الميل القوى للاستيلاء على هذه البلاد ، حتى انتهت هذه المحاولات بالفتح سنة ٣٥٨ هـ . ولا يعزب عن بالنا أن الدعوة الفاطمية كانت قد أوجدت فى بلاد الشام ومصر واليمن جماعات تدين لها بالطاعة . وأنه إذا ما توجهت جهود الفاطميين نحو مصر ، وجدوا فيها كل

عون . ولا يبعد أن يكون الفاطميون قد رموا من وراء احتلال الفسطاط حاضرة مصر ، ثم دمشق حاضرة الشام ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة حاضرتى العالم الإسلامى من الناحية الدينية إلى مد نفوذهم إلى بلاد العراق . ولا غرو فإن من يحتل هذه المدن يسهل عليه احتلال بغداد نفسها(١) .

(١) الحملة الأولى :

كانت الحملة الأولى (سنة ٣٠١ هـ) بزعامة أبى القاسم ، ولى عهد المهدى والإمام المستقر ، وحباسة بن يوسف . وقد استولى الجيش الفاطمى المغربى على برقة ، ثم على الإسكندرية ، وتوغل فى الوجه البحرى ، حتى أصبح على مقربة من الجيزة ، ولكنه ارتد عن مصر بعد أن حلت به الهزيمة فى مدينة مشتول ، القريبة من الجيزة . ويهمنا أن نلاحظ على هذه الحملة أمورا منها :

أولا : أن الفاطميين كان لهم فى مصر أنصار وأعوان ، لم يقتصروا على المستجيبين من الإسماعيلية ، وأن حركتهم شملت جماعة من السنيين والقبط وسواهم . ومهما يكن من شىء ، فإن أبا على الداعى المقيم المهدى بمصر ، كان يبذل جهودا جبارة فى جذب أهالى هذه البلاد إلى الفاطميين ، وأنه قام بنفس الدور الذى قام به أبو عبد الله مع المغاربة ، وابن حوشب مع اليمنيين ، لنصرة المهدى ودولته . يدلنا على صحة هذا ما ذكره أحد الشعراء المعاصرين فى قوله :

وأقبل(٢) جاهلا حتى تخطى ... وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من اقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا ... وكل فى البلاد له موطى(٣) .

ولذلك لما وصل أبو القاسم إلى الإسكندرية ، ألقى كثيرا من الخطب يحث فيها المصريين على الثورة فى وجه العباسيين ، ويستميلهم إلى الفاطميين ، ويذكر فيها شيئا غير قليل من عقائد المذهب الإسماعيلى . ولا بد أن تكون هذه الخطب

( ) حسن إبرهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٨٠ — ٨١ .
(٢) يريد : حباسة .
(٣) الكندى : كتاب الولاة والقضاه ص ٨٢

قد زادت إعجاب أنصار الفاطميين فى مصر . بخلاف السنيين الذين لا يميلون إلى المذاهب الشيعية الغالية . وكانت مهمة ذُكا (٣٠٣ — ٣٠٧ هـ) الوالى العباسى الجديد . أن يتتبع الموالين للفاطميين . « فسجن منهم كثيرين ، وقطع أيدى بعضهم وأرجلهم[١] . »

ثانيا : أن الذى دافع عن مصر هم العباسيون ، إذ أرسل الخليفة المقتدر قائده مؤنسا الخادم ، بجيش لايقل عدده عن أربعين ألف رجل[٢]. ومعنى ذلك أن حالة مصر كانت مضطربة بعد الطولونيين ، حتى إننا لم نسمع كثيرا عن نشاط ولاتها ، ووقوفهم فى وجه الجيش الفاطمى . ولا غرو ؛ فإن الدولة العباسية كانت على الرغم من ضعفها ، فى حالة تسمح لها بإرسال الجيوش خارج بلاد العراق ، بخلاف ما كانت عليه الحال عند ما غزا جوهر الصقلى مصر بعد ذلك بأكثر من نصف قرن (أى فى سنة ٣٥٨ هـ) .

ثالثا : أن من الأمور الجديرة بالبحث فى الحملة الفاطمية الأولى على مصر ، معرفة الرئيس الفعلى لتلك الحملة ؛ أهو أبو القاسم (القائم) ، أم حباسة ابن يوسف الزعيم الكتامى ؟ لا شك أن حباسة هو الذى خرج على رأس الحملة من بلاد المغرب ، ثم فتح برقة وحده . ولا يبعد أن يكون المهدى قد أعدّ جيشا بزعامة حباسة ، ثم أمده بجيش بقيادة ولى عهده أبى القاسم ، فأدرك حباسة وهو على أبواب مصر[٣] . ويظهر أن أبا القاسم وحباسة تنافسا الزعامة ، أو أن خلافا نشأ بينهما ، وأن ذلك لم يرق عين المهدى ، فقتل حباسة عقب عودته[٤] . وقد ذهب ابن عذارى [٥] إلى القول بأن القائم كان يقلل من شأن حباسة ، وأنه أراد أن يعين غيره على رياسة الجيش ، فعز عليه أن يكون جزاؤه هذا ، بعد اجتهاده فى

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٦

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٦٠ . ويقول بعضهم إن عدد الجيش بلغ مائة ألف رجل .

(٣) الكندى . الولاة والقضاة ص ٢٦٩

(٤) عريب بن سعد . صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٥٣

(٥) البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٧٣.

الحرب ، وإحرازه هذه الانتصارات فهرب مع قليل من أنصاره ، وتتبعه المهدى حتى قبض عليه وقتله .

رابعا : أن هذه الحملة ترتبط بحملة أبى سعيد الجنابى على البصرة . ذلك أن أبا سعيد كان حتى قبيل سنة ٣٠٠ هـ يقف من العباسيين موقف الدفاع ، لكننا نراه يتبع إزاءهم سياسة الهجوم ، مما يحملنا على الظن بأن حركته كانت بوحى من الفاطميين ، لإيقاع الارتباك فى صفوف العباسيين ؛ إلا أن حملته هذه كانت ضعيفة ، فلم تحدث الأثر المرجو منها ، حتى إن القائد العباسى مؤنسا الخادم ، استطاع أن يحطم جيوش الفاطميين . ثم فسدت العلاقة بين المهدية وهجر ، أو بين الفاطميين والقرامطة ؛ وقتل أبو سعيد ، وعزل ابنه سعيد عن عرش القرامطة .

ونستطيع أن نقول إن عبيدالله أخفق فى هذه المرحلة من مراحل الحروب ، التى شنها الفاطميون على العباسيين فى مصر ، لأمور كثيرة ، منها : أن أبا سعيد الجنابى لم يقم بواجبه المذهبى ، الذى يحتمه عليه خضوعه للفاطميين ، وأن أنصار عبيد الله فى مصر ، الذين كان يعول عليهم كثيرا . والذين أرسلوا إليه يرجونه أن يقوم بفتح هذه البلاد ، لم يقوموا بما كان ينتظره منهم . أضف إلى ذلك أن الجيش وصل إلى مصر بعد أن عانى كثيرا من آلام الجوع والعطش والمرض .

وقد يسأل المرء : أما كان يحسن أن يستعين عبيد الله بجيوش اليمن فى حملته هذه ؟ نعتقد أن المهدى كان يفكر فى ذلك ، وأنه كان من نهجه الأساسى أن يلتقى الجيشان المغربى واليمنى فى مصر — على ما رأينا . وإذا علمنا أن ابن حوشب كان في ذلك الحين فى صراع عنيف مع ابن فضل — الداعى الإسماعيلى الثائر — أدركنا السبب فى عدم طلب عبيدالله النجدة من إسماعيلية اليمن .

(ب) الحملة الثانية :

قضى عبيد الله ست سنوات (٣٠١ — ٣٠٦ هـ) فى تنظيم أموره فى الداخل ، وإعداد جيش يفتح به مصر . وقد أخذ فى الوقت نفسه يعمل على تنظيم شئون أنصاره في الخارج ، ولا سيما من كان منهم باليمن والبحرين ؛ فتدخل فى شئون اليمن ، وعزل أبناء ابن حوشب ، وولى غيرهم ، واعتقد أنه أصاب فى تلك السياسة ، وأن تدخله هذا سيؤدى إلى الوحدة التى فصم عراها ابن فضل . لكن

سياسته هذه قد أدت في النهاية إلى عكس ما كان يؤمله ؛ فقد دب التنافس بين أنصاره هنالك . وأصبحت الدعوة الإسماعيلية كالهرة تأكل بنيها ؛ ولم يمت عبيد الله المهدى حتى كانت الدعوة التى بدأها ابن حوشب فى بلاد اليمن قد زالت أو كادت . ويخيل إلينا أن المهدى قد قطع الأمل فى معاونة إسماعيلية اليمن له فى حملاته على مصر ، بعد أن رأى ابن فضل يحارب ابن حوشب ويثور على الفاطميين ، والنفور يدب بين بيت ابن حوشب وبيت الشاورى ، داعى بلاد اليمن الجديد . إلا أن إخفاقه فى هذه البلاد لم يحل دون إحرازه النصر على القرامطة ، حتى تمكن من قتل أبى سعيد — على ما قيل . ولما لم تعجبه توليته ابنه سعيدا ولا سياسته ، تدخل فى شئون القرامطة ، وحملهم على إشعال نار الثورة على هذا الوالى الجديد ، ثم عين أخاه أبا طاهر مكانه ، بعد أن أخذ عليه العهود بأن يكون طوع بنان المهدى (٣٠٥ هـ) .

كان أول ما قام به أبو طاهر للدلالة على إخلاصه للفاطميين ، هجومه العنيف على إقليم البصرة ، ثم محاولته الاتصال بالجيش الفاطمى فى مصر — على ما سنرى — حتى لقد خيل إلى عبيد الله المهدى ، أن الأمور قد تمهدت له فى المشرق ، وأن أنصاره القرامطة لا يخذلونه اليوم كما خذلوه بالأمس .

وكان أبو القاسم الفاطمى الذى بويع له بالعهد ، اليد اليمنى لعبيد الله المهدى ؛ وقد أوفده إلى مصر على رأس جيش كثيف[1] استولى على الإسكندرية فى أوائل سنة ٣٠٧ هـ دون عناء . ثم قصد الجيزة حيث وقعت بينه وبين جنود مصر فى جمادى الآخرة من هذه السنة موقعة قتل فيها عدد كبير من الفريقين . ولكن الفاطميين احتفظوا على رغم ذلك بقوتهم ، حتى إننا نراهم يفتحون الفيوم وغيرها بعد قليل . وعلى الرغم من استماتة حامية مصر فى الدفاع أمام جنود الفاطميين ، كان المصريون فى حاجة إلى معونة خارجية . وقد أدرك الخليفة العباسى المقتدر خطر الموقف فى مصر ، ورأى أنه إذا لم يتداركها تزعزع كرسى خلافته ليتلقفه الفاطميون ، ولذلك أرسل قائده الكبير مؤنسا الخادم ، الذى انتصر على الفاطميين ، واستولى على سفنهم وأحرقها[2] .

والواقع أن الحرب بين الفريقين كانت حرب حياة أو موت ؛ ولذلك تعددت

---

(١) كان خروج أبى القاسم من إفريقية فى أواخر سنة ٣٠٦ هـ ، واستيلاؤه على الإسكندرية فى صفر سنة ٣٠٧ هـ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع ص ٨٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤٣ .

المعارك بين القائم ومؤنس الخادم ، وكاد القائم ينتصر لولا أن فشا الوباء بين جنده ، وقلت المؤن بعد ضياع السفن ، فمات كثير من جنده . ولأهمية هذا الانتصار الذى أحرزه مؤنس الخادم أطلقوا عليه لقب «المظفر» . وقد بذل المقتدر قصارى جهده لمنع اتصال بلاد المغرب بمصر بحرا ، ولذلك أعد أسطولا مدربا على استخدام النفط وغيره من وسائل الإحراق ، واستطاع أن يقضى على أسطول المهدى الذى بلغ مائة سفينة (١) .

ولم تكن حرب القائم فى مصر تعتمد على السيف وحده ، بل كان يستخدم الدعاية لمذهبه ، فيشيد ببيته ، ويغض من شأن العباسيين . ولا بدع فى ذلك ، فإنه كان يعلم علم اليقين أنه كان يحارب جنود الحاميات العباسية لا المصريين ، بل كان على العكس من ذلك يعتقد أن المصريين يرحبون بمقدمه ويؤثرونه على العباسيين ، لأن هذه البلاد كانت منذ أيام الخلفاء الراشدين تدين بحب على وأبنائه ، حتى إنها التفت حول محمد بن أبى بكر نصير على . ومن ثم وجه أبو القاسم الفاطمى القصائد الكثيرة للمصريين يستحثهم فيها على الالتفاف حوله ، ويبين لهم مافتحه من بلاد ليملأ قلوبهم رجاء وأملا . وهكذا بدأت الحرب الكلامية بين العباسيين والفاطميين ؛ فإن مؤنسا الخادم ما كاد يرسل إحدى هذه القصائد إلى الخليفة المقتدر العباسى حتى أمر شاعره « الصولى (٢) المشهور بأن ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبى القاسم ، ويدحض قوله ، فقام الصولى بما أمر به ، ونظم قصيدة على وزنها ورويها (٣) » ، وملأها بالسباب والطعن فى نسب الفاطميين ودينهم . ويخيل إلينا أن هذه القصيدة التى قالها أبو القاسم كانت نوعا من الدعاية للفاطميين ومذهبهم . يتضح ذلك من هذه الأبيات التى ننقلها عن عريب (٤) :

أيأهل شرق الله زالت حلومكم ... أم اختدعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع مَنْ ؟ وحجكم بمن ؟ ... وغزوكم فيمن ؟ أجيبوا بلا كذب

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩ .
(٢) أبو بكر الصولى من أحفاد إبراهيم الصولى الشاعر المشهور ، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ . انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١—١٣
(٣) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٨٣ .
(٤) صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٤٤ .

صلاتكم والحج والغزو ويلكم بشراب خمر عاكفين على الريب
ألا إن حد السيف أشفى لذى الوصب وأحرى ببذل الحق يوما إذا طلب
صبرت وفى الصبر النجاح وربما تعجل ذو رأى فأخطا ولم يصب
إلى أن أراد الله إعزاز دينه فقمت بأمر الله قومة محتسب
وناديت أهل الغرب دعوة واثق برب كريم من تولاه لم يخب
فجاءوا سراعا نحو أصيد[1] ماجد يبادونه بالطوع من جملة العرب
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
وأردفتها خيلا عتاقا يقودها رجال كأمثال الليوث لها جنب[2]
شعارهم جدى ودعوتهم أبى وقولهم قولى على النأى والقرب
فكان بحمد الله ما قد عرفتم وفزت بسهم الفُلج[3] والنصر والغلب
وذلك دأبى ما بقيت ودأبكم فدونكم حربا تضرمُ كاللهب

وقد رد شاعر العباسيين عليه فى تلك الأبيات :

عجبت ، وما يخلو الزمان من العجبْ لذى خطل فى القول أهدى لنا الكذبْ
وجاء بملحون من الشعر ساقط فأخطأ فيما قال فيه ولم يصب
تباعد عن قصد الصواب طريقه فما عرفت تأويل إعرابه العرب
ولو كان ذا لب ورأى موفق لأقصر عن ذكر القصائد والخطب
فمن أنت يا مهدى السخافة والخنا[4] أبن لى ، فقد حقت على وجهك الريب
فلو كنتَ من أولاد أحمد لم يغب عن الناس ما تسمو إليه من النسب
ولو كنت منهم ما انتهكت محارما يذبون عنها بالأسنة كالشهب
ولم تقتل الأطفال فى كل بلدة فتركب من أماتهم شر مرتكب
وكم مصحف حرقته فرماده مثار مسفّى الريح من حيث ما تهب

---

(١) الأصيد : المائل العنق من الكبر ، وهو من صفات الملوك الامراء .

(٢) الجنب : ما يجنب أى يشد بجانب خيل الحرب ، ليركبه الفارس إذا عقر فرسه أو تعب .

(٣) الفلج : النصر والظفر .

(٤) الخنا : الفحش .

كفرت بما فيــه وبدلت آيَهُ ۝ وقضّبت[1] حبل الدين كفرا فما انقضب

وقد رويت أسيافنا من دمائكم ۝ فلم ينجكم منا سوى الجد فى الهرب

تضىء بأيدينا وتظلم فيكم ۝ فكانت لنا نارا وكنتم لها حطب

فقل لى : أى الناس أنتم وما الذى ۝ دعاكم إلى ذكر الجحاجحة النجب

أولئك قوم خيم الملك فيهم ۝ فشدت أواخيه[2] ومدت له الطنب[3]

أيأهل غرب الله أظلم أمركم ۝ عليكم فأنتم فى نكوب[4] وفى حَرَب[5]

ولو كانت الدنيا مطية راكب ۝ لكان لكم منها بما حزتم الذنب[6]

ولا يهمنا أكانت قصيدة أبى القاسم الفاطمى قد قيلت قبل الجملة الأولى أم الثانية أم بعدهما ، أم أنها أرسلت إلى بغداد أم إلى مصر ؛ وإنما يهمنا أن نقول إن الفاطميين عولوا على مد نفوذهم فى الشرق . يدلنا على ذلك أن أبا القاسم حين قرأ قول الصولى :

فلو كانت الدنيا مطية راكب ۝ لكان لكم منها بما حزتم الذنب

قال : « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر وذنبه ورأسه إن قدرت ، أو أهلك دونه[7] » .

ولم تقف هذه الحرب الكلامية عند هذا الحد ؛ بل إن القائم أرسل إلى الحجاز يطلب من أهلها الدخول فى طاعته ؛ « ويعدهم بحسن السيرة فيهم ، فأجابوه : إن لهذا

---

(١) تضّب الشىء : قطعه .

(٢) جمع أخية وآخية : وهى عود يدفن طرفاه فى الأرض ، ويبرز كالحلقة تشد فيها الدابة ، والمعنى عريقو الأصل .

(٣) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت ، جمعه أطناب .

(٤) نكب نكوبا : عدل عن الشىء .

(٥) حرب : أى نقص وسوء حال .

(٦) عريب : صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤٢ .

البيت ربما يدفع عنه ، ولن نؤثر على سلطاننا غيره [١] » . وقد أثار هذا العمل الخليفة المقتدر ، فأرسل هذا الجيش إلى مصر على الفور [٢] .

وعلى الرغم من انهزام أبى القاسم الفاطمى فى حملته الثانيـة على مصر ألقت هذه الحملة الرعب فى قلوب الموظفين فى هـــذه البلاد . ولا عجب فقد استولى على جزء كبير منها ، وقبض على خراجه . ونهب الموظفون العباسيون باقى خراج مصر . يتبين ذلك من تلك العبارة التى قالها أحد موظفى خراج مصر : إنه « قد كان ورد من مال الضمان للسنة الأولى جملة ، ثم سار العلوى من إفريقية ، حتى تغلب على أكثر النواحى بمصر . . . فانصرف أكثر المال إلى أعطيات الجند ، ونفقات العساكر ، وانكسر باقيه لأجل استخراج العلوى ما استخرج من أموال النواحى المجاورة لمصر [٣] » .

وكان من عوامل إخفاق هذه الحملة أن الخطة التى وضعها المهدى لغزو مصر لم تنفذ بدقة ، فقـد كان لزاما أن يلتقى جيش القرامطة بقيادة أبى طاهر الجنابى (٣٣٢ هـ) بجيش الفاطميين بقيادة أبى القاسم الفاطمى . ولـكن مهـارة مؤنس الخادم حالت دون نجاح هـذه الخطة . وفى ذلك يقول ابن خلدون [٤] : « وصل أبو القاسم القائم إلى مصر ، واستدعى أبا طاهر القرمطى وانتظره ، فأعجله مؤنس الخادم عن انتظاره ، وسار من قبل المقتدر ، فهزمه ، ورجع إلى المهدية » . وبهذا نرى أنه لو تم للمهدى اتصال بعض الجيشين ببعض لتم فتح مصر سنة ٣٠٧ هـ ، واستطاع المهدى أن يظفر بفخر انتزاع مصر من العباسيين ، « ويمتلك صدر الطائر ورأسه » كما أراد . ولـكن الخلافة العباسية كانت لا تزال على شىء من القوة ، على الرغم من ازدياد نفوذ قواد الأتراك الذين نبغ منهم جماعة يعتد بهم كمؤنس الخادم . ومهما يكن من شىء فقد استغرقت حملة المهدى الثانية على مصر سنتين وثمانية أشهر ، على ما ذهب إليه ابن الأثير [٥] .

---

(١) صلة تاريخ الطبرى جـ ١٢ ص ٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٩ .

(٣) حسن إبرهيم : الفاطميون فى مصر ص ٨٤

(٤) العبر جـ ٤ ص ٨٩ .

(٥) الكامل جـ ٨ ص ٩٨ .

(ح) الحملة الثالثة :

جد من الأحداث فى بلاد المشرق مادعا عبيدالله إلى توجيه نشاطه إلىمصر من جديد ؛ فقد مات الخليفة المقتدر ، واضطربت بقتله أحوال العباسيين ، وانقسم قواد الأتراك فى بغداد على أنفسهم بسبب ذلك . واتخذ المهدى من ذلك فرصة سانحة لمد نفوذه شرقا ، فاتفق مع تابعه النشيط أبى طاهر لإثارة الاضطراب فى بلاد المشرق ـ كفارس أو سواها ـ فى الوقت الذى تغير فيه جيوشه المغربية على مصر . لذلك نراه يرسل هذه الجيوش فى سنة ٣٢١ ﻫ بقيادة حبشى بن أحمد المغربى . وتكاد تجمع المراجع على أن الحملة الثالثة كانت فى عهد القائم (٣٣٤ ﻫ) لا المهدى (٣٢٢ ﻫ) : فيرى ابن الأثير (١) أن الخليفة القائم أرسل بعد وفاة المهدى جيشا «مع خادمه زيدان ، وبالغ فى النفقة عليهم ، وتجهيزهم إلى مصر ؛ فدخلوا الإسكندرية . وأخرج إليهم محمد الإخشيد عسكرا كثيفا فقاتلهم ، وهزموا المغاربة ، وقتلوا فيهم وأسروا ، وعاد المغاربة مغلوابن » . ويتفق ابن خلدون (٢) والمقريزى (٣) فى ذلك مع ابن الأثير. غير أن الكندى ، وهو أقدم هؤلاء المؤرخين ، يؤكد لنا أن الذى أرسل الحملة الثالثة إلى مصر هو عبيد الله لا القائم ، وأن هذه الحملة استغرقت ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤ ﻫ) ، وأن المغاربة استولوا على جزء كبير من مصر وبخاصة فى الدلتا ، وأن مناوشات كثيرة حدثت بين الفريقين — أى بين الحاميات المصرية وجيوش المغاربة بقيادة حبشى بن أحمد . وفى صفر سنة ٣٢٢ ﻫ عقدت الهدنة بين حبشى — وكان معسكرا فى الجيزة — وبين جند مصر (٤) . إلا أن هذه الهدنة لم تستمر طويلا ، بل كثيرا ما يذكر هذا المؤرخ شيئا غير قليل عن نشوب معارك بين المغاربة وجند مصر فى مدن كثيرة كالجيزة وبلاق وبلبيس وسواها (٥) .

---

(١) الكامل جـ ٨ ص ٩٨

(٢) العبر جـ ٤ ص ٣٩ .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٤٥ .

(٤) الكندى : القضاة والولاة ص ٢٨٤ .

(٥) المصدر ص ٢٨٤—٢٨٥ .

ولم يكتف الكندى بذلك . بل إنه يذهب إلى القول بأن ذلك كان فى عهد ولاية محمد بن طغج الإخشيد [١](٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، الذى هزمهم فى جمادى الأولى من السنة نفسها ، فاضطروا إلى العودة إلى بلاد المغرب. من هذا كله نستطيع أن نوفق بين ما ذكره الكندى وما ذكره غيره من المؤرخين فنقول : إن الذى أرسل الحملة الثالثة إلى مصر هو عبيد الله ، وذلك فى آخريات حياته ، وأنه لم يمت سنة ٣٢٢ هـ إلا بعد أن أدرك نجاحه فى مصر واستقر جنوده فى كثير من بقاعها . غير أن جيوش الفاطميين لم يستطيعوا أن يحتلوا هذه البلاد احتلالا كاملا ، بل كانت الحرب سجالا بين جنود مصر وجنود الفاطميين فى سنتى ٣٢١ ، ٣٢٢ هـ . ونحن نعلم أن عبيد الله مات فى ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، وأن القائم لم يصرح بموته إلا بعد سنة ، أى بعد أن استقرت أموره فى المغرب ، وقضى على الفتن فى بلاده . ومن ثم أرسل جيوشه إلى مصر فى أواخر سنة ٣٢٣ هـ ، فبلغتها فى أوائل سنة ٣٢٤ هـ ، واحتلت الإسكندرية . وكانت هذه الجيوش الأخيرة مددا للحملة الأولى التى وجهها عبيد الله المهدى إلى مصر ، فتوهم بعض أن القائم لا عبيد الله هو الذى اضطلع بإرسالها .

ومما يلفت النظر فى هذه الحملة ماذهب إليه الكندى من أن الجيوش الفاطمية دخلت الإسكندرية فى سنة ٣٢٤ هـ ، وأن كثيرين من زعماء المصريين انضموا إليها [٢] ، مما يبين مدى تأثير الدعاية الفاطمية فى تلك البلاد . وإلا كيف نفسر انضمام هؤلاء المصريين إلى الجيش الفاطمى الشيعى ؟ فهل كان هؤلاء الزعماء المصريون سنيين مخلصين لسنيتهم ، ولكنهم انضموا إلى الفاطميين رهبة لا رغبة ؟ لو أنهم كانوا كذلك لما انضموا إلى الفاطميين ، ولأجابوهم بمثل ما أجابهم به أهل مكة من أنهم لا يفضلون حاكما شيعيا على الدولة السنية . يبدو أنهم كانوا كذلك ، ولكن مهارة الوالى الجديد — محمد بن طغج الإخشيد — حالت دون تحقيق أمنيتهم فى سيادة المذهب الإسماعيلى فى مصر .

---

(١) من سلالة ملوك فرغانة ، والاخشيد لقبهم . أما طغج فمعناها عبد الرحمن . وكان من كبار رجال الطولونيين وولاتهم فى الشام ، وقد رأيناه يقاوم قرامطة الشمال مقاومة تذكر .

(٢) الكندى : القضاة والولاة ص ٢٨٦ .

وقد ساعد على إخفاق تلك الحملة الثالثة أمور منها :

أولا : ظهور محمد بن طغج الإخشيد ، واستبداده بشئون مصر فى ذلك الحين . حقا لقد أحدث مقتل المقتدر فى سنة ٣٢٠ﻫ اضطرابا عاما فى بلاد المشرق . وكانت خلافة القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ ﻫ) مضطربة ، فلم تمض عليه سنة واحدة ، حتى هب الجند فى وجهه وخلعوه . والحق أنه بتولية الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ ﻫ) بدأ عصر إمرة الأمراء ، حين كان الخلفاء مع أمراء أمرائهم كالمحجور عليهم . ونعتقد أنه لولا تولية محمد بن طغج الإخشيد ولاية مصر لآخر مرة (٣٢٣ — ٣٣٤ ﻫ) ، لتوطدت أقدام الفاطميين فى مصر فى ذلك الحين . وعلى الرغم من أن الخليفة المهدى عجز عن أخذ مصر أو إقرار نفوذه فيها ، استطاع الخليفة القائم أن يستميل الإخشيد إليه فى أخريات حياته ، وأن يستغل الحالة السيئة التى وصلت إليها الخلافة العباسية فى عهد أمراء الأمراء ، حتى خطب له على منابر مصر(١) . إلا أنه يجب ألا نغمط عبيد الله حقه ؛ فقد وضع لخلفائه سياسة الهجوم على مصر ، وسن لهم سنة

---

(١) عمل القائم على جذب الاخشيد إليه ، فأرسل إليه كتابا رقيقا يستميله إليه ، وهذا مما يدل على أن القائم عدل عن سياسة الحرب مع وال قوى كهذا . وإن حالة بلاد المغرب كانت مضطربة ، بسبب ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى . ومما جاء فى رسالة القائم إلى الاخشيد : ,, قد خاطبتك — أعزك الله ! فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لى فى عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ؛ وضمنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتابى وذوى المكانة عندى . وأرجو أن تردك صحة عزيمتك ، وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه ؛ فقد شهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك ، ورغبتى فى مشاطرتك ماحوته يمينى ، واحتوى عليه ملكى . وليس يتوجه لك العذر فى التخلف عن إجابتى ، لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون وعدك ، ويخفرون ذمتك . لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة ، وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك ، وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك . وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم ؛ فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحزم ولزوم الصدق ، فانى أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك ، تسكن إليه فى أمرك ، وتعول عليه بمثل ذلك . وإذا تدبرت هذا الأمر ، علمت أن الذى يحملنى إلى التطاطى لك وقبول الميسور منك ، إنما هو الرغبة فيك ، وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ؛ والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل ,, . ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٢٥-٢٦ . وعلى الرغم من أن الاخشيد لم يعمل بما فى هذه الرسالة اللينة ، فان ظروفا سياسية قد أرغمته على إلغاء الخطبة للعباسيين ، وتحويلها إلى الفاطميين مدة من الزمن . انظر : حسن إبراهيم : ,, الفاطميون فى مصر ,, ص ٩٠-٩٢ .

التطلع إلى المشرق ، وعدم الاكتفاء ببلاد المغرب . حتى لا ينالهم ما نال بنى عمهم الأدارسة . هذا إلى أنه قد بين لهم الفائدة التى يجنونها إذا ما اعتمدوا على الدعاية المنظمة للمذهب الإسماعيلى والدولة الفاطمية .

ثانيا : إخفاق حملة أبى طاهر الجنابى البحرية على جنوب غربى فارس ؛ فقد كان يرمى من ورائها إلى خلق المتاعب للعباسيين ، حتى تستطيع الجيوش الفاطمية أخذ مصر فى سهولة ويسر ، خصوصا إذا اضطر العباسيون إلى سحب بعض حامياتهم من الولايات الأخرى كمصر والشام . حقيقة أن العباسيين لم يستطيعوا إمداد مصر بالرجال فى أثناء الحملة الثالثة ، ولا سيما فى أوائل أيامها بمصر ؛ ولكنهم عولوا بعد ذلك على رجلهم الفذ محمد بن طغج الإخشيد ، الذى استطاع أن يستغل قوة جيوشه المدربة ضد الفاطميين . ومهما يكن من شىء فإن هجوم أبى طاهر على جنوب فارس ، وهجوم الفاطميين على مصر فى وقت واحد تقريبا (٣٢١ هـ) ، ليبين مدى سياسة المذهب الإسماعيلى فى عهد المهدى . كما يبين استغلال عبيد الله سيوف أنصاره القرامطة فى إزالة الدولة العباسية ، وإقامة الدولة الإسماعيلية على أنقاضها ، ثم فى تقوية الرابطة المذهبية بين رياسة الدعوة فى المغرب وبين أنصارها . ولو استمرت هذه السياسة الحكيمة قائمة بين الفاطميين والقرامطة حتى فتحت مصر على يد جوهر سنة ٣٥٨ هـ ، لتكاتف الفرعان الإسماعيليان فى إزالة الدولة العباسية المتداعية وقتئذ . وهكذا سن عبيد الله المهدى لخلفائه هذه السنة الطيبة لاستغلال موارد الفرق الإسماعيلية الأخرى كالقرامطة والحواشب . ولكن خلفاءه لم يحتفظوا بتلك السياسة الحكيمة ؛ فإن أبا طاهر الجنابى لم يكد يموت سنة ٣٣٢ هـ ، ويتدخل القائم الفاطمى والمنصور والمعز من بعده فى شئون القرامطة ، حتى فترت العلاقات بين الفاطميين والقرامطة .

فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ ، فى الوقت الذى بلغ فيه الفتور بين الفريقين مبلغا كاد يقضى على تلك العلاقة المذهبية التى كانت سائدة بين هؤلاء وأولئك . ومن ثم اتخذ البويهيون والعباسيون من هذا الفتور فرصة سانحة لإثارة القرامطة على سادتهم الفاطميين ، وانضم الحسن الأعصم إلى العباسيين ، ونادى بسقوط الفاطميين ، وحاربهم فى الشام ومصر ، وكاد يقتلعهم من تلك البلاد . ولو فرضنا

أن هذا النشاط الهـــائل الذى وجهه الأعصم للقضاء على الفاطميين قد توجه إلى القضاء على العباسيين ، وأن القرامطة فى عهد الأعصم كانوا على وفاق مع الفاطميين وانضووا تحت لواء جوهر الصقلى ، لكان ذلك كفيلا بأن يقوض دعائم الدولة العباسية (١) .

ثالثا : كثرة الثورات والاضطرابات فى بلاد المغرب ، سواء أكان ذلك فى أخريات عهد عبيد الله أو بعد تولية القائم الخلافة . يدلنا على ذلك أن القائم لم يصرح بموت المهدى إلا بعد أن أخمد الثورات التى كانت منتشرة فى بلاده : من ذلك ثورة ابن طالوت القرشى الذى ادعى أنه ابن المهدى ، وحاصر طرابلس . كما حاصر الأدارسة بعض بلاده ، وشجعوا الثوار عليه ؛ فلم يستطع إخماد هذه الحركات إلا بشق النفس (٢) . ومن ثم لم تستطع نجدته التى أرسلها إلى مصر أن تقوم بعمل حاسم فى ضم هذه البلاد إلى حوزة الفاطميين .

من هذا كله نرى أن عبيد الله كان — منذ ولى الخلافة إلى أن مات — يبذل قصارى جهده للقضاء على العباسيين ، وأنه اتخذ من فتح مصر وضمها إلى إمبراطوريته وسيلة لتحقيق هذه السياسة ؛ كما استطاع أن يكون جبهة متحدة من الفاطميين والقرامطة تقف فى وجه العباسيين . كما أن إسماعيلية اليمن لم يستطيعوا أن يشتركوا معه فى هذه الخطة الجريئة ، لما انتابهم من الضعف بسبب ثورة ابن فضل على ابن حوشب أولا ، وانتزاع عبيد الله الرياسة من أبناء منصور اليمن ثانيا . كذلك قام عبيد الله المهدى بحملات ثلاث لفتح مصر ، إلا أنها أخفقت جميعها . وعلى الرغم من هذا الإخفاق فى الناحية الحربية ، كان لهذه الحملات أثر كبير فى نشر التشيع فى هذه البلاد طوال حكم الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ ه) ، ذلك الأثر الذى ساعد إلى حد كبير جوهرا الصقلى والمعز لدين الله فى غزو مصر ، كما كان لها أثر كبير أيضا فى خلفاء عبيد الله ، الذين لم يتوانوا لحظة واحدة عن العمل على تحقيق ما بدأه المهدى من محاولات لفتح مصر . ولولا ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى ، التى اجتاحت بلاد المغرب ، واستنفدت كل جهود الفاطميين ، حتى جعلت خزائنهم خلوا من

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٣٦ — ٢٣٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤٥

الصفراء والبيضاء ، لأتيح للفاطميين فتح مصر على أهون سبيل . ولكن القائم والمنصور من بعده انصرفا إلى إخماد هذه الثورة ، وإصلاح ما أفسده أبو يزيد . لذلك لم يكد المعز يتخلص من متاعب المغرب حتى ولى وجهه شطر المشرق : ففتح مصر ، ومد نفوذه فى بلاد الشام والحجاز . وكان المعز بذلك يترسم سياسة عبيد الله المهدى التى كانت تهدف إلى مد نفوذ الفاطميين الزمنى والدينى إلى المشرق والمغرب ، والقضاء على الدولة العباسية .

٣ ـ امتداد نفوذ عبيد الله فى خراسان وفارس

لم يكن هذا كل ما أظهره عبيد الله المهدى من نشاط فى سبيل القضاء على العباسيين ، فإنه لم يكتف بالإغارة على مصر من ناحية المغرب ، كما لم يكتف بانضمام أشياعه القرامطة إليه لتحقيق سياسته العدائية مع هؤلاء العباسيين ، بل جعل دعاته فى بلاد المشرق يضاعفون جهدهم فى نشر الدعوة له ، حتى لقد قيل إن عبيد الله هو الذى قتل المقتدر[١]، وتخلص بذلك من منافس ذى خطر طالما وقف عقبة كأداء فى وجه سياسته فى المشرق . وإنا لنلمس ذلك النشاط الذى بدأه دعاته العلماء فى الرى وطبرستان وخراسان وما وراء النهر . يدلنا على ذلك ما رأيناه من هذه الجهود الكبيرة التى بذلها كل من الداعى أبى حاتم الرازى (٣٢٢ ﻫ) ، والداعى النسفى (٣٣١ ﻫ) ، والداعى أبى يعقوب السجزى (٣٣١ ﻫ) . فقد كان لجهود هؤلاء أثر ملموس فى نشر ثقافة المذهب الإسماعيلى وفلسفته الجديدة التى ترمى إلى تقديس شخص عبيد الله المهدى — إمام الإسماعيلية وخليفتهم — وفى ترويج المبادىء الإسماعيلية تحت ستار الرد على الفلاسفة حينا وعلى الملاحدة حينا ، ومناصرة بعضهم بعضا أحيانا .

دلت سياسة هؤلاء الدعاة على عبقرية نادرة المثال ؛ فقد استغلوا بعد هذه البلاد عن حاضرة العباسيين ، كما استغلوا جهل أهلها بوسائل النقاش والمناظرة والتضاع

(١) يقول ابن حماد (أخبار بنى عبيد وسيرتهم ص ١٧) فى مقتل المقتدر : ” وأظهر عبيد الله عند ما بلغه الخبر أن دعاته قتلته بأمره ، وجلس لذلك مجلسا هنىء فيه . ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحا ، لأن الذى قتله كان بربريا ولم يكن من أهل المشرق “ .

فى العلوم والمعارف، وجذبوهم إليهم ؛ واستطاعوا بفضل ذلك كله أن يجذبوا إلى سادتهم الفاطميين عددا كبيرا من الأمراء والقواد السنيين ، حتى اتصل هؤلاء الأمراء بعبيد الله المهدى ، وقدموا له فروض الطاعة ، والتمسوا منه أن يأذن لهم بالانضواء تحت لوائه . وهكذا كانت بلاد المشرق أشبه ببركان أوشك على الانفجار فى وجه العباسيين . وقد نجح دعاة عبيد الله نجاحا يحسدون عليه فى هذه السبيل . وإذن هل كان عبيد الله المهدى ودعاته يرمون من وراء جذب الأمراء والقواد إليهم أن يعلنوها ثورة جامحة على العباسيين ، ثم يتصل هؤلاء بالفاطميين ويصبحوا من رعاياهم ؟ يبدو أن هؤلاء الأمراء والقواد كانوا يعملون على الوصول إلى تحقيق هذه الأغراض ، بدليل ما صرح به بعض من أنه كان عنده خمسون ألف رجل طوع بنان المهدى ، وما صرح به ابن أبى الساج من أنه حليف أبى طاهر الجنابى ، إلى غير ذلك . أما اعتذار المهدى عن قبول ماعرضه عليه هؤلاء الأمراء وقوله لهم : «الزموا مراكزكم ، لكل أجل كتاب» ، فإنه ، على الرغم من أن ذلك يبدو بعيد التصديق ، يدل فى الوقت نفسه على أن الدعوة الإسماعيلية لم تتمكن بعد من قلوب المسلمين كافة ؛ فإن العدد الذى ذكره نصر بن أحمد السامانى لم يكن كافيا لإحداث الانقلاب الذى ينشده عبيد الله ، كما أن جنود يوسف بن أبى الساج لم تكن على مذهب عبيد الله . ومن ثم نرى أن الوقت لم يكن قد حان لإعلان عبيد الله وأنصاره الثورة على العباسيين فى المشرق .

ويصح أن نفرض أن عبيد الله الذى استغل نفوذ دعاته فى خراسان وبلاد ماوراء النهر وطبرستان والرى وغيرها استغلالا تاما ، لم يشأ أن يعلن الثورة فى تلك البلاد إلا بعد أن يتأكد من نجاحه ، ورأى أن يرجىء ذلك حتى يتم له فتح مصر ؛ وبذلك يكون الاتصال بينه وبين أنصاره فى هذه البلاد النائية أمرا ميسورا . لذلك نرى أن عبيدالله قصد من قوله : «الزموا مراكزكم لكل أجل كتاب» ، إلى أنه إنما أراد أن يهامهم حتى يفتح مصر ، وحينئذ يستطيع أن يعمل على إذكاء نار الثورة على العباسيين ، بإغارة أتباعه عليهم من الشرق ، على حين يلتقى هو معهم من المغرب فينتزع بغداد ، وتقوم الدولة الفاطمية على أنقاض الدولة العباسية فى المشرق . وعلى الرغم من أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فإن هذا يدل على مهارة عبيد الله الحربية والسياسية .

٣ - امتداد نفوذ عبيد الله المهدى فى بلاد المغرب

كان احتلال الفاطميين إفريقية (تونس) ، وقلبهم دولة الأغالبة ، خطوة لامتداد نفوذهم شرقا وغربا . أما فى الشرق ، فقد أخفقت دولتهم فى الاستيلاء على مصر فى عهد عبيدالله ؛ وأما فى المغرب ، فكان الفاطميون يعملون على أن تكون جميع هذه البلاد فى قبضتهم ، بحيث لا يحول بينهم وبين المحيط الأطلسى حائل . لذلك اصطدم عبيد الله المهدى بدولة الأدارسة ، وساهم إلى حد كبير فى إزالتها ، كما اصطدم مع الأمويين فى الأندلس . ولم يكن بد من أن يخضع عبيد الله القبائل الكبيرة فى المغرب ، كزناته وسواها . وعلى الرغم من أن عبيد الله لم يستطع أن يخضع لسلطانه جميع بلاد المغرب ، مهد السبيل للمعز لدين الله الذى استطاع أن يوحد كل بلاد المغرب تحت لوائه ، وأن يتم ما بدأه عبيدالله المهدى قبله بنحو نصف قرن .

تنظيم عبيد الله بلاد المغرب :

مرت المحاولات التى بذلها الفاطميون لإخضاع بلاد المغرب فى أدوار مختلفة ؛ وكانت المحاوله الأولى على يد أبى عبد الله الشيعى ، واستمر عبيد الله المهدى يعمل على ضم بلاد المغربين - الأوسط والأقصى - وجزيرة صقلية ، حتى كادت جميعها تقع فى قبضة يده .

وفى المرحلة الأولى (٢٩٦ - ٢٩٧ ﻫ) أزال أبو عبد الله دولة الأغالبة عن إفريقية ، ولذلك نراه حين يخرج منها إلى المغرب الأقصى ، يستخلف عليها أخاه أبا العباس ، كما نرى جميع البلاد الواقعة بين سجلماسة بالمغرب الأقصى وتونس تخضع له ، أو تظهر خضوعها على الأقل . وبعبارة أخرى « اهتز المغرب لخروجه ، وخافته زناته ، وزالت القبائل عن طريقه ، وأتته رسلهم ، ودخلوا فى طاعته » (١) . ولو أن اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة أحسن لقاء أبى عبد الله الشيعى ، لما كان هناك ما يحول دون بقاء السلطة فى يد بنى مدرار كما كانت من قبل . ولكن اليسع ركب

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٨

رأسه ، وحارب أبا عبد الله فقتله فى سنة ٢٩٦ هـ . وبقتل اليسع آلت بلاده إلى الفاطميين ، فعينوا عليها واليا من قبلهم (١) . والواقع أن عبيد الله لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية فى رقادة حتى كان قد « زال ملك بنى الأغلب من إفريقية ، وملك بنى مدرار من سجلماسة ، وملك بنى رستم من تاهرت (بالمغرب الأوسط) . وملك المهدى جميع ذلك » (٢) .

وتبدأ المرحلة الثانية (٢٩٧ - ٣٠١ هـ) باعتلاء عبيد الله المهدى العرش ، وتنتهى بمحاولته فتح مصر للمرة الأولى . وقد عمل المهدى ، منذ جلس على العرش فى ربيع الثانى سنة ٢٩٧ هـ ، على أن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة وعلى الدعوة ذاتها ؛ فتلقب ، على ما يقوله السنيون ، بلقب « المهدى »(٣) . وأرسل العمال إلى الولايات المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة بالطبع ، وممن يثق بهم من المغاربة . ومما يلفت النظر حقا ما نراه من نشاط ولاة المهدى فى ذلك الحين ؛ فقد ولى على صقلية سنة ٢٩٧هـ واليا كان يثق به ، واستطاع هذا الوالى أن ينظم شئون هذه الجزيرة ، وأن يهدد جنوبى إيطاليا ، فيهاجم كلابريا (قلورية) كما يسميها العرب فى سنة ٢٩٩ هـ . وكان من أشهر ولاته والى طرابلس ووالى برقة ، أو بالأحرى ولاة المغرب الأدنى ، ثم والى تاهرت فى المغرب الأوسط . وقد اختارهم المهدى من خيرة تلامذة مدرسة أبى عبد الله الشيعى ، الذين ساعدوه على إقامة الدولة الفاطمية. ولكى يتمم المهدى إخضاع المغربين الأوسط والأقصى ، اعتمد على أبى عبدالله الشيعى ، لأن هذه البلاد لم تقر للمهدى بالزعامة المطلقة ، أو على الأقل لم يدن أهلها له بالطاعة . لذلك نرى أبا عبد الله يخرج فى سنة ٢٩٧ هـ « مع جماعة من قواد كتامة ودعاتهم إلى أرض المغرب ، لما ظهر فيه من الالتياث وفساد الطرق ، وقيام القبائل على عمالهم ؛ فافتتح المدن وقتل وسبى ، ووردت له كتب كثيرة بالفتوح فقرئت بإفريقية » (٤) .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٩

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٨

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٦

(٤) ابن عذارى : جـ ١ ص ١٦٠

وهذا يدل على أن مهمة عبيد الله فى بلاد المغرب كانت لا تزال شاقة ، وأن الأمر لم يقف عند حد إزالة الدولة الأغلبية ، وأنه ليس من السهل على دولة شيعية متطرفة ، كالدولة الفاطمية الإسماعيلية ، أن تخضع بلادا واسعة الأرجاء تسود فيها المذاهب السنية ، كما أنه ليس من السهل أن تخضع قبائل زناته للكتاميين ، إلى غير ذلك من الصعاب التى اعترضت المهدى ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها . ومن ثم نرى أبا عبد الله الشيعى يقوم فى سنة ٢٩٨ ﻫ على رأس جيش يحارب زناتة جنوبى بلاد كتامة ، « فيقتل الرجال ، ويأخذ الأموال ، ويسبى الذرية ، ويحرق بعض المدن بالنار » [(١)] . ولم يقف الخطر المحدق بعبيد الله المهدى عند هذا الحد ، فنرى أهل طرابلس فى سنة ٢٩٨ ﻫ يعزلون الوالى الفاطمى ويولون غيره ، ويسير بعض الزناتيين لاحتلالها . ولولا مهارة عبيد الله المهدى لوقفت طرابلس عقبة كأداء فى سبيل سيره إلى مصر ؛ فقد استردها وعين عليها أحد زعماء كتامة من المخلصين لأبى عبد الله [(٢)] .

غير أن مقتل أبى عبد الله فى سنة ٢٩٨ ﻫ اضطر المهدى إلى أن يحدث بعض التبديل فى ولاته ، وإحلال غيرهم ممن يخلصون له لا لأبى عبد الله الشيعى ؛ فجعل على المغرب الأدنى — وخاصة برقة — حباسة بن يوسف ، الذى قاد الحملة الأولى على مصر مع أبى القاسم الفاطمى (٣٠٠ — ٣٠١ ﻫ) ، وعين على بلاد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف قاتل أبى عبد الله الشيعى ، وكان مقره «تاهرت» . وكان موقف عبيد الله دقيقا حقا ؛ فقد ثارت زناتة على ولاتهم الفاطميين فى سنة ٢٩٩ ﻫ ، وثار أهل تاهرت على عمالهم . وكذلك ثارت كتامة انتقاما لأبى عبد الله الشيعى سنة ٢٩٩ ﻫ ، كما ثار أهل طرابلس فى سنة ٣٠٠ ﻫ ، وثار أهل صقلية على واليهم ، وكاتبوا الخليفة العباسى المقتدر ودانوا له بالطاعة . إلا أن عبيد الله المهدى استطاع أن يخرج من هذه الشدائد ظافرا ، بفضل جهود ولى عهده أبى القاسم (القائم) ، الذى أخضع كتامة ، وغزا طرابلس ، ثم بفضل إخلاص ولاته الذين عينهم بعد أبى عبد الله الشيعى مثل حباسة بن يوسف وأخيه

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٦١

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣

عروبة ، وبفضل دهائه هو . وهكذا تعرضت دولة عبيد الله المهدى فى بلاد المغرب لأخطـــار جسام ، وعلى الأخص بسبب انتقاض الأهلين على ولاتهم . وبرغم هذا كله اعتقد عبيد الله ، أنه بقتله أبا عبد الله الشيعى وأنصاره ، وتوليته ولاة يطمئن إليهم ، وإخضاعه الثورات التى قامت فى وجهه على أثر مقتل أبى عبد الله ، يستطيع أن يمد نفوذه شرقا إلى مصر . ولذلك نراه يرسل إليها حملته الأولى .

وتبدأ المرحلة الثالثة من مراحل تنظيم بلاد المغرب (٣٠٢—٣٠٧ هـ) بحملة عبيدالله المهدى الأولى على مصر ، وتنتهى بحملته الثانية عليها . على أن سياسة عبيدالله قد جرت عليه كثيرا من المتاعب ، كما أدى مقتل أبى عبد الله الشيعى إلى وقوع الاضطراب فى نظام حكم الولايات الفاطمية فى المغرب وصقلية ، كما جر عليه مقتل حباسه بن يوسف شيئا غير قليل من المتاعب . فقد عز على عروبة أن يكون جزاء أخيه حباسة ، الذى قتل أبا عبد الله الشيعى ونكل بأنصاره ، وأحرز كثيرا من الانتصارات فى مصر ، الحبس والتشريد ؛ كما خاف على نفسه وفر من تاهرت — مركز ولايته — فى المغرب الأوسط . ولكن عبيدالله المهدى هم بقتله وتتبع أنصاره وأنصار أخيه . ويظهر أن قتل حباسة وأخيه عروبة قد أثار الاضطرابات فى المغرب ، فامتنعت برقة على عبيدالله المهدى ، ولم تسلم إلا بعد سنة ونصف سنة[1]. يقول ابن خلدون[2]: «وانتقض لذلك أخوه عروبة بالمغرب ، واجتمع إليه خلق كثير من كتامة والبربر ، وسرح إليهم المهدى مولاه «غالبا» فى العساكر ، فهزمهم وقتل عروبة وبنى عمه فى أمم لاتحصى. ثم انتقض أهل صقلية ، وتقبضوا على عاملهم... وولوا عليهم غيره ، فدعا للمقتدر العباسى ، وخلع طاعة المهدى» . لذلك لم يكن بد من أن يخضع عبيدالله ثورة جزيرة صقلية ، وأن يولى عليها رجلا يرضاه هو ويوافق عليه أهل هذه الجزيرة . وقد نجح المهدى فى ذلك نجاحا يذكر .

ويهمنا فى هذه المرحلة أن نقول ، إن عبيد الله المهدى اتخذ من تاهرت بالمغرب الأوسط ، مركزا رئيسا يوجه منه قوته نحو المغرب الأقصى ، وإنه أخذ يحتك فى هذا الدور بالأدارسة وبالأمويين جميعا . ذلك أن المهدى حين قتل عروبة بن

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤١

(٢) العبر ج ٤ ص ٣٨

يوسف - واليه على القسم الغربى من دولته - ولى مكانه على تاهرت قائده المشهور « مصالة بن حبوس » ، الذى بدأ صراعه العنيف مع قبائل صنهاجة ، فاستولى على حاضرتهم « ناكور » أو « نكور » فى سنة ٣٠٥ ه[١] . وكان استيلاء الفاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع الأدارسة ثم مع الصنهاجيين. وليس هذا وحده ، بل لقد بدأ نوع جديد من الصراع السياسى والحزبى بين الأمويين والفاطميين ؛ إذ اتخذ الأمويون بزعامة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ ه) من هرب حكام هذه البلاد إلى الأندلس فرصة لجذبهم إليهم ، ومد يد المساعدة لهم على الفاطميين . وهذا يدل على أن الحرب بين الصنهاجيين والفاطميين إنما كانت فى الواقع حربا بينهم وبين عبيد الله من ناحية ، وبين الخليفة الفاطمى والخليفة الناصر الأموى من ناحية أخرى . ولا غرو فإن عبد الرحمن الناصر بدأ يلقب نفسه بألقاب الخلفاء ، ويرى أنه لا يقل شأنا عن الفاطميين . وإن من يدرس العلاقة بين الفاطميين وبين الأمويين فى الأندلس فى الدور المغربى خاصة ، يستطيع أن يدرك إلى أى حد أضمر الفاطميون العداء للأمويين ، وخاصة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، لا لأنه يدين بالعقائد السنية فقط ، بل لأنه أخذ ينافس عبيد الله وخلفاءه فى ألقابهم وفى نظم حكمهم ، ولأنه كان يعمل على الوقوف فى وجه

---

(١) كان الصنهاجيون من القوة بحيث كانوا يهددون ملك الأغالبة . وقد خافهم عبيد الله المهدى ، فأخذ يتودد إليهم حينا ، ويتوعدهم أحيانا ، ولكنهم لم يعبئوا به . فكان ما قام به مصالة بن حبوس انتقاما لسيده عبيد الله المهدى . يقول ابن عذارى (البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١٨١) : ,, لما تغلب عبيد الله الشيعى كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول فى طاعته ، والتدين بإمامته ، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح (أمير صنهاجة وصاحب نكور) ، وفى أسفله أبيات كثيرة منها :

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم ... وإن تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم ... وأدخلها عفوا وأملؤها عدلا

فأجابه شاعرهم :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ... ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت إلا كافر ومنافق ... يميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد ... وقد جعل الرحمن همتك السفلى

الفاطميين فى بلاد المغرب ، ولا سيما أن الفاطميين كانوا منذ قيام دولتهم فى المغرب يرون أن كل شمال إفريقية مجال حيوى لمد نفوذهم وتحقيق سياستهم . كما كانوا يرون فى الوقت نفسه أن أى تدخل من جانب الأمويين يتعارض مع مصلحتهم .

وهكذا فتح مصالة بن حبوس مدينة «ناكور[١]»، وقتل رئيسها سعيد بن صالح فى يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم[٢]. وانتهب مصالة «ناكور» ، وسبى النساء والذرية ، ثم انصرف إلى تاهرت ، وكتب بالفتح إلى عبيدالله ... ثم إن بنى صالح خرجوا فارين بأنفسهم إلى الأندلس معتصمين بما تناهى إليهم من فضل أمير المؤمنين الناصر ، وحسن مذهبه فى كل نازع إليه ومعتصم به ، فنزلوا بمرسى مالقة ، وعهد بإنزالهم والتوسع عليهم . وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من المرافق ، وخيروا فى القدوم إلى قرار السلطان والمقام فى ذلك المكان ، فاختاروا المقام على بره وحبائه . وكان مصالة قد استخلف على ناكور رجلا يقال له ذلول ، وانصرف إلى تاهرت ، فافترق عن ذلول من كان معه ، وبقى فى فل من المشارقة ، فقصده صالح بن سعيد . . . من مرسى مالقة ، فقتله وقتل أصحابه ، ولزم ناكور ، وهادى أمير المؤمنين[٣] بالخيل والجمال[٤]» .

وهذا يدلنا على مدى مساعدة الناصر الأموى للصنهاجيين . فقد كان يهمه أن يكون له خلفاء من المغاربة ، يستطيع أن يجعل من بلادهم حاجزا يقيه شر الفاطميين ، الذين كان يخشاهم ، ويعتقد أنهم يستطيعون أن يحققوا ما أخفق فيه العباسيون من الاستيلاء على بلاده ، وطرده من أسبانيا ، لبعد الشقة ووعورة الطريق بين العراق والأندلس ، مع قرب المسافة وسهولة الطريق بين المغرب والأندلس . لذلك أمر الناصر بإمداد صالح بالأخبية والآلات والبنود والطبول[٥].

أضف إلى ذلك أن الخليفة الناصر الأموى استغل عنصر الكراهية بين التشيع

---

(١) مدينة ساحلية فى مراكش ، لها مرسى فيه جزيرة .

(٢) سنة ٣٠٥ هـ.

(٣) يقصد عبد الرحمن الثالث الناصر الأموى

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ١ ص ١٧٧ — ١٧٨

(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٣

Shiism والسنية Sunnism المتأصل فى قلوب الصنهاجيين ؛ فقد رأينا هؤلاء ينظرون إلى عبيد الله وإلى دولته ومذهبه نظرهم إلى الروم والمجوس . هذا إلى أن خوفهم على ملكهم من عبيد الله المهدى ، والتجاءهم إلى الناصر السنى إنما كان يرمى إلى الاحتفاظ بدينهم ودولتهم . ومن هنا نرى كيف بدأ عبيدالله المهدى يعمل بعد ذلك بجد ونشاط على الاستيلاء على المغربين الأوسط والأقصى ، ليحول بذلك بين الأمويين فى الأندلس ، وبين تحقيق أمانيهم فى بلاد المغرب . وهكذا انتهى دور الاستقرار والتمكين ، وبدأ دور العمل فى الشرق والغرب معا . أما فى الشرق فقد رأينا عبيدالله يرسل إلى مصر حملتين منيتا بالخيبة ، وأما فى المغرب فنرى أن عبيدالله المهدى يكاد يقضى على نفوذ الأدارسة الذين سيمثلون معه نفس الدور الذى قام به الصنهاجيون من الاتصال بالأمويين ومناوأته والوقوف فى وجهه .

وتبدأ المرحلة الرابعة من هذا التنظيم بالحملة الثانية على مصر ، وتنتهى بوفاة عبيد الله المهدى (٣٠٧ — ٣٢٢ هـ) . ويتمثل فى هذه المرحلة صراع الفاطميين مع الأدارسة ، ومع حلفاء الخليفة الناصر الأموى من المغاربة . ويظهر أن عبيد الله المهدى حين أدرك إخفاقه فى مصر ، عول على بذل جهوده كاملة فى المغرب ؛ ومن ثم بدأ صراعه مع الأدارسة ، ذلك الصراع الذى انتهى بعزلهم فى إقليم الريف ، وقضى على ملكهم فى المغرب الأقصى ، ومن ثم بدأ دور الهجوم الجدى .

خرج مصالة بن حبوس قائدالمهدى المشهور من تاهرت سنة ٣٠٨ هـ ، واسترد مدينة « ناكور » من الصنهاجيين ، ويمم شطر الأدارسة فى فاس . وعليها يحى بن إدريس بن عمر بن إدريس الذى يقول فيه ابن خلدون[١] : « كان أعلى بنى إدريس ملكا ، وأعظمهم سلطانا ؛ وكان فقيها عارفا بالحديث . ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . والحق أن يحي هذا استطاع أن يوحد بين أدارسة فاس بالمغرب الأقصى ، وأدارسة الريف إلى حين . ومع ذلك فقد انتصرت جيوش المهدى الفاطمى عليه . ومما يلفت النظر حقا أن الأدارسة كانوا يحاربون بمساعدة المغاربة « وأولياء الدولة من أوربة ، وسائر البرابرة والموالى[٢] » . كما كانت جيوش

(١) العبر ج ٤ ص ١٦ : كان الأدارسة يحكمون وقتئذ ناحيتين : الأولى فى إقليم فاس ، والثانية فى إقليم الريف .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الفاطميين تتألف من المكناسيين . وعلى رأسهم موسى بن أبى العافيـة ، ومن الكتاميين[١] الذين قامت الدولة الفاطمية بفضل مساعدتهم . فما أسباب هزيمة الأدارسة إذن ؟ يرجع ذلك إلى تكاتف الكتاميين برياسة مصالة بن حبوس القائد الفاطمى ، والمكناسيين برياسة موسى بن أبى العافية صاحب مكناسة [٢] . وكان يحقد على الأدارسة ، ويتمنى زوال ملكهم . أضف إلى ذلك أن عبيد الله . بعد أن أخفق فى الاستيلاء على مصر عول على أن يوجه كل قواته نحو المغرب ، فاتبع سياسة «فرق تسد» ، واستطاع بذلك أن يفرق بين موسى بن أبى العافية أمير مكناسة وبين يحي بن إدريس ؛ إذ لو اتحد هؤلاء وكونوا جبهة مناوئة له لما استطاع أن ينال منهم غرضا .

وكانت نهاية تلك الجولة الأولى (٣٠٨ هـ) أن وضع أدارسة فاس تحت الحماية الفاطمية ، فاعترفوا بزعامة المهدى الفاطمى ، ودفعوا له الجزية ، وولى الفاطميون فى فى الوقت نفسه موسى بن أبى العافية على هذه البلاد ، فكان بمثابة المندوب السامى في عصورنا الحديثة . وقد لخص ابن خلدون [٣] نجاح الفاطميين على الأدارسة بقوله : « صالحه على مال يؤديه إليه ، وطاعة معروفة لعبيد الله ، وأبقى عليه مصالحه فى سكنى فاس ، وعقد له على عملها خاصة . وعقد لابن عمه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يومئذ . . . على سائر أعمال البربر » .

وفى الحق أن نهاية أدارسة فاس أو المغرب — على ما يسمونهم — كانت قد تقررت منذ سنة ٣٠٨ هـ ؛ فقد أدرك يحي بن إدريس أنه لا يستطيع البقاء كالأسير فى بلاده ، كما كان يحتقر موسى بن أبى العافية لأنه من البربر . لذلك آثر يحي الراحة وترك شئون فاس لابنه طلحة ؛ ولكن موسى ما زال يغرى مصالة بن حبوس به وبابنه طلحة ، فاستصفى هذا القائد أموالها فى سنة ٣٠٩ هـ ، ونفى طلحة إلى بلاد

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٨٧

(٢) مدينة شرقى مدينة مراكش، تبعد عنها بأربع عشرة مرحلة كما تبعد عن فاس بمرحلة واحدة، وتقع فى الطريق من فاس إلى « سلا » ، على ساحل البحر ، وفيها مرسى للمراكب ، ومنها تجلب الحنطة إلى شرق الأندلس.

(٣) العبر جـ ٤ ص ١٦

الريف حيث أقام مع بنى أعمامه الأدارسة الذين يكونون الفرع الآخر فى إقليم الريف . وأما يحي فقد عول على قصد المهدية ، إلا أن ابن أبى العافية قبض عليه وسجنه مدة (١) ثم أطلقه ليذهب إلى المهدية ، ويقضى بها حياته فى شقاء . وبهذا تم إخضاع إقليم فاس للفاطميين ، بعد زوال سلطان يحي بن إدريس وأهل بيته عنه ، وتعيين وال فاطمى على إقليم فاس ، على حين بقيت الزعامة والرياسة لصاحب مكناسة حليف الفاطميين على جميع هذه البلاد ، ومعنى هذا انضمام جزء كبير من بلاد المغرب الأقصى إلى الفاطميين (٢) .

على أن هذا النصر كان يقتضى إخضاع إقليم سجلماسة إلى الدولة الفاطمية . حقيقة كان أبو عبد الله الشيعى قد ضم سجلماسة إلى الدولة الفاطمية فى سنة ٢٩٦ هـ ، وولى عليها واليا من قبله قبل عودته مع المهدى إلى رقادة سنة ٢٩٦ هـ . غير أن هذا الوالى الفاطمى لم يتمتع بالحكم أكثر من خمسين يوما ، فقتله أهل سجلماسة ، وخرجت هذه البلاد عن طاعة الفاطميين (٣) . ولكن كيف يستطيع وال فى بلاد نائية كهذه أن يحتفظ بولايته ؟ ثم كيف يستطيع أن يحكم جماعة يضمرون له ولخليفته ومذهبه الكراهة والبغضاء ، ويودون التخلص منه ؟ هذا إلى أن البلاد التى تفصل بين مقر الفاطميين وبينها بلاد معادية أو منافسة للفاطميين ؛ فهناك قبائل زناتة وصنهاجة والأدارسة وسواهم . وهكذا كان فتح فاس من العوامل التى ساعدت على فتح سجلماسة . وقد تم ذلك فى سنة ٣٠٩ هـ ، وأصبح والى هذه البلاد من قبل الفاطميين .

ويبدو أن « مصالة بن حبوس » ، قائد الفاطميين وأمير تاهرت بالمغرب الأوسط ، كان موضع خوف المغاربة وإعجابهم ؛ إذ لم يكد يعود إلى إفريقية (بلاد تونس) سنة ٣١٠ هـ حتى هب أحد أمراء الأدارسة ، وطرد أمير فاس الفاطمى ، وحارب موسى بن أبى العافية وانتصر عليه ، واستولى على فاس سنتين .

(١) قدرها المؤرخون بعشرين سنة ، قصد بعدها المهدية حيث استقر بها أثناء حصار ابن كيداد لها ، ومات فقيراً بائسا

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٢٠

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢١٤

غير أن موسى بن أبى العافية ما زال به حتى طرده من فاس فى سنة ٣١٣ هـ . ويظهر أن ابن أبى العافية قد داخله الغرور بعد استرداده فاس ؛ ولذلك أخذ ينكل بأنصار الفاطميين ، ويعمل على استئصال البقية الباقية من الأدارسة . وقد فر جميع هؤلاء إلى إقليم الريف ، « وذهب ملك الأدارسة ، واستولى ابن أبى العافية على جميع المغرب ، وأجلى بنى محمد بن القاسم بن إدريس وأخاه الحسن إلى الريف » [1] ؛ وكان ذلك فى سنة ٣١٥ هـ . وهكذا تكاتف الفاطميون وصاحب مكناسة على إزالة دولة الأدارسة . ويعتبر هذا نجاحا للفاطميين أكثر منه للمكناسيين ؛ لأن هؤلاء أزالوا دولة علوية ،كانت تعتبر نفسها كالدولة الفاطمية أحق بزعامة المسلمين . وكان الأدارسة يتنازعون الزعامة مع الفاطميين ؛ لذلك كان لزوال دولة الأدارسة أثر كبير فى نجاح الفاطميين من الناحيتين السياسية والدينية .

والواقع أن موسى بن أبى العافية صاحب مكناسة أضحى خطرا على ملك الفاطميين فى بلاد المغرب الأقصى ، حيث « استولى على ملك فاس وبلاد المغرب ... وانتظم الأمر لموسى بن أبى العافيـــة فى المغربين الأقصى والأوسط » [2] . وقد شجعه على ذلك موت مصالة بن حبوس القائد الفاطمى فى سنة ٣١٢ هـ ، فأصبح ابن أبى العافية خطرا يهدد كيان الفاطميين أنفسهم . من ذلك نستطيع أن نقول ، إن الفاطميين نجحوا إلى حد كبير فى إقرار سلطانهم على بلاد المغرب الأوسط فى عهد ولاية مصالة بن حبوس (٣٠٧-٣١٢ هـ) ؛ فاستطاع هذا الوالى أن يضم إلى الدولة الفاطمية بلاد صنهاجة فى المغربين الأوسط والأقصى ، كما استطاع أن يقضى قضاء يكاد يكون تاما على أدارسة فاس ، وأن يزيل دولة آل مدرار من سجلماسة نهائيا . ففتح معظم بلاد المغربين الأقصى والأوسط ؛ غير أن الدولة الفاطمية لم تستطع

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٧ . ويسمى هذا الزعيم الادريسى الحسن بن محمد بن القاسم ابن إدريس ، ويلقب بالحجام . حارب موسى بن أبى العافية ، «وواقعه وقعة لم تر بلاد المغرب مثلها ، بعد دخول إدريس الكبير » ، على ما يقوله ابن عذارى (ج ١ ص ٢٢٠ — ٢٢١) . ولكن أهل فاس غدروا به حبا فى الفاطميين ، وتعاونوا مع موسى عليه ، وألقى الحجام بنفسه من فوق سور المدينة فمات سنة ٣١٥ هـ .

(٢) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١

أن تتمتع بهذا الملك الواسع طويلا، لاستبداد ابن أبى العافية أمير مكناسة بالأمر فى تلك البلاد دونهم .

ومن ثم عمل الخليفة المهدى على إنقاذ ملكه فى هذه البلاد وغيرها ؛ فأرسل إليها ولى عهده أبا القاسم فى سنة ٣١٥ هـ، واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيرا من نفوذهم . وكان المهدى يعتبر عمل القائم هنالك جهادا فى سبيل الله ، كما يتبين ذلك من قوله . « اللهم إنك تعلم أنى ما أردت بإخراجه إلى المغرب إلا رضاك ونصرة دينك وإذلال أعدائك » (١) .

ولى المهدى على المغرب الأوسط وتاهرت واليا آخر هو « حميد بن يصال » ؛ وعمل هذا الوالى الجديد على أن يشعر موسى بن أبى العافية بقوة الفاطميين ونفوذهم فى هذه البلاد ، فأرسل من قبله واليا إلى فاس . وكان « مدين بن موسى بن أبى العافية » قد استبد بها وأرغمه على الفرار . وهذا يدل على أن العلاقة بين ابن أبى العافية وبين حميد بن يصال لم تكن من الصفاء على ما كانت عليه فى عهد ولاية مصالة بن حبوس على المغرب الأوسط (٣٠٧ — ٣١٢ هـ) . ومن ثم شجع موسى الثوار على والى الفاطميين الجديد فقتلوه وحملوا رأسه إليه . فأرسله إلى عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى : لأن موسى « كان يميل إلى صاحب قرطبة من أمراء بنى أمية » (٢) .

بهذا نرى أن موسى بن أبى العافية قد أصبح خطرا على الفاطميين ، وأن ذلك كان راجعا إلى رغبته فى الاستبداد ببلاد المغرب وحدها ، بل إلى ارتباطه بالأمويين أعدائهم التقليديين . وقد ظل موسى خطرا على الفاطميين حتى فى عهد الخليفة الفاطمى الرابع ، وهو المعز لدين الله . ومهما يكن من شىء فقد أوضح ابن خلدون موقف هذا الثائر من الفاطميين فقال : « ثم انتقض موسى بن أبى العافية عامل فاس والمغرب ، وخلع طاعة الشيعة ، وانحرف إلى الأموية من وراء البحر ، وبث دعوتهم فى أقطار المغرب » (٣) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٩٧

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٢٢

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠

ولم يكن ابن أبى العافية وحده هو الذى سلك مع الفاطميين هذه السبيل ؛ فان أدارسة الريف قد حذوا حذوه ، فولوا وجوههم شطر عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس ، مستعينين به على منافسيهم ، ولا سيما مع بنى عمهم الفاطميين . وبفضل هؤلاء وأولئك استمر نفوذ الأمويين فى بلاد المغرب قويا ، كما استمر الصراع كذلك بين هؤلاء وبين الفاطميين ، حتى ولى المعز لدين الله الفاطمى الخلافة ، فأخضع بلاد المغرب كلها لنفوذه ، وحارب الأمويين برا وبحرا . وانتصر عليهم وعلى حلفائهم الروم والمغاربة .

صقلية فى عهد عبيد الله المهدى

ما كادت ترجح كفة أبى عبد الله الشيعى ، وينتصر على الأغالبة ، حتى هب أهالى صقلية على واليهم السنى ، الحسن بن رباح ، الذى كان يحكم هذه الجزيرة باسم الأغالبة ، وولوا عليهم عليا بن أبى الفوارس (٢٩٦ هـ) . ولم يكتفوا بذلك ، بل طلبوا إلى أبى عبد الله أن يقرهم على ما فعلوا ، فأقر هذا الوالى الجديد ، وحتم عليه أن يتم ما بدأه من الفتح والغزو[١] .

غير أن عبيد الله المهدى كان قد وضع لنفسه سياسة الاعتماد على الكتاميين أنصار المذهب الإسماعيلى ؛ ولذلك قبض على ابن أبى الفوارس، وولى مكانه الحسن ابن أحمد بن أبى خنزير الكتامى . وقد تعصب السنيون على الحسن ، وعملوا على طرده من صقلية لجوره أولا ، ولامتهانهم إياه ثانيا .

أما جوره فنراه فى استبداده بالسنيين ، وانتهاج عماله نهجه فى الاستبداد بهم ؛ وأما امتهانهم إياه ، فإن كثيرا من زعماء العرب فى صقلية كانوا يأنفون أن يتزعمهم كتامى بربرى ، لأنهم كانوا يرون أنهم أرفع منه قدرا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اتضح لهم أن الحسن يقرب إليه البربر ويهمل شأن العرب ؛ فولى أحد الكتاميين على قضاء الجزيرة ، وأطلق يد أخيه على بن أبى خنزير فى أمور البلاد .

---

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣٤ .

وليس هذا كل ما أثار حفيظة السنيين بصقلية على الحكم الفاطمى ؛ فقد عز عليهم أن يخطب على منابرهم للخليفة المهدى الفاطمى ، وأن تنظم الدعاية فيها للمذهب الإسماعيلى الذى كان دعاته يعملون فى جد وحزم على جذب الناس إليه . وفى الحق أن هذا هو السبب الأساسى الذى أثار أهل صقلية على واليهم الفاطمى .

وقد ولى عبيد الله المهدى عليا بن عمر البلوى جزيرة صقلية ، فوصل إليها فى سنة ٢٩٩ هـ . ولم يكن البلوى أقل تعسفا من سلفه ، على الرغم مما عرف به من اللين وضعف الإرادة ، فثار الناس عليه . وقد يسأل بعض عن السبب الحقيقى الذى حدا بأهل صقلية إلى شق عصا الطاعة على هذا الوالى الفاطمى ، وهل يرجع ذلك إلى لينه وشيخوخته ؟ أو إلى أنه كان يمثل العنصر الشيعى ، مع أن السواد الأعظم من المسلمين بصقلية كانوا يدينون بالعقائد السنية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى أنه كان من بين الثائرين جماعة من تلاميذ مدرسة أبى عبد الله الشيعى ، الذين عز عليهم مقتله فثاروا بالمهدى وبواليه البلوى ؟ يبدو أن هذه الأسباب مجتمعة هى التى أدت إلى إشعال نار الثورة فى صقلية . فإن مقتل أبى عبد الله الشيعى قد أثار على عبيد الله المهدى موجة من السخط والغضب شملت المغرب وصقلية[١] (سنة ٣٠٠ هـ) ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن عددا كبيرا من الثائرين على البلوى ، كانوا من أنصار مدرسة أبى عبد الله الشيعى . أضف إلى ذلك أن العناصر العربية قد عز عليها أن يرسل الفاطميون ولاة من البربر ، ولذلك اختار الزعماء فى صقلية أحمد بن قرهب ، وكان عربيا ، فى سنة ٣٠٠ هـ .

ويبدو أن ابن قرهب كان فى سنيه الأولى على شىء كبير من الصفاء مع الفاطميين. وقد أبدى هذا الوالى نشاطا ملموسا فى الناحية الحربية ؛ فأغار على قلورية (كالابريا) فى سنة ٣٠٠ هـ . ويظهر أيضا أن ابن قرهب لم يكن يأمن جانب السنيين فى صقلية ، بل الفاطميين أنفسهم ، وأنه كان فى الوقت نفسه يميل إلى الزعامة ويعمل على الاستقلال عن الفاطميين ، ومقاومة المسلمين فى صقلية إذا اقتضى الأمر . يدل على ذلك أنه عول على فتح ثغر « طبرمين » الحصين فى هذه الجزيرة ، « وكان غرضه إذا ملكها أن يجعل بها ولده وأمواله وعبيده ؛ فإذا رأى من أهل صقلية ما يكره

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٨

امتنع بها[١] » . ولم يمنعه عن تحقيق أغراضه إلا ثورة الجند عليه .

وقد نسأل عن السبب الذى حدا بثورة الجند على ابن قرهب . يبدو أن نزعته إلى الاستقلال بصقلية قد أدركها أنصار الفاطميين ، فأشعلوا نار الثورة على ابنه ، وكادوا يقتلونه ، لولا أن تصدى لهم العرب من السنيين ؛ لذلك فإن ابن قرهب حين أدرك أن أمره قد افتضح ، وخشى انتقام الفاطميين ، ثار عليهم ، وأعلن ولاءه للعباسيين (سنة ٣٠٤ هـ) ، وقطع الخطبة للمهدى فى صقلية ، وخطب للخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

ولم يكتف ابن قرهب بقطع خطبة الفاطميين ، بل عمل على إثارة مخاوفهم ، لئلا تحدثهم أنفسهم بمحاولة طرده من صقلية ، ولكى يظهر أمام العباسيين بمظهر المخلص المتفانى فى طاعتهم . لذلك أرسل أسطوله القوى لمهاجمة سواحل بلاد المغرب ، وأحل بأسطول الفاطميين الهزيمة عند سواحل إفريقية (تونس) ، وقتل قائده (ابن خنزير) . ومن ثم قصد إلى سفاقس[٢] ، فخربها . ولم يجد المهدى من نفسه القدرة على صده عن طرابلس . غير أن أسطول ابن قرهب خشى بقاء أبى القاسم الفاطمى فى هذه البلاد ، وعاد إلى صقلية ظافرا .

وكان من أثر تلك الإغارة ، أن ضاعف المهدى جهده فى تقوية أسطوله وإعداده لصد هجمات ابن قرهب الذى نال إعجاب العباسيين ، فأرسل إليه المقتدر « الخلع السود والألوية » . وقد جعلت نشوة ذلك الانتصار البحرى الذى أحرزه ابن قرهب يقدم على مهاجمة قلورية فى جنوب إيطاليا ، ثم على مهاجمة الفاطميين فى عقر دارهم من جديد[٣] .

وكان إسراف ابن قرهب فى الاعتداد بنفسه من عوامل هزيمته ؛ فإن هذه المظاهرة التى قام بها فى وجه الفاطميين قد أضعفت قوته . أضف إلى ذلك أنه

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٥

(٢) ميناء فى بلاد تونس : بينها وبين المهدية ثلاثة أيام ، وبينها وبين سوسة يومان ، وبينها وبين قابس ثلاثة أيام ، وهى مشهورة بزيت الزيتون .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٥ . كان ذلك فى سنة ٣٠٤ هـ لا فى سنة ٣٠٠ كما زعم ابن خلدون .

بتوجيه نشاطه إلى « قلورية » قد حد من قوته الحربية ، حتى إنه لما هاجم إفريقية بأسطول قوى ، وجد أساطيل الفاطميين واقفة له بالمرصاد ؛ ولم يلبث أن قضى على أسطوله وتآمر عليه الملتفون حوله ، وقبضوا عليه وأرسلوه مع بعض خاصته إلى المهدية حيث قتل ، وعادت صقلية من جديد إلى حظيرة الفاطميين .

علمت الحوادث عبيد الله المهدى أن حكم الفاطميين لن يستقر فى جزيرة صقلية ، إلا إذا أرسل إليها مع الوالى جيشا يدفع عنه خطر الثائرين على الحكم الفاطمى . والواقع أن المهدى اتخذ من إرسال هذا الجيش إلى صقلية وسيلة لقمع ولاة الفاطميين إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج عليه ، والقضاء على أهالى صقلية إذا حاولوا شق عصا الطاعة (١) . وقد صدقت فراسة المهدى ، فإنه ما كاد واليه الجديد (أبو سعيد) يطأ أرض هذه الجزيرة حتى ثار عليه كثير من أهالى مدائنها ، مثل مدينة صقلية وغيرها . ولولا مساعدة جند الفاطميين للوالى ، لما استقر حكم المهدى فى هذه البلاد . ولذلك فإنه لما انتصر أبو سعيد على أهل صقلية ، واستنجد هؤلاء بالمهدى ، أمر واليه بالعفو عنهم (٢) . وكان ذلك فى سنة ٣٠٥ هـ .

وقد أفاد المهدى من وراء هذه السياسة ، واستطاع ولاته على صقلية ، بفضل جيوش الفاطميين وما كان يصلهم من أمداد كبيرة ، أن ينشروا الأمن فى ربوع هذه الجزيرة ، وأن يغيروا على قلورية مرات كثيرة . وكانت حملة واليه (سالم بن راشد) فى سنة ٣١٣ هـ من أهم الحملات ، حيث انتصرت على الروم فى جنوب إيطاليا وعلى المعارضين فى صقلية ذاتها .

وقد سن المهدى سنة جديدة بتوجيه حملاته من المهدية لقتال الروم فى إيطاليا وصقلية وسواهما ؛ وكان ولاة صقلية وجيوشهم يساهمون فى هذه الحروب مساهمة فعالة . وقد أرسل المهدى فى أخريات حياته حملة بحرية بقيادة قائده يعقوب بن إسحاق ، الذى استطاع أن يهدد جنوة نفسها ، ولم يمت إلا بعد أن تم له فتح هذه المدينة ، كما انتصر على أسطول الروم فى سردانية (٣).

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٥ — ٢٦

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٧

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٥٤ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٨

وقد سار خلفاء المهدى على هذه السياسة التى سنها لهم . إلى أن تقلد ولاية هذه الجزيرة الحسن بن أحمد الكلبى فى عهد الخليفة الفاطمى المنصور إسماعيل . فكون أسرة عريقة حكمت هذه البلاد باسم الفاطميين وقتا طويلا . وكان لهم شأن يذكر فى عهد المنصور والمعز ، واستطاعوا أن ينتصروا على الروم والأمويين جميعا.

وهكذا مات عبيد الله ، وقد امتد نفوذه من برقه — على حدود مصر — حتى سواحل المحيط الأطلسى ، وترك لخلفائه هذه الدولة الشاسعة الأرجاء . وورثهم فيما ورث الرغبة الملحة ، والعمل المتصل فى سبيل بسط سيادة الفاطميين على كافة أرجاء شمال إفريقية شرقا وغربا : فزالت على أيديهم دول كثيرة . وأخمدوا الثورات المتصلة ، التى كان يشنها البربر خاصة على الحكم الفاطمى [1] ، واصطدموا مع أمويى الأندلس ، كما اصطدم خليفتهم الأول . وقد لعبت السياسة الفاطمية دورا هاما فى عهد عبيد الله : فقد استطاع أن يحارب الأمويين بنفس سلاحهم ، فاتصل بابن حفصون الذى ثار على عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ — ٣٠٠ ﻫ) ثم على عبدالرحمن الثالث (٣٠٠ — ٣٥٠ ﻫ) ، وحضه على الثورة على الأمويين ، وكان يتصل به من حين إلى حين . وعقد معه معاهدة صداقة ومودة ، أدت إلى انتشار الدعوة الإسماعيلية والنفوذ الفاطمى فى الأندلس . وقد انتقم عبيد الله المهدى بذلك لنفسه ولدولته الشيعية من هذه الدولة الأموية السنية . وهكذا ورث عبيد الله المهدى خلفاءه الحقد على الأمويين . والعمل على استئصال شأفتهم من المغرب ، بل من الأندلس نفسها إذا استطاعوا .

---

(١) استطاع الخليفة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ ﻫ) أن يقضى على كافة محاولات ابن أبى العافية ، مستعينا فى ذلك برجال الدعوة المخلصين له ، كميسور الخادم وسواه . كما استطاع الخليفة المنصور إسماعيل أن يتخلص من أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى . وليس هذا وحده ، بل إنه كثيراً ما حارب خلفاء عبيد الله أدارسة الريف ، حتى انقسموا على أنفسهم : ففريق أصبح يفضل التقرب إلى الفاطميين ، وفريق آخر يفضل الأمويين . وكان هذا الفريق أكثر نفوذا ، فاستطاع عبد الرحمن الناصر أن يضم إليه سبتة وطنجة . ولما قضى المعز على دولة الأدارسة فى إقليم الريف ، وقف وجها لوجه أمام الأمويين ، ومازال الفاطميون بأبناء عمهم الأدارسة حتى دالت دولتهم فى سنة ٣٧٥ ﻫ ، بعد أن حكموا هذه البلاد زمنا طويلا . (انظر حسن إبرهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨٥ — ٢٨٦).

وأما ما أضمره الفاطميون للعباسيين من عداء ، فنراه واضحا فيما بذله عبيدالله المهدى من جهود لفتح مصر . والوصول إلى بغداد حاضرة العباسيين ، كما نراه فى بث جواسيسه ودعاته حتى فى بغداد نفسها . واستطاع هؤلاء الدعاة أن يستميلوا إليه الأمراء والقواد . ويوقعوا الارتباك فى صفوف العباسيين والموالين لهم فى بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وما إليها . كما يتضح لنا عداء الفاطميين للعباسيين من حث عبيد الله القرامطة على أن يكونوا حربا عوانا على العباسيين وأنصارهم ؛ فيغيروا على العراق من حين إلى حين ، ويدهموا الحاج لحط مركز الخليفة العباسى دينيا وسياسيا .

وبهذا نرى أن عبيد الله المهدى كان موفقا فى سياسته رئيسا للدولة الإسماعيلية من الناحية السياسية ؛ فكان أكثر خلفاء عهده نشاطا ، وأشدهم دأبا على العمل الجدى ، خصوصا وأنه كان يهتم باستقرار أمور دعوته ودولته الناشئة ، على حين أن الخلفاء من غير الفاطميين كان الضعف قد أخذ يدب فى جسم دولهم . كما نجح عبيدالله رئيسا أو إماما للدعوة الإسماعيلية ، فاستطاع أن يوحد بين صفوف أنصار هذه الدعوة ، برغم ما سادها من الاضطراب ، نتيجة لتوليته الإمامة ثم الخلافة . واستمر القرامطة على ولائهم له . وحذا حذوهم فى ذلك إسماعيليو فارس . وصفوة القول أن بقاء المذهب الإسماعيلى الذى يتمثل اليوم فى طائفتى البهرة والخوجات فى اليمن والهند خاصة ، يرجع إلى جهود عبيد الله المهدى .

مدينتا المهدية والمحمدية

كان من سياسة عبيد الله المهدى الخليفة ، أن يبنى مدينة يتخذها حاضرة لدولته الناشئة ، وحصنا يوجه منه ضرباته إلى كل من تحدثه نفسه من الخوارج بالخروج عليه وعلى مذهبه ، ويتخذها دار هجرة يعتصم بها هو وأنصاره إذا حاق بهم خطر خارجى . لذلك لم يتخذ فج الأخيار بجبل إيكجان دارا لهجرته ، كما اتخذها أبو عبدالله من قبله ، لأنها ليست فى مكان يتوسط أجزاء دولته شرقا وغربا ؛ كما أنه لم يجد فى القيروان أو رقادة مكانا يصلح لتحقيق هذه الأغراض السياسية والحربية والدينية ، لأنها كانت تزخر بالسنيين وأنصار الأغالبة المعادين للفاطميين الشيعيين . كما عدل

السفاح والمنصور من قبله عن اتخاذ دمشق حاضرة للدولة العباسية . لأنها كانت غاصة بالأمويين وأنصارهم ، ولأنها كانت بعيدة عن بلادالفرس مصدرقوةالعباسيين . فكان من المناسب إذن أن يعدل عبيد الله المهدى عن اتخاذ هذه الأماكن حاضرة لخلافته ، وأن يستبدل بها حاضرة جديدة تفي بهذه الأغراض جميعا .

خرج المهدى إلى تونس يرتاد موضعا يبنى فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج ، وقيل : إنه وجد فى بعض الكتب ما يدل على خروج أبى يزيد مخلد بن كيداد على دولته(١)، ووفق المهدى إلىموضع المهدية وهى متصلة بالبحر كهيئة كف متصلة بزند ، فتأملها فوجد فيها راهبا فى مغارة ، فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال : هذا يسمىجزيرة الخلفاء ، فأعجبه هذا الاسم ، فبناها ، وجعلها دار مملكته(٢).

تقع المهدية على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان . وقد ذكر البكرى(٣) أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربى . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدى لهذه المدينة بابين منالحديد لا خشب فيهما . زنة كل باب منهما ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبرا ، ووزن كل مسمار من المسامير التى استعملت فى تركيبه ستة أرطال . ونقش على هذين البابين صور لبعض الحيوانات ، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجرى فيها من القنوات . ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماوسوقا نافقة للسلع التى تحملها السفن من الإسكندرية ، ومن الشام وصقلية والأندلس وغيرها(٤) . ومرسى المهدية منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا ، وعلىطرفى المرسى برجان بينهما سلسلة منحديد ؛ فاذا أريد إدخال سفينة فيه ، أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٣

(٢) انظر لفظ ،، المهدية ،، فى معجم البلدان . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٥٩٨ — ٥٩٩

(٣) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه .

السفينة ، ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم[١]» . وقد بنى المهدى بمدينة المهدية دارا للصناعة تسع أكثر من مائتى مركب ، وفيها قبوان كبيران مستطيلان ، لئلا تتأثر آلات المراكب وعددها بأشعة الشمس أو ماء المطر[٢] .

ولما فرغ المهدى من بناء حاضرته الجديدة فى سنة ٣٠٥ هـ قال : «اليوم أمنت على الفاطميات» ، يعنى بناته ، ثم انتقل إليها فى شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب أرباب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقا خاصة بها ، فنقلوا إليها أموالهم . وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصر المهدى ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحمى ، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قفصة[٣] .

أمر المهدى ببناء مدينة أخرى بجوار المهدية ، وجعل بين المدينتين ميدانا فسيحا ، وأحاطها بسور ، وأبواب وحراس ، وسماها زَويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب الدكاكين بحرمهم وأهاليهم وقال : «إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ، وذلك أن أموالهم عندى وأهاليهم هناك . فإن أرادونى بكيد ، وهم بزويلة ، كانت أموالهم عندى ، فلا يمكنهم ذلك ؛ وإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك . وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا ، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا ، وبين حرمهم نهارا[٤]» . ويظهر أن المهدى حذا فى ذلك العمل حذو أبى جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته جنوبا إلى الكرخ[٥] .

وقد قال شعراء إفريقية فى المهدية وانتقال عبيد الله إليها :

حططت الرحل فى بلد كريم ‏ ‏ رعته له الملائكة الكرام

---

(١) البكرى : المغرب ص ٨٤ — ٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠—٣١ . انظر حسن إبرهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٥٩٨ .

(٤) البكرى ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ — ٣٢ ، ٨٤

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٥٩٨ — ٥٩٩

لقد عظُمت بأرض الغرب دار ... بها الصلوات تُقبل والصيام
هى المهدية الحرم الموقّى ... كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقامَ إبراهيم فيه ... ترى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى ... لنا بعراص قصركم التثام
لئن شاب الزمان وشاب ملك ... دعائمه إذا عجمت حطام[1]
لمُلْكُك أيها المهدى مُلك ... غلام والزمان به غلام
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم ... فكلكم لها أبدا إمام[2].

وقد اختلف المؤرخون فى السنة التى وضع فيها المهدى أساس مدينة المهدية ، فيرى ابن عذارى[3] أن ذلك كان فى سنة ٣٠٠ ﻫ ، ويرى ابن خلدون[4] أنه كان فى نهاية سنة ٣٠٢ ﻫ ، ويوافقه المقريزى[5] على ذلك . ويظهر أن ما قاله ابن عذارى أقرب إلى الصواب ، لأنه انتهى من بنائها فى سنة ٣٠٥ ﻫ ، أى أنه بناها فى عامين أو أقل . وهذه المدة لا تكفى - فى الغالب - لبناء مدينة عظيمة كتلك المدينة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن بناء المهدية فى سنة ٣٠٠ ﻫ يكاد يتفق مع ما قاله المؤرخون من أن المهدى بناها خوفا من جماعة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس ، فاذا فرضنا صحة هذا الرأى . فما الأسباب التى جعلت عبيد الله المهدى يؤجل هذا البناء من أواخر سنة ٢٩٨ ﻫ إلى أواخر سنة ٣٠٣ ؟ وهذا يجعلنا نؤمن بصحة ماذهب إليه ابن عذارى ، وخصوصا أن البكرى وغيره[6] من المؤرخين قد اتفقوا مع ابن عذارى على أن أساس المهدية قد وضع فى سنة ٣٠٠ ﻫ .

وهناك ملاحظة أخرى تتلخص فى أن كثيرا من مؤرخى الإسماعيلية يعدون

---

(١) يشير بذلك إلى هزم الدولة العباسية .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ١٧٠

(٤) العبر ج ٤ ص ٣٨

(٥) اتعاظ الحنفا ص ٤٢

(٦) انظر معجم البلدان – لفظ : مهدية .

مدينة المهدية دارا من دور هجرة هذه الطائفة . ولا غرو فان هذه المدينة تضم إمامين: إماما مستودعا ، هو عبيد الله المهدى ، وإماما مستقرا ، هو أبو القاسم (القائم) . لذلك يقول الداعى إدريس عماد الدين ، إن المهدى انتقل بعد بنائها ، وجعلها دار هجرة الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين . ويكفى المهدية فخرا أنها استطاعت أن تصد جحافل أبى يزيد مخلد بن كيداد ، وأنها حققت نبوءة المهدى حين قال بعد أن فرغ من بنائها : « الآن أمنت على الفاطميات » .

والفرق بين المهدية وغيرها من دور هجرة الإسماعيلية ، أن هذه المدينة لم تقتصر على الإسماعيلية وحدهم ، على حين نجد دار الهجرة عند القرامطة والحواشب مثلا لا تضم أحدا من غير الإسماعيلية . كما أن تسميتها « المهدية » لم يقصد بها الانتساب إلى عبيد الله المهدى وحده ، بل إنها مدينة الأئمة المهديين من الخلفاء الفاطميين ، لأن كلا من هؤلاء الخلفاء إمام مهدى عند الإسماعيلية . وقد رأيناهم يضعون الأحاديث على أن المهدى سيليه اثنا عشر إماما مهديا من الأئمة الخلفاء الفاطميين .

وهكذا ظلت المهدية كعبة الإسماعيلية التى يحجون إليها ، ما كان بها الإمام الإسماعيلى . فلما هجرها هؤلاء إلى غيرها ، لم تعد لها تلك المكانة الروحية فى نفوس الأتباع ، وحلت محلها المنصورية التى بناها المنصور إسماعيل بن القائم ، حتى هجرها المعز إلى مصر ، فحلت القاهرة فى الزعامة الروحية خاصة محل هاتين المدينتين : المهدية والمنصورية .

ولم تكن مدينة المهدية وحدها هى التى أنشئت فى عهد عبيدالله المهدى ، بل لقد بنيت فى عهده مدينة «المحمدية» ، وهى مدينة « المسيلة » التى تقع إلى الجنوب الغربى من رقادة وإلى الشمال من قسنطينة . وقد أنشأها أبوالقاسم لإقامة « خط دفاع » عن المهدية يقف فى وجه القبائل المعادية خاصة . ويدلنا بنـــاء هذه المدينة على اتجاه الفاطميين فى الاستقرار بالمهدية ، كما يدل على خوفهم من ثورات القبائل المعادية من المغاربة .

كانت السنة التى بدىء فيها ببناء مدينة « المحمدية » مليئة بالثورات الكثيرة ، كما كانت حافلة فى الوقت نفسه بالانتصارات الرائعة ، التى أحرزها أبو القاسم ولى العهد . ولا بد أنه أدرك خطر الثائرين فى الجنوب ، وأنه يستطيع الوقوف

فى وجههم ، بتكوين مدينة تستطيع حماية المهدية ، وتصد غارات الأعداء عليها من ناحية الجنوب . لذلك نرى أبا القاسم يؤسس هذه المدينة . ويملؤها بالمخلصين له ولمذهبه ودولته ، ويطرد منها من يشك فى إخلاصه ، ويشحنها بالأمداد والميرة . ولهذا كانت هذه المدينة عونا للمهدى وللقائم والمنصور من بعده فى الدفاع عن المهدية ، ثم فى الوقوف بعد عهد المهدى فى وجه أبى يزيد مخلد بن كيداد . يقول ابن خلدون[١] عند كلامه على حوادث سنة ٣١٥ ﻫ إن أبا القاسم « أمر بمكان بلد المسيلة ، وفيها بنو كملان من هوارة . وكان يتوقع منهم الفتنة ، فنقلهم إلى فج القيروان ، وقضى الله أن يكون هؤلاء أولياء لصاحب الحمار[٢] عند خروجه . ولما نقلهم أمر ببناء المسيلة فى بلدهم ، وسماها « المحمدية » ، ودفع على بن حمدون الأندلسى من صنائع دولتهم إلى بنائها . وعقد له عليها وعلى الزاب[٣] بعد اختطاطها . فبناها وحصنها ، وشحنها بالأقوات . فكانت مددا للمنصور فى حصار صاحب الحمار » . وقد أوضح المقريزى سبب قتل القائم بنى هوارة بقوله : « لذلك أحب أن يكونوا قريبا منه ، وهم كانوا أصحاب أبى يزيد الخارجى[٤] » . ثم بين المقريزى[٥] أهمية هذه المدينة للدولة الإسماعيلية حين دهمها خطر الخوارج فيقول : إن المنصور كان يمتار ما يريد من المحمدية « إذ ليس بالموضع مدينة سواها » . وهكذا دل بناء المهدية والمحمدية على حسن سياسة الفاطميين وفطنتهم .

---

(١) العبر ج ٤ ص ٣٩

(٢) يقصد بصاحب الحمار أبا يزيد مخلد بن كيداد ، لأنه كان يركب على حمار .

(٣) نهر الزاب الأكبر الذى هزم فيه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق سنة ١٣٢ ﻫ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤٤

(٥) المصدر نفسه

الباب الرابع

عبيد الله المهدى وإمامة الاسماعيلية

تغير مركز رياسة الدعوة الإسماعيلية بعد قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ ﻫ ؛ فبعد أن كانت رياسة الدعوة فى سلمية تعنى بتوجيه الدعوة وحدها ، أصبحت تعمل على الاهتمام بشئون الدعوة وتلبية مطالب الدولة . كان عليها أن تستمر فى زعامتها القديمة على رجال الدعوة الإسماعيلية فى جميع بقاع العالم الإسلامى ، وأن توجههم توجها جديدا يرمى إلى استخدام الدعوة لصالح الدولة ؛ وذلك بالعمل على إحاطتها وإحاطة خليفتها بهالة من التقديس ، ومساعدة الدولة فى تحقيق آمالها السياسية لتستطيع الوقوف في وجه العباسيين . وفى سبيل ذلك نرى زعيم الدولة الفاطمية الأول « عبيد الله المهدى » ، يشعر أتباعه بسلطته المطلقة عليهم ، ويملى سلطانه على جميع أتباعه ، فيتدخل فى تعيين رؤسائهم وعزلهم . وكان لذلك أثر كبير فى سياسة الدعوة فى عهد عبيد الله خليفة وإماما . فقد كان معروفا لدى كبار دعاة الإسماعيلية ، أنه إذا مات واحد منهم تبعه ابنه دون تدخل من ناحية رياسة الدعوة بسلمية . أما بعد قيام الدولة الفاطمية فلم يعد هذا التعيين من حق الدعاة ، بل غدا ذلك من حقه هو ، لأن سلطته الدينية والزمنية تخوله ذلك . وقد أدخل عبيد الله المهدى هذا النظام الجديد ، فجر على نفسه ثم على خلفائه من بعده شيئا غير قليل من المتاعب ؛ ولم تكن ثورة الحسن الأعصم القرمطى على المعز والعزيز إلا نتيجة لهذه السياسة التى ابتدعها المهدى . وهكذا كانت زعامة عبيد الله الدينية تدفعه إلى توجيه الدعوة التوجيه الذى يبتغيه ، فنجح أحيانا وأخفق أحيانا أخرى ، كما يتضح ذلك من موقف عبيد الله المهدى من القرامطة بالبحرين ومن الحواشب باليمن . أضف إلى ذلك أن المهدى قد أدرك بثاقب نظره خطر الاصطدام برعاياه السنيين وغيرهم ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلى ؛ إذ أن الفاطميين كانوا أقلية إسماعيلية تحكم أكثرية من غير الإسماعيلية ؛ ومن ثم اضطر المهدى إلى أن يوجه الدعوة توجيها يتفق مع هذا الوضع الجديد .

١ — عبيد الله الخليفة والقرامطة

انفلّ قرامطة الشمال . كما انفلّ السواد الأعظم من قرامطة السواد فى دور الستر الذى سبق قيام الدولة الفاطمية ؛ ولكن هؤلاء القرامطة بعثوا من جديد على يد أبى سعيد الجنابى فى إقليم القطيف — جنوبى البصرة — ثم فى إقليم البحرين . وسنتبين من بحث العلاقة بين هذه الدويلة القرمطية المتحمسة وبين الدولة الفاطمية فى عهد عبيد الله تطورا كبيرا ؛ فبعد أن كان الجنابية برياسة أبى سعيد يخضعون فى دور الستر لرياسة الدعوة ، فتر هذا الخضوع قليلا ، وعز على زعماء الجنابية أن يسلبوا بعض نفوذهم بسبب ظهور الإمام المستور فى شخص أبى محمد عبيد الله المهدى ؛ ولذلك لم يعد أبو سعيد الجنابى يتحمس للخلافة الفاطمية تحمسه للامامة المستورة . وقد عرف عبيد الله فيه ذلك ، فعمل على التخلص منه ، كما عمل فى الوقت نفسه على عدم إقرار الوراثة بين القرامطة بالصورة التى يريدها زعماؤهم . ومن ثم تألف من أبناء أبى سعيد ومن القرامطة فريقان : فريق يعمل على التقرب إلى الفاطميين ، وفريق يعمل على الانحراف عنهم . واستمرت السيادة الفاطمية قوية بين القرامطة فى عهد عبيد الله المهدى بسبب تفوق الفريق الممالىء للفاطميين ؛ فلما صار الأمر للفريق الآخر بعد عهد عبيد الله ، ساءت العلاقة بين الفاطميين والقرامطة حينا من الدهر .

(ا) موقف عبيد الله الفاطمى من أبى سعيد الجنابى :

نجح أبو سعيد الجنابى فى تكوين دولة أو ما يشبه الدولة فى بلاد البحرين . ويبدو أنه كان ينتصر لرياسة الدعوة فى سلمية ويقف فى وجه حمدان قرمط ؛ ولكنه منذ اليوم الذى شعر فيه بالقوة بدأ يعمل مستقلا أو شبه مستقل ، وكان ذلك يتعارض طبعا مع سياسة الفاطميين وزعامتهم . ولا يبعد أن أبا سعيد لم يكن راضيا عن زعامة عبيد الله المهدى ، مؤسس الدولة الفاطمية ، لجماعة الإسماعيلية ، وأنه لم يكن متحمسا لقيام دولته فى المغرب . وكانت سياسة قرامطة البحرين فى عهد أبى سعيد تقوم على الصراحة المطلقة فى نشر آراء المذهب الإسماعيلى ؛ لأن المجتمع القرمطى

كان مجتمعا إسماعيليا بحتا ، ولم يكن بين القرامطة من يدين بغير المذهب الإسماعيلى ، على عكس الفاطميين الذين كانت سياستهم تقوم على أساس إخفاء أصول المذهب الإسماعيلى عن رعاياهم الذين كانوا يختلفون عنهم فى المذهب ، كما كانت الحال فى بلاد المغرب ثم فى مصر . وإذن لابد أن يكون لهذا الاختلاف أثره فى علاقة أبى سعيد بالخلافة الفاطمية .

لذلك نرى أبا سعيد يعمل على موادعة الخلفاء العباسيين ، فى الوقت الذى كان يجب أن يشن الحروب الشعواء على العباسيين ، ليشغلهم عن الإسماعيلية فى الأقاليم الأخرى . فقد رأيناه يترك زميله زكرويه بن مهرويه . زعيم قرامطة الشمال ، يلقى حتفه على يد العباسيين في سنة ٢٩٤ ه ؛ ولو قام بمساعدته لتغيرت حال القرامطة . ويبدو أن أبا سعيد كان يسير على هذه السياسة التى كانت تمليها عليه مصلحته الخاصة ، ولا سيما بعد قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ؛ ومن ثم أثارت هذه السياسة النفعية سخط عبيد الله المهدى(١).

وقد عملت السياسة العباسية بزعامة الخليفة المقتدر (٢٩٥—٣٢٠ ه) ووزيره على بن عيسى الذى عرف ببراعته السياسية ، على جذب أبى سعيد . ولا غرو فقد استطاعا بفضل تقربهما إلى أبى سعيد الجنابى ، أن يساهما إلى حد كبير فى إخفاق حملة الفاطميين الأولى على مصر (٣٠١—٣٠٢ ه) ؛ لأن الوزير على بن عيسى أدرك الخطر الذى يهدد الخلافة العباسية إذا تم الاتحاد بين أبى سعيد الجنابى وزعيمه الأول عبيد الله المهدى الفاطمى ، ودوّخا بلاد الدولة العباسية ، كما أدرك الفتور الذى كان سائدا بين أبى سعيد والفاطميين ، فحاول التقرب إلى أبى سعيد .

وإذا علمنا أن عبيدالله لم يقنع ببلادالمغرب القليلة الخصب ، وأنه عزم على انتزاع مصر من العباسيين ليتخذها درة فى جبين الدولة الفاطمية ، وأنه التمس مساعدة أبى سعيد الجنابى ، بشن غارة حربية على العراق ، فى الوقت الذى غزت فيه جيوشه المغربية البلاد المصرية لأول مرة (٣٠٠—٣٠١ ه) ، وأن أبا سعيد قام بحملة لم تحقق الغرض الذى أرسلت من أجله ، وأرغمت جيوش الفاطميين على التقهقر إلى بلادالمغرب - إذا علمنا هذا استطعنا أن ندرك أن هذه المساعدة اليسيرة لم تصادف هوى من نفس عبيد الله المهدى .

---

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ص ٣ - ٤ .

ويرى دى غويه [١] أن حملات الفاطميين على مصر فى ذلك الوقت كانت تتفق دائما مع حركات قرامطة البحرين ، لأنها كانت تصدر كلها عن أوامر الخليفة الفاطمى ، وأنه يمكن القول بأن حملة أبى سعيد فى سنة ٣٠٠ ﻫ كانت بإذن عبيد الله المهدى ، ولكنها لم تكن من الجد فى شىء ، حتى لقد شك عبيد الله فى إخلاص تابعه أبى سعيد ، وعمل على قتله[٢]. ويظهر أن أبا سعيد أرسل هؤلاء الجند القليلى العدد تغريرا بعبيد الله ، وأنه لم يكن فى عمـــله هذا ما يثير عليه حكومة بغداد التى ضاعفت جهدها فى التحالف معه . ومن ثم حنق عبيد الله المهدى على أبى سعيد ، بل إننا لا نغلو إذا قلنا ، إن حكومة بغداد لم ترغب فى التحالف مع أبى سعيد إلا بعد أن أدركت الفتور الذى ساد بينه وبين الفاطميين[٣].

ويذكر ابن حوقل[٤] الذى عرف بميوله للفاطميين ، أن أبا سعيد خلع طاعة رئيسه عبيد الله قبيل وفاته ؛ ويقول عن أبى سعيد وحمدان : « وكان حمدان قرمط إذ ذاك فى دعوة السلطان [٥] حذاء أمير المؤمنين المهدى بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفا ذلك . وجرت خبوط وتخاليط كثيرة فى بعض الروايات ، وذبح أبو سعيد فى حمام قد اتخذها فى قصره مع جماعة من وجوه رجاله بالأحساء » . وإذا صح ذلك دل على أن علاقة أبى سعيد بعبيد الله الخليفة لم تكن على شىء من الصفاء . وقد رأينا كيف أن ابن الفضل داعى الإسماعيلية الثائر باليمن كان يقول لزميله ابن حوشب ، إنه فى ثورته هذه إنما كان يحتذى أبا سعيد الجنابى فى محاولته الاستقلال عن الدولة الفاطمية .

وكان مقتل أبى سعيد فى الأحساء سنة ٣٠١ ﻫ ، على يد أحد عبيده ، الذى يدّعى المؤرخون أنه لم يعجبه سلوك أبى سعيد ، فقتـــله هو وجماعة من كبار

(١) Mémoire sur les Carmathes du Bahrain, vol. II. p. 69.

(٢) يصف المصورى تلك الحملة (زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٥ ص ٦٩) بقوله : « جاء نفر من القرامطة من أصحاب أبى سعيد إلى البصرة ، وكان عليها محمد بن إسحاق بن كنداجيق ... وكاتب الوزير يعرفه بوصول القرامطة ويستمده . فلما أصبح ولم ير للقرامطة أثرا ندم على ما فعل » .

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢١٠

(٤) المسالك والممالك ص ٢١٠ — ٢١١

(٥) يقصد بذلك الخلافة العباسية .

رجاله . وليس هناك ما يمنعنا من الذهاب إلى أن عبيد الله لما رأى خروج أبى سعيد على سياسته ، أو أنه لما شك فى إخلاصه ، اتفق مع خادمه هذا على قتله . ومما يزيد هذه المسألة وضوحا أن هذا الخادم كان بعد قتل أبى سعيد يتخير من يريد من رؤساء القرامطة ؛ فلا يبعد أن يكون هؤلاء الذين تخيرهم هذا الخادم من أنصار عدم التعاون مع الفاطميين . وبعبارة أخرى ، لا يبعد أن يكون عبيد الله أراد بذلك التشفى والانتقام من معارضيه فى حكومة القرامطة بالبحرين [١] . والخلاصة أن فتورا حدث بين القرامطة وبين عبيد الله المهدى ، وأن نتائج ذلك الفتور تركزت فى قتل أبى سعيد ونفر من حاشيته فى سنة ٣٠١ هـ ، « وذلك فى قلعة الأحساء بأمر من عبيد الله » [٢] ، على ما ذهب إليه شيفر Schefer ؛ كما لا يبعد أن يكون أبو سعيد قد ضمن جماعة كرهوا أن يكون الخليفة عبيد الله مهديهم المنتظر . ولا غرو ، فإن الدعاة الجريئين يستطيعون تحقيق آمالهم فى ظل إمام مستور لا إمام ظاهر [٣] ، حتى لقد ذهب دى ساسى إلى القول بأن ادعاء عبيد الله الإمامة قد أدى إلى انفصال الفاطميين عن كثير من الإسماعيلية الآخرين ، الذين لم يوافقوا مطلقا على ظهور الإمام المنتظر فى شخص الخليفة الفاطمى الأول [٤] .

(ب) موقف عبيد الله المهدى من خلفاء أبى سعيد

١ — عبيد الله وسعيد بن أبى سعيد (٣٠١ — ٣٠٥ هـ)

لم يقض موت أبى سعيد على ذلك الفتور الذى كان بين القرامطة وعبيد الله ، وذلك لسببين :

الأول : أن سعيدا الذى خلف أباسعيد لم يأته التعيين من قبل الفاطميين . ولما كان عبيد الله المهدى قد وضع أساس سياسة الزعامة المطلقة على جميع الإسماعيلية ،

---

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢١٠

(٢) كتاب سفر نامه ج ٢ ص ٢٢٦

(٣) الدكتور طه شرف تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢١٠

(٤) De Sacy : Recherches sur l'Initiation à la Secte Ismàeleene (J.A. 1824), p. 303.

فإنه لم يستطع ابتلاع تلك الغصة ، بل ظل يعمل على زحزحة سعيد عن عرش القرامطة ، واتخذ من ذلك وسيلة لإقرار فكرة تعيين زعماء القرامطة عن طريق الفاطميين . فإن المعروف أن أبا سعيد كان قد ولى ابنه سعيدا عهده من بعده . ولو أن عبيدالله المهدى أقر بيعة سعيد لساعد ذلك القرامطة على الاستبداد بالأمور دون الفاطميين ، وهو ما لا يرضاه عبيد الله المهدى الذى عرف بميوله إلى الزعامة والرياسة .

الثانى : أن سعيد بن أبى سعيد سار على سياسة أبيه فى التقرب إلى العباسيين ؛ وليس أدل على صحة هذا القول من ذلك الكتاب الذى بعث به سعيد إلى على بن عيسى وزير المقتدر العباسى يعلن فيه ولاءه للعباسيين ، كما يعلن أنه يدين بالعقائد السنية ، واعتذر عما بدر من القرامطة من أمور ، على ما نراه مفصلا فى هذا الكتاب الذى ننقله عن الذهبى (١) ، وقد جاء فيه : « سلام على الوزير (٢) ؛ فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على سيدنا محمد . فأما ما ذكره عنا من انفرادنا عن الجماعة ، فنحن — أيدك الله ! لم ننفرد عن الطاعة والجماعة ، بل أفردنا عنها وأخرجنا من ديارنا ، واستحل دماؤنا . . . نحن نشرح للوزير حالنا : كان قديم أمرنا أنا كنا مستورين مقبلين على تجارتنا ومعاشنا ، ننزه أنفسنا عن المعاصى ، ونحافظ على الفرائض ؛ فنقم علينا سفهاء الناس وفجارهم ، ممن لا يعرف بدين ، وأكثروا التشنيع علينا ، حتى جمع الناس علينا ، وتظاهروا ، وشهدوا علينا بالزور ، أن نساءنا بيننا بالسوية ، وأنا لا نحرم حراما ، ولا نحل حلالا ؛ فخرجنا هاربين ، ومن بقى منا جعلوا فى رقابهم الحبال والسلاسل . . . فألجئونا إلى جزيرة ، فأرسلنا إليهم فى طلب أموالنا وحريمنا ، فمنعوها ، وعزموا على حربنا ، فحاكمناهم إلى السيف ، قال تعالى : (ومن بغى عليه لينصرنه الله) فنصرنا الله عليهم . وأما ما ادعى علينا من الكفر وترك الصلاة ، فنحن تائبون مؤمنون بالله » .

بذلك نجح العباسيون فى جذب القرامطة إليهم ؛ فلما ضمنوا ولاء سعيد لهم ، وأدركوا ما كان بينه وبين الفاطميين من نفور ، أرسلوا إلى عبيد الله المهدى ، عن طريق « تكين » والى مصر من قبلهم ، يتهددونه . كما تبادل الوزير على بن عيسى الكتب هو والقرامطة ، «وهاداهم ، وأطلق عليهم ليتألفهم ، فنفع ذلك » . ولا شك

(١) تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ورقة ٤ — ٥

(٢) يقصد به على بن عيسى

أن ذلك قد حز فى نفس عبيدالله، وآلمه أن ينتقض عليه أتباعه الذين كان يعتمد عليهم فى فتح مصر : وها هو ذا والى مصر العباسى يتهدده ، وهؤلاء العباسيون يحتضنون سعيدا ، وكأنه تناسى مذهبه وواجبه نحو رئيسه . وليس من شك فى أن القرامطة كافة لم يسيروا على تلك السياسة النفعية ، التى دفعهم إليها سعيد ؛ فقد عز على كثير منهم أن تفتر العلاقة بينهم وبين « صاحب الزمان » و « إمام الوقت » الذى طالما كانوا يؤملون ظهوره . ليحملوا علم دعوته ودولته . عز على هؤلاء القرامطة الذين كانوا يميلون إلى الفاطميين ، أن تسوء العلاقة بينهم وبين الفاطميين ، فتمنوا الخلاص من سعيد . وهكذا نجد القرامطة معسكرين : معسكرا يناصر الفاطميين ، كما أسلفنا ، ومعسكرا آخر — وكانوا قلة — يرون رأى سعيد ، وهم جماعة من النفعيين الذين أملت عليهم السياسة أن يعيشوا مستقلين عن الفاطميين والعباسيين ، مع تناسيهم ما كان بينهم وبين الفاطميين من اتصال فى المذهب ، واتحاد فى الآمال ، فلم يناوئوا العباسيين العداء ، كما كان يرغب الإسماعيلى المخلص لمذهبه وعقيدته الإسماعيلية .

ويظهر أن الفريق الذى ظل على ولائه للفاطميين كان — كما تقدم — قوة لا يستهان بها ، فعملوا على قلب عرش سعيد ، وتحويله إلى أمير جنابى آخر من أبناء أبى سعيد ، يعترف بالزعامة للفاطميين ، ويقره هؤلاء فى التعيين . وقد وجدوا ذلك الشخص فى سليمان أبى طاهر بن أبى سعيد ؛ وسرعان ما جاءه التقليد أو التثبيت من « المهدية » . وفى هذا الدليل الواضح على مبلغ تدخل عبيد الله فى إحداث ذلك الانقلاب فى حكم القرامطة[١] . ولم يكن الأمر كما ذكر بعض المؤرخين ، وهو أن أبا سعيد عهد إلى ابنه سعيد من بعده ، حتى يبلغ أخوه سن الرشد . وفى ذلك يقول النويرى[٢] : « وخلف أبو سعيد من الأولاد أبا القاسم سعيدا ، وأبا طاهر سليمان ، وأبا منصور أحمد ، وأبا العباس إبراهيم ، وأبا العباس محمد ، وأبا يعقوب . وكان أبو سعيد قد جمع رؤساء دولته وبنى زرقان — وكان أحدهم زوج ابنته — وبنى سنبر ، وكان متزوجا إليهم ، وهم أخوال أولاده ، وبهم قامت دولته ، وقوى أمره ، فأوصى إليهم ، إن حدث أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر .

---

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢١٢

(٢) نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٤ — ٧٥

وكان سعيد أكبر من أبى طاهر سنا ، فإذا كبر أبو طاهر كان المدبر لهم . ولما قتل جرى الأمر على ما وصاهم به ، وكان قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبى طاهر : فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلثمائة . ثم سلم الأمر لأخيه أبى طاهر ، فعمل أشياء موّه بها على أصحابه ، فقبلوها وعظموا أمره » .

(ح) موقف عبيد الله المهدى من أبى طاهر الجنابى (٣٠٥ — ٣٢٢ ﻫ)

تولى أبو طاهر الجنابى القرمطى عرش القرامطة بعد ثورة دامية أشعلها أبو طاهر بمساعدة أنصار عبيد الله المهدى من القرامطة فى سنة ٣٠٥ ﻫ . وقد وافق المهدى على تلك الحركة وباركها ، إن لم يكن هو المدبر لها . ولا غرو فإن عبيد الله حقق غرضه المنشود من هذه الحركة ، وأثبت للقرامطة عدم رضاه عن تعيين سعيد ، أو بعبارة أخرى ، عن نظام الوراثة عند القرامطة ، وبرهن بعمله هذا على أنه يريد ممن يتولى عرش القرامطة أن يكون على هواه ، يأتمر بأوامره ، وينتهى بنواهيه . وكأنه بهذا العمل قد سن الدستور الذى يجب على خلفائه من الفاطميين أن يسلكوه مع أمراء القرامطة ، وسن فى الوقت نفسه لأمراء القرامطة دستورا يبين لهم فيه أن التعيين يجب أن يكون من الفاطميين أولا ، وأنه يجب أن لا يعين فى هذا المنصب إلا من كان على هواهم ، يسير وفق سياستهم ، ويكون طوع أمرهم .

ومما يؤيد تدخل عبيد الله المهدى فى عزل سعيد وإشعال نار الثورة عليه ، وفى تعيين أبى طاهر ، ما ذكره ابن خلدون [١] فى هذه العبارة حيث يقول : « ثار به أخوه الأصغر أبو طاهر [٢] ، فقام بأمرهم ، وبايعه العقْدانية [٣] . وجاءه كتاب عبيد الله المهدى بالولاية » .

وإن تدخل عبيد الله فى أمر تعيين أبى طاهر ، وتدخل العقدانية فى إحداث ذلك الانقلاب ، لينهض دليلا على أن هناك جماعة من القرامطة كانوا يعملون بوحى

(١) العبر ج ٤ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) فى الأصل والطاهر ، والصواب أبو طاهر .

(٣) كبار القرامطة ووجوههم ؛ ويشبهون أعضاء مجلس السناتو عند الرومان

من عبيد الله ؛ ومن ثم استمرت علاقة الفاطميين بالقرامطة منذ سنة ٣٠٥ ﻫ حتى نهاية حكم أبي طاهر سنة ٣٣٢ ﻫ على خير ما تكون . ونعتقد أن أبا طاهر كان على صلات طيبة مع عبيد الله ، كما كان موضع احترامه وتبجيله . أضف إلى ذلك أنه كان - كما يقول دوزى - على اتصال سرى بعبيدالله ، يقرّ له بالزعامة المطلقة ، ويفرد له من دخل جماعة القرامطة الخمس (خمس الإمام) ، ويطيعه ، ولا يعصى له أمرا .

معاضدة أبي طاهر عبيد الله المهدى فى سياسته

كان حتما على أبي طاهر ، لكى يحتفظ بالعرش له ولأبنائه من بعده ، أن يعمل على وفق رغبات عبيد الله المهدى . ولما كانت الدولة الإسماعيلية التى يرأسها عبيدالله تسعى جاهدة لقلب خلافة بغداد حتى بذلت جهودا جبارة فى سبيل الاستيلاء على مصر من العباسيين ، نراها تقوم بحملات ثلاث ، باءت الأولى (٣٠٠ - ٣٠١ ﻫ) بالخيبة ، لأنها لم تجد من القرامطة بزعامة أبي سعيد ما كان يؤمله عبيد الله المهدى . وكان من أثر ذلك أن قام بين البيتين ، فتور لم ينته إلا فى سنة ٣٠٥ ﻫ باعتلاء أبي طاهر عرش القرامطة — على ما رأينا . وقد أحسن عبيد الله المهدى إذ وضع على رأس الدولة القرمطية رجلا مخلصا المذهب والدولة معـــا . ومن ثم عمل أبوطاهر وعبيد الله على تحقيق أمور ثلاثة :

الأول : مساعدة أبي طاهر الفاطميين فى فتح مصر ، إما بالإغارة عليها من الناحية الشرقية ، ليلتقى مع جيوش عبيد الله بها ، أو بإيقاع الارتباك بين صفوف العباسيين ، حتى يعجزوا عن إرسال الجيوش لنجدتها .

الثانى : شغل العباسيين بالهجوم عليهم فى عُقْر دارهم ، أى فى بلاد العراق ، وإتاحة الفرصة لعبيد الله لتنظيم شئون المغرب دون أن يعكر صفوه مكدر .

الثالث : محاولة التقليل من هيبة الخليفة العباسى — كزعيم للمسلمين — بالإغارة على قوافل الحاج ، وعلى مكة نفسها إن اقتضى الأمر .

أما مساعدة أبي طاهر للفاطميين فى محاولة فتح مصر ، فنراها واضحة فى محاولته تحقيق ما عجز أبوه أبو سعيد عن القيام به ؛ ولذلك اتفق القرامطة مع الفاطميين فى سنة ٣٠٧ ﻫ على القيام بهجوم مزدوج على مصر ، بحيث تلتقى جيوش

أبى طاهر الآتية من الشرق بجيوش عبيد الله الآتية من الغرب فى مصر نفسها . وليس من شك فى أن عبيدالله الفاطمى عرض تلك الخطة الجريئة على القرامطة ، أو أنه أمرهم بتنفيذها ، فقبلوها عن طيب خاطر . وقد قامت جيوش أبى طاهر فعلا بمجهودات كبيرة لمحاولة هذه الخطة ، ولكن الدولة العباسية حالت دون ذلك ، فأرسلت الجيوش من بغداد إلى مصر ؛ وأدى ذلك إلى إخفاق أبى طاهر فى الوصول إلى تلك البلاد ، وأخفقت الحملة الفاطمية الثانية فى الاستيلاء عليها . وفى ذلك يقول ابن خلدون(١) : « وفى سنة ست وثلثمائة(٢) وصل أبو القاسم القائم إلى مصر ، واستدعى أبا طاهر القرمطى وانتظره ، فأعجله مؤنس الخادم عن انتظاره ، وسار من قبل المقتدر ، فهزمه ، ورجع إلى المهدية » . وبذلك نرى أنه كانت هناك خطة مرسومة ، وأن أبا طاهر كان يعمل على تنفيذها ، وأن المهدى قد نجح فى هذه السبيل ، على الرغم من أن إخفاق تلك الحملة على مصر ، فى أن يجعل من القرامطة جماعة تخضع لسلطانه ، حتى إنه أصبح آمنا من ناحية هذا الفريق . ولو أن هؤلاء القرامطة اتحدوا هم والعباسيون ، لكانوا خطرا عليه فى المغرب ، كما كانوا فى عهد المعز والعزيز . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن محاولة الفاطميين الثانية لفتح مصر لم تكن آخر المحاولات التى تدل على ارتباط أبى طاهر بعبيد الله المهدى .

وقد برهن أبو طاهر على وفائه للمهدى ، كما يتضح ذلك من حروبه المتعددة مع العباسيين ، وإغاراته على قوافل الحاج للغض من شأن الخليفة العباسى السنى . والذى يهمنا هنا ما كان من مساعدة أبى طاهر القرمطى لزعيمه الخليفة الفاطمى ، بشنه غارة شعواء على العباسيين فى سنة ٣٢١ هـ ، فى الوقت الذى كانت جيوش عبيد الله المهدى تغزو مصر من المغرب . وذلك أنه قد تبين للفاطميين والقرامطة صعوبة تحقيق أمل الفاطميين فى التقاء جيوشهما فى مصر . ولذلك عمل أبو طاهر على أن يقوم بحملة بحرية على جنوب بلاد فارس الغربى ، للاستيلاء على أهم موانىء الخليج الفارسى كجنابة وغيرها . ولا بد أن أبا طاهر كان يرمى من وراء حملته هـــذه إلى تحقيق سياسته القرمطية الفاطمية ، بمحاولة شغل جيوش

---

(١) العبر : ج ٤ ص ٨٩ .

(٢) فى الأصل ست وثمانين .

العباسيين عن جيوش زعيمه عبيد الله التى كانت تغزو مصر فى ذلك الوقت . لذلك استعد لهذه الحملة أتم استعداد ، وأمّر عليها كثيرا من زعماء القرامطة وذوى قرباه. ولا يبعد أن يكون أبو طاهر قد رمى من وراء حملته هذه إلى جعل الخليج الفارسى بحيرة قرمطية ، بعد أن وقعت عمان فى قبضته ، وخضعت بلاد البحرين والقطيف لنفوذه . ولو تم له ذلك لأصبح من القوة بحيث يستطيع أن يصوب ضرباته العنيفة إلى العباسيين .

غير أن تلك الحملة كان مصيرها الإخفاق ، لأن أهالى هذه البلاد كمنوا للقرامطة فى الجبال والوديان وهزموهم هزيمة تامة . ولو قدّر لهذه الحملة النجاح لوقع الارتباك فى صفوف العباسيين وعجزوا عن الدفاع عن مصر ، وأتيح للفاطميين احتلال هذه البلاد فى سنة ٣٢١ هـ . ومهما يكن من شىء فإن إخفاق حملة أبى طاهر هذه ، معناه القضاء على حملة عبيد الله المهدى على مصر [١] . وهكذا قام أبو طاهر بواجبه نحو زعيمه عبيد الله ، ونحو مذهبه الإسماعيلى ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق الغرض الأول الذى كان يسعى إليه الفاطميون وأنصارهم ، وهو القضاء على العباسيين ، وإقامة دولة الفاطميين على أنقاض دولة هؤلاء .

وأما محاولة أبى طاهر الغض من كرامة الخليفة العباسى باعتباره زعيما دينيا ، فإنها تتركز فى الهجوم العنيف على قوافل الحاج فى سنين عدة ؛ حتى إن أهل مكة رحلوا عنها فى سنة ٣١٣هـ خوفا منه ، وامتنع الناس عن الحج أكثر من سنة فى بعض السنين . واستطاع أبو طاهر أن يدهم قوافل كثيرة ، وأن يفتك بها جميعا ، ويعامل من بقى على قيد الحياة معاملة الأسرى ، فيتخذ منهم عبيدا وإماء . وكان يقوم فوق ذلك ببعض الهجمات العنيفة على جنوب العراق ولا سيما مدينة البصرة . وقد نسأل عن العوامل التى دفعت أبا طاهر إلى ذلك : أكان سعيا وراء المال وحده ؟ أم كان تنفيذا لأوامر سادته الفاطميين ؟ أم أن أباسعيد كان مدفوعا بعوامل دينية ؟ أم أنه كان يقصد إيقاع الارتباك فى صفوف العباسيين ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نعزو ذلك إلى حب المال وحده . حقيقة كان أبو طاهر يستولى على أموال ضخمة من الحجاج . وإذا كان قد اغتصب من قائد

(١) أنظر تفصيل هذه الحملة فى النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٣ ورقة ٩٣ .

إحدى هذه القوافل عشرين ألف دينار فى سنة ٣١٢ هـ . فماذا كانت جملة ما أخذ ونهب من الأموال من جميع الحجاج ؟ ولكنه مع ذلك لم يكن يرمى إلى الحصول على المال وحده . بل كان يعتقد فوق ذلك أن الحجيج يقومون بعمل ينطوى على العبث بالدين ، وكان يرى فى حج المسلمين إلى مكة جريمة دينية . وهذا يدلنا على غلوه المذهبى . وشىء آخر يجب الالتفات إليه ، وهو أن الفاطميين – وعلى رأسهم عبيدالله – كانوا يعملون على إضعاف مركز الخليفة العباسى فى نظر العالم الإسلامى ؛ ولذلك لم ير عبيد الله بأسا من الاستعانة سرا بتابعه أبى طاهر فى تحقيق هذه السياسة .

ولكن الخليفة العباسى المقتدر اكتفى بأن أرسل إلى أبى طاهر يوبخه ويتوعده (٣١٣ هـ) . وبذلك نرى مدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، حتى إنها عجزت عن حماية رعاياها وحجاجها بالسيف ، ولجأت إلى التهديد والوعيد بالكتابة لا بالسيف . ومن رسالة أبى طاهر إلى الخليفة المقتدر نتبين ، مدى العلاقات الطيبة بين الفاطميين والقرامطة ، فنرى أبا طاهر يعترف بتبعيته لعبيد الله المهدى ، ويعلن أنه من دعاته ، ويشيد بإمامته ، ويغض من شأن الخليفة العباسى ، ويعتبره فاسقا كافرا ؛ كما يعيب عليه نظام حكمه للمسلمين ، ويتحداه فى شجاعة ظاهرة . وهاك طرفا من هذه الرسالة الممتعة التى ننقلها عن كتاب « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » للحمادى اليمانى[١] : « من أبى طاهر[٢] سليمان بن الحسن الجنابى ، الداعى إلى تقوى الله ، القائم بأمر الله ، الآخذ بثار رسول الله ﷺ ، إلى قائد الأرجاس ، المسمى بولد العباس ... هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، والأسد الغضنفر فى سبيل الظفر ، متقلدا سيف الغضب ، مستغنيا عن نصرة العرب ، لا يأخذه فى الله لومة لائم ... قد اكتنفه العز من حواليه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها[٣] ، وانقشعت طخا الظلمة[٤]

(١) ص ٢٣ – ٢٤

(٢) فى الأصل أبى سعيد ، وهو خطأ ظاهر .

(٣) جمع بائقة : وهى الداهية .

(٤) الطخا : هو السحاب .

ودُجنة(١) الضلال ، وغاضت بحار الجهالة . ليحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

« فأما ما ذكرت من قتل الحجيج ، وإخراب الأمصار ، وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة ، كإيضاح الشمس ، وادعاء طوائف منهم أنهم أبرياء ، ومعاينتى فيهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون(٢) » . وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأى مساجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها سمعت فيها الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ، بأساليب من مشايخ فجرة ، بما أجمعوا عليه من الضلالة ، وابتدعوا من الجهالة . وأما تخويفك لى بالله ، وأمرك إياى بمراقبته ؛ فالعجب من بهتك ، وصلابة حدقتك ! أترى أنى أجهل بالله منك ؟ ... لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين .

« وبعد : فما لك والوعيد ، والإبراق والتهديد ؟ اعتزم على ما أنت عليه عازم ، واقدم على ما أنت عليه قادم . والله من ورائى ظهير ، وهو نعم المولى ونعم النصير . والحمد لله ، وصلى الله على خير بريته وآله وعترته » .

إننا لا نرى فى رد أبى طاهر على الخليفة المقتدر العباسى ، ما يشعرنا بأنه لم يكن على غير الإسلام ، أو أنه كان يسعى لهدمه ، وإنما كان يخرب المساجد ويحرقها ، لأنه كان يعتقد أن الشعائر الإسلامية لم تكن تؤدى بها على وجهها الصحيح . فكأنه كان يتشدد فى الدين . هذا التشدد الذى حمله على الإغارة على مكة ، والعبث بالحاج فى سنة ٣١٧ هـ . ويرتبط بهجوم أبى طاهر على مكة ، وحمله الحجر الأسود إلى هجر أمور ، منها : بحث الدوافع الحقيقية لهذا الحادث التاريخى العجيب ؛ إذ كيف يكون متشددا فى الدين من يهتك حرمة الكعبة ، ويقتل الحجاج فى المسجد الحرام ، ويفتك بالألوف منهم ، لا لذنب نعرفه ؟ بل إنه كان يقول مبررا عمله :

فلو كان هذا البيت لله ربنا	لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية	مجللة لم تبق شرقا ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفا	كتائب لا تبغى سوى ربها ربا

(١) الدجنة : الظلمة .
(٢) سورة المائدة آية ٤٤ .

ولكن رب العرش جل جلاله   ولم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا (١)

فهل كان الدافع الحقيق الذى دفع أبا طاهر إلى ارتكاب هذا ، ما يراه بعض من أن الإسماعيلية كانوا يتنبئون فى ذلك الحين بزوال دولة الإسلام ، وسيادة دولة الإسماعيلية ودينهم ؟ وأن مبعث هجومهم على مكة يرجع إلى تلك النبوءة ؟ وأنه لما لم تتحقق هذه النبوءة عراهم الوهن ، وانتابهم الألم بعد ذلك (٢) ؟ والذى لاشك فيه أن مذهب الإسماعيلية فى جوهره يقوم على بغض كثير من شعائر الإسلام ، حتى إن من أصول عقائد الدرزية — وهم إسماعيلية — أن الحاكم بأمر الله حين يرجع من غيبته سوف يهدم الكعبة ، ويجعل الخلق جميعا يدينون بدينه الذى يسمونه «دين التوحيد» ؛ وكأن الدافع المذهبى هو الذى حدا بأبى طاهر إلى إحداث ما أحدث .

وهل كان أبو طاهر يرمى من وراء ذلك إلى صرف الناس عن الحج إلى مكة ، وتوجيههم للحج إلى بلاده ، ولذلك نقل الحجر الأسود إلى «هجر» (٣) حاضرة بلاده ؟ على أننا لم نجد فى سلوك أبى طاهر ما يؤكد ذلك ، بل نراه يحتفظ بالحجر الأسود ، ويضعه فى مكان خفى . ويظهر أن المؤرخين لما رأوا أبا طاهر يؤسس دار هجرة لأنصاره ، ظنوا أنه بنى مكانا لمنافسة مكة ، مع أن بناء تلك الدور فى البلاد التى انتشر بها المذهب الإسماعيلى من خصائص الدعوة الإسماعيلية . والحق أن الحجر الأسود بقى فى بلاد البحرين سنين كثيرة - على ما يقوله ناصر خسرو - وأن أحدا من المسلمين لم يزره ، أو أن أحدا قد حاول أن يفعل ذلك (٤) .

وكيف نفسر موقف عبيد الله المهدى مما قام به أبو طاهر ؟ إننا نعلم أن هذا التابع لم يكن يتصرف فى أعماله بغير أمر زعيمه عبيد الله ، مما حدا ببعض المؤرخين على الاعتقاد بأن ما فعله أبو طاهر كان بإيحاء من عبيد الله ، وجعل بعضا آخر يعتقد أنه استبد بالأمر دون عبيد الله . ويدلل القائلون بأن عبيد الله لم تكن له

---

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية ص ٢٣

(٢) Carra de Vaux: Les Penseurs de l'Islam, Vol. v. p. 41.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٥٩ .

(٤) سفر نامه : ج ٢ ص ٢٢٩ .

يد فيما اقترفه أبو طاهر بأدلة منها : أنه أرسل إليه «ينكر عليه ذلك ، ويلومه، ويلعنه، ويقيم عليه القيامة . ويقول له : قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت . وإن لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذتَ منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة ، فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة» (١) . ولكننا نشك فى أن أبا طاهر استجاب لأمر عبيد الله المهدى ، ورد الحجر الأسود إلى مكانه بمكة ، كما يقول ابن الأثير . لأن هذا الحجر بقى فى هجر اثنتين وعشرين سنة (٣١٧ — ٣٣٩ هـ) ، أى بعد موت أبى طاهر بسبع سنوات ، وبعد موت المهدى نفسه بسبع عشرة سنة .

ويجمل بنا أن نشير إلى أن الأحوال السياسية قد أرغمت عبيد الله المهدى ، باعتباره رئيسا للدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية ، يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية جميعا ، إلى أن ينهج فى تصرفاته منهجين : منهجا سريا مع أتباعه الإسماعيلية ، يشجعهم على القيام برسوم مذهبهم ، بحيث لا يطلع أحد من رعاياه غير الإسماعيليين على هذه الاتصالات السرية ، ومنهجا علنيا يتصل عن طريقه برعاياه السنيين ، ولا يتقيد فى هذا المنهج الأخير ، بأسرار المذهب الإسماعيلى ، بل كثيرا ما يتبرأ منها أمام هؤلاء الرعايا . فإذا أدركنا ذلك استطعنا أن نقف على حقيقة موقف عبيد الله المهدى فى هذا الأمر بالذات (٢) . وهذا ما حدا بعض المؤرخين على القول بأن عبيد الله أرسل إلى أبى طاهر رسالتين : إحداهما هذه الرسالة التى يبرىء فيها نفسه أمام رعاياه السنيين ، والثانية بعث بها سرا ، ولم يتصل خبرها إلا بخواص أهل مذهبه من المقربين إليه . وكان من أثر تلك الرسالة أن بقى الحجر الأسود فى هجر حتى سنة ٣٣٩ هـ (٣) . ولو كان عبيد الله جادا فى رسالته الأولى لعاد الحجر الاسود إلى مكانه بمكة من فوره ، لأن أباطاهر لم يكن يعصى أمره . وقد تحامل العينى على عبيدالله وعلى الفاطميين فقال : « وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنع ، لأنهم كفار زنادقة ممالئون (وردت فى الأصل ممائلين) للفاطميين ، الذين نبغوا فى هذه السنين

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٧١

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد جـ ١ ورقة ٢٢٧

(٣) العينى : عقد الجمان (مخطوط) جـ ١٨ ورقة ٣٣

ببلاد إفريقية من أرض الغرب ، وأميرهم عبيد الله الملقب بالمهدى[١] . ويرى دى غويه[٢] أن العلاقة بين القرامطة والفاطميين كانت سرية ، وأن رعايا الفاطميين الخاضعين لسلطانهم لم يعرفوا شيئاً عن هذه العلاقة ؛ ولو علموا بها وبما حدث بمكة من أخذ الحجر الأسود ، وقتل الحاج . وأن ذلك كان بأمر الفاطميين ، لما بقى عبيد الله المهدى على العرش سنة واحدة .

وبهذا نرى أن أبا طاهر الجنابى لم يأخذ الحجر الأسود من مكة ليرتزق بسببه ؛ فقد عرض عليه عشرات الألوف من الدنانير كفاء رده إلى مكانه بالكعبة ، فأبى إلا أن ينفذ أوامر عالية حالت دون تلبية هذا النداء . فقد روى أن بجكم المتغلب على الدولة ببغـــداد أيام المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) بذل لهم خمسين ألفاً من الذهب ، على أن يردوه فأبوا ؛ وزعموا أنهم إنما حملوه بأمر من إمامهم عبيد الله ، وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته[٣] . وهذا ما حدا دوزى[٤] على القول بأن أبا طاهر لم يسر إلى مكة ، ولم يسلب الحجر الأسود إلا بأمر عبيد الله صاحب المغرب . ومن ذلك نستطيع أن نقول : إن سياسة عبيد الله المذهبية كانت تناقض فى كثير من الأحيان سياسته الحكومية . ونحن نعتقد صحة ما ذهب إليه هؤلاء العلماء ؛ لأن عبيد الله لو حاول أن يعامل أتباعه الإسماعيلية كما يعامل رعاياه السنيين ، لامحى المذهب الإسماعيلى وزالت معالمه .

وإذن هل حقق عبيدالله المهدى سياسته التى كانت ترمى إلى الانتقاص من هيبة الخليفة العباسى ؟ لا شك أن عبيد الله استطاع بما فعله أحد أتباعه وهو أبو طاهر ، أن يظهر العباسيين بمظهر العاجز عن حماية رعاياه السنيين ، ولكنه فى الوقت نفسه جلب على أنصار المذهب الإسماعيلى (القرامطة) مقت العالم الإسلامى كله ؛ فقد رأينا كيف اتهمه المؤرخون القدماء والمحدثون ، وفيهم الموالون للفاطميين كابن خلدون مثلا ، وعدّ بعض رسالة عبيد الله لأبى طاهر الجنابى خديعة ومكراً .

---

(١) العينى : عقد الجمان (مخطوط) جـ ١٨ ورقة ٣٣ .

(٢) Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii. p. 224.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٨٩ .

(٤) Essai sur l'Histoire de l'Islamisme, p. 279.

وإن دل هـذا الحادث على شيء فإنما يدل على كثير من المهارة السياسية التي برع فيها عبيد الله المهدى ، فقد أظهر نفسه بمظهر البرىء المدافع عن الدين الإسلامى ، ولكن بقاء الحجر الأسود اثنتين وعشرين سنة فى أيدى القرامطة ، الذين كانوا يعتبرون المهدى حلول الله على الأرض ، لا يتفق مع رسالته التى أرسلها إلى القرامطة ، يتهمهم فيها بالخروج على الدين ، كما لا يعقل أن يتهمه القرامطة كذبا بأنه أمرهم بحمل الحجر الأسود إلى بلادهم . وإذن قولهم : « أخـذناه بأمر من إمامنا عبيد الله » لا يتنافى مع منعهم هذا الحجر بعد أن بعث المهدى فى طلبه منهم، كما أن قولهم : « وإنما نرده بأمره أو بأمر خليفته »، يتفق تماما مع ما ذهب إليه بعض العلماء من أن المنصور بن القائم الفاطمى هو الذى أمرهم برده ، ولم يردوه بوحى من ضمائرهم .

محاولة أبى طاهر الجنابى فتح العراق :

كان هجوم أبى طاهر القرمطى على بلاد العراق فى سنتى ٣١٥ هـ ، ٣١٦ هـ ، مؤامرة حاك شركها زعيمه عبيد الله المهدى ضد الدولة العباسية ، وقد انتهز أبو طاهر حالة الضعف التى وصلت إليها هذه الدولة فى عصر نفوذ الأتراك ، فضاعف هجومه على مدن العراق ، لكى يشغل العباسيين عن سادته الفاطميين ، فيصبحوا آمنين فى بـلاد المغرب . ومن ثم أسس فى بلاد الأحساء مدينة حصينة أسماها «المؤمنية» ، لتقف فى وجه العباسيين ، وأتم فتح بلاد عمان ، فأصبح ساحل الخليج الغربى إسماعيليا بحتا . وإنما فعل ذلك ليحمى جناح جيشه الجنوبى إذا ما وجه حملاته إلى بلاد العراق . وقد أصاب أبو طاهر فيما فعل ؛ فإن الخليفة المقتدر ولى بلاد القطيف والبحرين واليا جديدا ، يقف فى وجه مطامع أبى طاهر القرمطى . ومهما يكن من شيء فقد استطاع أبو طاهر أن ينشر الذعر والهلع فى كافة بلاد العراق ، وكادت تقع بغداد نفسها فى قبضة يده سنة ٣١٥ هـ .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن نبين مدى نفوذ عبيد الله المهدى فى بلاد العراق . ويظهر ذلك واضحا جليا من استقصاء علاقة يوسف بن أبى الساج(١)

(١) كان هذا الأمير يتولى أمور آذربيجان من قبل العباسيين ، فولاه المقتدر إقليم القطيف والبحرين لقتال القرامطة .

بالفاطميين . ذلك أن جماعة من المؤرخين يتهمون هذا القائد العباسى بالاتصال بالفاطميين ، فقالوا إنه كان على دين القرامطة ، بمعنى أنه كان إسماعيليا ، وإنه كان يعمل على تسليم بغداد إلى الفاطميين ، ويقوم بذلك بنفس الدور الذى قام به أبو مسلم الخراسانى مع العباسيين ، وأبو عبد الله الداعى مع الفاطميين . ولكن كاتبه محمد بن خلف النيرمانى باح بهذا السر لنصر الحاجب ، فأذاعه هذا بدوره للخليفة المقتدر . ومما قاله محمد بن خلف ، أن ابن أبى الساج كان يستر مذهبه فى الدين ، وأنه لما سار إلى « واسط » أنس به وانبسط إليه ، فكشف له أنه يتدين بأن لا طاعة عليه للمقتدر ، ولا لبنى العباس على الناس طاعة ، وأن الإمام المنتظر هو العلوى الذى بالقيروان[1] ، وأن أبا طاهر الهجرى صاحب ذلك الإمام ، وأنه قد صح عنده أنه يتدين بدين القرامطة . . . وأنه ليس له نية فى الخروج إلى هجر ، وأنه إنما احتال بالوعد بالخروج إلى هجر حتى يتم له أخذ الأموال ، وأنه قال له فى شهر ربيع الآخر : أى شىء بقى لنا على الخليفة ووزيره من الحجة ، ولم ليس (كذا فى الأصل) تخرج إلى هجر ولا أراك تستعد لذلك ؟ . . . قال له : فلم غررت السلطان بذلك ، ووعدته بهذه الحال حتى سلم إليك جميع أعمال المشرق ؟ فأجابه بأنه يرى انتقاص المقتدر وسائر ولد العباس الغاصبين أهل الحق ، فرضا لله عز وجل ، وأن طاعة طاغية الروم أسلم من طاعة الخليفة . فقال له : فهبك فعلت ذلك ، ما الذى يؤمنك من القرمطى أن يوافى إلى واسط وإلى الكوفة ، فلا تجد بدا من لقائه ومحاربته ؟ فقال فى الجواب : ويحك ! كيف أحارب رجلا هو صاحب الإمام وعدة من عدده ؟ فقال له : فإن أراد هو حربك ، أى شىء تعمل ؟ فقال له : ليس لهذا أصل . وقد ورد عليه كتاب الإمام من القيروان بأن لا يطأ بلدا أكون فيه ، ولا يحاربنى بوجه ولا سبب ، وأنه ختم القول بأن قال : إنى إنما أنتظر أن يقبض رجالى بأسرهم أموال سنة ٣١٤ هـ ، فإذا قووا بذلك منعت أولا من أعمال واسط والكوفة وسقى الفرات ، وأنفذت إليها العمال ، فلا بد للسلطان أن ينكر حينئذ ما أفعل ، فأكاشفه ، وأخطب للإمام ، وأظهر الدعوة ، وأسير إلى بغداد . فإن من بها من الجند قوم يجرون مجرى النساء .

---

(١) هو عبيد الله المهدى .

فقد ألفوا الدور (التسكر) على دجلة والشراب والثلج والخيش والمغنيات[١]، فآخذ أنفسهم وأموالهم ، ولا أدع الهجرى يفوز بالاسم ، وأكون أنا سابق الدولة إلى الإمام ، فإن أبا مسلم — خراز النعال — [٢] لم يكن له أصل . وقد بلغ ما بلغ ولم يكن معه لما ارتفع النصف ممن معى ، وما هو إلا أن أظهر الدعوة حتى قد اجتمع مائة ألف ضارب سيف . ويقول محمد بن خلف : قد صدقت أمير المؤمنين عن هذا الأمر ، فإن ولاني الوزارة انقمع ابن أبي الساج وبطل عليه تدبيره[٣].

نتبين فى تلك الوثيقة مؤامرة هائلة على يد قائد من خيرة قواد العباسيين ، يريد أن يقلب دولة ويقيم أخرى ، فيهدم دولة سنية ويؤسس على أنقاضها دولة شيعية . وإذا صح كل ما جاء فى هذه الوثيقة ، دل على مقدرة عبيد الله السياسية ، تلك المقدرة التى جعلت من ذلك القائد العباسى الذى كان وراءه مائة ألف سيف يخضع له ، ثم هو يتكلم فى ثقة واطمئنان عن عدم اصطدام أبى طاهر الجنابى به . فهل كان حقا ما ذهب إليه هذا القائد ؟ وهل أوحى عبيد الله إلى تابعه أبى طاهر بأن لا يحارب ابن أبى الساج ؟

يؤكد لنا دى غويه أن هجوم أبى طاهر على الكوفة فى ذلك الحين ، لم يكن الغرض منه سوى استطلاع ما فى نفس ابن أبى الساج ، لأنه لو كان هذا القائد على هوى عبيد الله ، لانضم إلى القرامطة وهددوا بغداد جميعا ، وأعادوها فاطمية لحما ودما . وقد يساعد على تصديق ذلك أنه لما أسر أبو طاهر ابن أبى الساج ، أكرمه ليعرف خبايا نفسه ، فلما تأكد أنه على غير ما يرغب قتله . يقول ابن الأثير[٤]: إن الناس يتهمون ابن أبى الساج بأنه « قرمطى يعتقد إمامة العلوى الذى فى إفريقية » ، وإنه نوظر فى ذلك ، فأقره وداعى « أنه لا يسير إلى قتال أبى طاهر القرمطى ، وإنما يأخذ بهذا السبب ويقوى به على قصد حضرة السلطان وإزالة الخلافة عن بنى العباس ». ويرى الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم[٥] أنه على الرغم « من أن ابن أبى الساج لم يقم

---

(١) هذه الأوصاف للدلالة على إمعان جيش الخلافة فى وسائل الترف .

(٢) أى أبو مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية .

(٣) De Goeje; Mémoire, Vol. ii, pp. 216—218.

(٤) الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٧٣

(٥) الفاطميون فى مصر ص ٧٣

فى هذه الحرب بعمل تشتم منه رائحه العصيان للخليفة العباسى . فإن هـــذا الأمر لا يحول دون ما نراه ، وهو أنه كان يميل إلى الدخول فى دعوة المهدى ، ولكن الفرصة لم تحن بعد لأن يقوم بتحقيق هذا العمل .

غير أن هناك ما يمنعنا من تصديق كل ما قيل عن تشيع القائد يوسف بن أبى الساج ، وإن ما عرف عن سلوكه وأخـــلاقه يؤيد ما ذهبنا إليـه . ثم إنه لا يعقل أن يفعل هـذا دون أن يكون جيشـه كله على رأيه . وإذن هل كان جيش ابن أبى الساج يدين بالمذهب الإسماعيلى فيتشيع لمن فى المغرب من الإسماعيلية ؟ وهل كان ابن أبى الساج متشيعا حين ولايته بأذربيجان ، أو بعـد تعيينه على الجيوش العباسية للصراع مع القرامطة ؟ الواقع أن جيشه لم يكن متشيعا ، كما لم يعرف عنه أنه تشيع فى أثناء ولايته بأذربيجان أو بعد ذلك ، الأمر الذى يشككنا فى صدق تلك الرواية ، خصوصا إذا علمنا أن من أوصلها إلى مسامع العباسيين كان يتمنى أن يكون وزيرا . لهذا لا يمكن أن نأخذ بصحة ما ورد عن هـذه المؤامرة الخطرة .

على أن ذلك لا ينفى ارتباط ابن أبى الساج بعبيد الله ، أو عطفه على المذهب الإسماعيلى ودولته على الأقل . وقد رأينا أنه اشترك مع نصر بن أحمد السامانى ومازيار الديلمى فى التقرب إلى الفاطميين ، كما كانت هناك مراسلات بين هؤلاء الأمراء وبين الفاطميين ، على ما ذكره المقريزى فى كتابه « المقفى الكبير »[1] .

ولا يعنينا هنـا أن نتتبع حوادث ذلك الصراع تفصيلا . ولكننا نقول إن أبا طاهر اتجه نحو الكوفة فى سنة ٣١٥ هـ ، وهزم ابن أبى الساج وأسره . وقد قيل إن ابن أبى الساج أرسل إلى أبى طاهر يقول : لك حق قديم ، وأنت فى قلة ، وأنا فى كثرة ، والمصلحة أن تنصرف سالما[2] . ولم يكن هناك ما يحول دون وصول أبى طاهر إلى بغداد وسقوطها فى يده ، لولا ما كان من قطع القنطرة الموصلة إلى هذه المدينة . وقد تخلص أبو طاهر من ابن أبى الساج ، إذ رأى أنه على غير هواه (٣١٥هـ) ، ولم يعتبر أبو طاهر ارتداده عن حاضرة العباسيين هزيمة ، فقد جال فى شمال العراق حتى وصل إلى الرحبة[3] ، وخافه أهل قرقيسيا[4] ، وصالحوه على جزية سنوية

(١) انظر حسن ابرهيم : الفاطميون فى مصر ص ٧٤ .

(٢) العينى : عقد الجمان (مخطوط) جـ ١٨ ورقة ٥٧ .

(٣) قرية بحذاء القادسية على مقربة من الكوفة — أنظر معجم البلدان لياقوت .

(٤) بلد على نهر الخابور ، بقرب رحبة مالك بن طوق ، على ستة فراسخ ، وتقع عند مصب نهر الخابور .

يدفعونها إليه . وبذلك أصبح نفوذ القرامطة عظيما فى شمال العراق ، خصوصا بعد أن قصدوا « الرقة » وحاربوا أهل الرحبة ، وجالوا حتى مدينة سنجار »(١). على أن أبا طاهر لم يكن من سياسته أن يعمل على الاستقرار فى بلاد العراق ، مستعينا فى ذلك بما يسمونه «جيوش احتلال» ؛ ولذلك كان نصيبه الخيبة ، وعاد إلى بلاده فى سنة ٣١٦ هـ .

ولم يشأ أبو طاهر القرمطى أن يقر بأن تقهقره عن العراق كان ينطوى على هزيمته ، بل إنه تنبأ بانهيار الدولة العباسية ، وادعى أنه سيصل بجيشه إلى بلاد المغرب ، ليلتقى بجيوش الدولة الفاطمية هناك ، ويحيل تلك البلاد الشاسعة بلادا إسماعيلية تدين للفاطميين بالطاعة ؛ كما أقر على نفسه بأنه أحد دعاة المهدى . ويتضح من هذه القصيدة التى أنشدها أبو طاهر أنه كان مشتركا مع عبيد الله المهدى الفاطمى فى حركته الحربية :

أغرّكم منى رجوعى إلى هجر ؟	فعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ فى أرض بابل	وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر !
فمن مبلغ أهل العراق رسالة	بأنى أنا الموهوب فى البدو والحضر ؟
سأضرب خيلى نحو مصر وبرقة	إلى قيروان الترك والروم والخزر
أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم	فلا أبقى منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعى إلى المهدى لا شك أننى	أنا الضيغم الضرغام والفارس الذكر (٢)

وقد أسفرت هذه الحركة عن وجود جماعة من الإسماعيلية فى بلاد العراق ، تخلص لعبيدالله وأتباعه القرامطة . ولو استطاع أبو طاهر استغلال هذه الجماعة ، لكوّن منهم جاسوسية منظمة للقضاء على العباسيين ؛ ولكنه لم يفعل . ومما دار بين الوزير العباسى على بن عيسى وبين أحد الإسماعيلية من أهل العراق ، نتبين مبلغ إيمان هؤلاء بإمامة عبيد الله واعتقادهم أنه المهدى المنتظر ، ورميهم العباسيين بأقبح الصفات . يقول ابن الأثير (٣) : « جاء إنسان إلى على بن عيسى ، وأخبره أن فى جيرانه رجلا من

---

(١) سنجار : مدينة بنواحى الموصل ، بينهما ثلاثة أيام .

(٢) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٤ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ٥٨ .

شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار ، فأحضره وسأله ، فاعترف وقال : ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق ، وأنت وصاحبك (أى الوزير والخليفة) كفار تأخذون ما ليس لكم . ولا بد لله من حجة فى أرضه ؛ وإمامنا المهدى فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، المقيم ببلاد المغرب» . ثم أنظر مبلغ ثقتهم بأنفسهم وتفانيهم فى إخلاصهم بعضهم لبعض . ذلك أنه لما قال له الوزير على بن عيسى : «قد خالطت عسكرنا وعرفتهم ؛ فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة ؟ كيف أسلم قوما مؤمنين إلى قوم كافرين ؟ لا أفعل ذلك» (١) .

وترجع أهمية هذه الحملة بالنسبة لعبيد الله المهدى ، إلى أن أبا طاهر خرب مدن العراق وبث الرعب فى قلوب الأهلين ، حتى إننا إذا وازنا بين حالة العراق قبل سنة ٣١٥ هـ بحالته بعد سنة ٣١٦ هـ ، لأدركنا خطر ما قام به القرامطة من إفساد وتدمير فى أعظم بقاع الدولة العباسية خصبا وحضارة ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأن ذلك كان من العوامل التى ساعدت على ضعف العباسيين ، وشجعت البيزنطيين على الإغارة على بلادهم بعد ذلك بقليل . وقد أفاد عبيد الله المهدى من ذلك أيما فائدة ؛ فشغل جيوش الخلافة العباسية ، التى عدها خطرا قد يوجه فى يوم من الأيام إلى قلب الدولة الإسماعيلية فى المهدية نفسها .

وليس هذا فقط بل إن حركة أبى طاهر هذه قد ساعدت جماعة آخرين من بقايا قرامطة السواد على الثورة فى بلاد العراق ؛ وكان على رأس هذه الحركات القرمطية جماعة يؤمنون بمحمد بن إسماعيل ، ولا يزالون ينتظرون مهديا من سلالته . ومن هؤلاء الداعى عيسى بن موسى ابن أخت عبدان داعى حمدان قرمط ، وحُريث بن مسعود . وقد نجح هؤلاء القرامطة فى تكوين حكومة قرمطية فى قلب بلاد العراق ؛ وكانوا يعملون على نشر الدعوة بطريقة علمية منظمة : فهذا عيسى بن موسى يقيم ببغداد ، «يدعو ويتوصل إلى ناس استغزهم ، ويعمل كتبا يجمع فيها ما يأخذه من كتب يشتريها من الوراقين ، يمخرق فيها بذكر أمور ينسجها ، ويوهم أن له بذلك علما . ورتب كتبا ينسبها إلى عبدان الداعى ، ليوهم أن عبدان كان أحد العلماء بكل

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٥٨ .

فلسفة وغيرها ، وأنه يعلم ما يكون قبل كونه ، ومخرق بجهده على جهال الناس ، فصاروا له أتباعا ، وأفسدوا إفسادا خطيرا » [١] .

٢ - عبيد الله المهدى والاسماعيلية فى اليمن

قامت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن فى عهد الإمام المستور الحسين بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، على يد ابن حوشب وزميله ابن فضل الجدنى ، وأصبحت هذه البلاد مركزا رئيسا لنشر الدعوة فى كثير من بقاع العالم الإسلامى ، كمصر والمغرب وسواهما . وقد رأينا كيف ساد الاعتقاد فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، بأن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم فى اليمن ، وأن مهدى الإسماعيلية سيرفع علمه عاليا فى تلك البلاد . ومعنى ذلك أن بلاد اليمن كانت لها الصدارة فى دور الستر ، وأن رؤساءها كانوا يودون لو أن الدولة الفاطمية الإسماعيلية قامت على أيديهم فى تلك البلاد ؛ ولذلك كان لقيام هذه الدولة فى بلاد المغرب أثر سيء فى بعض بلاد اليمن ، وخصوصا فى البلاد التى كان يتزعمها ابن فضل الجدنى . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد تنحت اليمن للمغرب عن تلك الزعامة ، كما تنحى ابن فضل وابن حوشب للمهدى عن زعامة الإسماعيلية ورياستهم . وكانت هذه التغييرات عظيمة الأثر فى نفس ابن فضل ؛ أما ابن حوشب فقد ظل على إخلاصه ووفائه لأئمة الإسماعيلية مستورين كانوا أم ظاهرين .

(ا) موقف عبيد الله من النزاع بين ابن فضل وابن حوشب

ثار ابن فضل على ابن حوشب ، ثم على الأئمة الإسماعيلية الخلفاء تبعا لذلك . ولكن متى حدث ذلك ؟ لقد رأينا بعض المراجع الإسماعيلية تعزو ذلك إلى عهد إمامة عبيد الله ، أى فى أثناء هربه من سلمية ، وأنها تعزو ذلك إلى لجوء بعض الدعاة التأثرين إلى اليمن ، وتأثيرهم فى ابن فضل الذى ثار على الدين الإسلامى وعلى المذهب الإسماعيلى ، كما ثار على ابن حوشب . لكننا لا نميل إلى تصديق هذا كله ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٣ ورقة ٩٢ .

فنحن لا نعلم أن أحدا من الإسماعيلية قصد بلاد اليمن ، وقام بما ذهب إليه هؤلاء المؤلفون من الإسماعيلية قبل فيروز ، داعى دعاة المهدى وباب أبوابه ; فقد عز عليه أن يقصد عبيد الله بلاد المغـــرب دون اليمن ، فانفصل عنه وهو فى مصر (٢٩١ هـ) ، إذ أن الدعوة الإسماعيلية فى الشام ومصر واليمن إنما قامت على أكتافه . ولا غرو فقد أدخل ابن حوشب فى المذهب الإسماعيلى ، وأرسله مع زميله ابن فضل إلى بلاد اليمن . كما جعل على الدعوة فى مصر صهره الداعى أبا علىّ الذى رباه — كما يقول اليمانى — وعلمه أصول المذهب الإسماعيلى . أضف إلى ذلك ازدياد نفوذه فى بلاد الشام نفسها ، وفى العراق وسواها . وكان الداعى « فيروز » يؤمل أن يستمر على زعامته لتلك الجماعة الإسماعيلية فى الشرق الأدنى . ولذلك لم يتحمل صدمة اتجاه عبيد الله الإمام إلى بلاد المغرب ، فقصد هو بلاد اليمن . ولا نستبعد على داعى الدعاة فيروز أن يكون من تلامذة مدرسة حمدان قرمط ، الذين حز فى نفوسهم انتقال الإمامة من الإمام المستقر السابق الحسين إلى حجته سعيد الخير ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، أو أن فيروزا — على الأقل — لم يكن فى إخلاصه مع عبيد الله كما كان مع الإمام المستقر الحسين بن أحمد . وإلا فكيف نفسر فراره إلى اليمن ، وتركه إمامه عبيد الله يلاقى المتاعب وحده ، وهو الذى ساهم من قبل مساهمة فعالة فى رفع منار الدعوة فى عهد الحسين ، الإمام المستور ؟

أما البرنامج الذى وضعه داعى الدعاة فيروز لنفسه فى بلاد اليمن ، فيرى بعض علماء الإسماعيلية أنه حاول إغراء ابن حوشب ، فلم يستطع ، ولكنه وجد من ابن فضل قبولا لدعوته ، فثار على ابن حوشب وعلى عبيد الله ، بل ثار على المذهب الإسماعيلى ، وعلى دين الإسلام ، « واستحل المحارم ، ورفض الظاهر ، ودعا الناس إلى الإباحات . فلما اشتهر بذلك تبرأ منه ذلك الذى أفسده (أى فيروز) ... فحارب أبا القاسم [١]. ويرى بعض أنه احتال على ابن حوشب ، وادعى له أنه رسول المهدى إليه ، وأنه أتى ليعدا العدة معا لملاقاة جيوش المهدى الآتية من المغرب فى البلاد المصرية . فلما أدرك أن حيلته لم تتم ، وأن سره قد كشف ، فر إلى ابن فضل ، فكان منه ما كان مما سنقف عليه فى الصفحات التالية [٢].

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ (من المنتخب) .

(٢) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ م)

ولكن متى تم ذلك على وجه التحقيق ؟ لا نستطيع أن نقرّ مع ما ذكره القاضى النعمان المغربى . من أن ثورة على بن فضل الجدنى اليمنى قامت قبل هرب عبيد الله إلى مصر ، أى فى سنة ٢٩١ ﻫ . ويكاد يكون ما ذهب إليه اليمانى الإسماعيلى أقرب إلى الصحة . وهو أن الداعى فيروز قصد اليمن حقا فى سنة ٢٩١ ﻫ . على أننا لانعرف على وجه التحقيق متى هرب فيروز إلى على بن فضل ، وترك تلميذه ابن حوشب ؛ كما لا نستطيع أن نتأكد من أن ثورة ابن فضل على ابن حوشب كانت إثر وصول فيروز هذا إليه ، أو بعده بكثير . والذى نعرفه هو أن فيروزا استمر فى صحبة ابن حوشب « إلى أنْ ورد كتاب المهدى ع . م مقرونا بكتاب الداعى أبى على بمصر ، صهر فيروز ، وزوج ابنته ، يعرفان أبا القاسم كيف جرت قصة فيروز ، ويأمره المهدى بقتله . . . فهرب لوقته ، وطلبه الداعى أبو القاسم ، فلم يدر أى الجهات سلك . ولم يزل يبحث عنه إلى أن بلغه أنه وصل إلى على بن الفضل الجيشانى ، وأنه أفتنه وأفسده ؛ فلما علم أبو القاسم الداعى بموضعه ، وأنه فتن على بن الفضل وأهل بلده ، وشعوذ لهم ، ودعاه وأهل بلده إلى نفسه ، خرج إليهما أبو القاسم وحاربهما مدة طويلة[١] » .

من ذلك نستطيع أن نقول إن ابن فضل إنما ثار على ابن حوشب ، مدفوعا بتأثير داعى الدعاة فيروز ، ثم بميله هو إلى الاستبداد والزعامة ليستقل ببلاد اليمن . ولا غرو فهو يمنى لحما ودما . كما لا يبعد أن ابن فضل كان لا يرغب فى أن يعمل لحساب إمام ظاهر ، بل كان يود أن يظل يعمل لإمام مستور ، حتى يستطيع أن يحقق آماله وطموحه دون تدخل من إمامه الذى أصبح خليفة . ولا نستطيع أن

---

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ . نرى فى هذه العبارة أن ابن حوشب لم يعرف شيئا عن فيروز إلا بعد أن مهد هذا الداعى الأمور لنفسه عند ابن فضل ، فكون مجتمعا ثائرا على عبيد الله ، وعلى ظاهر الشريعة ، وعلى الدعوة الاسماعيلية نفسها . ولا يبعد أن يكون ذلك قد استنفد كثيرا من الوقت ؛ وإذن كيف نفسر مساعدة ابن حوشب لابن فضل حين كاد ينهزم على أيدى السفيين فى تهامة بعد سنة ٢٩٩ ﻫ ؟ نستطيع أن نقول إن ابن فضل ، على الرغم من قبوله التجاء فيروز إليه بعد سنة ٢٩١ ﻫ ، ظل على ولائه لابن حوشب ، أو على الأقل كان يتظاهر بذلك ، حتى تم له فتح صنعاء فى سنة ٢٩٩ ﻫ . ثم نكب بعد ذلك بقليل ، فأنجده ابن حوشب . ولما كان ابن حوشب قد توفى سنة ٣٠٢ ﻫ ، فان هذه الحرب يجب أن تكون قد وقعت بين سنتى ٢٩٩ ، ٣٠٢ ﻫ .

نقول ، إن ابن فضل ثار على عبيد الله حين أدرك أنه حجة للامام ؛ لأننا لم نره في أثناء ثورته أو بعدها ينادى بمحمد بن إسماعيل ، وإنما تمثل بأبى سعيد الجنابى القرمطى الذى عمل على الاستقلال بملك أثله بيديه عن سادته الفاطميين ؛ لا لأنهم إسماعيليون أو قداحيون ، بل لأنه كان يرغب فى أن يستمر فى دعوته إلى إمام مستور لا إلى إمام ظاهر . وإنما فعل ذلك لأنه كان نفعيا ، تقوم سياسته على استغلال الظروف لمصلحته الخاصة .

ويظهر أن ابن فضل هو الذى بدأ زميله ابن حوشب بالعدوان ؛ فإنه لما خلع طاعة الفاطميين ، وبعث بذلك إلى ابن حوشب ، حذره هذا عاقبة أمره وقال له : « كيف تخلع طاعة من لم تنل خيرا إلا به ، وتترك الدعاء له ؟ أوما تذكر ما بينك وبينه من المواثيق والعهود ؟ فلم يلتفت إليه[1] » . ولم يكتف ابن فضل بذلك ، بل أعلن الحرب على ابن حوشب ليخلص له ملك اليمن . وكاد يقضى على زميله ومساعده بالأمس ؛ لولا أن تم الصلح بينهما كفاء تسليم ابن حوشب أحد أبنائه إليه . إلا أن ذلك الصلح لم يقض على النزاع الذى كان مستحكما بينهما ، بل زاد هوة الخلاف اتساعا بين إسماعيلية اليمن ، فلم يعد ابن حوشب وأتباعه يثقون بإسماعيلية ابن فضل ، كما لم يعد ابن فضل وأنصاره يعتمدون على مساعدة ابن حوشب . ومن ثم أصبح الجميع هدفا لهجمات السنيين . ويظهر أيضا أن عبيد الله المهدى لم يستطع أن يقوم فى وجه هذا الثائر بعمل حاسم ؛ فترك أمره لتابعه المخلص ابن حوشب ، وانتهت الحرب على غير ما يشتهى عبيد الله ، فتم النصر لابن فضل . ولذلك يتهم بعض العلماء هذا الخليفة بقتل ابن فضل فى سنة ٣٠٣ هـ ، كما اتهم بقتل أبى سعيد الجنابى القرمطى من قبل[2] .

والخلاصة أن الثورة التى قامت فى بلاد اليمن بعد قيام الدولة الفاطمية ، ترجع إلى أسباب كثيرة : منها ميل ابن فضل إلى الاستقلال . واستبداد عبيد الله بشئون الدولة والدعوة معا ، ووقوع ابن فضل تحت تأثير بعض الحانقين على الفاطميين . أضف إلى ذلك أن ثورته كانت ثورة سياسية دينية ، حتى إنه اتهم بالزندقة والإلحاد ،

---

(١) أنباء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوط) ص ٣١ .

(٢) De Goeje : Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. iii. p. 224. s. v.

فسمى نفسه « رب العزة » ، وسمى ابنه « ابن رب العزة » . ومهما يكن من شىء فإن ابن فضل قد حفر قبره بيده ؛ بسبب ثورته على عبيد الله الفاطمى ، فمات مسموما على أيدى الفاطميين أو الحواشب ، وتعرض أبناؤه لغارات السنيين ، فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ، وذهبوا من صفحة التاريخ .

(ب) عبيد الله المهدى وأبناء المنصور

إن ما ساد بين الفاطميين وبيت ابن حوشب (منصور اليمن) من علاقة ، ليكشف لنا عن سياسة عبيد الله الحقيقية ، التى سنها لنفسه ، والتى تنطوى على الاستبداد بكل شىء . وإشعار الأشياع والأتباع بنفوذه وقوة شخصيته ؛ فلم يشأ أن يعترف بمبدأ الوراثة لبيت ابن حوشب ، الذى أخلص مؤسسه لعبيد الله وللأئمة من قبله ، إخلاصا جعله موضع إعجاب الإسماعيلية جميعا . وكان تدخل عبيد الله فى شئون الحكم فى بيت منصور اليمن ، كما كان النزاع الذى تفاقم بين ابن فضل وابن حوشب قبل ذلك من عوامل ضعف الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن .

مات ابن حوشب فى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ - ٩١٥ م) ، بعد أن أوصى بالأمر من بعده إلى ابنه الحسين وإلى تابعه المخلص عبد الله بن عباس الشاورى ، وكان موضع ثقته كما كان رسوله الخاص إلى المهدى . ويبدو أن ابن حوشب كان يخشى عبد الله ابن عباس ، كما لا يبعد أن يكون قد أدرك ميل المهدى إليه فنص فى وصيته عليه . والمهم أنه ترك بعمله هذا السبيل ممهدة لتدخل عبيد الله المهدى ؛ لأن ابن حوشب لم يعهد لأحد بالحكم من بعده ، بل ترك وصية تنم عن إخلاصه وولائه لعبيد الله والفاطميين . وقد جاء فيها : « قد أوصيتكما بهذا الأمر فاحفظاه ، ولا تقطعا دعوة عبيد بن ميمون[1] ؛ فنحن غرس من غرسهم . ولولا ناموسهم ، وما دعونا به إليهم ، ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه ، ولا تم لنا فى السياسة حال ؛ فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستيراد الأمر منهم . فأوصيكما بطاعة المهدى - يعنى عبيد

---

(١) يقصد عبيد الله بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح .

ابن ميمون ، حتى يرد أمره بولاية أحدكما ، ويكون كل واحد منكما عونا لصاحبه[١] » .

ولما كانت سياسة عبيد الله ترمى إلى زعامة جميع العالم الإسماعيلى ، والتدخل فى شئون الدعوة الإسماعيلية ، وتوجيهها كما يريد ، أو بعبارة أخرى لما كانت هذه السياسة ترمى إلى توجيه الدعوة فى سبيل مصلحة الدولة ، رأى عبيد الله أن يقر ابن عباس الشاورى فى الحكم مكان ابن حوشب ، وعزل أبناء المنصور . ولكن هذه السياسة فرقت أنصار الدعوة المخلصين لها فى تلك البلاد ؛ فقامت بينهم المؤامرات ، وضعفوا ضعفا ظاهرا أمام أعدائهم ، فأخذتهم سيوف السنيين من كل جانب . وفى الحق أن سياسة التدخل التى سار عليها عبيد الله المهدى فى بلاد اليمن ، كانت تختلف عن هذه السياسة التى سار عليها مع القرامطة فى البحرين ، حيث اختار شخصا من بيت أبى سعيد ، بعزله سعيدا وتولية أبى طاهر ، وكلاهما من أبناء أبى سعيد مؤسس الدعوة القرمطية . وبذلك التف القرامطة جميعا حول أبى طاهر ، حليف عبيد الله ، وعز على أخيه سعيد المعزول أن يثور حتى لا يهدم بيته بيده . أما هنا فى بلاد اليمن ، فإن عزل أفراد البيت المنصورى ، الذى تفانى فى الدعوة الإسماعيلية ، منذ استقرت فى تلك البلاد ، قد وضع الأمر فى يد غيرهم ، وحز ذلك فى نفوس كثير منهم ، خصوصا ذوى المطامع منهم ، فلم يهدءوا أو يستكينوا لحكم عبيد الله .

ولا يبعد أن يكون عبيد الله المهدى قد اتفق مع ابن عباس الشاورى ، رسول ابن حوشب إليه ، على توليته الحكم ، قبيل وفاة المنصور ؛ لأن الشاورى لم يكد

---

(١) يقول الحمادى اليمانى (كشف أسرار الباطنية ص ٣٩ — ٤٠) : إن عبد الله بن عباس الشاورى كتب إلى عبيد بن ميمون المسمى بالمهدى بموت المنصور ، وهو يومئذ بمدينة بناها وسماها المهدية بالغرب ، وأنه قام بمذهبه بعد المنصور ودعا إليه ، وأنه لم يبق إلا استيراد الأمر ، ويسأله الولاية وعزل أولاد المنصور . وخرج ولد المنصور نفسه إلى القيروان ، يسأله الولاية لنفسه ، ولا ينزع الأمر منهم بعد أبيهم . وقد كانت قد وصلت هدايا ابن عباس وكتابه ، وولاه الأمر وكتب له . فلما وصل ابن منصور أمره بطاعة ابن العباس ، وبعث لابن العباس بسبع رايات ، فرجع المنصور إلى اليمن وقد يئس مما كان يرجو من الولاية ، فلقيه عبد الله بن عباس بنفسه وأهل دعوته ، فبجله وعظمه . ولقيه أخوه جعفر وأبو الفضل ، وبقية أولاد القرمطى (أى ابن حوشب) ، فسألوه بما ورد به الأمر ، فعرفهم بصرف الأمر عنهم إلى عبد الله بن العباس دونهم » .

يبعث إلى المهدى بخبر موت المنصور ، وأنه قد قام بالأمر من بعده ، وأنه يرغب فى أن ينال رياسة الدعوة الإسماعيلية فى تلك البلاد دون أبناء المنصور ـ حتى نرى المهدى يوليه هذه الرياسة مكان ابن حوشب ، ويحقق له جميع آماله ومطالبه . ولم يكن الأمر كما ذهب إليه الجندى فى كتابه « السلوك » ، من أن الشاورى بعث إلى المهدى برسالة على يد أحد أبناء المنصور ؛ لأنه لا يعقل أن يكون هذا الداعى الجرىء بمثل تلك السذاجة ، فيرسل رسالة فيها عزل أبناء المنصور على يد أحد أبنائه . ويظهر أن ما ذكره الحمادى اليمانى أقرب إلى الصواب ، حيث يذهب إلى القول بأن الشاورى أرسل إلى المهدى يطلب الحكم لنفسه ، وأن أبناء المنصور أرسلوا فى الوقت نفسه يطلبون هذا الحكم لأنفسهم ؛ فرفض عبيد الله طلبهم ، وعين الشاورى دونهم[1] .

ومعنى ذلك أن المهدية أخذت تقلد من تريد من أتباعها رياسة الإسماعيلية فى البلاد المختلفة ، وأن عبيد الله أراد أن يشعر كبار دعاته وأبناءهم ، أن الرأى الأخير له وحده دون سواه . ولكنه نسى أنه بتوليته الشاورى إنما ألقى بذور الشقاق فى ذلك البيت ، الذى ظل على ولائه له ولآبائه وأئمته من قبل ؛ فضعفت قوة الإسماعيلية فى اليمن أمام السنيين ، إذ حنق أحد أبناء المنصور على عبيد الله لإمعانه فى الاستخفاف بهم ، وعمل على إذكاء نار الثورة على ذلك النظام الذى وضع أساسه فى بلاد اليمن ، واغتصاب عرش الدعوة فيها من حليفه . ولم يستمع لنصيحة أخيه الداعى المشهور جعفر بن المنصور ، صاحب المؤلفات الكثيرة ، حين قال له : «إن أمرنا إذن يتلاشى ويزول ملكنا . وتفترق هذه الدعوة ، ويذهب الناموس الذى نمسناه[2] على الناس ، فلا تحدث نفسك بهلاكه فتهلك »[3] .

ولم يكتف الحسن بن منصور اليمن بما فعل ، بل جر الشكايات على نفسه ، وعلى بيته ومذهبه ، وعلى الإسماعيلية جميعا ، حين أعلن ارتداده عن المذهب الإسماعيلى ،

---

(١) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٠ .

(٢) نمس السر كتمه ، ونمس بين القوم أفسد وأغرى ، والمقصود النظام الذى وضع لنشر الدعوة الاسماعيلية .

(٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٠ .

واعتناقه المذاهب السنية ؛ وبعبارة أخرى ، فإن الحسن بن منصور لما تخلص من الشاوري ، اعتقد أن الأمور قد استقرت في يده ، فجمع « الرعايا من أقاصي البلاد وأدانيها ، وأشهدهم على نفسه أنه قد خرج من مذهب القرامطة[١] إلى مذهب أهل السنة ؛ فأحبه الناس ودانوا له ، وقتل القرامطة الذين حوله ، وشردهم في كل ناحية[٢] » .

لم يكن هذا كل ما حدث من تدخل عبيد الله في شئون الدعوة باليمن ؛ فإن المذهب الإسماعيلي ـ كما نعلم ـ مذهب سري ، والدعوة إليه سرية كذلك . ومن أخطر الأمور على المذاهب السرية والدعاية إليها ، أن ينتقض عليها أنصارها الذين يعرفون أسرارها ودخائلها . وهذا ما حدث للمذهب الإسماعيلي ، والدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن إثر ارتداد الحسن بن منصور عن هذا المذهب ورجوعه إلى الإسلام ؛ إذ أخذ يتتبع الإسماعيلية ـ أنصاره بالأمس ـ تتبعا لا هوادة فيه ، فأباد السواد الأعظم منهم . وفي الحق أن الحسن بن منصور أخطأ فيما فعل ، بإبادته الإسماعيلية الذين كانوا يدينون بعقائد الفاطميين ، لأنه أصبح هو وأنصاره الذين خرجوا على المذهب الإسماعيلي ودخلوا في الإسلام طعمة لأمراء المسلمين السنيين الطموحين ، وللزيدية الشيعيين أيضا ؛ فقتلوه ، ثم تتبعوا أبناءه وإخوته وغيرهم من الأنصار ، الذين ظلوا على ولائهم لعقائد هذا المذهب ، حتى إنه لم يبق من الإسماعيلية من أتباع ابن حوشب ، إلا من استطاع الاستتار .

وكان من أثر اندفاع الحسن وتقلبه في سياسته ، أن فر أخوه الداعي جعفر ابن منصور إلى بلاد المغرب ، بعد أن أخفق في إقناع أخيه بالعدول عن الدخول في المذاهب السنية واضطهاد الإسماعيلية . يقول الجندي في كتابه « السلوك » عن الحسن وأخيه : « فدخل عليه أخ اسمه جعفر ، فنهاه عما فعل وقبحه ، فلم يلتفت إليه ؛ فخرج مغضبا ، وقصد المهدي إلى القيروان[٣] ، فوجده قد توفي ، وقام بعده ابنه القائم ، وذلك سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ـ أعني موت المهدي وقيام القائم ،

---

(١) يقصد بذلك المذهب الاسماعيلي .

(٢) أنباء الزمن في تاريخ اليمن ص ٣٥ .

(٣) الصواب إلى المهدية

فلبث ابن منصور عنده . ثم إن أخاه قتل أهل مذهب أبيه وشردهم ، حتى لم يبق حوله منهم إلا من لا يُعرف[١] » . من ذلك نرى أن عبيد الله أدرك مغبة سياسته التي سلكها مع بيت المنصور في بلاد اليمن . وأنه أعطى القوس لغير باريها في هذه البلاد ، كما أدرك أنه كان ينبغي أن يحتفظ بالعرش في بيت ابن حوشب الذي يقر له الشاوري وسواه بالزعامة . وأما تركه الرؤساء الأصليين وتعيين أتباعهم في المكان الذي يجب أن يحتله هؤلاء الرؤساء ، فإنه يدل على عدم وقوفه على مبلغ رواج الدعوة في بلاد اليمن ، التي لا يستطيع أن يشرف عليها ويعمل على تنفيذ سياسته وأوامره فيها بسبب بعدها عن بلاد المغرب .

وإن ضعف الإسماعيلية الحواشب بسبب تدخل عبيد الله ، يكوّن فصلا ممتعا في تاريخ العلاقة بين الإسماعيليين بعضهم مع بعض من ناحية ، وبين السنيين والزيدية وبين الإسماعيلية من ناحية أخرى . ذلك أن بيت ابن حوشب ثار على داعي دعاة المهدي في بلاد اليمن - كما رأينا - ولم يستطع هذا البيت أن يحتفظ بوحدته وبعقائده الإسماعيلية ، فانقسم على نفسه : فمنهم من فر من اليمن ، ومنهم من لقي حتفه على أيدي السنيين ، ومنهم من ارتد عن المذهب الإسماعيلي إلى الإسلام على المذاهب السنية . إلا أن الحسن بن منصور اليمني لم يجن من وراء ذلك شيئا ؛ فقد اعتبره المسلمون السنيون زنديقا يجب قتله حتى بعد توبته ، وعدوا قتاله جهادا في سبيل الله ؛ ولذلك تآمر عليه حلفاؤه من الأمراء السنيين وقتلوه ، وتعرض أهله وذووه للأخطار ، « فوثب عليهم المسلمون من أهل المغرب[٢] ، فقتلوهم الصغير والكبير ، وسبوا حريمهم ، ولم يبقوا على وجه الأرض من الكافرين ديارا ، ولم يبق للمنصور عقب يعرف[٣] » .

---

(١) عمارة اليمني : تاريخ القرامطة باليمن ص ١٥١

(٢) يقصد بذلك أهل الجهات الغربية من بلاد اليمن .

(٣) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٤٠ ، ٤١ . ولا نعرف من أبناء ابن حوشب غير جعفر بن منصور الداعي ، الذي عمر حتى أدرك الحكم الفاطمي في مصر . ومع ذلك فإن هناك في اليمن اليوم جماعة يعرفون باسم ,, الحواشب ،، . ولا ندري إن كان هؤلاء من عقب المنصور أو من أتباعه ، أو أنهم لا يمتون إليه بصلة . وفي هؤلاء يقول ميخائيل شاروبيم في كتاب ,, التآليف في مذهب أهل التوحيد ،، ص ٢٣ : ,, لابن حوشب باليمن فخذ وبطن ، أو هي قبيلة يقال لها الحواشب ، وهي مستقلة ومستبدة بحكم نفسها محالفة للدولة الانجليزية ،، .

من ذلك نرى أن الذى خلف الحسن بن منصور اليمن فى رياسة جماعة الإسماعيلية الذين ارتدوا إلى المذاهب السنية ، رجل عريق من بيت إسماعيلى ، ساهم أبناؤه مساهمة جدية فى إقامة المذهب الإسماعيلى ببلاد اليمن ، ويسمى هذا الرئيس إبراهيم بن عبد الحميد السباعى . وقد نهج هذا الزعيم الإسماعيلى المرتد ، نهج الحسن بن منصور ؛ فأعلن للملأ ارتداده عن المذهب الإسماعيلى . ولم يكتف بذلك ، بل خطب على منابره للخليفة العباسى ، لا الفاطمى ، وأعاد بعمله هذا مافقده العباسيون من نفوذ فى بلاد اليمن منذ أمد طويل ، واشتد إبراهيم فى طلب الإسماعيلية المخلصين لعبيد الله المهدى وخلفائه . والحق أنه جعل « يتتبع القرامطة ، يقتلهم ويسبى ذراريهم ؛ فبقى منهم قليل فى ناحية جبل مسور[1] ، فأقاموا قرمطيا منهم . . . فسمع به إبراهيم بن عبد الحميد ، فخرج إليه فقتله ، وتفرق من بقى من أصحابه إلى عمان . . . وانبكتم أمرهم من إبراهيم[2] » .

وقد بقيت زعامة الإسماعيليين الحقيقيين فى غير بيت ابن حوشب ، وأمعن هؤلاء فى التخفى ، وكانوا على اتصال دائم بخلفاء عبيد الله الفاطمى . وقد قاسوا من هذه المحنة زمنا طويلا ، حتى بعثهم الصليحيون[3] بعثا جديدا فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، وذلك فى القرن الخامس الهجرى . وأما الإسماعيلية الذين اعتنقوا المذاهب السنية ، فقد انعقد لواء الرياسة بينهم فى بيت إبراهيم بن عبد الحميد ، وأخذ الضعف يدب فيهم ، حتى انمحوا من صفحة التاريخ فى الدور الفاطمى المغربى (٢٩٦ — ٣٥٨ هـ) .

من هذا كله نستطيع أن نقول إن عبيد الله قد أحدث الفرقة فى صفوف أنصاره ببلاد اليمن ، وبذلك فقدت الدولة الفاطمية الأمل فى الاعتماد على الفرع

---

(١) من أعمال صنعاء اليمن ، يقع جنوبى صنعاء بستة أميال . أنظر معجم البلدان لياقوت .

(٢) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٤١ .

(٣) نسبة إلى على بن محمد الصليحى (٤٥٩ هـ) ، داعى المستنصر فى اليمن ، وهو أول من أسس دولة الصليحيين ، التى أخلصت لخلفاء الفاطميين وخصوصا المستنصر والمستعلى والآمر ، ولا يزال بقاياهم على إخلاصهم للامام الطيب بن الآمر وأبنائه حتى اليوم . ويعرف أتباع هؤلاء فى أيامنا هذه باسم البهرة ، وهم قسمان : قسم يعرف بالداودية ، وينتشر سوادهم فى الهند ، وقسم يعرف بالسليمانية وينتشر سوادهم فى اليمن .

الإسماعيلى اليمنى فى الهجوم على مصر ؛ إذ لو قدر له أن يظل قويا كما كان فى عهد ابن حوشب ، لتقابلت جيوش الإسماعيلية فى المغرب والبحرين واليمن فى مصر ، واستطاع الفاطميون أن يستولوا عليها قبل استيلاء جوهر الصقلى عليها بزمن طويل .

٣ — عبيد الله والدعوة الاسماعيلية فى فارس

كانت الدعوة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله (٢٩٦ — ٣٢٢ ﻫ) فى بلاد فارس وشرقى المملكة الإسلامية ، استمرارا لما كانت عليه حين كان يقوم بعمل الحجة ، ثم الإمام المستور . وقد رأينا على رأس الدعوة فى فارس وبلاد المشرق ، فى أخريات القرن الثالث الهجرى ، جماعة من العلماء الأفذاذ ، كما رأينا رواج نظرية المهدى المنتظر ، وانتشار الدعوة الإسماعيلية فى أماكن كثيرة ، وعلى الأخص فى البلاد النائية عن حاضرة العباسيين .

ومما يلفت النظر فى انتشار الدعوة فى فارس ، أن فكرة المهدى المنتظر قد ضعفت بظهور عبيد الله ، وأنها لم تعد تجد رواجا بين الإسماعيلية فى شرق المملكة الإسلامية بعد قيام الدولة الفاطمية ؛ بل نرى الإسماعيلية فى هذه البلاد ، يولون الخليفة عبيد الله كثيرا من الاحترام والتقديس ؛ فكانوا يعتقدون أن قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب على يد عبيد الله خطوة سوف تتلوها خطوات كثيرة تؤدى إلى سيادة المذهب الإسماعيلى والدولة الإسماعيلية ، فى كافة أرجاء المملكة الإسلامية ، بل فى كافة أرجاء العالم قاطبة . وكانت الدعوة فى تلك البلاد تعمل دائما على تقديس عبيد الله ، وتضفى عليه من صفات التقديس شيئا غير قليل ، حتى إن المستجيبين قد رموا المذهب الإسماعيلى فى هذه البلاد بالزندقة والكفر . فكان الدعاة فى فارس يبالغون فى تصوير أئمة الفاطميين الخلفاء ، وخصوصا عبيد الله ، ويجد هؤلاء الدعاة من الفرس أذنا مصغية فى تصديق هذا الغلو ، على عكس ما كان عليه الدعاة والمستجيبون فى المغرب . ونحن نرى إقرارا رسميا من الخليفة القائم الفاطمى (٣٣٤ ﻫ) يؤيد أن هناك جماعة من الدعاة يرمون الفاطميين بأنهم يدعون علم الغيب . يقول المعز لدين الله (٣٦٥ ﻫ) : « سمعت القائم بأمر الله ﷺ يقول

فى قوم من الدعاة بلغه أنهم غلوا فيه وفى آبائه الأئمة الصادقين ، صلوات الله عليهم أجمعين ! وقالوا : إنهم يعلمون الغيب ، فلعنهم ، وقال : هؤلاء الصادون عنا ، الكاذبون علينا . والله ما أرادوا بما وصفونا به إلا تكذيبا لنا ، وإبعادا للناس عنا ؛ لأنهم إذا وصفونا لهم بما ليس فينا ، فلم ير الناس ذلك عنا ، ولا وجدوه عندنا ، لم يروا أنا أئمة »[1] .

وليس من شك فى أن هؤلاء الدعاةَ مِن الغلاة كانوا من الفرس ، وأن رعاياهم ، فى عهد القائم وفى عهد عبيد الله من قبله ، الذين كانوا يتصلون بهم اتصالا وثيقا ، لا يعرفون فيهم هذا الغلو المذهبى ، من العلم بالغيب والحلول فى البشر ، وما إلى ذلك . ولم نذهب بعيدا ؟ فقد تأثرت جميع البلاد التى انتشر فيها الإســلام والتى لم تكن عربية وعلى الأخص فى فارس ، تأثرا واضحا بالعقائد الفارسية القديمة ، زرادشتية كانت هذه العقائد أو مانوية أو مزدكية . أضف إلى ذلك نظرية تقديس الملوك التى كانت سائدة فى بلادهم فى عهد الأكاسرة ؛ فكان لهذا أثره فى فارس فيما يتعلق بعبيد الله المهدى .

وكان الداعى أبو حاتم الرازى (٣٢٢ هـ) يصرح بقرب ظهور المهدى ، بل لقد عين زمن هذا الظهور فى البلاد التى انتشر فيها نفوذه ، وخصوصا فى بلاد الديلم والجبل وغيرهما . فلما انقضى الزمن الذى حدده ، ولم يظهر الإمام ، ثار كثير من الناس عليه ونادوا ببطلان مذهبه ، ورموه بأنه دين متروك لا غير[2] . وقد خلق الرازى فى محيط الدعوة الإسماعيلية مبدأى الستر والظهور[3] ، وبحثهما بحثا علميا مستفيضا .

ومما تمتاز به الدعوة الإسماعيلية فى فارس فى عهد عبيد الله ، أنها لم تتركز فى أقاليم خاصة بها ، كما كانت الحال فى بلاد البحرين أو فى بلاد اليمن ؛ بل كانت منتشرة فى عامة البقاع ، ولكنها لم تكن منتشرة انتشارا كافيا ، بحيث تغمر هذه البلاد وتسود عقائدهم ، وتتمثل فى أفكارهم ؛ بمعنى أن أنصار هذه الدعوة كانوا أقلية

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات (مخطوط) جـ ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) Islamic Culture (1937), p. 217.

إسماعيلية تعيش فى وسط أكثرية ساحقة من السنيين أو ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلى . ولذلك لم تستطع الدعوة هناك أن تنجب دعاة محاربين يتصفون بصفات أبى عبد الله الشيعى وأبى سعيد الجنابى أو ابن حوشب وابن فضل ، بل كانت هذه الدعوة تتجه إلى أساليب الإقناع العقلى والتأثير فى المستجيبين عن طريق العلم والتثقف . ومن ثم حمل لواء الدعوة لعبيد الله المهدى فى هذه البلاد علماء أجلاء ، وفلاسفة أمجاد مثل أبى حاتم الرازى ، والنسفى ، والسجزى وغيرهم ، ممن اتخذوا الفلسفة وسيلة للاقناع ، فتفوقوا على منافسيهم من السنيين خاصة ، حتى طلب سكان طبرستان النجدة العلمية من بغداد[١] . واستغل هؤلاء الدعاة مذهب التعليم المشهور عند الإسماعيلية ، وهو أن الإمام ـ ظاهرا أومستورا ـ مصدر الحقيقة التى يمكن أن يستمدها المرء منه مباشرة أو عن طريق دعاته ، ولا سيما فى الأقطار النائية .

وكان هؤلاء الدعاة العلماء يبذلون جهودا كبيرة لجذب كبار الأمراء إلى زعيمهم عبيد الله . فنرى الداعى النسفى (٣٣١ هـ) يجذب إلى هذا الخليفة الفاطمى نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ — ٣٢٩ هـ) عدو الإسماعيلية اللدود ، الذى قتل أستاذه (أى أستاذ النسفى) الحسين بن على المرورزى . ويأخذ منه دية أستاذه ويرسلها إلى عبيد الله الفاطمى ، ليبرهن له على إخلاصه للدعوة الإسماعيلية — دعوة الفاطميين[٢] . وكان من أثر التفاف دعاة الفرس حول عبيد الله الخليفة ، أن استطاعوا جذب كبار الأمراء السنيين إليه ، حتى لقد غلا بعض فاعتقدوا أن نصر ابن أحمد السامانى أمير خراسان وبلاد ما وراء النهر ، ومرداويج الديلمى ، أمير طبرستان ، ويوسف بن أبى الساج ، أمير آذربيجان ، كانوا على اتصال وثيق بعبيد الله ، وأنهم كانوا يعملون على إزالة الخلافة العباسية . ولذلك بعث نصر بن أحمد ـ على ما رأينا ـ إلى المهدى يقول : « أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعوننى ، وليس على المهدى بهم كلفة ولا مئونة ؛ فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفى ومنطقى بين يديه ، وامتثلت أمره ... وكتب إليه مرداويج الجبلى بمثل ذلك ، وكتب إليه يوسف بن أبى الساج ... وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه ، فوقع على ظهر

(١) نظام الملك : سياسة نامه جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

كتبهم : الزموا مراكزكم ، لكل أجل كتاب (١) » . وهذا يدلنا على ما كان هناك من علاقات مودة وصفاء ، بين هؤلاء الأمراء الذين أخلصوا للدعوة الفاطمية ، وبين عبيد الله المهدى رئيس هـذه الدعوة . والحق أن الدعوة الفاطمية فى بلاد المشرق كانت قد استقرت فى عهد عبيد الله ، فى بلاد ماوراء النهر ، وفى طبرستان . ولولا أن بعض الأمراء السنيين تنبهوا إلى خطرها ، لما تردد هؤلاء المشارقة فى القيام بنفس الدور الذى قام به أبو مسلم الخراسانى من قبل . ولـكن المحنة العظمى التى حلت بطائفة الإسماعيلية ، أتباع عبيد الله المهدى بالمشرق فى سنة ٣٣١ هـ ، حالت دون تحقيق هذا الحلم الجميل .

أشهر دعاة عبيد الله فى بلاد المشرق :

أنجبت الدعوة الفاطمية فى المشرق فى عهد عبيد الله المهدى دعاة علماء ، كان لهم شأن كبير فى عالم الدعوة وفى عالم الأدب والفلسفة والتأليف ، حيث أخذوا على عاتقهم التفانى فى الدفاع عن الدعوة بالقلم واللسان ، والعمل على جذب العامة والأمراء بنفس هذا السلاح العلمى الخطير . ومن هؤلاء الدعاة :

أبو حاتم الرازى (٣٢٢ هـ)

ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم عبد الرحمن الرازى الورسنانى . وكان داعى الإسماعيلية فى بلاد الرى ؛ ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية فى عهد إمامة عبيد الله وخلافته . وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التى أسسها عبيد الله المهدى فى شمال إفريقية ، واستغل رواج هذه الدعوة فى بلاد فارس منذ أيام عبد الله القداح ، فدخل كثير من أهالى هذه البلاد فى المذهب الإسماعيلى . وجعل أبو حاتم « مجاله الحيوى » طبرستان وأصفهان وأذربيجان ، حيث تولى رياسة الدعوة فيها ، وأخذ على عاتقه إرسال دعاته إليها . ويمتاز بعذوبة لفظه ، وحسن بلاغته ، حتى إنه استطاع أن يستميل إليه المروروزى أمير الرى — وكان سنياً — وأدخله فى مذهبه (٢) . ودأب على إخضاع أمراء هذه البلاد لدعوته والدخول فى طاعة عبيد الله ؛ وأصبح بذلك

(١) حسن إبرهيم : الفاطميون فى مصر ص ٧٤ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٢ .

علما من أعلام السياسة والدين . يقول بول كراوس[١] : « كان أبو حاتم من كبار دعاة الإسماعيلية ، واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمى ، ولعب دورا عظيما فى الشئون السياسية فى طبرستان والديلم ، ولا سيما فى أصفهان والرى ، حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة مثل أسفار بن شيرويه ومرداويج[٢] القائد وغيرهما » . وكان لجهود أبى حاتم أثر فعال فى اتصال مرداويج بعبيد الله . ولا غرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء المشارقة سفراء عبيد الله المهدى إلى أمراء المشرق وعامته .

ويرمى بعض السنيين أبا حاتم الرازى بكثير من التهم ، فيذهبون إلى أنه باطنى زنديق . ويرميه بعض آخر باعتناق مبادىء الثنوية والدهرية[٣]، بأن الذين يقولون بأن العالم لا نهاية له . وهذه اتهامات يرمى بها السنيون جميع دعاة الإسماعيلية تقريبا. ومهما يكن من شىء فإن هذه الاتهامات لا تقلل من أهمية أبى حاتم ؛ فقد كان علما من أعلام النهضة العلمية الإسلامية فى فارس فى القرن الرابع الهجرى ، كما استغل هذه النهضة ذاتها فى الإشادة بإمامة عبيد الله المهدى وتقديسه . على أننا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن أبا حاتم وأقرانه من الدعاة العلماء ، كانوا يلجئون إلى هذه الناحية العلمية الفلسفية البحتة ليستتروا وراءها ، ويعملوا فى الخفاء على نشر آرائهم المذهبية . وكان كل منهم يهتم بإخفاء أى اتصال بالمدرسة الإسماعيلية القديمة ، ولا سيما لأنهم جميعا يقولون بمذهب التعليم ، ويدعون أن الأمام مصدر المعرفة وحده . وساعدهم على تحقيق رغباتهم أنهم كانوا يقصدون فى كثير من الأحيان الجهات الجبلية ، أو الجهات التى لم يكن الإسلام قد تغلغل فيها أو تأصل فى نفوس أهليها ،

---

(١) رسائل فلسفية ص ٢٩١ .

(٢) مرداويج : مقدم الديلم ، وكانوا جميعا يميلون للشيعيين . ومن قواده على بن بويه رأس البويهيين . يقول فيه السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩) : كان ,, يريد قصد بغداد وأنه مسالم لصاحب المجوس ، وكان يقول : أنا أرد دولة العجم وأمحق دولة العرب ,, . كما كان على صلة بعبيد الله الفاطمى ، فهاداه وعرض عليه مساعدته حيث ,, بعث بالرسل يحملون المال الكثير للمهدى فى شمال إفريقية ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته ,, . حسن ابرهيم : (الفاطميون فى مصر ص ٨٣) . ومات سنة ٣٢٢ بعد أن فتح الرى وأصفهان وطرد سيده أسفار .

(٣) البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ ، ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ ، ونظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٤٧ .

أو يقيمون بين قوم لا علم لهم بالجدل والنقاش الدينى الذى برع فيه هؤلاء الدعاة العلماء[١] .

ولما كان أبو حاتم الرازى قد عاصر عبيد الله إماما وخليفة ، كانت له نظريات كثيرة فى مبدأى الستر والظهور ، حتى قالوا عنه : إنه أول من وجّه هذين المبدأين فى الإسلام توجيها جديدا . وعلى الرغم من أن إخوان الصفاء كثيرا ما أوردوا فى رسائلهم لفظى «الكشف والستار» (أو الستر) ، لم يقصدوا بهما – كما قال الدكتور حسين الهمدانى – ما كان يقصده أبو حاتم ، كما فعل الفلاسفة الإغريق الآخرون بذكرهم معانى الكشف والستر ، بخلاف ما يقصده الإسماعيلية[٢] ، الذين ذهبوا إلى أن « الستر » الإسماعيلى ، هو الدور الذى يعمل فيه الإمام مختفيا فى دار هجرته ، والذى ينشط فيه دعاته فى نشر الدعوة . وأما دور الظهور أو الكشف الإمامى ، فهو الدور الذى تشرق فيه شمس الإمامة على الكون ، فيظهر الإمام المستور ، كما ظهرت الشمس من مغربها بظهور المهدى .

ومن أهم مؤلفات أبى حاتم الرازى . كتاب « الزينة » ، ويحتوى على ١٢٠٠ صفحة . وقد أهداه إلى الخليفة القائم الفاطمى ؛ وتناول فيه الأمور الفقهية ، وفلسفة ما وراء الطبيعة ، وبعض موضوعات أخرى كالفرق الدينية ، والمعلومات الجغرافية القيمة . ويقول الإسماعيلية إن ذلك الكتاب يبحث فى اللغة وحدها ، ولذلك لا يعدونه من كتبهم السرية . قال أبو حاتم فى مقدمته : « هذا كتاب فيه أسماء واستفتاحات ألفاظ ، وعبارات من كلمات عربية يحتاج الفقهاء إلى معرفتها ، ولا يستغنى الأدباء عنها ، وفى تعلمها نفع كبير ، وزينة عظيمة لكل ذى دين ومروءة »[٣] . ومن مؤلفات الرازى كتاب « أعلام النبوة » ، ويعد من أهم كتب فلسفة المذهب الإسماعيلى . وقد تناول فيه الكلام على نظريات الإسماعيلية فى الرسل ، وفى الله تعالى ، وفى النفس والهيولى والزمان والمكان ، وغيرها . وفى هذا الكتاب يرد الرازى على أحد الزنادقة الملاحدة . ولا يقل كتاب « الإصلاح »

---

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٤٧ .

(٢) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(٣) Ibid.

أهمية عن هذه الكتب . وقد ذكره حميد الدين الكرمانى ، داعى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى فارس . ويتكون من ٥٠٠ صفحة ، وترجع أهميته إلى ماأورده المؤلف من تأويل الآيات القرآنية ، وما ذكره عن الأنبياء[١]. ويذكر ابن النديم[٢] له كتاب « الجامع » ، وليس له الآن وجود . كما أنه غير معروف للبهرة من الإسماعيلية .

من هذا كله ترى كيف ساهم أبو حاتم الرازى فى الإشادة بعبيد الله المهدى ودولته ، وفى النهضة بالمذهب الإسماعيلى فى شرق المملكة الإسلامية ؛ كما ساهم فى محيط الثقافة الإسلامية عامة ، فتكلم فى الفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما إلى ذلك ، وحاول فى هذا كله أن يشرح نظريات الإسماعيلية ومبادئهم . ومع هذا فإن هذا العالم لم يسلم من اضطهاد السنيين ، وخاصة الديالمة ، واضطر إلى الاختفاء فى أخريات حياته ، ومات على ما يقال فى سنة ٣٢٢ ﻫ بعد تولية الخليفة الفاطمى القائم بقليل .

٢ — النسفى (٣٣١ ﻫ) .

ومن هؤلاء الدعاة العلماء أبو عبد الله بن أحمد النسفى البرذعى الذى قتل فى سنة ٣٣١ ﻫ ، فى غضون المحنة الكبرى التى ألمت بإسماعيلية المشرق . وكان قد تتلمذ على الداعى الأمير الحسين بن على المروروزى ، داعى خراسان ، وكان الحسين قد استجاب للداعى غياث ، كما كان من أعظم تلامذته علما ودراية . وقد نهج النسفى نهج أستاذه المروروزى فى التقرب إلى أمراء عصره ، وإلى كبار القواد فى حكومة نصر بن أحمد السامانى ؛ فلم يتوان النسفى فى أداء مهمته على أكمل وجه ، حتى استطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالى خراسان . ولم يكتف بما أحرز من نجاح فى هذه السبيل ، بل عبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى ، حيث نجح نجاحا هائلا . وكان لهؤلاء الأمراء جميعا الفضل فى معاونة النسفى ببخارى ، حتى

---

(١) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(٢) الفهرست ص ٢٤٦ .

تحوّل كثير من رجالاتها إلى المذهب الإسماعيلي . وبفضل هؤلاء وجد النسفي طريقه إلى قلب نصر بن أحمد ، الذي رحب بمبادئه وطلب رؤيته . وكانت هذه فرصة فريدة تمكن بها النسفي من جذب نصر بن أحمد ورجاله إليه . وكان نصر من أكبر معارضي المذهب الإسماعيلي ، فقبض على أستاذ النسفي وسجنه حتى مات - على ما تقدم . وقد استغل النسفي كل هذا للاشادة بزعامة عبيد الله المهدي ؛ فطلب دية أستاذه ، ومقدارها ١١٩ ألف دينار ليرسلها إلى الخليفة الفاطمي . فكانت موافقة الأمير نصر بن أحمد الساماني على دفع هذه الدية دليلا على إخلاصه للمذهب الإسماعيلي أولا ثم لعبيد الله المهدي ثانيا(١) .

والحق أن علاقة النسفي بالبيت الساماني تكوّن فصلا ممتعا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ببلاد المشرق في عهد عبيد الله الفاطمي ؛ فقد أصبح هذا الداعي العالم صاحب الأمر والنهي في دولة نصر بن أحمد الساماني ، واستغل هذا المركز الممتاز وضاعف جهده في جذب الناس إلى المذهب الإسماعيلي سرا وجهرا ، مما أثار عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنيين ، وخصوصا بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولأنصار المذهب الإسماعيلي .

ومما آل إليه مصير النسفي ، نستطيع أن نتبين مدى تغلغل المذهب الإسماعيلي في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما نستطيع أن نشاهد لونا من ألوان إخلاص الدعاة لمذهبهم ولخليفتهم الفاطمي ، كما نستدل على مدى ما كان يعانيه الدعاة المخلصون من عنت واضطهاد . فيرى ابن النديم(٢) أن نصر بن أحمد الساماني ندم في أخريات حياته على اندفاعه وراء النسفي ؛ ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرته ، فلما أفحموه ، قتله وقتل معه كثيرين من رؤساء الدعاة ووجوههم من قواد نصر الذين دخلوا في المذهب الإسماعيلي ، ومزقهم شر ممزق .

بيد أن نظام الملك يرى أن قواد نصر من السنيين دبروا مؤامرة خطرة على العرش الساماني ، لانضمام صاحبه إلى المذهب الإسماعيلي ، وتقربه من الإسماعيلية أنصار هذا

---

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسي ج ١ ورقة ٢٤٦ — ٢٤٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٢٦ .

المذهب . وقد استقر رأيهم على اغتصاب ملكه ، ووضع العرش فى يد كبير قواده . وأقام المتآمرون حفلا كبيرا يعلنون فيه بدء ثورة جامحة . إلا أن أحد المجتمعين تمكن من الفرار وأفشى سر هذه المؤامرة لنصر بن أحمد وابنه نوح ، فتحايلا على كبير القواد وقتلاه ؛ ثم خلع نصر بن أحمد نفسه ، وتولى بعده ابنه نوح الذى عمل على مطاردة الإسماعيلية بعد أن قتل النسفى . وإن ما حل بهؤلاء الإسماعيلية يعد نكبة كبرى ، حتى إنهم أطلقوا عليها اسم « المحنة العظمى » . ولا غرو فقد كان لهذه المحنة أثرها فى وقف انتشار الدعوة الإسماعيلية فى بلاد ما وراء النهر منذ ذلك الحين (أى منذ سنة ٣٣١ هـ) ، إلى أن رفع ناصر خسرو[٢] منارها بعد قرن ونصف قرن تقريبا . ثم تبعه فى ذلك الحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس الدعوة النزارية فى خراسان وفارس والشام . وهكذا قام النسفى بدور خطر فى الناحية السياسية بتأليف جبهة قوية موالية لعبيد الله المهدى ، كما قام بدور خطر أيضا فى الناحية المذهبية بنشر المذهب الإسماعيلى فى خراسان وما وراء النهر .

أما من الناحية العلمية ، فقد فاق النسفى كثيرا من الدعاة العلماء . ولا غرو فقد ذاعت شهرته فى عالم الأدب وفى فلسفة المذهب الإسماعيلى ، كما كان من أحرار الرأى فى خراسان . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المحصول » . ويظهر أن هذا المؤلف من الكتب التى تعرضت لشرح أصول المذهب الإسماعيلى ؛ وقد جاء فيه ، على ما ذكره صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » . أن المبدع الأول أبدع النفس ، ثم إن الأول والثانى مدبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع » . ويرى البغدادى : « أن هذا فى التحقيق معنى قول المجوس : إن اليزدان خلق أهرمن ، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم ؛ غير أن اليزدان فاعل الخيرات ، وأهرمن فاعل الشرور »[٣] . وقد لعبت يد الدهر بهذا الكتاب ، ولا نعرف عنه شيئا إلا عن طريق الكرمانى ، وكان

---

(١) سياسة نامة جـ ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨١ .

(٢) كان ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة فى عهد المستنصر الفاطمى الذى عينه نائبا له «حجة» فى خراسان وبادخشان ؛ فكون جماعة هنالك يعرفون بالناصرية ، وهم يخضعون اليوم لأغاخان .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ .

داعى الحاكم ، فى كتابه «الرياض» ، وكان النسفى فى هذا الكتاب يرمى إلى التوفيق بين أبى حاتم الرازى وزميله أو تلميذه أبى يعقوب السجستانى . ومن ذلك نرى إلى أى حد بلغت حرية الرأى فى مستهل قيام الدولة الفاطمية التى كانت تشجع الأفكار الحرة ، والآراء الفلسفية ، وتعقد المناظرات الدينية والعقلية دون أن تلقى معارضة تذكر » [١] . ويقول البغدادى[٢] : إن الشعرانى داعية عبيد الله بالمشرق لما مات ، « قام بدعوته بعده محمد بن أحمد النسفى ، داعيـة أهل ما وراء النهر . . . وصنف النسفى لهم كتاب المحصول » .

ولم يكن هذا كل ما بذله النسفى من جهد فى التأليف ؛ فقد ألف أيضـا كتاب « عنـوان الدين » ، وكتاب « أصول الشرع » ، وكتاب « الدعوة المنجيـة » [٣] ، وكتاب « كون العالم » ، وهو خاص بالفلك ووصف العوالم « الكوزموجراف » ، لكنه مؤسس على المبادىء الدينية ، وقد عثر عليه ضمن مجموعة خاصة . ومن الغريب أن ذلك الداعى العالم الفيلسوف غير معروف لإسماعيلية اليوم [٤] .

٣ — السجزى (٣٣١ هـ)

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلى ودعاته ، أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزى أو السجستانى ، ويلقب دندان . وكان من كبار الدعاة ، كما كان اليد اليمنى للداعى النسفى ؛ وكان الجدل والمناظرة يقومان على قدم وساق فى مسألة النبوة التى شغلت أذهان المفكرين وقتئذ . وقـد أولى الفلاسفة وأحرار الرأى هذا الموضوع كثيرا من العناية ، حتى أضحى عامة الدعاة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى من أحرار الرأى ، أو على الأقل ، كانوا يتظاهرون بذلك لنشر مبادئهم تحت ستار هذه

(١) Dr. Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٧ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 35.

الحرية في الرأي . وقد أدرك أبو يعقوب السجزي هذه النهضة ، وهذه المساجلة العلمية . وأدرك أستاذه الرازي الداعي الأول ، ورآه يناظر الطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي في كتابه «أعلام النبوة». فساهم أبو يعقوب في هذه المناظرة ، واتخذ من الفلسفة سلاحا شهره على نقاد المذهب الإسماعيلي ؛ فكان بهذا علما من أعلام الدعاة الإسماعيلية، وأحد المفكرين الذين قاموا بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي [(١)] .

ولأبي يعقوب مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي في ذلك الحين بوجه عام ، وفي نهضة فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص . وقد ذكر عبد القاهر البغدادي بعض هذه المؤلفات فقال : « وصنف لهم أبو يعقوب السجزي كتاب « أساس الدعوة » ، وكتاب « الشرائع » ، وكتاب « كشف الأسرار »[(٢)] . وقد ذكر إيفانو أكثر من عشرين مؤلفا للسجزي ، ولا يزال أكثرها يتمتع به البهرة — وهم الإسماعيلية الحديثون — اليوم . ولا نستطيع أن نتتبع هذه المؤلفات جميعها بالبحث ، وإنما نتناول أهمها وأعظمها أثرا .

١ — كتاب إثبات النبوة ، وينقسم إلى سبع مقالات ، وتشبه المقالة الباب ، وتنقسم كل مقالة إلى ١٢ فصلا . ويتناول السجزي في كتابه هذا موضوع إثبات النبوة من جميع النواحي ، أي من الناحية الطبيعية والناحية الروحية ، وغير ذلك ، ويتعرض لذكر الأمور التي تتفق عليها الرسل ، والتي يختلفون فيها . وأهم من ذلك كله ما ذكره السجزي عن أدوار الرسل ، والأدلة على إثبات نبوة محمد ﷺ ، وتعرض لما أسماه عجائب القرآن والشريعة [(٣)].

٢ — كتاب الينابيع ، وهو في حوزة البهرة ، وينقسم إلى أربعين ينبوعا ، تناول

---

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ .

(٣) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 34, 35.

فيه موضوعات كثيرة أهمها : «ماهية المبدع ، وعالم العقل والنفس ، والزمان والمكان والهيولى ، وسبب الخلق ، وبدء الخليقة ، والملائكة ، وعدم قابلية العقل للفناء . ومعانى الجنة والنار ، ومعنى صلب عيسى ، وهوية القائم ، والوحدة والتعدد ، والبعث والثواب والعقاب ، والفرق بين تأييد الله وتأييد الخلق [١] . ويرى الدكتور حسين الهمدانى أن الدعاة كانوا يترسمون فى مؤلفاتهم نظام التأليف الذى سلكه أبو يعقوب السجزى فى كتابه « الينابيع » ، حتى إننا إذا وازنا بين كتاب زهر المعانى القيم ، الذى ألفه الداعى إدريس عماد الدين عن الدعوة الإسماعيلية ، وبين كتاب الينابيع هذا ، لوجدنا أن الخطة التى انتهجها الداعى إدريس هى نفس الخطة التى انتهجها السجستانى من قبل [٢] .

٣ — كتاب الموازين ، وقد قسمه السجستانى إلى تسعة عشر ميزانا ، تكلم فى كل ميزان منها عن أمور تمت لأصول المذهب الإسماعيلى بصلات وثيقة : فتناول فى أحد موازينه « معرفة الحقيقة » ، وفى آخر وجوب معرفة « المبدع » ، وفى آخر « العقل » ومعرفة أسمائه ، كما قصر أحد الموازين على الفروع الثلاثة المتفرعة عن « الأصلين » [٣] (العقل والنفس) . ومن أهم هذه الموازين ما وقفه على النطقاء ، والأسس والأئمة ، والحجج والدعاة ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى تفيد الباحث فى تاريخ التطور العقلى للمذهب الإسماعيلى [٤] .

٤ — كتاب النصرة ، وقد علق فيه على كتاب المحصول الذى نسبناه إلى النسفى ، وإن كان بعض الإسماعيلية ينسبونه إلى الكرمانى ، داعى الفاطميين فى فارس فى عهد الحاكم بأمر الله ؛ ويظهر أن هذا الكتاب قد ضاع ، وأن الكرمانى كان قد اطلع عليه وأشار إليه فى كتابه .

هؤلاء هم أشهر دعاة عبيد الله فى بلاد المشرق . وقد استطاعوا أن يرفعوا علم

---

(١) Ibid.

(٢) Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933), p. 267.

(٣) الأصلان : هما العقل والنفس ، والفروع الثلاثة : هى الزمان والمكان والهيولى .

(٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 34.

الدعوة هناك عاليا ، وأن يجذبوا الأمراء إلى عبيد الله المهدى . وأهم من ذلك كله أنهم ساهموا فى النهضة الإسلامية العقلية فى ذلك الحين ؛ فلم يكونوا كغيرهم من علماء المذاهب الأخرى ، فى عزلة عن الحياة الثقافية التى تحيط بهم . ويظهر أن مدارس الدعوة التى أسسها عبيد الله ، كان لها أثر كبير فى تغذية هؤلاء الدعاة بالحيوية والمبادىء التى تساعد على جذب الناس إليهم ، كما كانت تمد هذه البلاد من حين إلى حين بدعاة درسوا فى تلك المدارس ، وتخرجوا على كبار أساتذتها .

٤ — عبيد الله والدعوة الاسماعيلية فى بلاد الأندلس :

كان لمدارس الدعوة التى أنشأها ونظمها عبيد الله فى المهدية وسواها ، أثر كبير فى تخريج جماعة من الدعاة الذين استطاعوا أن ينشروا الدعوة فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى ، وبخاصة فى بلاد الأندلس . حقيقة كانت هذه المدارس تضاعف الجهد لتجديد النشاط المذهبى فى البلاد التى كان ينتشر فيها المذهب الإسماعيلى من قبل ، كمصر والشام واليمن والبحرين والعراق وفارس . ولكن انتشار الدعوة الإسماعيلية فى الأندلس بصورة جدية ، وعلى يد حكومة إسماعيلية هى الدولة الفاطمية ، كان شيئا جديدا فى تاريخ المذهب الإسماعيلى(١).

وكانت محاولة نشر الدعوة فى إسبانيا نوعا من الصراع بين السنية Sunnism والتشيع الإسماعيلى Ismailism ، وقد انتهز عبيد الله ثورة ابن حفصون على الأمويين بالأندلس فى عهد كل من عبد الله بن عبد الرحمن الثانى (٢٧٥ — ٣٠٠هـ) وعبد الرحمن الناصر الثالث (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ، وعقد الصلح مع ابن حفصون الذى اعترف له بالزعامة ؛ ومن ثم أخذت عيون الفاطميين ودعاتهم يجوبون شبه

---

(١) فى الحق أن الدعوة للفاطميين الاسماعيليين كانت قد شقت طريقها إلى الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . ولا نعرف متى تم ذلك ، وهل كان فى عهد الحلوانى وأبى سفيان داعيى الاسماعيلية الأولين ، أم فى عهد أبى عبد الله الشيعى ؟ المهم أن الدعوة للمهدى قد راجت فى تلك البلاد قبل قيام الدولة الفاطمية ، حتى إننا نرى بعض فقهائها يعتقدون صحة النبوءة القائلة بظهور أحد أبناء فاطمة وحكم بلاد الأندلس ، واستيلاءه على القسطنطينية ، وقتله مسيحيى قرطبة . وإذا كانت هذه الأفكار قد وجدت طريقها إلى عقول الطبقة المستنيرة ، فإنها لاشك قد غيرت عقول كثير من الناس هناك .

جزيرة أيبريا من أقصاها إلى أقصاها ، فى زى التجار . وقد ذهب دوزى إلى القول باحتمال إنشاء الفاطميين مدرسة لهم فى إسبانيا ، وبعبارة أخرى عمل عبيد الله المهدى على غزو بلاد الأندلس فكريا ومذهبيا ، حتى يمهد للفاطميين سبيل الاستيلاء على هذه البلاد . ومن ثم عهدوا فى إدارة تلك المدرسة الإسماعيلية والإشراف عليها . إلى ذلك العالم الفيلسوف ابن مسرة ، وكان أحد دعاتهم . وكانت له فلسفة دينية خاصة تتمثل فيها الصراحة ، مما عرضه إلى الاضطهاد ، واضطر إلى الخروج من بلاد الأندلس والاتجاه نحو المشرق ودراسة المذاهب الإسلامية فيها ، والاتصال بالإسماعيلية سرا ، إلى أن أصبح واحدا منهم . ولما عاد إلى وطنه لم ينشر آراءه على طريقته الصريحة التى امتاز بها من قبل ، بل أخذ يعمل فى الخفاء ويتظاهر بالتقوى والورع ، حتى تمكن من نشر آرائه . وسواء أكان ابن مسرة من دعاة الفاطميين أم لم يكن ، فإن هؤلاء الفاطميين لم يتركوا وسيلة لتكوين أنصار لهم فى بلاد الأندلس إلا اتبعوها ، وقد نجحوا فى عهد عبيد الله المهدى إلى حد كبير . ولو قدر لهم النجاح ، وواصلوا بذل جهودهم هنالك ، لوجدوا فى هذه البلاد مرتعا خصيبا لمبادىء المذهب الإسماعيلى ، ولانضم إلى مذهبهم كثير من أهلها (١) .

٥ - التنظيم الداخلى للدعوة الاسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى

لم تقتصر جهود عبيد الله على تقرير العلاقة بينه وبين أتباعه فى خارج بلاد المغرب ، بل كان لزاما عليه أن ينظم الدعوة الإسماعيلية بعد قيام الدولة الفاطمية حسب الوضع الجديد . فهل يستطيع أن يجعل رعايا دولته جماعة إسماعيلية بحتة ، شأنه فى ذلك شأن قرامطة أبى سعيد ثم النزارية من بعده ؟ سنرى أن عبيد الله بذل جهودا كبيرة لتحويل رعاياه إلى مجتمع إسماعيلى خالص ، ولكنه عجز عن تحقيق هذه السياسة ، فاضطر إلى وضع نظام جديد يقضى بأن تحكم أقلية من الإسماعيلية أكثرية من غير الإسماعيلية . ولذلك اضطر عبيد الله المهدى إلى تنظيم الدعاية المذهبية ،

(١) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, vol. iii. pp. 127-8.

بحيث تلائم هذا الوضع الجديد ، فأسس مدارس أطلق عليها مدارس الدعوة . كما عمل عبيد الله على أن يكون الحاكم المطلق فى داخل إمبراطوريته وفى خارجها ، فحدّ من نفوذ زعماء دعوته ، ليشعرهم بنفوذه وسلطانه ، وتخلص من كثير من هؤلاء الذين اعتبرهم خطرا على خلافته وإمامته ؛ ففتك بأبى عبدالله الشيعى ، وأخيه أبى العباس ، وغيرهما من الشخصيات البارزة فى ملكه والمناوئة لنفوذه وسلطانه .

(ا) علاقة عبيد الله برعاياه

قامت الدولة الفاطمية ـ كما رأينا ـ على أسس مذهبية بحتة ، تتلخص فى أن آل بيت الرسول من على وفاطمة أحق الناس بزعامة المسلمين ؛ إلا أن كثيرا من الرعايا السنيين لم يتفقوا معهم فى دعوتهم . أضف إلى ذلك عدم اغتباط جميع مفكرى الإسماعيلية بظهور العقل الكلى[١] فى شخص الإمام عبيد الله المهدى الفاطمى . فمن عقائد الإسماعيلية حلول الله فى رؤسائهم ؛ فلما استقر عبيد الله المهدى فى بلاد المغرب ، وظهر بعد استتار ، رأى أن يقرر فى أذهان رعيته ـ على ما يقوله السنيون ـ كثيرا من مبادىء الإسماعيلية المتطرفة ، فأظهر التشيع ، ونشر بعض أمور تخالف فى كثير من الأحيان قواعد الإسلام .

والآن نعرض لآراء السنيين فى سياسة عبيد الله مع رعاياه ، ثم نوازن بينها وبين آراء الإسماعيلية أنفسهم .

يقول ابن عذارى المراكشى[٢]: « أظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب

---

(١) Goldziher : Le Dogme et la Loi de l'Islam, p. 205.
يعتقد الاسماعيلية بنظرية الحلول ، ويقولون ، إن العقل الكلى ... يمكن أن يحل فى أشخاص الأنبياء أو الرسل الذين يسميهم الاسماعيلية ,, النطقاء ،، . فالناطق عندهم حلول للعقل الكلى ، ويرون أن آدم عقل كلى ، ومحمدا ، صلى الله عليه وسلم عقل كلى كذلك . ويعتقدون مثل ذلك فى النفس الكلية Ame Universelle ؛ ويرون أن النفس الكلية تحل فى أشخاص الأئمة ، وأن هاتين الصفتين النطق والامامة ، قد اجتمعتا فى أشخاص أئمتهم . وقد تركزت فى محمد بن إسماعيل ناطقهم السابع ، الذى ورّث أبناءه الأئمة المستورين صفتى النطق والامامة معا ، فأصبحوا جميعا رمزا لحلول العقل الكلى والنفس الكلية . ويتمتع عبيد الله الامام المستودع ، بهذه الصفات .

(٢) البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

أصحـــاب النبي وأزواجه حاشا على بن أبى طالب ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، وأبى ذر الغفارى ؛ وزعم أن أصحاب النبى ارتدوا بعـده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنـع المرّوزى الفقهاء من أن يفتى أحدهم إلا بمذهب . . . منه إحاطة البنات بالميراث ، وأشـياء كثيرة يطول ذكرها . وقـــد مدح الشعراء عبيد الله بالـكفر فاستجازه ؛ وكان فيما مدح به شعر لمحمد البديل كاتب أبى قضاعة ، وفيه :

حـــل برقّـادة المسيحُ حـل بهـــا آدم ونوحُ
حـــل بها أحمد المصفى حـل بها الـكبش والذبيح
حـــل بها الله ذو المعالى وكل شىء سـواه ريح

وكانت يمين أهـل إفريقية (تونس) : « وحقّ عالم الغيب والشهادة ، مولانا المهدى الذى برقادة » ، حتى كتب بعض أحداث القيروان هذين البيتين ، وتلطفوا فى وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم وهما :

الجور قـــد رضينا لا الـكفر والحماقهْ
يا مدعى الغيـــوب ! مَن كاتب البطاقهْ ؟

ويدعى السنيون أن عبيد الله قطع صلاة التراويح ، وأحدث فى الصلاة أمورا لم يألفها المسلمون السنيون ، مثل القُـنوت فى صلاة الجمعة قبل الركوع ، وزيادة « حى على خير العمل ، محمد وعلى خير البشر » مرتين مرتين ، وقول المؤذن : « أحياك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ، جامع شمل الإسلام والمسلمين ، وأعز بسلطانه جانب الموحدين ، وأباد بسيوفك كافة الملحدين ، وصلى عليك وعلى آبائك الطاهرين ، وأبنائك الأكرمين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »[1] .

ولم يقتصر السنيون على ذلك الاتهام ، بل قالوا : إن عبيد الله كان يعمل على هدم الإسلام متسترا بالتشيع[2]، وهذه التهمة نفسها هى التى رموا بها عبدالله القداح ،

(١) ابن حماد : أخبار بنى عبيد وسيرتهم ص ١٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٠١ .

ولكننا لا نستطيع أن نصدق جميع ما رمى به . ولا بد أن يكون ذلك الاتهام راجعا إلى ما ذهبنا إليه ، وهو أن عبيد الله المهدى كان يخلص لقواعد المذهب الإسماعيلى ، ويعتقد أن حركة هذا المذهب حركة إصلاحية شاملة ، وأنه بفضل هذه الحركة يمكن أن ينتشل الإسلام من الهوة التى تردى فيها ؛ لحاول إدخال هذه القواعد بين السنيين ، فعدوها كفرا وإلحادا ، وقالوا فيه : « كان زنديقا خبيثا ، عدوا للاسلام، متظاهرا بالتشيع ، متسترا به ، حريصا على إزالة الملة الإسلامية[1] » .

ومما لا نزاع فيه أن المهدى ودعاته كانوا يعملون على أن يحل المهدى من قلوب الرعايا أسمى مكانة ، فأخذوا يذيعون بين الناس عنه كثيرا من الصفات التى تحوطه بهالة من التقديس ؛ وأسرف الدعاة فى ذلك ، حتى إنهم كانوا يقول بعضهم لبعض : هو المهدى ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه ، ويقول بعضهم لبعض : هو رسول الله ، ويقول بعض لبعض آخر : « هو الله الخالق الرازق[2] » .

ويرى ابن الأثير[3] أن عبيد الله حاول نشر المذهب الإسماعيلى قسرا بين الناس ، فيقول : « وأمر عبيد الله يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة فى البلاد ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ، ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعوهم إلى مذهبهم : فمن أجاب أحسن إليه ، ومن أبى حبس ؛ فلم يدخل فى مذهبهم إلا بعض الناس ، وهم قليل ، وقتل كثيرا ممن لا يوافقهم على قولهم » . ويرمى عبيد الله أيضا بأنه قتل جماعة من العلماء السنيين لم يعترفوا بأنه رسول الله .

وإذا كانت هـــذه نظرة العلماء السنيين إلى عبيد الله ، وعلاقته المذهبية برعاياه السنيين ، فإن المراجع الإسماعيلية تؤكد غير ذلك ، وتبين أن المهدى وغيره من الخلفاء الفاطميين كانوا يسيرون وفق الشريعة الإسلامية ، على ما أنزل الله ، وشرعة الرسول ، دون زيغ ، ويضربون الأمثـــلة الكثيرة التى تنقض دعاوى

---

(١) القاضى عبد الجبار : تثبيت النبوة (من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين) ج ١ ص ٢٠١

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠١ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ١٨ .

السنيين . يقول النعمان المغربي[1] : « بلغنا عن المهدي أن رافعا رفع إليه نصيحة فيما زعم ، يقول فيها : إن العامة لو طولبوا فيها بمذاهبهم ، وأجرى الحكم بها عليهم في تركهم توريث ذوي الأرحام ، وردهم ذلك كثيرا في قول كثير منهم إلى بيت المال ، لكان في ذلك توفير للمال من حيث لا ينكرونه ولا يدفعونه . وإن المهدي ﷺ أنكر ذلك من قوله ، واستشاط غضبا عليه ، وأمر بطلبه وقال : ما أراد هذا بما قال إلا الطعن علينا ، وأن نحكم بخلاف ما أنزل الله ؛ وإنما أقامنا الله جل ذكره لنقيم دينه لعباده ، لا لنستكثر من دنياهم بما يأتي من غير حله » .

وهذا من غير شك يبطل ما أتى به السنيون في الطعن على عبيد الله ، بل إن الإسماعيلية يرون أن عبيد الله المهدي إنما أنقذ العالم بإزالة الضلال ، ونشر الدين الحق ؛ لأنه « استأنف دعاء جديدا إلى الله ، لما غيرت السنن ، وكثرت البدع ، وتغلب أئمة الضلال ... فلما أنجز الله بالدعاء للأئمة ما وعدهم به من ظهور مهديهم ، احتاج أن يدعوهم دعاء جديدا ، كما ابتدأهم ﷺ بالدعاء أولا »[2] .

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الإسماعيلية يرون أن مذهبهم إنما قام ليحل محل الإسلام ، حتى قالوا في عبيد الله المهدي : إنه « قائم الزمان ... الذي يجمع الله له أمر العباد ، ويظهره على الدين كله[3] » . ولو أخذنا بما أورده هؤلاء الإسماعيلية في المهدي ، لكان كثير مما وصف به السنيون المذهب الإسماعيلي غير صحيح . لكن ينبغي أن نفهم أن كتابي المجالس والمسايرات ، وشرح الأخبار وغيرهما ، هي من كتب الظاهر Exoteric Works التي تتفق مع التشريعات السنية ؛ ولا يبعد أن يكون كثير مما ذهب إليه السنيون صحيحا ، كما لا يبعد أيضا أن يكون الحال على عكس ذلك في كتب الباطن Esoteric Works . وخير مثل لذلك ما نقرؤه في مخطوط « عقيدة الإسماعيلية » الذي نشره جويار ، فقد وردت فيه فصول قيمة عن حقيقة المذهب الإسماعيلي ، وعلى الأخص ما أورده عن تأليه المعز لدين الله . أضف إلى ذلك أن كثيرا من كتب الإسماعيلية التأويلية الرمزية ، تدل على أن

---

(١) المجالس والمسايرات (مخطوط) ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ .

(٢) كتاب شرح الأخبار (نشره إيفانو) ص ١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧ .

كتب الظاهر الإسماعيلية ، إنما وضعت للرد على السنيين ، وأنها كثيرا ما تتغاضى عن ذكر حقيقة المذهب الإسماعيلي .

(ب) توجيه الدعوة لمصلحة الدولة

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ ه ، وكان قيامها أقصى ما نالته الدعاية الإسماعيلية من نجاح فى دورها الأول . ولم يحقق قيامها فى بلاد المغرب جميع أغراضها ؛ فلم يكن بد إذن من أن تزعم هذه الدولة على العالم الإسلامى ، ولا يمكنها أن تحقق ذلك إلا إذا بذلت جهودا كبيرة ودماء غزيرة . وقد تبين لعبيد الله ، رئيس الدعوة الإسماعيلية ودولتها ، استحالة تحقيق كل آماله بحدالسيف وإراقة الدماء ؛ ولذلك وجه نشاطه إلى تنظيم الدعاية لمصلحة الدولة ، ليغزو العالم الإسلامى بهذه الدعاية ، وليكون له فى كل صقع من أصقاعه أنصار ومستجيبون . ومن ثم أصبح من أهم ما ترمى إليه الدعوة الإسماعيلية ، المحافظة على المذهب الإسماعيلي ، ثم مناصرة الدولة الفاطمية[1] ؛ وهذا يجعلنا نعتقد أن المذهب الإسماعيلي قد نهض على يد الفاطميين نهضة بعيدة كل البعد عن ذلك الروح الوثاب الذى أوجده عبد الله بن ميمون وأبناؤه فى جماعة الإسماعيلية : فبينما يرى الفاطميون ، وعلى رأسهم عبيد الله ؛ استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة ، كان مؤسسو المذهب الإسماعيلي الأوائل ، أئمة وحججا ، يرون استخدام الدعوة لتكوين دولة تهدف إلى هدم العباسيين ، وبسط نفوذها على أنقاض دولتهم ، وذلك بحمل السيف ، وإراقة الدماء ، وإذاعة عقائد المذهب الإسماعيلي فى صراحة مطلقة . وقد سار القرامطة على هذه السياسة بعد قيام الدولة الفاطمية نفسها ، مخالفين فى ذلك سياسة عبيد الله المهدى ، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، تلك السياسة التى كانت تقوم على الدهاء والمكر ، مما حدا بعض المؤرخين على أن يعزو أسباب النزاع الذى قام بين القرامطة والفاطميين إلى هذا الأمر وحده .

وإذن فقد رأى عبيد الله بعد أن أخفق فى تعميم مذهبه بين رعاياه ، ونشر

---

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (JRAS, 1933), p. 366.

مبدأ تقديس الأئمة بين المغاربة خاصة ، أن لا ينشر خصائص الدعوة الإسماعيلية بين العامة ، كما رأى وجوب إخفاء حقيقة مذهبه ، والاعتماد على هذه المدارس التى أطلق عليها اسم مدارس الدعوة ، لبث عقائد المذهب الإسماعيلى بين الأشياع سرا ، بمعنى أنه أراد أن تكون مدارس الدعوة أداة اتصال بينه وبين أشياعه ، لا بينه وبين رعاياه عامة ، حتى تظل زعامته عليهم قائمة ، ويظل المذهب الإسماعيلى رائجا بينهم . وبعبارة أخرى ، بدأ عبيد الله ، بإنشائه مدارس الدعوة ، فى تنفيذ سياسته المزدوجة ، حتى يظهر أمام رعاياه ، علويا صريحا يأخذ بناصر العلويين ، ويبطن المذهب الإسماعيلى ومبادئه فى الوقت نفسه ، ويشجع هذا المذهب سرا عن طريق هذه المدارس وغيرها من وسائل الاتصال مع الأشياع البعيدين خاصة . وإنما فعل عبيد الله ، ذلك ، لأن المغاربة وعامة أهالى شمالى إفريقية كانوا ، كما يقول دوزى[١] ، أصعب مراسا من المشارقة فى فهم أسرار المذهب الإسماعيلى . فكان يتعذر عليهم فهم تأويل القرآن والحديث والفقه ومظاهر الكون على أساس تأويل الإسماعيلية ؛ فلا يستطيعون مثلا أن يفهموا بأن الشيطان المقصود بقوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر[٢]) هو عمر بن الخطاب ، وأن « الانسان » هو أبو بكر ، وأن معنى « اكفر » : لا تقل بإمامة على بن أبى طالب ، كما لا يستطيعون أيضا فهم قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ؛ فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)[٣] ، بأن هناك موتا عرضيا وموتا أبديا ، وأن الموت العرضى يقصد به عدم نشاط الحجج مع وجود الإمام الظاهر . وأما الموت الأبدى فهو عدم الهداية إلى المذهب الإسماعيلى ، إلى غير ذلك . كما لا يستطيعون فهم عدد الحجج بعدد فقرات الظهر (١٢) ، ولا عدد الأئمة بعدد فقرات الرقبة (٧) وفتحات الوجه ، إلى غير ذلك مما لم يكن يألفه المغاربة . وهذا وحده يفسر لنا لماذا أمّحى المذهب الاسماعيلى فى شمال إفريقية ، على حين ظل قويا منتشرا فى بلاد المشرق ، وانبعث اليوم على يد أغا خان وأنصاره الأغاخانية أو الخوجات ، وعلى يد البهرة أنصار الامام الطيب ابن الخليفة الآمر وأبنائه.

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne (vol. iii. p. 124.)

(٢) سورة الحشر آية ١٧ .

(٣) سورة الزمر آية ٤٢

على أن هناك أمرا آخر قد حدا بعبيد الله المهدى إلى إيجاد مدارس الدعوة ، ذلك أنه بقيام الدولة الفاطمية وتربعه على عرشها ، انتهى دور من أدوار التاريخ الإسماعيلى ، هو دور الستر ، وبدأ دور آخر هو دور الظهور . ولكل دور من هذين الدورين نظامه الخاص فى نشر الدعوة ، كما أن لكل منهما فلسفته الخاصة : فبينما يدعو الدعاة فى الدور الأول لإمام مستور ، إذا بهم يدعون فى الدور الثانى لإمام ظاهر ؛ وبينما هم فى الدور الأول يثيرون حماسة أشياعهم لنصرة هذا الإمام المستور بحد السيف حتى يظهر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، إذا بهم فى دور الظهور يحوطونه بهالة من التقديس والإجلال ، ولا يلجئون إلى إثارة حماسة الأشياع على حمل السيف إلا عند الضرورة القصوى . ولن يستطيع عبيد الله المهدى أن يحوّل أشياعه عن تلك السياسة إلا عن طريق مدارس منظمة ودعاة مرنوا على هذا .

ومهما يكن من شىء فإن مدارس الدعوة راجت فى المهدية — قاعدة الدولة الفاطمية الناشئة — فى عهد عبيد الله . ثم راجت فى المنصورية فى عهد حفيده المنصور ، ثم فى القاهرة فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ؛ وعرفت هذه المدارس فى مصر باسم « مدارس الحكمة » ، التى كان لها شأن كبير فى نشر الثقافة الإسماعيلية . ومن هذه المدارس كانت دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله ؛ ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصورا على القاهرة ، بل تجاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسة ، أو بحارها وجزرها ، كما كان يطلق عليها فى ذلك الحين . وكانت الدولة الفاطمية تهتم فى هذه المدارس بتخريج دعاة ينبثون فى عامة البلاد الإسلامية لينشروا المذهب الإسماعيلى بين الناس ، ويكونوا أداة اتصال بين رياسة الدعوة والدولة وبين أشياعهم المسيحيين . وليس معنى ذلك أنه لم تكن ثمة مدارس فى الدور القداحى ، أى دور الستر ، بل كانت هناك مدارس كثيرة فى سلمية والأهواز وغيرهما من نواحى العالم الإسلامى . والفرق بين هذين النوعين من المدارس هو ، كما سبق ، أن الأولى كانت مندفعة دائما نحو السياسة الهدامة ؛ فكانت تعمل على قلب حكومة بغداد وشغلها عن الإمام الإسماعيلى المستور . وأما المدارس الفاطمية فقد أخذت تندفع فى تيار السياسة الفكرية ، وبعبارة أصح، كان الغرض الأول الذى ترمى إليه تعاليم تلك المدارس ، هو مناصرة الفاطميين والدفاع عنهم . ونرى ذلك

واضحا جليا فى مؤلفات الدعاة فى هذا العصر . ويرى الدكتور حسين الهمدانى أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الدعوة الإسماعيلية فى ذلك الحين ، كانت ترمى إلى عبادة الأئمة ورؤسائها ، وإنما كانت على العكس ترمى إلى وضع نظام دينى على رأسه أهل البيت (١) .

وفى الحق أن عبيد الله وأنصاره ، من كبار الإسماعيلية خاصة ، رأوا أن يروجوا تلك الحركة الإصلاحية الخطرة ، التى تنادى بالإصلاح الشامل ، والتى انتشرت فى معظم بقاع العالم الإسلامى وخاصة الشرقى منه . وتتصف هذه الحركة — على مايقوله ماسنيون (٢) — من الناحية العلمية بانتشار اصطلاحات وتعاليم وآراء هلينية ، كما تتصف من الناحية السياسية بنشر آراء سرية تنادى بأحقية العلويين والغض من شأن العباسيين ؛ وأما من الناحية الدينية فتتصف باستخدام تعاليم ذات طابع خاص يتفق مع اعتقادات جميع الناس . وكان هذا الاتجاه الدينى السياسى الأدبى من أخطر الأشياء على الإسلام والمسلمين فى القرن الرابع الهجرى خاصة . وقد اعتمد عبيد الله المهدى فى ترويج تلك الحركة الإصلاحية الشاملة على مدارس دعوته التى قامت بمهمتها خير قيام ، والتى أنجبت فيما بعد دعاة من الأفذاذ ، مثل جعفر بن منصور اليمن ، صاحب المؤلفات الكثيرة فى الدور المغربى ، وأبى حاتم الرازى وغيره ممن ذكرنا . والخلاصة أن عبيد الله الفاطمى بذر بذور مدارس الدعوة الفاطمية الجديدة ، ثم جنى خلفاؤه ثمار ما بذر .

(حـ) أبو عبد الله الشيعى يلاقى مالاقاه أبو مسلم الخراسانى

صادف عبيد الله المهدى منذ اعتلى عرش الفاطميين بإفريقية مصاعب جمة ، أهمها وجود منافسين كثيرين فى داخل بلاده ، سنيين كانوا أو شيعيين ؛ فكان حتما عليه أن يتخلص من هؤلاء . ويتهم السنيون عبيد الله بأنه استباح لنفسه قتل العلماء المسلمين السنيين ، لمنافستهم إياه ، ومعارضتهم مذهبه الإسماعيلى (٣) . ولا نستبعد ذلك على

(١) Some Unknown Ismaili Authors (JRAS, 1933),p.366.

(٢) عجب نامه ص ٣٢٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ .

عبيد الله ، الذى كان يعتقد أن المذهب الإسماعيلى حركة إصلاحية شاملة ، وأن الإسلام قد تطرق إليه الضعف والوهن . ولكن الغريب حقا أن نرى عبيدالله المهدى يعمل على التخلص من أبى عبد الله الشيعى ، الذى أخلص له ولآبائه وأئمته ، وأجلسه على العرش بعد أن ذاق الأمرين . أضف إلى ذلك أن أبا عبد الله لم يستبد بهذا الملك الذى أثله بيديه ، ولم يقلد ابن فضل الجدنى فى اليمن ، ولا أبا سعيد فى البحرين ، فى محاولتهما الاستقلال بالبلاد التى فتحاها باسم المذهب الإسماعيلى . إذن فما العوامل الحقيقية التى دفعت عبيد الله المهدى إلى التخلص من أبى عبد الله الشيعى ؟

يغلو بعض العلماء السنيين ، فيرمى المهـــدى بالإسراف فى العبث بالشريعة الإسلامية ، وخروجه على الدين الإسلامى ، وبأن أبا عبد الله الشيعى لم يرض عن هذه السياسة واحتج على المهدى ، فكان ذلك سبب قتله . يقول عريب بن سعد :(١) « كان عبيد الله يعرف أول دخوله القيروان بابن البصرى ، فأظهر شرب الخمر والغناء ، فقال المحتسب : ما على هذا خرجنا ، وأنكر فعلته . فدس عليه عبيد الله رجلا من المغاربة فقتله » . ولا يعقل أن يثور أبو عبد الله على رئيسه تمسكا منه بالشريعة الإسلامية ؛ لأن الجميع يؤمنون بمذهب واحد ، يقدسون فيه رؤساءهم ، ويرون أنه لا عيب مطلقا إذا شربوا الخمر ، لأنه « لا جناح عليهم فيما طعموا » . كما أن المشهور عن أبى عبد الله أنه كان ينادى بمبدأ الحلول ، ويرى أن المهدى حلول لآدم فمحمد ﷺ (٢)؛ وهذا يجعلنا نعتقد أن هناك سببا آخر غير ذلك .

ويظهر أن عبيد الله أدرك خطر بقاء أبى عبد الله الشيعى فى بلاد المغرب ، حتى لا يفتتن الناس به ، فيضعف ذلك من نفوذه . ويظهر أيضا أن نفوذ أبى عبد الله فى بلاد المغرب كان عظيما ، حتى إنهم نادوا بعودته بعد مقتله . وما كان لهم أن يفعلوا ذلك لو لم يكن ذا مركز ممتاز بينهم . ولا شك أن أبا عبد الله الشيعى كان موضع ثقة كثير من الكتاميين ، مما أثار عليه حنق مولاه المهدى . ومما لا شك فيه أن المهدى كان يميل بطبيعته إلى الاستبداد بالأمور ، والاستئثار بها دون سواه ؛ ولابد أن يكون أبو عبد الله قد رغب فى الاحتفاظ بنفوذه قويا بين المغاربة ، كما رغب فى

(١) صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٢٨

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد ج ١ ورقة ٢٤٢ .

الاحتفاظ بمركزه الممتاز بالقبض على زمام الأمور . فلما استلب منه المهدى هذا النفوذ ، عز عليه ذلك وتآمر عليه . وفى الحق أن المهدى : « باشر الأمور بنفسه ، وكف يد أبى عبد الله ، ويد أخيه (أبى العباس) ، فداخل أبا العباس الحسد وعظم عليه الفطام عن الأمر والنهى ، والأخذ والعطاء . فأقبل يزرى على المهدى فى مجلس أخيه ، ويتكلم فيه وأخوه فيها ، ولا يرضى فعله ، فلا يزيده إلا لجاجا . ثم إنه أظهر أبا عبدالله على ما فى نفسه وقال له : ملكت أمرا فجئت بمن أزالك عنه ، وكان الواجب ألا يسقط حقك ، ولم يزل حتى أثر فى قلب أخيه »[1].

وإن ما ذهب إليه المنصورى لا يبعد أن يكون السبب الأساسى لقتل أبى عبدالله ، ولا سيما أن المصادر الإسماعيلية تؤيده . فهذا المعز لدين الله يبرىء المهدى ، ويتهم أبا العباس . ويقول عن أبى عبدالله الشيعى : « إن أخاه أبا العباس كان سبب قتله ، وإن المهدى ، ﷺ ! ما أراد قتله ، وإن استحق القتل عنده ، حفظا لما تقدم له ؛ وإن كان قد سعى مع أخيه ومال إليه ، وغلب الهوى عليه ، لما رأى الأمور خرجت من يديه[2] » .

وقد أجمع مؤلفو الإسماعيلية على أن أبا عبدالله كان يميل إلى الزعامة والتسلط ، وأن المهدى وجد فى هذا الأمر افتئاتا على زعامته ونفوذه . ولذلك لما تعارضت هاتان النزعتان ، دبر المهدى قتل تابعه وداعيه أبى عبدالله الشيعى . وإن زعامة عبيدالله المهدى للدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية كانت تحتم عليه أن ينفرد بجميع شئون الدعوة والدولة معا ؛ لذلك لا نعجب إذا رأيناه يعمل على التخلص من منافسيه من الإسماعيلية ، فيقتل ابن فضل وأبا سعيد ، ويعزل ابنه لأنه لم يكن على هواه . وصفوة القول أن المهدى لم يرض عن سياسة أبى عبدالله الشيعى وأخيه أبى العباس ، اللذين كانا يعملان على « أن يكون الأمر والنهى ، والإصدار والإيراد لهما دون المهدى ، وأن يكون المهدى كالمولى عليه معهما[3] » .

---

(١) المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة (مخطوط) جـ ٥ ص ١٦٦ .

(٢) النعمان المغربى : المجالس والمسايرات جـ ١ ورقة ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) شرح الأخبار ص ٣٤ (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية) .

أما ما ذهب إليه بعض آخر من أن أبا العباس وأبا عبد الله قد أثارا شكوك الناس فى شخصية المهدى ، فيبدو بعيد التصديق ؛ لأنهما إذا كانا قد شكا فى المهدى ، فكيف رضيا عنه سنتين فى الخلافة (٢٩٦ — ٢٩٨ هـ) ؟ ولو كان هذا صحيحا لحتم عليهما اختيار الوقت الملائم لإظهار شكهما ؛ وخير وقت لذلك ، هو ذلك الوقت الذى قامت فيه الدولة الفاطمية وأتى فيه المهدى من سجلماسة . على أنهما إن كانا قد شكا فى شخصية المهدى — وهو ما لا يمكن أن يحدث — فلم لم يشكا فى شخصية القائم ؟ ولم لم ينأديا به إماما وخليفة ، بدلا من المهدى الذى شكا فيه ؟ لهذا لا تتفق مع ما ذكره الداعى إدريس[1] فى كتابه «زهر المعانى» من أن أبا العباس دخل فى عقل أخيه أبى عبد الله ، واستزله وقال له : ليس هذا المهدى ، لأن ذلك يبدو بعيد التصديق . كما لانستطيع أن نوافق على ما ذكره النويرى فى قوله : «عمد أبو العباس إلى الدعاة — وكانوا يعظمونه — فجعل يرمز لهم ، ثم صرح وطعن فى عبيد الله ، وأدخل فيه الشبهة . وما زال أبو العباس يتحيل إلى أن قال للدعاة : إن الإمام هو الذى يأتى بالآيات والمعجزات ، ويختم بخاتمه على البلاط ؛ فأما هذا فقد شككنا فيه . فعند ذلك أرسل هارون بن موسى (أحد المشايخ) إلى عبيد الله يقول : إنا شككنا فى أمرك ! فأتنا بآية إن كنت المهدى كما قلت . فتعاظم ذلك على عبيد الله وقال : ويحكم ! إنكم كنتم قد أيقنتم ، والشك لا يزيل اليقين ، فأبيتم إلا الإصرار ، ثم أمر من قتله[2] » . ومثل ذلك أيضا ما يقوله يحى بن سعيد وهو : «خبّث أبو العباس جماعة من الدعاة ، ومن وجوه كتامة ، وأوقع فى نفوسهم الشبهة فى المهدى ، وكاشفه مقدم الدعوة بالنفاق[3] » .

إذن كان هناك سخط من أبى عبد الله وأخيه أبى العباس على المهدى بسبب استبداده بالأمور ؛ فرماه أبو العباس ، بالحق أو بالباطل ، بكل نقيصة ؛ وتكوّنت مؤامرة قوامها كل من كان يميل إلى الزعامة ، أو أقصى عن الأمر ، واتخذوا معقلهم قصر الزعيم المغربى ، أبى زاكى بن معارك ، وكان قد تولى شئون إفريقية حين

---

(١) ص ٦٨ (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية) .

(٢) نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٦ ورقة ٣٤

(٣) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٨ .

خرج أبو عبدالله لإحضار المهدى ، وأخذوا يدبرون مؤامرة ترمى إلى اغتيال المهدى وهجموا عليه غير مرة . ويظهر أن تعاليم أبى عبدالله التى تقوم على تقديس عبيد الله المهدى الإمام ، كان لها أثرها فى قلوب المغاربة ، الذين كانوا يرهبونه على الرغم من إجماع الثوار على الإنهاء عليه ؛ كما كانت قلوبهم تذوب خوفا وهلعا ، حين تقع عيونهم عليه . ومهما يكن من شىء فقد أجمع ذلك النفر على الفتك بعبيد الله ، واجتمعت كتامة إلا قليلا منهم ... فجمع عبيد الله إليه من سلم من النفاق والعبيد ، واستعد لهم ، على كثرتهم وقلة المبايعين له ، فجمعوا له الجموع ، وأحاطوا بقصره ليوقعوا به ، وهو فى ذلك جالس منتصب غير مكترث[1] » .

ومما يمتاز به عبيد الله المهدى الصبر والثبات ؛ فقد أدرك أن أبا عبد الله الشيعى قد عراه الاضطراب ، حتى كان يدخل عليه وجلبابه مقلوب ثلاثة أيام ، « وهو لايعقل أمر قميصه ، لأنه يبيت محالفا على أن يكون على ولى مخالفا خادعا »[2] . ولذلك لجأ عبيد الله المهدى إلى المكر والحيلة ، وتظاهر بتجاهل ما يدور حوله ، وبدأ يحارب الثوار بنفس سلاحهم . ولما كان يعرف أن همهم الحكم والجاه ، أخذ فى توزيعهم وتفريقهم ، وقلدهم الولايات وأجزل لهم الهبات ؛ فعين الزعيم أبا زاكى ابن معارك واليا على طرابلس ، ولكنه أمر عاملها من قبله بقتله عند وصوله ، وفعل مثل ذلك مع أغلب المتآمرين . وأما أبو عبد الله وأخوه أبو العباس ، فقد أمرهما بالبقاء معه ، وعمل على التخلص منهما باستغلاله مذهب تقديس الإمام عند بعض المخلصين له ، وأمر أحد أنصاره بقتلهما فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ . « فلما صاح به أبو عبد الله قائلا : لا تفعـــل ! أجابه : الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك »[3] . وكان قتلهما فى نفس الوقت الذى قتـل فيه الزعيم المغـربى أبو زاكى بطرابلس .

ويكاد المؤرخون السنيون والإسماعيليون يجمعون على أن المهدى لم يتألم لقتل أبى العباس ، وإنما أظهر حزنه على قتل داعيه المخلص أبى عبد الله الشيعى . ويعتقد

---

(١) النويرى : نهاية الأدب (مخطوط) جـ ٢٦ ورقة ٣٤ .

(٢) الداعى إدريس عماد الدين : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٦٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٧ .

كثيرون أن المهدى قتل أبا عبد الله ليطهره من الخطأ الذى وقع فيه ، بسبب اتباعه أخاه أبا العباس ، وأن قتل المهدى أبا العباس كان تخليصا للدعوة من « المستكبر المصر على الإبلاس » ، وأن المهدى « طهر منه دعوته ، وتبرأ منه ، معلما بذلك كافة النساس » [١] . ويقول السنيون : إن المهدى ترحم على أبى عبد الله وقال : « رحمك الله أبا عبد الله ، وجازاك فى الآخرة بقديم سعيك ! ولا رحمك الله أبا العباس ، فإنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك . ثم قرأ (ومن يعش عن ذكر الرحمن فقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون [٢] . وكتب إلى الشيعة بالمشرق يقول : قد علمتم محل أبى عبد الله وأبى العباس من الإسلام ، فاستزلهما الشيطان ، وطهرتهما بالسيف والسلام » [٣] . وبهذا لقى أبو عبد الله من الفاطميين ما لقيه أبو مسلم الخراسانى من العباسيين .

وكان من أثر مقتل أبى عبد الله ، أن دب النزاع فى بلاد المغرب ؛ فثارت طرابلس على المهدى ، وهب أهالى القيروان فى وجهه ، وخالفه أهل صقلية وأهالى بعض مدن إفريقية . إلا أن عبيد الله تمكن من إخماد تلك الثورات جميعا . وكان أشدها خطرا تلك الثورة التى أشعل نارها أتباع أبى عبد الله المخلصون له من الكتاميين . فقد هبوا فى وجهه ، وادعوا أن أبا عبد الله حى لم يمت . يقول ابن الأثير[٤] : « وثارت فتنة بسبب قتلهما ، وجرد أصحابهما السيوف ، فركب المهدى وأمن النساس فسكنوا ، ثم تتبعهم حتى قتلهم . وثارت فتنة بين كتامة وأهل القيروان ، قتل فيها خلق كثير ؛ فخرج المهدى وسكن الناس ، وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة » . ولم يكتفوا بذلك ، بل أقاموا طفلا ادعوا أنه المهدى ، وأنه يوحى وكان هؤلاء (على ما يظهر) قوة خطيرة ، حتى إنهم زحفوا إلى مدينة

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٦٩ .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٦٤ .

(٤) الكامل جـ ٨ ص ١٩ .

« ميلة » ، فأخرج لهم المهدى ولده أبا القاسم فضربهم ، وقتل الطفل الذى نصبوه مهديا لهم » .

ولا يبعد أن تكون ثورة ابن فضل ، وفتور العلاقة بين المهدى وأبى سعيد الجنابى نتيجة لقتل أبى عبد الله الشيعى. وكأن هؤلاء أدركوا أنهم سيلاقون مالاقاه أبو عبد الله الشيعى (١) . ومهما يكن من شىء ، فقد استطاع المهدى أن يقبض على أزمة الأمور فى إفريقية بيد قوية .ومن ثم نراه يوجه نشاطه إلى الصراع الخارجى بعد أن استولى على جزء كبير من بلاد المغرب ؛ ثم يمم شطر المشرق لفتح مصر ، واتخاذها قاعدة ثانية ، أو نقطة ارتكاز أخرى ، يتجه منها إلى بغداد نفسها ، ويقضى على الخلافة العباسية السنية المتداعية .

---

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية . السياسى (ج ١ ورقة ٢٤١) .

الباب الخامس

أشهر مميزات الدعوة الاسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى

وتمتاز الدعوة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله بأمور كثيرة منها : أنها مرت فى طورين يعرف أولهما بطور الاستتار ، وثانيهما بطور الظهور . فكان عبيد الله فى الطور الأول إماما مستورا ، وفى الطور الثانى إماما ظاهرا . وكان دعاته ينشرون فى الطور الأول مبادىء تلائم استتار الإمام ، وينشرون فى الطور الثانى مبادىء تلائم ظهوره كما تمتاز الدعوة الإسماعيلية فى ذلك الحين بترويج كثير من الآراء ، من أهمها المناداة بدين عام يتفق مع مشارب الناس ، والتأويل غير المشروع ، والإباحة أحيانا والقول بنظريات الإمامة إلى غير ذلك . كما أن هناك كثيرا من المصاعب استطاع عبيد الله التغلب عليها . ويرجع نجاحه إلى عوامل مختلفة ، منها ضعف العالم الإسلامى وضعف الطوائف الشيعية الأخرى ، وتحمس الناس لنظرية المهدى ، وتطلعهم إلى ظهوره ؛ كما يمتاز عبيد الله نفسه بصفات كان لها أثرها فى حياته ، منها الصبر والهدوء والثقة بالنفس ، والصدق ، وغير ذلك .

١ — استتار الامام وظهوره

(ا) استتار عبيد الله :

مر عبيد الله — سعيد الخير — فى دورين من أدوار تاريخ الإسماعيلية : وقد تطورت به الأحوال فى الدور الأول ؛ فكان نائبا عن الإمام ، أو على حد تعبير الإسماعيلية « حجاب » الإمام و « حجته » تارة ، وتقمص شخصية الإمام المستور تارة أخرى . وكان فى الحالين يرأس جماعة تعمل فى الخفاء ، وتدعو لإمام مستور . وقد تسلم منصب الحجة ، ثم منصب الإمام فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، فى

الوقت الذى نضجت فيه ثمار ماغرسه آباؤه وأجواده وأئمته . وقد راجت دعوته فى فارس وخراسان والعراق ، وتركزت فى سواد الكوفة على يد حمدان قرمط وعبدان ، ثم على يد زكرويه وأبنائه ؛ ثم استقرت فى إقليم القطيف ، جنوبى البصرة ، وفى البحرين ، على يد أبى سعيد الجنابى ، والتهبت جمرتها فى بلاد اليمن ، حتى اعتقد بعض أن دولة المهدى ستنبعث من هناك . وفى هذه البلاد راجت الدعوة الإسماعيلية على يد ابن حوشب (منصور اليمن) وابن فضل . أما فى بلاد المغرب فقد انتشرت على يد داعيه أبى عبد الله الشيعى الذى استطاع أن يوجه ضرباته إلى الدولة الأغلبية المتداعية ، ثم يقضى عليها ، ويغذ السير إلى سجلماسة فى أقصى بلاد المغرب لإحضار سيده عبيد الله المهدى .

وقد استطاع المهدى أن يقوم بعمله على أكمل وجه باعتباره «حجاب الإمام» ؛ ولكنه أخذ يلقى كثيرا من المصاعب ، وكان من أشدها خطرا عليه وعلى دولته ، انتقاض حمدان قرمط زعيم قرامطة السواد ، فى الوقت الذى أصبح فيه عبيد الله إماما ؛ وتبع ذلك اضطراب الدعوة نفسها بين القرامطة أنفسهم ، فاستخفى حمدان قرمط وصهره عبدان من سواد الكوفة ، وحل محلهما زكرويه وأبناؤه . كما ظهر فى الميدان زعيم من أبناء القداح ، وضع زكرويه وأبناءه فى مكان حمدان ، وأصبح ينافس عبيد الله — سعيد الخير . وبذلك ساءت أحواله ، فهب فى وجه أبناء زكرويه ، حتى اضطر إلى الهرب من سلمية عند ما أصبح إماما ، لأن بعضا لم يرض به إماما مستورا ، بعد أن كان حجة الإمام المستور ، بمعنى أن عبيد الله عجز عن أن يوضح لأتباعه أو لبعضهم وظيفته الجديدة واختصاصاتها ، فثاروا عليه . وبذلك نرى أن إمامة عبيد الله المستورة لم تسر فى طريقها فى سهولة ، بل اعترضتها عقبات . ومهما يكن من شىء ، فقد امتازت الدعوة الإسماعيلية فى عهد إمامة عبيد الله المستورة بأمور منها .

(١) التعمق فى السرية :

فقد غمرت هذه الدعوة أمواج من السرية الدقيقة ، حتى التبس الأمر على المؤرخين ، فلم يقفوا على حقيقة القائمين بهذه الدعوة : أهُم من الدعاة ، أم من الأئمة

الحقيقيين من أبناء إسماعيل ؟ والحق أن رياسة الدعوة فى عهد عبيد الله وقبل عهده ، وضعت خطط الدعوة السرية ، وأن القائمين بها نجحوا نجاحا كبيرا فى تكوين مجتمعات إسماعيلية قوية عمادها التقية والتخفى . فانظر أبا عبدالله الشيعى (٢٩٨ ﻫ) يكتم أمره ، فلا يدرى الأغالبة عنه شيئا ، حتى يدهمهم بجيوشه . وانظر أبا سعيد الجنابى (٣٠١ ﻫ) يكوّن دولة ، أو ما يشبه الدولة ، فى بلاد البحرين ، التى كانت تابعة للعباسيين الذين لم يكونوا يعرفون عنه شيئا . ويظهر أن الإسماعيلية تشبهوا بجماعة الأبى هاشمية ، أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية وأنصار العباسيين ، فى إمعانهم فى طرق التخفى ، حتى إننا لا نغالى إذا قلنا ، إن نصيبا كبيرا من النجاح الذى ناله الإسماعيلية فى عهد إمامة عبيدالله يرجع إلى حد كبير إلى هذه السرية المنظمة .

(٢) التحمس الحربى :

ولا يقل أثر التحمس الحربى فى نجاح الدعوة فى عهد إمامة عبيد الله عن أثر التعمق فى السرية ؛ فقد كان من سياسة عبيد الله الاستعانة بسيوف أنصاره فى تحقيق مآربه . التى تتلخص فى تكوين دولة إسماعيلية أولا ، وهدم الدولة العباسية ثانيا . نعم ! لقد قام أنصار عبيدالله الإمام المستور بحركات حربية رائعة ، تذكرنا بشجاعة الخوارج وثباتهم ؛ فنجح أبو سعيد الجنابى فى هزيمة العباسيين هزائم متتالية ، كما نجح فى قرمطة بلاد القطيف والبحرين . وهاهم أولاء جماعة زكرويه بن مهرويه يهزمون جيوش الطولونيين والعباسيين ، ويلقون الذعر فى الشام وباديتها ، وفى شمال العراق الغربى . وهكذا نال هؤلاء القرامطة ، بفضل الدعاية المنظمة ، شيئا غير قليل من النجاح . وليس هذا كل ما كان للتحمس الحربى من أثر ؛ فإن أبا عبد الله الشيعى استطاع بفضل هذه الدعاية المنظمة بين الكتاميين أن يغزو عقولهم ، فيندفعون كالسيل المنهمر يجرفون أمامهم دولة الأغالبة ، التى لم تستطع الصمود أمام تحمسهم المنقطع النظير . وبفضل هذه الحماسة الحربية استطاع أبو عبد الله أن يحقق للدعوة الإسماعيلية غرضها الرئيسين : فأقام دولة الفاطميين ، بعد أن أباد أنصار العباسيين . وقد شاهد عبيد الله بعينيه نجاح دعوته ، وهو إمام فى بلاد اليمن والمغرب والبحرين وسواها .

٣ — الدعوة للإمام المستور

ومن خصائص استتار الإمام مضاعفة أنصاره ونوابه نشاطهم فى نشر الدعوة للمذهب الإسماعيلى ؛ وكان أفراد بيت القداح الدعامة التى قامت عليها أسس هذا المذهب . ولا غرو فقد استعان الإمام محمد بن إسماعيل بميمون القداح ، كما استعان الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، والإمام أحمد بن عبد الله بحجتهما وداعيهما الأكبر عبد الله بن ميمون القداح . واستمر هذا وأبناؤه الساعد الأيمن للأئمة المستورين . وكان عبيد الله نفسه ، وهو سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح، كما ذهبنا إليه ، حجة الإمام المستور الحسين بن أحمد ، ثم حامل وديعته فى الإمامة ، ليوصلها إلى ابنه أبى القاسم ، الذى عرف بعد ذلك بالقائم بأمر الله . وعلى يد عبيد الله قامت الدولة الفاطمية . وهكذا كانت مساهمة القداحية فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى دور الستر عظيمة حقا ، مما يجعلنا نميل إلى تسمية دور الستر هذا بالدور القداحى . وليس معنى ذلك أن الأئمة الإسماعيلية كانوا خاملين ، بل كانوا جميعا فى نشاط دائم ، وإن كان أبناء القداح هم الذين قاموا بتنفيذ أعمالهم . وسواء أكان الأئمة الحقيقيون هم الذين قاموا بنشر الدعوة ، أم أن أبناء القداح استبدوا بها ، أم أنهم جميعا كانوا يتعاونون على نشرها ، وهو ما نميل إليه ، كانت الدعوة الإسماعيلية رائجة بطريقة سرية رائعة ، وأنها أقيمت للامام المستور من أبناء إسماعيل الحقيقيين أولا ، ثم من أبنائه الروحانيين أو التعليميين ثانيا .

(٤) استغلال نظرية المهدى المنتظر

عمل دعاة الإسماعيلية الأوائل على رواج هذه النظرية فى أنحاء العالم الإسلامى كافة ، متخذين ميل كثير من الناس إلى أهل بيت الرسول ، واعتقادهم فساد المجتمع الإسلامى ، وسيلة لجذب الأشياع . وضاعف دعاة عبيد الله فى عهد استتاره جهودهم فى استغلال هذا الرى ، فادعوا أنهم يمهدون لعصر جديد هو عصر « دولة الله » ، وأن المنقذ المنتظر على وشك الظهور ، ليغيث الناس مما هم فيه من سوء . ولذلك بادر كثيرون إلى الانضمام إلى جماعة عبيد الله ، معتقدين أنهم

« جند الله » ، وحملوا السيف لتكوين « دولة المهدى » أو « دولة الله » . وبفضل هذه النظرية ، نجح عبيد الله وعامة دعاته فى تنفيذ خططهم كاملة ؛ فقد كان لتصريح أبى عبد الله الشيعى بقرب ظهور المهدى ، وقوله : طوبى لمن ألقى بنفسه بين يديه ، أثر فعال فى القضاء على الأغالبة ونجاح الإسماعيلية فى بلاد المغرب . وهكذا تملكت قلوب الإسماعيلية فى دور الستر ، وفى عهد إمامة عبيد الله ، فكرة الإمام المنتظر ؛ فاندفع القوم يعلنون عداءهم الصريح للحكم العباسى ، بل للدين القائم ، حيث اعتقد الإسماعيلية فساد هذا وذاك ، فعملوا على تقويضهما معا ، ليحل محلهما دين المنقذ المنتظر (المذهب الإسماعيلى) ودولته (الدولة الفاطمية) . وهكذا كان كل واحد من إسماعيلية ذلك الزمن ، يود أن يكون من جند المهدى المنتظر ، وحاملى لواء دينه الجديد ، ويجد فى ذلك منتهى سعادته ، بل يعتقد أن موته نوع من الجهاد أو الاستشهاد يثاب عليه . وبهذا كله نالت الدعوة الإسماعيلية شيئا كبيرا من النجاح[1] .

(ب) ظهور عبيد الله (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ)

كان جلوس عبيد الله المهدى على عرش الدولة الفاطمية ، إيذانا بحدوث تطور جديد فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ودليلا على نهاية عهد استتار الأئمة ، وبداية عصر ظهورهم على مسرح السياسة المذهبية الحكومية . فبعد أن كان أئمة الاستتار يمنحون نوابهم ودعاتهم كثيرا من النفوذ والسلطان ، حتى كانوا أشبه بمستقلين فى أقاليم دعوتهم ، أصبح عبيد الله ، الإمام الظاهر ، يتدخل فى شئونهم ، ويملى عليهم سياسته الجديدة ، فــلا يقر تعيين أولياء عهودهم . بل يختار لزعامة الإسماعيلية ، من يثق به منهم . وقد أصبح واجبه مزدوجا ، لاجتماع رياسة الدعوة ورياسة الدولة فى شخصه ؛ فعمل على تنظيم الأولى فى الداخل والخارج ، ونظر إلى الدعوة ذاتها باعتبارها أداة ترتكز عليها الدولة ، وتعتمد فى حياتها ، أو بعبارة أخرى نظر إلى الدعوة كوظيفة من وظائف الدولة ، فوضع تبعا لذلك الأسس التى سلكها خلفاؤه من بعده . وأما رياسته للدولة ، فكانت تحتم عليه أن

---

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد ج ٢ ورقة ٥٠ .

يعمل على زعامة العالم الإسلامى . كما كان عليه أن يحول شمالى إفريقيه إلى دولة إسماعيلية ؛ ولذلك حارب شرقا وغربا ، فنجح أحيانا وأخفق أحيانا . ولم يكن المهدى يرمى من وراء ذلك إلى الجاه والاستعمار وحدهما، بل كان يعمل على أن ينتزع من العباسيين زعامة العالم الإسلامى ، لأنه كان يعتقد أنه أحق بهذه الزعامة منهم . ولا غرو فإن دولته هى دولة العلويين الذين ينتسبون إلى الرسول ، وهم فى نظره ، وفى نظر كثير من الناس ، أحق من بنى العباس .

وتمتاز الدعوة الإسماعيلية فى دور ظهور عبيد الله المهدى (٢٩٦ — ٣٢٢ ﻫ) بأمور منها : اتسام الدعوة بالطابع الحكومى ؛ فقد انتقلت من أيدى رجالها ورؤسائها إلى أيدى رجال الدولة وخلفائها ، وبعبارة أخرى من أيدى الدعاة إلى أيدى الحكوميين . ومن ثم أصبحت الصفة الحكومية هى المتغلبة عليها ، المميزة لها ، واستحال رجال الدعوة فى عهد عبيد الله ، ثم فى عهد خلفائه ، إلى طبقة من الموظفين . وأصبحت الدعوة ، على كره من رجالها المخلصين ، تسير سيرا آليا محضا ؛ ولم يعد للحماس المذهبى الذى كان من أظهر مميزات عصر الستر ، ما كان له من تأثير ، وأضحى رجال الدولة الحكوميون يشرفون على رجال الدعوة ويتزعمونهم. كما أخذ هؤلاء يعنون بالشكل الظاهرى من أشكال الدعوة فقط ، فيعقدون المجالس، وينشرون بعض المبادىء الإسماعيلية بين الناس ، رعايا كانوا أم أشياعا وأتباعا . ولولا اعتقاد كثير من أهالى بلاد المغرب ، بأن الفاطميين علويون ، لوقفت الاستجابة إلى المذهب الإسماعيلى عند هذا الحد . أضف إلى ذلك أن مستجيبى تلك البلاد لم يعرفوا من خطوات الدعوة إلا مراحلها الأولى .

ولم تكن الدعوة للحكومة الفاطمية الإسماعيلية فى دور الظهور تضارع الدعوة للامام المنتظر فى دور الستر ؛ فقد أخذ المستجيبون فى دور الستر طريقهم إلى المذهب الإسماعيلى فى حماس زائد ، معتقدين أنهم يعملون لإنقاذ أهل البيت . أما فى الدور الذى نطلق عليه دور ظهور عبيد الله ، فقد كانت الاستجابة فيه ، وبخاصة فى بلاد المغرب ، نتيجة خوف الناس من الحكومة القائمة ؛ كما كان رجال الدعوة أنفسهم يعملون من جانبهم على إرضاء رجال الدولة ، ويسعون للحصول على المال عن طريقهم ، شأنهم فى ذلك شأن كل موظف . وقد جر ذلك على الدولة كثيرا

من النكبات ، ولا سيما بعد أن أقيم على رأس الدعوة أفراد غير جديرين بالاضطلاع بها . فمن ذا الذى يقول إن بدرا الجمالى ، ذلك الوزير العظيم فى عهد المستنصر الفاطمى ، وهو – كما نعلم – إمامى اثنا عشرى ، يكون هو وأبناؤه على رأس الدعوة الإسماعيلية ؟ ولا غرو فقد أضعف عبيد الله المهدى الدعوة الإسماعيلية بيده ، حتى أصبحت وظيفة ثانوية من وظائف الدولة ؛ هذا إلى أن ذلك التحول من نشر الدعوة إلى تكوين دولة بإراقة الدماء الكثيرة ، ومن إقامة الدعوة لإمام مستور إلى الدعوة لإمام ظاهر ، والإبقاء على الدولة ، والعمل للتوفيق بين الرعايا وبين المذهب الإسماعيلى – كل هذا أدى إلى تطرق الضعف إلى هذه الدعوة .

ولا نغالى إذا قلنا ، إن ثورة أبى عبد الله الشيعى ، وأخيه أبى العباس على عبيد الله المهدى ، لم تكن إلا ثورة قام بها رجال الدعوة المخلصين لها على النظام الحكومى الجديد ، الذى آلت إليه الدعوة الإسماعيلية ، فكأن عبيد الله المهدى قد مهد بعمله هذا للحسن الأعصم القرمطى للثورة على المعز وابنه العزيز ، كما مهد لدعاة الحاكم الغلاة ، وهم الدروز ، للقيام فى وجه الدعوة الحكومية ، والجهر بتأليه هذا الخليفة ، وكما مهد للحسن الصباح لإذكاء نار الثورة على المستعلى بن المستنصر ووزيره الأفضل بن بدر الجمالى[1] .

كذلك تمتاز الدعوة الإسماعيلية فى ذلك العهد بإقامة الدعوة لعبيد الله باعتباره إماما ظاهرا . فقد كانت هذه الدعوة فى دور الستر تتجه إلى إمام مستور من سلالة إسماعيل بن جعفر . وكان كثير من الدعاة لا يعرفون شخص ذلك الإمام ؛ إلا أن الفرح كان يغمرهم ، سواء أكانوا دعاة أم مدعوين ، كما كان يغمرهم أمواج من الحماسة لذلك الإمام العلوى المستور الذى لا يعرفه أكثرهم على وجه التحقيق. أما بعد قيام الدولة الفاطمية فى سنة ٢٩٦ هـ ، فقد اتجهت جهود رجال الدعوة إلى

---

(١) ويلقب شاهنشاه ، وقد حارب نزار بن المستنصر ، ، استخلاص الملك منه لابن اخته المستعلى. وكان الأفضل حربا على الاسماعيلية ، نزارية كانوا أو مستعلية . واستمر كذلك طول عهد الخليفة المستعلى ، وردحا من عهد الخليفة الآمر ، ومات مقتولا فى سنة ٥١٥ هـ على يد الاسماعيلية ، ولا نعرفه على وجه التحقيق إلى أى طائفة من هاتين الطائفتين ينتسب القاتلون .

الإشادة بهذا الخليفة الفاطمى الذى أصبح على رأس دولتهم المنشودة ، واستمرت الدعوة للامام الظاهر طوال الحكم الفاطمى تقريبا ، حتى إننا نستطيع أن نسميها « الدعوة الفاطمية » . ونرى كبار الدعاة وأعلامهم فى عهد عبيد الله المهدى يقرون بتلك النظرية الجديدة ، وبخاصة أبو طاهر الجنابى ، زعيم قرامطة البحرين (٣٠٥ — ٣٣٢ هـ) ، كما نرى دعاة اليمن وفارس وخراسان يعملون على الإشادة بالخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى ، وينادون بأحقيته بالحكم وزعامة المسلمين . ومن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى قول أبى طاهر : « أنا الداعى إلى المهدى[١] » ، وقوله يسب الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) : « هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر خروج الأسد الغضنفر ، فى سرابيل الظفر ، متقلدا سيف الغضب ، مستغنيا عن نصرة العرب[٢] » . ونرى مثل ذلك فى مؤلفات الدعاة فى فارس واليمن ، وفى حركاتهم كذلك .

على أنه لم يكن للدعاة ولا للدعوة فى دور الظهور ما كان لهم من نفوذ فى دور الستر ؛ فقد أصبح مركز كبير الدعاة فى المهدية أقل شأنا من مركز نائب الإمام المستور ، أى حجابه وحجته فى دور الستر ؛ ولم يستطع داعى الدعاة أن يتمتع بالزعامة المطلقة التى كان يتمتع بها الحجة فى دور الستر ، لوجود الخليفة الفاطمى واستبداده بكافة الأمور دونه . أضف إلى ذلك أن داعى الدعاة أصبح موظفا من موظفى الدولة ، يأتمر بأوامرها وينتهى بنواهيها . ولا نغلو إذا قلنا إن هذه الحركة التى قام بها أبو عبد الله الداعى فى وجه المهدى ، كانت نتيجة لما حدث من تغيير فى أساس الدعوة ؛ فقد شعر هذا الزعيم الجرىء أن مركزه قد ضعف بظهور المهدى ، كما شعر الحسن الصباح مؤسس الدعوة النزارية ، بمثل ما شعر به أبو عبد الله من بعده ، فثار على الإمام المستعلى ، ونادى بأحقية أخيه نزار والعودة إلى الدعوة للامام المستور ، ثم حذا حذوهما ابن مدين [٣] ، باب أبواب الدعوة الإسماعيلية

( ) الذهبى : تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ورقة ٦١ .

(٢) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٣٤ .

(٣) منذ اليوم الذى خرج فيه ابن مدين مع إمامه الطفل ، الطيب بن الآمر ، فى سنة ٥٢٦ هـ ، ظهرت جماعة يعرفون باسم الطيبية ، نسبة إلى الامام الطيب هذا ، وكانوا ينادون بالانفصال عن الدولة الفاطمية

(أى رئيسها) فى عهد الخليفة الآمر (٥٢٤ هـ)، ونادى هو وأنصاره بإمامة الإمام الطيب المستور ، وعملوا على ترويج مبادىء دور الستر ، وثاروا على الخليفة الفاطمى الحافظ ، وأعلنوا أنه العدو الأساسى أو التقليدى The Arch Enemy للدعوة الإسماعيلية .

ومن أهم مميزات الدعوة فى ذلك الدور علاقتها السرية بالمستجيبين . نعم ! لقد تغير مركز الدعوة الفاطمية وأنصارها بقيام الدولة الفاطمية ؛ فلم تعد هذه الدولة ترضى ببقاء بعض مبادىء الإسماعيلية الغالية ، وعرضها على العامة ، حتى لا يثوروا عليها ، ويعيدوها سنية كما كانت . ولذلك حتم على القائمين بأمر هذه الدولة أن يتظاهروا فى عهد عبيد الله المهدى للناس بغير ما هم عليه ، وأن يحكموا ، فى الوقت نفسه ، الاتصال السرى مع أشياعهم وأنصارهم الإسماعيلية ، حتى لا يتطرق الضعف والوهن إلى المذهب الإسماعيلى بينهم . ولذلك نرى عبيد الله يتصل سرا بأبى سعيد الجنابى ، ويأمره بإعلان الحرب على العباسيين فى جنوب العراق ، فى الوقت الذى تغزو فيه جيوش الدولة الفاطمية مصر ؛ ويتصل هو سرا بأنصاره القرامطة ليعلنوا الثورة على ولى عهد أبى سعيد ، وينادوا بأحقية أخيه أبى طاهر ، وكان مواليا لعبيد الله ، فيقره هذا على عرش القرامطة ، ويتصل به سرا ليقابل جيوشه فى مصر سنة ٣٠٧ هـ. بل ذهب ابن خلدون . الذى عرف بميله إلى الفاطميين ، إلى القول بأن القرامطة ، كانوا إذا ذكروا الحجر الأسود يقولون : « أخذناه بأمر من إمامنا عبيد الله ، ونرده بأمره وبأمر خليفته[1] » . بل لقد عزا عبد القاهر البغدادى إلى عبيد الله أنه أرسل إلى أبى طاهر رسالة مطولة ، اطلع البغدادى[2] عليها بنفسه ، وفيها الثورة على

= وخلفائها ، ونادوا كما نادى النزارية من قبلهم (فى أواخر القرن الخامس) بأحقية هذا الامام وسلالته ، وظلوا يعملون فى اليمن من سنة ٥٢٦ هـ إلى سنة ٧٩٩ هـ. ولذلك تسمى هذه الفترة فى تاريخ الدعوة الطيبية باسم «الدعوة اليمنية» ، وانقسموا بعد ذلك إلى فريقين : فريق بزعامة داود بن عجب شاه فى الهند ، ويعرفون بالداودية ، وفريق نادى بزعامة سليمان بن عبد الله ، ويعرفون بالسليمانية ، وهم فى اليمن خاصة . ولا يزالون جميعا ، داودية وسليمانية ، ينادون بالامام المستور ، ويعرفون جميعاً باسم البهرة .

(١) انظر ص ٢٢٥ من هذا الكتاب .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ — ٢٨١ .

المهدى وعلى مبادئه ، وعلى الرسل جميعا . ومع أننا نشك كثيرا فى نسبة هـــذا الكتاب إلى عبيد الله، ليس لدينا ما يثبت بطلانه . وقد يكون هذا نوعا من الدهاء السياسى الذى عرف به عبيد الله ، فهو يخاطب كل شخص على قدر عقله وإدراكه ؛ وكان هذا القول يلائم ميول أبى طاهر والذين شايعوه من القرامطة : وعلى الجملة ، كان عبيد الله على اتصال دائم ، بأشياعه فى اليمن والبحرين ، وكان يتآمر معهم سرا على قتل ابن فضل وأبى سعيد ، ويتدخل فى نوع الحكم الذى يتفق مع ميوله وأهوائه فى تلك البلاد .

ومما تمتاز به الدعوة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى ، اتخاذ حاضرة الدولة مستقرا لرياسة الدعوة ، أو بعبارة أخرى ، اتخاذ هذه الحاضرة دار هجرة للاسماعيلية ؛ فأصبحت المهدية ، التى حلت محل سلمية ، غاصة بمدارس الدعوة التى تغذى طائفة الإسماعيلية فى كافة أنحاء العالم بالآراء والدعاة الذين مرنوا على العمل ، وأصبحت دار الهجرة الأولى لجماعات الإسماعيلية . وليس معنى ذلك أن أنصار الإسماعيلية كانوا يقلدون الدولة فى اتخاذ حواضر بلادهم دور هجرة ، فإن ابن حوشب ، وكبار قرامطة السواد بعد حمدان قرمط ، وأبا طاهر القرمطى ، كانوا لا يزالون يعتمدون على إقامة دور هجرة يأوى إليها الإسماعيلية إذا حزبهم الأمر ، وينشرون منها آراءهم وجيوشهم . ولكن هذه الدور لم تكن فى حواضر بلادهم . فهذا أبو طاهر الجنابى ينشئ « المؤمنية » لتكون دار هجرة ، بالقرب من مدينة الأحساء ، ويظل ابن حوشب فى دار هجرته بعدن لاعة لنشر الدعوة منها . أما المهدى عبيد الله فيترك دار هجرة الإسماعيلية بفج الأخيار بجبل كتامة ، ويحيـــل حاضرته إلى دار هجرة إسماعيلية ، تبث مبادئها فى هـــذا الوقت من القصور الملكية ، والمساجد ، ومن مدارس الدعوة نفسها .

وقد طرأ على الدعوة الإسماعيلية تطور آخر فى الناحية المالية ، فبعد أن كانت الأموال فى دور الستر من تبرعات محسنى الإسماعيلية ، كما فعل دندان الذى تبرع لعبيد الله القداح بمليون دينار ، ومن الضرائب الوقتية التى فرضها الدعاة على المستجيبين عند أخذ العهد عليهم ، ومن سن ضرائب منظمة فرضها كبار الدعاة على الأتباع ، كما فعل حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابى ، اللذان كان لنظامهما المالى البديع أثره فى

بقاء جماعة القرامطة ردحا طويلا من الزمن ، أصبحت الدعوة الإسماعيلية فى دور ظهور المهدى تأتى من الجزية ، ومما يدفعه المستجيبون بعد سماع مجالس الدعوة ، وهى المحاضرات التى كان يلقيها كبار الدعاة فى عقائد المذهب الإسماعيلى . وقد تطور نظام هذه المجالس تطورا مدهشا فى عهد الفاطميين بمصر . أضف إلى ذلك أن أشياع المهدى كانوا يرسلون إليه خمس أموالهم ، وهو ما يعرف بخمس الإمام ، أو خمس صاحب الزمان . ولابد أن تكون الدولة الفاطمية قد وقفت بعض الأوقاف للانفاق على الدعوة ، حتى لا يتطرق إليها الضعف والانحلال . وهكذا حدثت تغييرات شاملة فى تنظيم الدعوة وشئونها ؛ ولكن هذه الدعوة ظلت تعمل لصالح الأئمة المستورين والظاهرين . ولا غرو فقد كان للجهود الهائلة التى بذلت فى تنظيم الدعاية للمذهب الإسماعيلى فى دور التكوين ، وهو دور الستر ، ثم فى دور الظهور ، أثره فى بقاء جماعة الإسماعيلية ، سواء أكانوا من البهرة أم من الأغاخانية إلى اليوم .

٢ — أشهر مبادىء الاسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى :

للاسماعيلية فى عهد عبيد الله ، فى ستره وظهوره ، مبادىء كثيرة نتناول منها الكلام على مبدأ الإمامة وبعض نظرياته المختلفة ، لما كان لها من أثر فى حياة عبيد الله بوجه خاص والإسماعيلية بوجه عام ، ثم نتناول الكلام على مبدأ الإباحة ، والمناداة بدين عام يتفق ومشارب الجميع .

(١) مبدأ الامامة فى عهد عبيدالله المهدى :

كانت الإمامة السلاح الذى تسلح به العلويون ، منذ فجر تاريخ الشيعة ، لمقاومة الأمويين أولا ، والعباسيين ثانيا . وقد استمر مبدأ الإمامة على قوته ، كما رأينا ، بين الاثنا عشرية والإسماعيلية . وقد ابتدع الإسماعيلية نظريات كثيرة للامامة ، ترمى في مجموعها إلى تقديس شخص الإمام الإسماعيلى ، مستورا كان ام ظاهرا ،

فوازنوا بين الإمامة والرسالة ، وبحثوا علاقة إحداهما بالأخرى ، كما بحثوا فى تعيين الإمام ، وحتموا أن يكون ذلك التعيين بالنص ؛ ثم تناولوا أشخاص الأئمة من الناحية العلمية ، فذهبوا إلى أنهم مصدر المعرفة دون سواهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل نادوا بعصمة الأئمة واستتارهم وظهورهم ، كما بحثوا الاستقرار والاستيداع الإماميين ، وفرقوا بين الإمام المستقر والإمام المستودع ، إلى غير ذلك من النظريات المرتبطة بهذا المبدأ الأساسى ، وهو مبدأ الإمامة .

أولا : نظرية الإمام والناطق فى عهد عبيدالله . كان لرواج الدعوة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله ، فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، أثره الكبير فى محاولة ربط مبادىء المذهب الإسماعيلى وفلسفته ، بالنهضة العلمية التى راجت فى ذلك الوقت . ولذلك نرى الإسماعيلية يبتدعون نظرية فلسفية جديدة خاصة بالرسل ، أى النطقاء ، والأئمة من سلالة على بن أبى طالب . وقد تأثر الإسماعيلية بالفلسفة اليونانية التى تقول بمذهب الصدور Emanation Doctrine ، وهو أن الواحد يصدر عن الواحد ، كما يصدر الضوء عن النور ، وأن البارىء تعالى خلق العقل الكلى Raison Universelle ، وهذا خلق النفس الكلية Ame Universelle ، وأن الأنبياء ـ أى النطقاء ـ حلول للعقل الكلى ، كما أن الأئمة حلول النفس الكلية . وكذلك كان الإسماعيلية فى ذلك العصر يرون أنه لما كان فى العالم العلوى عقل كلى ونفس كلية ، وجب أن يكون هناك من يمثلهما على الأرض فى شخصى الناطق والإمام .

ويعتقد الإسماعيلية أن كلمة الناطق كضوء الشمس ينساب من السماء فيغمر الأرض ، أو كالمطر ينهمل من السماء فيحيى موات الأرض . أما الأساس[1] ، فهو ترجمان كلمات الرسول ، يتولى شرحها وتأويلها ، وعنه تصدر الحقيقة ، كما يصدر النبات عن الأرض بعد استقبالها ماء المطر . ومن هذا ندرك ، لماذا يعبر الإسماعيلية عن الناطق بكلمة « السماء » ، وعن الأساس بكلمة « الأرض » . ولهذا يقولون : إن التنزيل خاص بالناطق ، والتأويل خاص بالأساس[2] . كما يسمون المذهب

---

(١) الأساس : هو الامام الأول الذى يعاصر الناطق .

(٢) جويار : عقيدة الاسماعيلية ص ١٨٥ .

الإسماعيلي أحيانا مذهب التأويل الذى وجد لتوضيح التنزيل وشرحه .

وترجع أهمية نظرية النطقاء Prophets والأئمة فى تاريخ الإسماعيلية ، إلى ما يعتقدونه من أن محمدا ﷺ ورّث عليا النطق ، وأن عليا ورّث أبناءه من الأئمة النطق والإمامة معا ، بمعنى أن الإمام الإسماعيلي قد جمع بين الصفتين . وهذا رأى كثير من دعاة الإسماعيلية وعلمائهم . على أن جميع الإسماعيلية ، تقريبا ، يرون أن محمد بن إسماعيل هو الناطق السابع[١]، وأنه أتى بشريعة جديدة هى شريعة التأويل. ويقول الداعي إدريس عماد الدين[٢] : إن شريعة محمد بن إسماعيل لم تنسخ شريعة محمد ﷺ ، بل توضحها بالشرح والتأويل . وكان لهذه النظرية صداها فى العالم الإسماعيلي فى دورى الستر والظهور .

والواقع أن هذه النظرية ترمى إلى غرض سياسى خطر ، هو بعث الأمل فى نفوس الأتباع ، وجعلهم يعتقدون إمكان ارتقاء الحدود السفلية من حدود المستجيبين ، حتى يصلوا إلى أرقى الحدود وأعلاها درجة : فالدعاة مثلا إذا أخلصوا ، وصلوا إلى رتبة الحجج ، وإذا أخلص هؤلاء الحجج وصلوا إلى رتبة الأئمة ، فالنطقاء فما فوق ذلك . ويفسرون ذلك بأن النفس الكلية التى يمثلها الإمام ، تستطيع أن تصل إلى مرتبة خالقها ، وهو العقل الكلى الذى يمثله الرسول على الأرض ، وذلك راجع إلى دوام حركة النفس الكلية وميلها إلى الرفعة والتطلع إلى رتبة العقل الكلى ، وأنها بحركاتها هذه تتحد بمصدرها الأصلى[٣]. وهكذا يحرص كل حد من حدود الدعوة الإسماعيلية على التمسك بمبادئ المذهب الاسماعيلي ، لأن فى ذلك التمسك رفعة له ؛ لأنه قد يصل إلى رتبة الداعى فالحجة فالإمام . ولاغرو فقد جنى عبيدالله ثمار هذه النظرية ، واجتمعت فيه رتبتان ، أوحدان من رتب الدعوة وحدودها ، هما رتبتا الحجة والإمام . ويرى الإسماعيلية فوق ذلك أن عبيد الله اجتمعت فيه صفتا النبوة والإمامة معا ، فجمع بذلك بين الرتب الثلاث : الحجة ، والإمام ، والناطق ، وهذا أسمى مايصل إليه الإسماعيلي . ولسنا بصدد تقصى شرح الإسماعيلية

(١) Ikbal : The Development of Metaphysics in Persia, p. 62

(٢) Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, vol. v. p. 35

(٣) Ibid.

لهذه النظرية ، وإنما نكتفى بأن نقول : إن عبيد الله جنى ثمارها ، حيث وجد مجتمعا يقدسه ، لجمعه بين صفات الكمال المذهبى كلها ، وتفانيه فى الإخلاص لمذهبه وجماعته ، وأنه بهذا الإخلاص يسمو إلى أعلى الدرجات .

وكان من أثر ظهور هذه النظرية أن تفانى جماعات الإسماعيلية فى الدفاع عن شخص عبيد الله ، وإقامة دولته . انظر جهود ابن حوشب فى اليمن ، وأبى سعيد الجنابى فى البحرين ، وما قام به أبو عبد الله الشيعى وأنصاره فى المغرب ، تر أن ذلك كله راجع إلى عقيدة الإسماعيلية فى إمامة عبيد الله التى اتحدت بالنطاق النبوى أو النبوة أيضا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه النظرية جعلت جميع المستجيبين بحيث يستسلم كل منهم إلى رئيسه الأعلى ، أو مفيده على حد تعبيرهم (ما وراء خود) ، ويطيعه طاعة عمياء . وبهذا الخضوع ساد المذهب الإسماعيلى والمجتمع الإسماعيلى (١) .

ثانيا : عصمة الإمام عبيد الله . ليس من شك فى أن القول بعصمة الإمام أمر معترف به من جميع الإسماعيلية منذ فجر تاريخهم ؛ إنهم يردون على من يقول : إن إسماعيل بن جعفر الصادق شرب الخمر ، بأنه لا جناح عليه ، وأنه فعل ذلك لحكمة لا يدريها أحد . ولذلك كان من الواجب ألا يعترض إنسان على فعل الأئمة . ويقرر الإسماعيلية فيما بينهم « أن من يولد إماما لا يمكنه أن يقترف الجريمة » ، وأن شرب الخمر غير محرم على الأئمة ، وأن هؤلاء ليسوا مجبرين على الصوم أو الصلاة أو الحج ، أو غير ذلك ، لأنهم من الخاصة ؛ وأن تكاليف الشريعة مقصورة على العامة وحدهم ، وأنه « لا تنطبق أوامر الشرائع الظاهرة على عالم الحقيقة الباطنة المطلقة ، التى ينتمى إليها هؤلاء الأئمة »(٢). ويرى الإسماعيلية ، فوق ذلك ، أن الأئمة قادرون على فسخ أوامر الشرائع السابقة ؛ وغلا بعضهم فى ذلك فقالوا : إن الإمام معصوم حتما ، على حين لا يعصم غيره حتى الأنبياء أنفسهم (٣) . وفى الحق أن عصمة الأئمة عند الفاطميين ، وبخاصة فى عهد عبيد الله ، لم تصل إلى تفضيل

---

(١) Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, vol. v. p. 35.

(٢) Ivanow : Kalami Pir, p. xliii

(٣) ابن الوليد : تاج العقائد ومعدن الفوائد (نشره الأستاذ إيفانو) ص ٤٠ .

الأئمة على الأنبياء والرسل ، بل كانوا يفضلون النبوة والإمامة . ولكن الذى لا نشك فيه ، أن المستجيبين الذين كانت حياتهم مرتبطة بعبيد الله ارتباطا وثيقا ، كانوا يقدرونه ويحترمونه كثيرا ، ولكنهم لم يصلوا به إلى درجة العبادة . أما أولئك الذين كانوا بعيدين عنه ، فقد كانوا أكثر تطرفا فى تقديسه ، حتى كانوا يعتقدون عصمته اعتقادا لا يعتوره شك .

أما الغرض السياسى الأول من القول بعصمة الأئمة ، فيتلخص فى جعل العامة من الإسماعيلية يخلصون لإمامهم ظاهرا كان أو مستورا . وقد كان لهذه النظرية أثرها فى جذب المستجيبين إلى الدعوة وأنصارها ، وخضوعهم لعبيد الله خضوعا أعمى . ويتجلى القول بعصمة الأئمة فى تآليف الدعاة المشارقة خاصة كالنسفى والسجزى (٣٣١ هـ) .

ثالثا : نظرية التعليم من عبيد الله . يعتقد الإسماعيلية أن أسرار الشرائع وبواطنها وقف على الأئمة وحدهم ، وأنه لا يمكن معرفة هذه الأسرار إلا عن طريقهم أنفسهم ، أو عن طريق أنصارهم من الدعاة . وقد استغل دعاة الأئمة المستورين فى الدور القداحى تلك النظرية فى تثبيت نفوذهم ، بدعوى أنهم نواب الأئمة وحججهم . ولا غرو فقد كان نواب الأئمة من بيت القداح ، وعلى رأسهم عبيد الله ، ينادون بالتعليم من الإمام المستور ، أو نوابه ، حتى يستغلوا ذلك لمصلحتهم ، وينالهم من تقديس الأتباع لهم ما يناله الأئمة أنفسهم . ومن ثم يرون « أن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم ، يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين » (١) .

وكان أول من روج تلك النظرية الخطيرة ، عبد الله بن ميمون القداح . ونستطيع أن ندرك ذلك من مقابلة ابن حوشب للامام الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل ، وكذلك من مقابلة ابن فضل له (٢) (أو لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح) . ويظهر أن القائلين بنظرية التعليم كانوا قوة هائلة ، وأن نظريتهم هذه قد لقيت رواجا كبيرا على مر السنين ، « فظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين فى مقابلته » (٣) .

---

(١) الغزالى : فضائح الباطنية ص ٨ .

(٢) انظر ص ٧١ من هذا الكتاب .

(٣) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١١٠ .

وكان عبيد الله يستغل نظرية التعليم ويبثها بين أشياعه ، كابن حوشب ، وأبى طاهر الجنابى وغيرهما ، وأن هـــذه الرسائل التى تبودلت بين عبيد الله وبينهم تدل على صحة ما ذهبنا إليه . حقيقة راجت نظرية التعليم فى القرنين الخامس والسادس ، حتى خشى الناس ازدياد خطرها ، فهب العلماء السنيون يقاومونها ، كما نرى ذلك واضحا فى أقوال أبى بكر الباقلانى من علماء القرن الخامس ، والغـزالى من علماء القرن السادس الهجرى . ومع هـذا فإن أسس نظرية التعليم وضعت فى دور الستر الأول (الدور القداحى) ، وأفاد منها عبيد الله فى ستره وظهوره [١] .

ويخيل إلينا أن عبيد الله وغيره من الأئمة المستورين والأئمة الظاهرين ، لم يريدوا أن يأخذوا علومهم عن أئمة السنيين أو الاثنا عشرية أو المعتزلة أو ما إلى ذلك ، فكانوا يقولون لأتباعهم : « لا بد من الانقياد للشرع فى تكاليفه ، على التفصيل الذى يفصله الإمام من غير متابعة الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما وإن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين ، إلى أن ينالوا رتبة الكمال فى العلوم . فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور ، واطلعوا على بواطن هذه الظواهر ، انحلت عنهم هذه القيود ، وانحطت عنهم التكاليف العملية » [٢] .

رابعا : عبيد الله وإمامة الاستيداع . وينفرد جماعة الإسماعيلية بنظرية جديدة من نظريات الإمامة ، تلك هى نظرية الإمام المستودع . وعلى الرغم من أننا قد تعرضنا

---

(١) كانت المناظرة حادة بين الاسماعيلية وبين علماء السنيين ، لأن السنيين لايقرون بنظرية الامام المعصوم ، ولا بنظرية التعليم ، كما يفهمها الاسماعيلية ، ويرمون من يعتقد بهما بالالحاد والكفر . يتضح ذلك من وصف الغزالى مذهب التعليم فى قوله : إنه « مذهب ظاهره الرفض (أى التشيع لعلى وأبنائه) ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الامام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعتريها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظار من الاختلافات ، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وأنه (أى الامام) مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق ، ويكشف عن المشكلات ؛ وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام معصوم ، يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين (فضائح الباطنية ص ٧ — ٨) . وليس هذا فقط ، بل يعيب الغزالى عليهم قولهم : « إن الامام الظاهر ، قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكل » .

(٢) الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٠ .

لهذه النظرية فى غير موضع من هذا الكتاب ، نرى من الواجب ألا نوافق القائلين ، بأن نظرية الاستقرار والاستيداع نظرية حديثة ، لم تدخل فى المذهب الإسماعيلى إلا فى العصور المتأخرة ؛ لأن هـذا القول ينقضه مؤلفات جعفر بن منصور اليمن الذى عاصر المهدى ، والقائم والمنصور ثم المعز ، وجعفر الحاجب الذى شاهد حوادث فرار عبيد الله المهدى ، وتكلم عليها فى إسهاب ، كما ينقضه غير هذين من المؤلفين .

ونستطيع أن نرد على الأستاذ إيڤانوحين ينفى نظرية الاستيداع فى عهد عبيد الله المهدى ، بأن عبيد الله لو صح أنه من سلالة القداح ، لما أمكن نقل الإمامة إليه ، لأنه من غير سلالة علىّ ، وما رأينا أجنبيا عن هذه الأسرة يستطيع أن ينال شرف الإمامة [١] ، بأنه ليس من الضرورى عند الإسماعيلية أن يكون الشخص ابنا حقيقيا لآخر حين يقال فلان بن فلان ، لأن الأب قد يكون أبا روحانيا أو أبا جسمانيا . وبذلك لا يبعد أن يكون عبيد الله الابن الروحانى للامام الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل ، وبالتالى الأب الروحى للقائم بأمر الله ، الإمام الإسماعيلى المستقر .

أضف إلى هذا ما ذكرناه من قبل ، وهو أن الإسماعيلية يؤولون القرآن تأويلا غير صحيح ، فى سبيل إقرار نظريتهم فى الاستيداع والاستقرار ، فيقولون : إن الامام المستقر ، والإمام المستودع هما المقصودان من قول الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين) [٢] ، ومن قوله تعالى : (فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون [٣]) . وهذا الشرح لا يتفق مع شرح الآيات شرحا معقولا .

ويجب ألاّ يعزب عن أذهاننا أن الإسماعيلية كانوا يقصدون من نظرية الاستيداع نفى إمامة معارضيهم ؛ ولذلك حاربوا أبناء الحسن بن على بن أبى طالب بهذه النظرية ، بدعوى أن الحسن كان إماما مستودعا ، وأن أخاه الحسين إمام

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 153—5.

(٢) سورة هود آية ٨ .

(٣) سورة الأنعام آية ٩٨ .

مستقر . ولذلك كان لنظريتهم هذه أثرها فى انضمام فلول الحسنيين ، أتباع الحسن بن على وأبنائه ، على ما رأينا ، إلى الإسماعيلية فى العصر العباسى الأول ثم فى العصر الثانى . كما حارب الإسماعيلية الأبى هاشمية بتلك النظرية ، فقالوا : إن الحسين استودع أخاه محمد بن الحنفية الإمامة ، لينقلها إلى ابنه على زين العابدين بن الحسين ، وأن محمد بن الحنفية رد الإمامة إلى مستقرها فى حياته . وإذن فإن الهاشميين ، أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، استبدوا بالأمر ، كما أن دعوى العباسيين بأنهم أخذوا الأمر عن أبى هاشم هذا تقوم على غير أساس . وكأن الإسماعيلية اتخذوا مبدأ الاستيداع الإمامى لمقاومة الأبى هاشمية والعباسيين معا . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا ، إن الغرض الأساسى من نظرية الاستيداع الإمامى ، هـــو مقارعة الاثنا عشرية ، وإبطال ادعائهم أن موسى الكاظم نال الإمامة بعد جعفر الصادق ؛ فإن المعتدلين من الإسماعيلية يقرون بأن موسى الكاظم تولى الإمامة على أثر موت أبيه ، ولكنهم يقولون إن موسى الكاظم كان مع محمد بن إسماعيل كالحسن ابن على مع أخيه الحسين وأبنائه ؛ فكما أن الحسن كان إماما مستودعا للحسين وأبنائه ، كذلك كان موسى الكاظم مستودعا لإمامة محمد بن إسماعيل وأبنائه[١] .

والواقع أن الإسماعيلية استخدموا نظرية الاستيداع الإمامى ، لمقاومة الاثنا عشرية ، وإبطال حقهم فى الإمامة من جهة ، وجذبهم إلى المذهب الإسماعيلى من جهة أخرى ؛ لأنهم أقروا للاثنا عشرية بإمامة موسى الكاظم ، ولكنهم ، فى الوقت نفسه ، نفوها عن أبنائه . وقد استغل عبيد الله وأنصاره هذه النظرية أحسن استغلال ، كما يظهر ذلك واضحا من هذا النقاش الطريف الذى قام بين الداعى إدريس وبين الاثنا عشرية ، والذى يبين مدى اســـتغلال الإسماعيلية نظرية الاستيداع بقولهم : « إن الصادق عليه السلام أقام موسى بن جعفر حجابا على محمد بن إسماعيل ، وعلى من جعله له بابا ، الذى هو ميمون ، الستر عليه والكفيل . وكان موسى دارسا فى التأويل والحقيقة ، واجتمع عليه كثير من الشيعة المخالفين للطريقة ، فقصدوا الاسم دون المسمى ، وقنعوا باللفظ دون المعنى » ، أى أن من

---

(١) Ivanow : Kalami Pîr (Introduction), pp. xLviii.

قال بإمامة موسى الكاظم ، لم يفهم حقيقة هذا الاستيداع الإمامى[١] .

خامسا : عبيد الله والتعيين بالنص . يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن عبيد الله وغيره من الأئمة الإسماعيلية ، قد عين كل منهم بالنص من الإمام السابق . وسواء أكان عبيد الله الابن الجسدى للامام الحسين أم الابن الروحى له ، فقد عين بنص من هذا الإمام الحقيقى المستقر ، وهو الحسين . ويرى الطوسى أن الإمامة أو القدسيه ، على حد تعبيره ، تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الميلاد الطبيعى ، فيكون ذلك بمثابة نص من الأب بتعيين ابنه[٢] . وكذلك يرى الإسماعيلية أن الإمام ، بما أوتيه من معرفة خارقة للعادة ، يستطيع أن يعرف أى أبنائه قد ناله النص ، أى انتقلت إليه الإمامة[٣] . كما يرون أن الإمام لا يخطىء فى معرفته هذه بحال من الأحوال ، وإلا لما عد إماما ، لأن معارفه مقدسة ، لا يتطرق الخطأ إليها ، وهذا ما جعل الإمامة قوة لا ترد ولا يمكن فسخها ونقضها .

ونستطيع أن نتحقق من أن الإسماعيلية اتخذوا هذه النظرية كسابقتها لمقاومة الاثنا عشرية ، ليبطلوا إمامة موسى الكاظم أولا ، ويؤكدوا تقليد أخيه الأكبر ، إسماعيل ، بالنص من جعفر الصادق ، كما يقولون ، إن التعيين الأول هو الصحيح ، والنص عليه لا يرجع القهقرى ، والبَداء[٤] من الله ومن الأئمة محال . وبهذا تعتبر نظرية تعيين الإمام بالنص ، التى استمسك بها عبيد الله وسواه ، ثورة سياسية خطيرة من الإسماعيلية على الاثنا عشرية .

ويعتقد الإسماعيلية اعتقادا جازما بأن إمامهم إسماعيل وخلفاءه هم الأئمة الحقيقيون ، لأنهم كانوا جميعا يعينون بالنص ، وبخاصة إسماعيل الذى نص عليه أبو جعفر الصادق ، ويعترضون فى الوقت نفسه على إمامة موسى الكاظم ، ويقولون ،

---

(١) الداعى عماد الدين إدريس : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٥٢ .

(٢) روضة التسليم ص ٥٣٩ (من المجلة الأسيوية الملكية سنة ١٩٣١) .

(٣) وردفى كتاب كلاحى بير (ص ٧٦) أن الامام يعين ابنه تعيينا مباشرا ، أى بالنص ، وأن ذلك النص قد يكون تصريحا أو تلميحا . ولذلك كان من الضرورى أن يعين الامام أحد أبنائه خليفة له ، أو يعلن أن فلانا سيصبح إماما بعده .

(٤) البداء : من بدله إذا راجع نفسه ، ثم نقض قوله .

إنه لو كان موسى إماما مستقرا حقا . لما انقطع نسله بالحسن العسكرى وابنه محمد المنتظر ، على عكس الإمامة الإسماعيلية ، فإنها باقية ما بقى الدهر ، وأنه لا بد من وجود إمام إسماعيلى ، ظاهر أو مستور ، حتى لاتخلوالأرض لحظة من إمام ، وإلا مادت بأهلها[1].

سادسا : استمرار الإمامة مدى الدهر . يعتقد الإسماعيلية ، فى عهد عبيد الله المهدى وبعده ، استمرار الإمامة إلى آخر الدهر ، ولذلك وضعوا أحاديث كثيرة ، يثبتون فيها نظرية استمرار الإمامة ، فيقولون : إن الكون لا يستطيع البقاء لحظة بدون إمام ، وإنه لو فقد الكون إمامه لحظة واحدة لذهب وتبدد . وكان من أثر ذلك أن ظل الإسماعيلية يعتقدون إلى اليوم بقاء الإمامة فى أحد سلالة الإمام الطيب ابن الآمر (وهؤلاء هم البهرة) ، الذين يترقبون الفرصة المواتية لظهوره ، لينشر دين التوحيد والعدل بين الخلق . ويعتقد جماعة من الإسماعيلية فى الوقت نفسه (وهم الخوجات أو الأغاخانية) ، بقاء الإمامة فى زعيمهم سمو أغاخان . وهم جميعا بهرية كانوا أو أغاخانية يؤمنون بأن إمامتهم باقية ما بقى الدهر ، وإلا مادت الأرض بأهلها ومما يوضح عقيدتهم فى استمرار الإمامة ، قول جعفر بن منصور اليمن : « فالإمامة لاتتغير جاريا أبدا مع مرور الدهر . فالأئمة ينتقلون ويصيرون إلى دار كرامته ومحل رضوانه ، بغيبة أشخاصهم ، وقيام الخلف منهم فى مقام السلف باتصاله بالإمامة ، لأن الإمامة تنتقل ولا تزول ، وإنما الأئمة ، صلوات الله عليهم ! يتوارثون بالانتقال والاتصال ، خلفا عن سلف ، كما أن عرش الله حال لا يزول[2] » .

سابعا : الستر والظهور . من نظريات الإسماعيلية المحببة إليهم ، نظريتا الستر والظهور ، وقد تكلمنا عليهما . ويهمنا هنا أن نقول ، إن عبيد الله من الأئمة الذين نالوا صفتى الستر والظهور معا ، وإنه نجح فى الأمرين نجاحا يذكر ؛ فكان فى ستره يعتمد على جماعة يوغلون مثله فى التخفى ، ويتفننون تفننا يقيهم عادية « الأضداد » ،

(١) كلامى بير ص ٤٢ .

(٢) الداعى عماد الدين إدريس : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٥٢ .

فنراهم تارة تجارا ، وأخرى من المتصوفين ، وثالثة يتزيون بزى النساء . وليس هذا كل شيء ، بل استغل عبيد الله ، كغيره من أئمة الاستتار ، فرصة هذا الستر ، وملأ الجو إشاعات تؤكد قرب ظهور المهدى المنتظر، فاندفع الناس إلى طائفة الإسماعيلية اندفاعا أدى إلى قيام الدولة الفاطمية . والواقع أن الإسماعيلية كانوا ينشرون أن إمامهم حى يتحين الفرصة للظهور ، وأنه يعمل فى الخفاء ، ولو تكاتف الأتباع حوله ، وأقاموا له دولته ، لظهر بينهم ، وملكهم الأرض جميعا . وكان لهذا القول صدى فى قلوب الناس ، وخاصة الاثنا عشرية ، الذين ملوا انتظار إمامهم ومهديهم. وبذلك كان الستر وسيلة استغلال من هذه الناحية ؛ كما كان الحجج وكبار دعاة الإسماعيلية يستغلون استتار الأئمة ، ويعملون على تقوية نفوذهم باسم هؤلاء . وهذا ما حدا بعض المؤرخين على القول بأن أبناء القداح ، ومنهم سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وهو المهدى ، قد استغلوا ذلك . وأصبح نفوذهم يفوق نفوذ الأئمة أنفسهم . وإن نظرية الستر وبعث الأمل بظهور المهدى ، قد راجت رواجا كبيرا بين الشعوب التى اضطهدها العباسيون ، فولوا وجوههم شطر المنقذ الإسماعيلى وأنصاره من الحجج والدعاة .

وهاك صورة من صور التخفى ، التى كان الأئمة والحجج والدعاة من الإسماعيلية يلجئون إليها، قال الداعى إدريس: «كان لشدة استتار الإمام، عليه السلام! إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعا وطاعة لولى العصر . ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح فى العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ، ولا يكشف له اسم إمامه ، ولا يبينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه ، إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق كشف معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وجرى ذلك مدة الأئمة المستورين ، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأنارت آفاق الدين لكل مستمسك بالعروة الوثقى »[١] . ويقول الداعى إدريس فى موضع آخر : «فمن أخذ العهد على مستجيب سمى له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه

---

(١) زهر المعانى (من المنتخب) ص ٥٩ .

سترا على صاحب الأمر ، وجرت بذلك السنة والقضية فى الأئمة المستورين الثلاثة (١) . فمن ذلك أن الدعاة فى أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ، ما اتفق منها فى ذلك اثنان ، (٢) . وهذا يفسر لنا اختلاف أسماء الأئمة أحيانا ، وخلطها بأسماء حججهم من أبناء القداح أحيانا أخرى .

ولا يقل الظهور عند الإسماعيلية شأنا عن الستر ؛ ولذلك استمر تقديسهم لعبيد الله المهدى بعد قيام الدولة الفاطمية . إلا أن دعاة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله كانوا نشيطين فى دور ستره ، خاملين نوعا ما فى دور ظهوره (٣) . وهذا القول ينطبق على دعاته المقربين إليه ؛ أما دعاته الذين عاشوا بعيدا عنه كأبى طاهر الجنابى (٣٣٢ ﻫ) ، والنسفى (٣٣١ ﻫ) ، والسجزى (٣٣١ ﻫ) وغيرهم ، فكانوا على على شىء كبير من الحرية والاستقلال فى الرأى ، ولو أن عبيد الله كان يعمل دائما على إشعارهم بقوة شخصيته ووجوده .

وعلى الجملة فهذه أهم نظريات الإسماعيلية ، وخاصة فى عهد عبيد الله ، فى الإمامة .

أما تاريخ الدعوة القديمة ، فقد مر فى ثلاثة أدوار ، يسمى الدور الأول منها دور التكوين أو دور الستر ، وينتهى هذا الدور بقيام الدولة الفاطمية . وأما الدور الثانى ، فيعرف بدور الظهور ، وفيه أصبح الأئمة خلفاء ، ويبدأ بقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ ﻫ ، وينتهى باختفاء الإمامة فى شخص الإمام الطيب بن الآمر سنة ٥٢٦ ﻫ . ومن ثم يبدأ الدور الثالث من أدوار الدعوة القديمة ؛ وهناك جماعة

---

(١) يقصد بهؤلاء : الامام عبد الله الأكبر ابن محمد بن إسماعيل ، والامام أحمد بن عبد الله ثم الحسين بن أحمد .

(٢) Dozy : Esaai sur l'Histoire de l'Islamisme, p. 261.

(٣) ويجدر بنا أن نوضح فى كلمة عاجلة أدوار الستر وأدوار الظهور فى تاريخ الاسماعيلية . الواقع أن تاريخ الاسماعيلية يبدأ ببداية الدولة العباسية ، ولكنه لا يزال يساير تاريخ الاسلام حتى اليوم . وقد مر تاريخ الاسماعيلية ، بوجه عام ، فى شكلين سياسيين أساسيين هما : الدعوة القديمة (منذ ظهور المذهب الاسماعيلى حتى اليوم) ، وأنصار هذه الدعوة فى تلك الأيام هم البهرة ؛ والدعوة الجديدة (منذ وفاة المستنصر حتى اليوم) ، ويمثلها حديثا جماعة الخوجات .

يعرفون باسم الطيبية ، وينادى هؤلاء بإمامة الطيب ثم أبنائه من بعده ، ويعرفون باسم البهرة .

أما الدعوة الجديدة فقد مرت فى أدوار أربعة ، يعرف أولها بدور الستر الأول (٤٨٨ — ٥٥٩ هـ) . وكان دعاة النزارية يدعون فيه لإمام مستور من أبناء نزار ابن المستنصر ؛ ويبدأ الدور الثانى بادعاء الحسن الثانى (٥٦١ هـ) أنه حفيد الإمام نزار بن المستنصر ، ومن ثم يستمر دور الظهور بين النزارية حتى يبيدهم هولاكو ، ويقتل آخر ملوكهم فى سنة ٦٥٥ هـ . ومن هذا الوقت يبدأ الدور الثالث ، وهو دور اختفاء أئمة النزارية أو دور الاختفاء الثانى ، وينتهى بظهور أغاخان محمد حسين .

ويستمر الدور الرابع ، وهو دور الظهور الثانى ، حتى اليوم ، وتتمثل فيه الإمامة الإسماعيلية النزارية فى شخص أغا خان ، الذى يعتقد أنصاره اعتقادا جازما أنه من سلالة على وفاطمة ، ويغلون فى حبه وتقديسه .

(ب) الدعوة العامة للجميع :

وضع مؤسسو المذهب الإسماعيلى مبدأ الدعوة لمذهب عام يتفق مع مشارب الجميع . وكان عبد الله بن ميمون أول من وضع تلك الأسس ، وسار على هديها أبناؤه من بعده مع الأئمة المستورين المعاصرين لهم . ومن ثم وجد الزرادشتية والمانوية والمزدكية والصابئة ، واليهود والمسيحيون والشيعيون والسنيون وغيرهم فى المذهب الإسماعيلى كل ما تصبو نفوسهم إليه . وقد قلد الإسماعيلية فى ذلك جماعة العيسوية الأصفهانية اليهودية ، التى كانت تنادى بصحة نبوة موسى ومحمد . وكان الإسماعيلية يقولون للزرادشتى : إن نبيه زرادشت كان على حق ، وإن مبادئه على حق كذلك ؛ كما كانوا يقولون إن زرادشت نفسه هو على بن أبى طالب ، وبعبارة أخرى الإمام المستور . وكذلك كانوا يقولون مثل ذلك لمعتنق الأديان الأخرى : فعلى بن أبى طالب ثم عبيد الله هو نفسه حلول لزرادشت ومانى ومزدك ، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، وعلى أيضا . يقولون بهذا لجميع أنصار المذهب الإسماعيلى ومعتنقى الأديان المختلفة . وقد نحا إخوان الصفا فى ذلك منحى الإسماعيلية الأوائل ،

فجعلوا يحثون الإخوان على عدم الغض من شأن مذاهب الآخرين أو احتقار مؤلفاتهم ، وينهونهم عن الغلو المذهبي .

وفى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع انتشرت فكرة التعميم . وهو الاتجاه إلى المسائل العامة التى تلائم أفكار الناس ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . ومن ثم لجئوا إلى فكرة التأويل والباطن ، بمعنى أنهم كانوا يؤولون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما ورد فى الكتب السماوية الأخرى وغيرها ، بما يتفق مع ميول معتنق هذه الأديان والمذاهب .. وإذن فإن دعوة الإسماعيلية إلى مذهب عام ، لم تكن إلا صدى للحالة السائدة فى عصرهم ؛ ولذلك عملوا على جذب الفيلسوف والمعتزلى والمتصوف وغيرهم إلى صفوفهم ، كما عملوا على أن تكون تعاليمهم متفقة مع تعاليم هؤلاء وأولئك .

ومن ثم نرى علماء الإسماعيلية يتعمقون فى دراسة المذاهب والأديان الأخرى ؛ فكانوا يدرسون التوراة والإنجيل والفلسفة والتصوف ومذاهب المجوس ، ومبادىء الفرق الإسلامية الأخرى ، ليلائموا بذلك بين عقائد المذهب الإسماعيلى وعقائد المذاهب الأخرى . ومن ثم نرى الداعى النسفى (٣٣١ ﻫ) ، والداعى السجزى (٣٣١ ﻫ) فى عهد عبيد الله ، وحميد الدين الكرمانى فى عهد الحاكم ، وعبد الله بن ميمون نفسه قبل ذلك ، ملمين إلماما تاما بالتوراة والإنجيل وعقائد المذاهب الأخرى . ولا غرو فقد استمر الإسماعيلية منذ عهد عبيد الله المهدى (بل قبله) حتى اليوم ، على هذه السياسة ؛ فترى كتب الدرزية تشيد باليهودية والمسيحية وغيرهما ، كما ترى نزارية الشام يتحدثون مع مبشرى الصليبيين ، ويعملون على جذبهم للمذهب الإسماعيلى ، بدعوى أن عيسى بن مريم هو على ، وأنه هو إمامهم الإسماعيلى . ولم نذهب بعيدا ؟ ألم يعمل الإسماعيلية على جذب اليمنيين إلى مذهبهم ، فقالوا لهم : إن الدين يمانى ، والحكمة يمانية ، وكل شىء يخرج من اليمن ؟ ألم يقولوا لهم : إن المهدى سيظهر من اليمن على يد المنصور (أى ابن حوشب) ؛ فلما لم تلائمهم الظروف ولم تتحقق نبوءتهم قالوا : ستخرج الشمس من مغربها ، مما جعل أبا عبد الله الشيعى وأنصاره يستميتون فى حرب الأغالبة ، حتى أقاموا الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ ﻫ .

كذلك نرى جماعة الدرزية يعتقدون فى رسالتهم « السفر إلى السادة » ، أن دين الدرزية أودين التوحيد على حد تعبيرهم ، سيسود العالم ، ويجمع بين دفتيه الأديان الأخرى والمذاهب والفرق المختلفة . كما كان الإسماعيلية يأتون بالأحاديث التى تؤيد هذا الاتجاه ، فيروون عن محمد الباقر بن على زين العابدين أنه قال : « إذا قام قائمنا أهل البيت ، قسّم بالسوية ، وعدل فى خلق الرحمن ، البر منهم والفاجر منهم . من أطاعه أطاع الله ، ومن عصاه عصا الله . ويستخرج التوراة والإنجيل وسائر كتب الله بأنطاكية ، فيحكم بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل القرآن بقرآنهم »[١] . وهكذا كان المذهب الإسماعيلى ، كما يقول ميور[٢] ، محاولة يقصد بها جمع الأديان فى دين عام يسمى الدين السابع أو دين محمد بن إسماعيل .

وقد أثارت هذه الحركة مخاوف العلماء السنيين ، فوقفوا للإسماعيلية بالمرصاد يعيبون عليهم طريقتهم . يتضح ذلك بجلاء فيما ورد فى أبحاث ابن رزام وعبدالجبار والباقلانى ، ثم فيما ذكره الغزالى وابن تيمية وغيرهم . وبعبارة أخرى ، كانت هذه الفكرة الجامعة الشاملة تجد طريقها معبدا بين قلوب القرامطة ، وكان يناصرها عبيد الله المهدى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين . ومن ثم نراهم يقربون إليهم اليهود والنصارى ، ويتخذون منهم الوزراء ، ويسرفون فى التسامح الدينى ، حتى آلمت هذه السياسة الرعايا السنيين . وفى الحق أن هذه الدعوة الشاملة كانت تعتبر فى نظر الإسماعيلية قاطبة فى كل زمان ومكان حركة إصلاح شامل . ومن هنا يتضح التشابه الكبير بين الإسماعيلية والبهائية الذين يقولون بصحة الأديان جميعا ، ويدعون للتوفيق بينها . ويجد هؤلاء البهائية اليوم من المعارضة والمقاومة ما كان يجده الإسماعيلية وخصوصا بين القرامطة[٣] .

---

(١) شرح الأخبار (من المنتخب) ص ١٢٤.

(٢) Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall, p. 558.

(٣) Arnold : The Preaching of Islam, p. 212.

(ح) الاشتراكية:

من أهم التهم التي يوجهها السنيون للاسماعيلية ، أنهم اشتراكيون ، ينادون بالإباحة فى المال والنساء . وقد رأينا كيف استغل المتشيعون . الذين تشيعوا تشيعا قبيحا ، آراء المزدكية فى أواخر الدولة الأموية ، وعملوا على نشرها بين المسلمين ؛ حتى إن نظام الملك وغيره عزوا ذلك إلى تأثير «خُرّما» امرأة مزدك ، وقالوا : إن عمارا بن بديل المعروف بخداش ، وكان أحد كبار دعاة العباسيين فى فارس ، كان ممن يؤمنون بمبادىء « خُرما » زوجة مزدك فى الاشتراكية ، وأن قتله لم يضع حدا لهذه الآراء الخطرة . بل لقد لقيت هذه الاشتراكية رواجا بين الفاطميين ، أتباع فاطمة بنت أبى مسلم الخراسانى وابنها فيروز ، وبين غيرهم من فرق الأبى مسلمية ، أتباع أبى مسلم نفسه ، الذى رمى بنفس التهمة ، وهى اعتقاد المذهب المزدكى الاشتراكى. ولم تكن ثورة سُنْباذ المجوسى ، والمقنع الخراسانى من بعده ، إلا تشجيعا لنشر مبادىء الاشتراكية المزدكية المجوسية بين الناس. ولئن كان العلماء يسمون أتباع خرما بالخرمية أو الخرمدينية الأوائل ، فإنهم يطلقون على أتباع بابك الخرمى ، الخرمية أو الخرمدينية الأواخر ، ويقولون عن بابك هذا ، إنه أحد أحفاد أبى مسلم الخراسانى . وقد ذهب نظام الملك ، وكثير من العلماء إلى القول بأن آراء المزدكية الاشتراكية ، التى كانت منتشرة بين الفرس فى أواخرالعصر الساسانى،والتى وجدت طريقها بين صفوف المسلمين فى صدر الإسلام ، تركزت واستقرت فى العصر العباسى الأول ، ثم فى العصر الثانى بين الإسماعيلية أنفسهم ، خاصـــة بين القرامطة منهم . وعلى الرغم من أن نظام الملك كان متحاملا على هذا المذهب تحاملا شديدا ، حتى إنه غلا فى الرد على أنصاره ، وخرج فى كثير من الأحيان عن الحد الذى ينبغى أن لا يتجاوزه العالم المدقق ؛ تكاد الأدلة تثبت صحة ما ذهب إليه ، إن لم يكن كله ، فبعضه على الأقل فيما يتعلق بالقرامطة[1].

ونكتفى هنا بذكر أمثلة قليلة نتبين منها صحة هذه الدعوى ، وهى انتشار مبدأ الاشتراكية بين الإسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى .

---

(١) انظر ص ٦٤ من هذا الكتاب .

وخير مثل لذلك اشتراكية حمدان قرمط ، الذى يعتبر بحق حجر الزاوية للمذهب الإسماعيلى عند القرامطة ؛ فقد سن لأتباعه ضرائب مختلفة متدرجة ، انتهت بوضع مالية جماعته بين يديه[١] ، وتوزيعها على الجميع فى عدل تام . وبهذه السياسة الاشتراكية استطاع حمدان أن يكوّن جماعة متحمسة ليس بينها فقير ، كما استطاع بفضل اشتراكيته المالية هذه ، أن يعد العدة لنضال عنيف مع العباسيين ؛ فاشترى السلاح الكثير بالمال الذى وضعه بين يديه ، وبنى دار هجرة كانت تضارع المدن الكبيرة ، « وأقام الدعاة فى كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها يجمع عنده أموال أهل قريته ، من بقر وغنم ، وحلى ومتاع وغيره . وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيرا بينهم ولا محتاجا ولا ضعيفا ؛ وأخذ كل رجل منهم بالانكماش والمكسب جهده ، فيكون له الفضل فى رتبته ؛ وجمعت المرأة كسبها من مغزلها ، والصبى أجرة نظارته للطير ، وأتوه بها ، فلم يتملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه »[٢] .

وبهذه الطريقة الفذة استطاع حمدان قرمط ، فى عهد حجابة عبيد الله المهدى ، أن يكوّن جماعة متحدة فى الآمال والشعور ، لا هم لأحد منهم إلا أن يحمل سيفه للذود عن حياض جماعته . وهكذا تكونت جماعة حربية قرمطية ، تخضع خضوعا

(١) كانت أولى هذه الضرائب ,, ضريبة الفطرة ،، ، وهى الضريبة الواجبة على كل فرد من القرامطة ، ومقدارها درهم واحد . أما الضريبة الثانية فهى ضريبة ,, الهجرة ،، ، ومقدارها دينار واحد ، يدفعه المستجيب لرئيسه المباشر ؛ وسميت بذلك لانفاقها على المهاجرين من الاسماعيلية فى إقامة دور هجرة هؤلاء القرامطة . ثم فرض حمدان قرمط ضريبة ثالثة تعرف بضريبة ,, البلغة ،، ، وهى ما يُتبلغ به ، ويتقرب به إلى الله ، ومقدارها سبعة دنانير على كل فرد : ,, فكان ينفذ إلى كل داع مائة بُلغة ، (وهى طعام على قدر البنادق) ، ويطالبه بسبعمائة دينار لكل واحد منها سبعة دنانير ،، (المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤). أما الضريبة الرابعة فهى ضريبة ,,الخمس،، ، وهى أن يدفع كل مستجيب خمس ما يملك وما يتكسب . وتعتبر ضريبة الألفة آخر هذه الضرائب ، وسميت بذلك لأنها تؤلف بين قلوب الجميع ، على ما يعتقدون ؛ وهى أن يدفع كل إسماعيلى جميع ما يمتلك إلى رئيس دعوته . وقد عرفهم حمدان ,, أن لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ؛ لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم ، وقال لهم : هذه محنتكم التى امتحنتم بها . . . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده ،، . النويرى (نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٥٨).

(٢) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ورقة ٥٨ .

أعمى لرؤسائها الدينيين ؛ لأنهم اعتقدوا أنهم بعملهم هذا سيكوّنون «دولة الله» ، وأنهم وحدهم هم «المؤمنون» ، وأن الأرض جميعا ستكون لهم . وهذا خير رد على من ينفي اشتراكية القرامطة المالية[1] . وقد ذهب بعض[2] إلى القول بأن ماقام به حمدان قرمط في عهد عبيد الله من الاشتراكية المالية ، إنما كان حركة إصلاح هائلة ، ترمي إلى إيجاد عصر إصلاحي شامل ورخاء عام . وإذا صح ما عزي إلى حمدان قرمط ، دل على أن الاشتراكية كانت من مبادىء الإسماعيلية وقتئذ ، وإلا لعد حمدان قرمط ثائرا عليهم . ومهما يكن من شيء ، فقد نجحت الاشتراكية على يد حمدان نجاحا منقطع النظير ؛ لأنه نشرها بين الجماعات الفقيرة من النبطيين ، وبين فقراء السواد[3] ، والأعراب وسواهم .

كما تعتبر اشتراكية أبي سعيد الجنابي مثلا حيا لانتشار ذلك المبدأ بين الإسماعيلية في عهد عبيدالله ؛ فقد نجح هذا الداعي كما نجح أستاذه حمدان ، في نشر الاشتراكية المالية بين أتباعه . وقد نشر أبو سعيد الاشتراكية في نظام المجتمع القرمطي نفسه ؛ فوضع مالية جماعته بين يديه ، وأخذ يوزعها عليهم ، بحيث لا يأخذ أحدهم إلا مايعينه له . وهكذا «قبض على كل مال البلد ، والثمار والحنطة والشعير» . وبفضل اشتراكية أبي سعيد المالية ، استطاع أن يعكف على تعمير البلاد وإصلاح الزراعة . ولا غرو فقد جعلت حكومته تنفق على الرعايا ، وتوزع عليهم الأقوات والملابس ، وتعين لهم نوع العمل الذي يزاوله كل منهم ، إلى غير ذلك . ولهذا عمل أبو سعيد على «إصلاح أراضي المزارع ، وأصول النخل وعمارته . . . ونصب الأمناء على ذلك ، وإقامة العرفاء[4] . . . حتى بلغ من تفقده واحتياطه أن الشاة

---

(١) ينفي دي غويه (Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii. p.30). اشتراكية القرامطة ، وبخاصة الاجتماعية منها ، لكنه يقول : إنها كانت موجودة على الأقل عند القرامطة الأوائل ، لأنها تتفق مع «دولة الله» ، التي كان حمدان قرمط ينشدها ويسعى إلى إيجادها ، كما تلائم النظرية الإسماعيلية القائلة بأن جميع الأرض ستكون ملكا للمؤمنين أي القرامطة .

(٢) ماسنيو : عجب نامه ص ٣٢٩ .

(٣) أي سواد الكوفة ، وهي الأرض الزراعية بإقليم الكوفة .

(٤) جمع عريف وهو من يكون على النفير ، والنفير عدة رجال من ٣ إلى ١٠ .

كانت تذبح ، ويسلم اللحم إلى العرفاء ، ليفرقوه على من يرسم لهم . ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ؛ ويجز الصوف والشعر من الغنم ، ويفرق على من يغزله . ثم يدفع إلى من ينسجه عبيا وأكسية وغرائر وجوالقات[1]، وتفتل منه حبال ، ويسلم الجلد إلى الدباغ ؛ فإذا خرج من الدباغ سلم إلى خرازى القرب والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافا عمل منه . ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن ، فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه[2]» .

فهذه اشتراكية عامة ، لا فى المال وحده ، بل فى نظام العمل والمجتمع كذلك . ولذلك نرى حكومة القرامطة تدفع للصناع ثمن آلاتهم ، وتعينهم على القيام بعملهم ، كما كان إصلاح المنازل والأعمال العامة من واجب الحكومة لا الأفراد ؛ فإذا آل منزل إلى السقوط ، أصلحته الدولة على أيدى رجالها وعبيدها ، من غير أن تأخذ مالا من صاحب المنزل ، كما أن طحن القمح والشعير كان من عمل الدولة ، إذ كان الناس يطحنون حبوبهم من غير أجر[3] .

وتتضح الاشتراكية الاجتماعية عند قرامطة الشمال ، وهم أتباع زكرويه بن مهرويه وأبنائه . فقد كان هؤلاء القرامطة يبيحون لأنفسهم أن تتزوج المرأة أكثر من واحد ، حتى إنهم لم يعقدوا عقود الزواج على النحو الذى يعقدها به المسلمون . وقد أفاضت المراجع السنية خاصة فى ذكر حوادث تؤيد هذه الحقيقة ، فذكرت حادثة المرأة الهاشمية التى تزوجها بضعة رجال ، وأنجبت مولودا لم تعرف لمن تنسبه . ولنترك هذه الأم تحدثنا عن نفسها وعن ابنها فتقول : « أنا امرأة هاشمية ، أخذنا هؤلاء القوم فذبحوا أبى وأهلى جميعا ، وأخذنى صاحبهم فأقمت عنده خمسة أيام ، ثم أمر بقتلى ؛ فطلبنى منه أربعة أنفس من قواده ، فوهبنى لهم ، وكنت معهم ، فوالله ما أدرى لمن هذا الولد[4]» . ومن الغريب أن هؤلاء القرامطة كانوا يعتقدون أنهم

---

(١) الغرائر والجوالقات شىء واحد ، وهو العدل من الصوف أو الشعر .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٤ .

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٧٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ .

على صواب ، وأن غيرهم على ضلال . ويعتقدون كذلك أن تركهم الإسلام ، على المذاهب السنية ، واعتناقهم المذهب الإسماعيلي نعمة كبرى ، حتى كانوا يقولون : « ما كنا فيه باطل ، والدين ما نحن فيه اليوم[1] » .

ولا تقل اشتراكية ابن فضل ، أحد داعيي اليمن (هو وابن حوشب) في عهد عبيدالله ، عن غيرها ؛ حتى إن المراجع الإسماعيلية والسنية تكاد تجمع على خروج هذا الداعي على الشريعة الإسلامية والمذهب الإسماعيلي؛ فإنه لم يكتف بالاشتراكية الاجتماعية ، ومناداته بالإباحة ، بل نادى بالألوهية . ومهما يكن من شيء ، فإن ابن فضل طلب من أشياعه التحرر من أوامر الشريعة ، فلا صلاة ولا صوم ولا حج ؛ ونادى فى الوقت نفسه بإباحة تزوج المرأة من محارمها ، وطلب إلى نساء عصره أن يكن ملكا للجميع . أليست هناك اشتراكية سافرة تتجلى فى قوله مخاطبا إياهن ؟

يقول الجندى فى كتابه السلوك : إن ابن فضل هذا « صعد المنبر ، وأنشد هذه الأبيات وهى :

خذى الدف يا هذه والعبي	وغنى هزاريك[2] ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم	وهذا نبى بنى يعرب[3]
لكل نبى مضى شرعة	وهذى شريعة هذا النبى
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى	وإن صوموا فكلى واشربى
ولا تطلبي السعى عند الصفا	ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المؤمنين	من الأقربين مع الأجنبي
فلِمْ ذا حللت لهذا الغريب	وصرت محرمة للأب[4] ؟

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ .

(٢) الهزار : العندليب .

(٣) نبى بنى هاشم هو الرسول ، ونبى يعرب هو على بن فضل عندهم .

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٤ .

ويقول الداعي النعمان المغربي في علي بن الفضل : «إنه استحل المحارم ، ورفض الظاهر[1] ، ودعا الناس إلى الإباحات[2].

(د) الحلول[3] :

ويقصد به حلول الله في البشر ، وهو من أهم مبادئ الإسماعيلية ، التي راجت بينهم منذ ظهورهم . وقد تطور تطورات مختلفة على مر الزمن ، ونجح عبد الله ابن سبأ في بث هذا المبدأ ذي الخطر في تأليه علي بن أبي طالب . ومن ثم وجدت نظريات هذا المبدأ طريقها إلى قلوب المتشيعين ، حتى استقرت في جماعة الخطابية أتباع أبي الخطاب ، وهم البذرة التي نبت منها المذهب الإسماعيلي ؛ فألهوا جعفرا الصادق ، وصلوا له وصاموا ، واستمر أتباعهم على هذا الغلو . ولا نستطيع أن ننفي هذا المبدأ عن الإسماعيلية ، برغم تبرؤ جعفر الصادق وبعض الخلفاء الفاطميين من القائلين به ؛ لأن هذا المبدأ يعد من أصول المذهب الإسماعيلي ومقوماته . فهم يعتقدون — كما رأينا — في العقل الكلي والنفس الكلية ، وإمكان انتقال كل منهما في البشر ؛ كما يعتقدون أن كلا منهما ليس بشرا بالطبع ، بل إن العقل الكلي إله استطاع أن يخلق النفس الكلية التي تستطيع بدورها أن تسيطر على قوة الخلق والإبداع . كما يعتقدون أن الأنبياء أو النطقاء — على حد تعبيرهم — حلول العقل الكلي ، وأن الأئمة الإسماعيلية حلول النفس الكلية والعقل الكلي معا . ومن ثم كان الحلول فيهم مزدوجا . لذلك لا نعجب إذا اعتقد الإسماعيلية تأليه هؤلاء الأئمة وتقديسهم ، لأنهم حلول الإله الذي يتمثل في العقل الكلي ، والإله الذي يتمثل في النفس الكلية .

وقد رمي عبيد الله المهدي بأنه كان يؤمن بهذه العقيدة ، وأنه سمع مدح بعض الشعراء له بهذا المبدأ ، وأنه لم يعترض عليه . وقد رأينا كيف أن ابن عذاري — وهو سني مغال — يقول : «إن الشعراء مدحوه بالكفر فاستجازه ، وإنه قيل فيه حين دخل رقادة ، حاضرة الأغالبة :

حلّ برقادة المسيـــح حل بها آدم ونوح

(١) أي كأنه نادى بالباطن وهو جوهر المذهب الاسماعيلي .

(٢) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ .

(٣) The Incarnation.

حل بها الله ذو المعالى   وكل شىء سواه ريح

وكذلك قيل إن عبيد الله المهدى قد رمى بادعاء الغيب وغيره . إلا أننا نشك كثيرا فى صحة ذلك كله ، لأنه لم يكن من البله حتى يدعى الصفات التى لا تكون إلا لله سبحانه ، ويثير بذلك حنق رعاياه السنيين، فيقوموا فى وجهه ويخلعوه . والذى نستطيع أن نذهب إليه أن هذه المذاهب الغالية لم يكن من اليسير أن يقوموا بنشرها بين رعاياهم، ولكنها كانت رائجة بين أنصار المذهب أنفسهم، الذين ارتقوا إلى درجات الدعوة الإسماعيلية العليا ، والذين كانت تؤهلهم ثقافتهم المذهبية إلى فهم النظريات المختلفة فى الحلول والتجرد من العقائد السنية . ونحن لا نستبعد رواج مثل تلك المبادىء الغالية فى ذلك الزمن ؛ فقد نادى بالحلول أشياع الحلاج (٣٠٩ هـ) ، وكان معاصرا لعبيد الله المهدى ، كما نادى بها أشياع الشلمغانى (٣٢٠ هـ). ونحن نعلم أنهم رموا الحلاج بأنه إسماعيلى قرمطى ؛ فدعوى التأليه كانت بدعة رائجة فى ذلك الوقت ، لكن عبيد الله المهدى كان من الحنكة السياسية بحيث امتنع عن الظهور بها أمام رعاياه السنيين ، ليضمن ولاءهم له . أضف إلى ذلك أن عبيد الله لم يكن إلا حجة من حجج الأئمة الإسماعيلية ، بمعنى أن الإمامة انتقلت إليه على طريقة الاستيداع ، وأنه لم يكن فى نظر أنصار المذهب أنفسهم العالمين بأصول مبادىء التأليه الإمامى ، سوى شخص ممتاز لا إله . وقد يتضح ذلك من آراء الدرزية الإسماعيلية فيه وفى الخليفة « القائم » ، الذى يصفونه بالألوهية الكاملة ، ويجردون عبيد الله من كل صفات التأليه[١] .

ولم يكن بدعا إذن أن ينتشر هذا المذهب ذو الخطر ، وهو الحلول ، بين أشياع المذهب الإسماعيلى . ويتضح ذلك من دعوى ابن فضل الألوهية ؛ فإنه لم يكتف بنشر مبادىء الإباحة والاشتراكية ، بل نادى بالألوهية . وكان يخاطب أتباعه بقوله : « من رب العزة فلان ، إلى عبده فلان ، وتسمى برب العالمين[٢] ، وتسمى

---

(١) انظر كتاب النقط والدوائر ص ٧٥ ، حيث نرى الدرزية يقولون : إن القائم هو الله تعالى ، ولا يقولون ذلك عن عبيد الله المهدى ، لأنه فى نظرهم إمام مستودع لا مستقر .

(٢) Arendonk : De Opkompst Van Het Zaïdietische in Yemen, p. 305.

ابنه باسم « ابن رب العزة » ، إلى غير ذلك من الأسماء التى تؤكد رواج مذهب الحلول بين أتباع ابن فضل فى بلاد اليمن . وعلى الرغم من سب الإسماعيلية إياه ، ورميه بالخروج عن الظاهر وبالزندقة أيضا ، لم يخرج ابن فضل ـ فى نظرنا ـ عن سمت المذهب الإسماعيلى . وإن كان قد خرج على الأصول الإسلامية السنية ، فهو بمناداته بمذهب الحلول، إنما ينادى بمذهب محبب إلى الإسماعيلية ، الذين اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم . والذين آمنوا بفلسفة الحلول إيمانا يفوق إيمان السبئية والنصيرية فى تأليه على بن أبى طالب . وإلى هؤلاء يشير أبو العلاء المعرى بقوله : « وهذه الطبقة . لعنها الله ! تستعبد الطغام بأصناف مختلفة من الأباطيل ، فيدعى رؤساؤها النبوة أحيانا ، والألوهية أحيانا أخرى ، ويجدون من مرءوسيهم إيمانا وتصديقا[1] .

ولم يكن القرامطة أقل إيمانا بمذهب الحلول من ابن فضل ؛ حتى إننا نرى أبا طاهر الجنابى يؤمن بالحلول إيمانا قويا ، ويقدس أبا زكريا الصمامى [2] ، ويأمر أتباعه بعبادته ، معتقداً أنه إله حل بينهم . وقد شغلت هذه العقيدة من نفوسهم مكانا كبيرا ، حتى أصبحت دينا لهم . ولما تبين لأبى طاهر أن أبا زكريا إنسان لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأنه ليس إلها ، قتله وأمر أشياعه بالارتداد عن اعتقادهم بألوهيته . والذى يلفت النظر حقا ، أن القرامطة لما أمروا بترك اعتقادهم ألوهية أبى زكريا الصمامى ، كادوا يقومون بثورة عامة فى وجه أبى طاهر وحكومته ، وهو الأمر الذى يدلنا على مدى تأثير مبدأ الحلول وتأليه البشر فى نفوسهم .

وقريب من هذا ماذكره أبو العلاء المعرى عن تأليه بعض كبار القرامطة أنفسهم ، واعتقادهم أنهم آلهة يبعثون الرسل . يقول أبو العلاء [3] : « ومن أعجب ماسمعت أن بعض رؤساء القرامطة فى الدهر القديم لما حضرته المنية ، جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت : إنى قد عزمت على النقلة [4] . وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدا ، ولابد لى أن أبعث غير هؤلاء » .

---

(١) رسالة الغفران ص ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٢) يسميه عريب بن سعد (ج ١٢ ص ٨٤) زكرى الخراسانى .

(٣) رسالة الغفران ص ١٤٥ .

(٤) أى الانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، والمعنى عند موته .

من هذا نرى أن مبدأ الحلول كان رائجا بين طوائف الإسماعيلية كافة عـــدا الفاطميين ، وبعبارة أخرى ، لا نجد الحكومة الفاطمية تشجع هذا النوع من التأليه بين الرعايا السنيين ، على حين وجد هذا المبدأ طريقه إلى الإسماعيلية فى بلاد اليمن عند أتباع ابن فضل ، وفى بلاد البحرين بين القرامطة ، بطرق وصور مختلفة ؛ كما راج بين الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، وخصوصا أنهم كانوا فى العصور القديمة يقولون بنظرية الحق المقدس لملوكهم The Divine Right of Kings ، فاستمروا فى تقديس رؤسائهم الروحانيين من الأئمة الإسماعيلية خاصة . وكانت لعبيد الله المهدى مواقف كثيرة ، تؤكد أنه لم يكن يرضى عمن يحاولون تأليهه ، وينشرون ذلك بين الرعايا السنيين . وكان العلماء فى المغرب يسمون المناداة بمثل ذلك الغلو « التشريق » ، كما ذهبوا إلى القول بأن عبيد الله حاول المناداة بذلك المذهب فى بلاده ؛ فلما أدرك نفور الناس وسخطهم ، عدل عنه وفتك بمنتحليه .

من ذلك أن أحد الدعاة ، ويسمى منيب بن سليمان الكناس الداعى ، أظهر فى سنة ٣٠٩ هـ « التشريق [١] بجانب تيهرت (تاهرت) ، وتحليل المحرمات . وقيل إن عبيد الله وجهه وغيره إلى الأطراف ، وأمرهم بإظهار التشريق ، فإن وجدوا الناس محتملين له ، ومغضين عليه ، نشروه عند العامة ، وأظهروه . فلما كشف منيب . . . ما أمره عبيد الله به . . . . فقام عليهم الناس ، وقتلوا بعضهم ؛ فكفوا [٢] . » وهذا يبين لنا السياسة التى كان الفاطميون يسلكونها مع رعاياهم من السنيين خاصة .

وليس معنى ذلك أن مذهب الحلول وغيره من مذاهب الغلو قد امّحت فى بلاد المغرب ، بل إننا نرى جماعة يؤلهون الأئمة ، حتى لقد هال عبيد الله نفسه أن يرى أسرار المذهب الإسماعيلى تذاع بين العامة ؛ لأن ذلك قد يؤدى إلى ثورة قد تطيح بعرشه . ولذلك نراه يقبض على جماعة « أظهروا التشريق بالقيروان ، وباجة ، وتونس ، وجاهروا بتحليل المحرم ، وأكلوا الخنزير ، وشربوا الخمر فى رمضان

---

(١) يقصد التشريق القول بالغلو ، والمناداة بباطن المذهب الاسماعيلى وأسراره .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

جهارا ... فكتب عبيد الله إلى عماله بهذه المواضع ، بأن يرفعوهم إلى بابه مقيدين ، ثم حبسوا فمات أكثرهم بالسجن(١) » .

ومن الغريب أن يكون من بين هؤلاء المغالين جماعة يعرفون بالتقوى والورع ، ولكنهم آمنوا بالحلول إيمانا ملك عليهم نفوسهم ؛ فكانوا يعبدونه ، ويخلصون فى عبادته ، حتى إن واحدا منهم « كان يصلى إلى رقادة أيام كون عبيدالله بها ، وهى منه فى الغرب . فلما انتقل عبيد الله إلى المهدية ، وهى فى الشرق صلى إليها ، وكان يقول : لست ممن يعبد من لا يرى ! وكان يتصدى لعبيد الله ويقول : إرق إلى السماء ! كم تقيم فى الأرض ، وتمشى فى الأسواق ؟ وكان يقول لأهل القيروان فى عبيدالله : إنه يعلم سركم ونجواكم » . وكذلك نرى شخصا آخر « يأكل فى شهر رمضان جهارا ، ويرتكب الكبائر ، وكان فى أيام بنى الأغلب من المتزهدين(٢) » .

من هذا كله نرى أن مذهب الحلول كان يروج بين الإسماعيلية رواجا كبيرا فى البلاد التى لم تكن تحت حكم الفاطميين مباشرة ، وأن هؤلاء كانوا يعملون على القضاء على هذا المذهب ، وأن الحاكم بأمر الله (٤١١ هـ) لم يكن حين أله نفسه ثائرا على المذهب الإسماعيلى ، وإنما كان ثائرا على هذه السياسة التى وضعها عبيد الله ، من تظاهره لرعاياه السنيين بعكس ما يعتقده الإسماعيلى المخلص لمذهبه . ونعتقد أن هذه السياسة المزدوجة كانت السبب فى بقاء الدولة الفاطمية نحو ثلاثة قرون (٢٩٦ — ٥٦٧ هـ) . ولو أن القائمين بهذه الدولة عملوا على ترويج مبادىء المذهب الإسماعيلى السرية بين العامة ، لما قدر لها البقاء طويلا .

٣ — عوامل نجاح عبيد الله المهدى

من حسن حظ عبيدالله ، أنه ظهر فى عصر كان الانحلال يسود فيه العالم الإسلامى . فقد أصبحت الخلافة العباسية ، العدو الأساسى لطوائف الإسماعيلية ، غير جديرة بمكانها ، فسادها الاضطراب وقامت الثورات . ولم يعد هناك بين العلويين جماعة

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٠ — ١٩١ .

قوية تستطيع منافسة الإسماعيلية ، فلم يجد عبيد الله منافسة قوية من سائر العلويين ، بل على العكس من ذلك ، وجد من أشياعه وغيرهم تحمسا عاما لفكرة المهدى المنتظر . هذا بالإضافة إلى أساليب الدعوة المنظمة ، التى وضع أساسها عبد الله ابن ميمون القداح ، وقام على تنفيذها أبناؤه بمساعدة الأئمة المستورين ، حتى انتهى الأمر بانعقاد لواء الزعامة على عبيد الله مستترا وظاهرا ، ونال أقصى ما تصبو إليه نفسه من توفيق ونجاح .

(ا) ضعف العالم الإسلامى :

وقد أخذ الضعف يدب فى جسم العباسيين منذ أوائل العصر العباسى الثانى ، لزيادة نفوذ الأتراك الذين احتلوا أعلى مناصب الدولة ، فتسلطوا على جميع مرافقها ، وأصبح بأيديهم عزل الخلفاء وتوليتهم ، وأصبح الخليفة العباسى ـ كما قال الشاعر :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

أو كما قال الخليفة المعتمد نفسه (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قلّ ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شىء فى يديه[1]

وهكذا كان لضعف زعيم العالم الإسلامى ، وهو الخليفة العباسى ، أثره فى ازدياد قوة عبيد الله المهدى ونجاحه ؛ لأن أتباعه ضاعفوا جهودهم فى الخفاء ليحل زعيمهم محل الخليفة العباسى الضعيف .

وقد أدى ضعف الخلافة العباسية إلى قيام الثورات عليها ، واشتغالها بإخمادها ، وتركها عبيد الله وأنصاره يعملون فى هدوء واطمئنان ؛ فلم يشعر العباسيون إلا وسيوف الإسماعيلية تعمل فى رقابهم . وكانت ثورة صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ)

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ .

من أهم الثورات التى مهدت لنجاح عبيد الله ، الذى استطاع أنصاره من القرامطة وسواهم أن ينشروا فى الوقت الذى كانت فيه نار هذه الثورة مشتعلة ، عقائد المذهب الإسماعيلى فى بلاد العراق نفسها ، وفى فارس واليمن . ولما تولى عبيد الله زعامة الإسماعيلية فى سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة موطأة له .

أضف إلى ذلك ضعف الطولونيين فى مصر والشام ؛ فقد ساعده ذلك الضعف على أن يغرر بالولاة فى سلمية مدة طويلة ، وأن يفلت من أيديهم دون كبير عناء . ومن أهم العوامل التى ساعدت على نجاح عبيد الله ، ثورة قرامطة الشمال فى الشام وباديتها ثم فى العراق ؛ فقد شغلوا العباسيين خمس سنوات ، وأضعفوا الدولة الطولونية ، فطمع فيها العباسيون وأزالوها . وفى وسط ذلك الاضطراب الذى ساد بلاد الشـــام ومصر ، كان عبيد الله يأخذ طريقه إلى المغرب لتأسيس دولته فيها . وهكذا لم يكن ضعف العباسيين وحدهم هو السبب فى نجاح عبيد الله ، بل كان لضعف أتباعهم الطولونيين أثره فى ذلك النجاح .

وليس هذا وحده ، بل كان لضعف الدولة الزيادية فى اليمن ودولة الأغالبة فى المغرب ، أثر كبير فيما أصابه عبيد الله المهدى من نجاح ؛ فاستطاع دعاته أن يستولوا على بلاد اليمن ، وينشروا عقائد المذهب الإسماعيلى بين أهلها ، الذين أصبحوا يؤمنون بنظرية المهدى المنتظر ، كما استطاع ابن حوشب (منصور اليمن) أن يمد عبيد الله ، وهو بسلمية ، بأموال وفيرة ، كانت عونا له فى حله وترحاله . أضف إلى ذلك أن ضعف الأغالبة فى تونس ، وسخط البربر عليهم قد أتاحا لأبى عبد الله الشيعى الفرصة للوصول إلى أغراضه ، عن طريق نشر الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى ، والقضاء على الأغالبة فى تلك البلاد .

(ب) انتشار التشيع :

كذلك كان لانتشار التشيع فى البلاد التى راجت فيها مبادىء المذهب الإسماعيلى أثر كبير فى نجاح عبيد الله المهدى . فهذه بلاد اليمن قد سادها مذهب الزيدية ، أتباع زيد بن على زين العابدين ، منذ أيام الدولة الأموية ، الأمر الذى ساعد الإسماعيلية على الاستقرار فى هذه البلاد . إذ أن كثيرا من مبادىء المذهب

الإسماعيلي ، كمبدأ المهدية ، كانت منتشرة بين الزيدية . وكان اليمنيون ، منذ أيام بني أمية ، يعتقدون بظهور القحطاني المنتظر . وقد استغل ابن حوشب وابن فضل هذه الميول الشيعية ، واتخذوا من بني موسى وبني الوزان المتشيعين عيونا وأعوانا لهم . يقول المقريزي[1] : «كان باليمن من هذا المذهب كثير بعدن ، في قوم يعرفون ببني موسى». وكان الشيعيون في بلاد اليمن يلجئون إلى البلاد الجبلية ويعتصمون بها ، حتى لقد قالوا : «كانت جبال اليمن على مذهب الشيعة ، وسائر اليمن بقواعلى مذهب أهل السنة ، مع اختلاف»[2].

وكان للتشيع في بلاد المغرب أثر كبير في نجاح عبيد الله ، ذلك أنه في العصر العباسي الأول ، وجد التشيع طريقه إلى هذه البلاد على يد الإمام إدريس بن عبدالله الحسني العلوي ، الذي تمكن من الفرار بعد موقعة فخ في عهد الخليفة الهادي العباسي. وقد التف البربر حول الأدارسة في المغرب الأقصى ، وكوّن هؤلاء إمبراطورية شيعية ، تعرف بدولة الأدارسة [3] . ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة لذلك المذهب الإسماعيلي ، فأرسل الإسماعيلية إليها دعاة جريئين «ليحرثوها ويكربوها» ، وليمهدوا «لصاحب البذر» هنالك . وقد حدث ذلك حين كان عبيدالله لا يزال طفلا ؛ فلما دخل المهدي في دور الشباب أرسل الإسماعيلية أبا عبد الله الداعي إلى هذه البلاد ؛ فوجد الأمور ممهدة له ، ووجد التشيع الإسماعيلي قد استقر في عقول البربر واعتقده كثير من وزراء الأغالبة وموظفيهم .

ولم يكن التشيع أقل انتشارا في بلاد الشام ومصر ؛ فقد وجد عبيدالله بلاد الشام تزخر بالمتشيعين من الإسماعيلية ، الذين استطاع بفضلهم الفرار من سيوف منافسيه القرامطة وأعدائه العباسيين .

وكذلك كان لظهور القرامطة في العراق والشام ثم في البحرين ، وانتشار التشيع في بغداد حاضرة العباسيين ، ذلك الأثر نفسه في نجاح عبيدالله ، الذي اتخذ من دعاته ببغداد عيونا على العباسيين . ولا عجب في ذلك ، فإن كثيرا من الأئمة

(١) اتعاظ الحنفا ص ٢٧ .

(٢) أنباء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوط) ص ٢٤ .

(٣) Sanhoury : Le Califat, p. 380.

المستورين كانوا يعتمدون على أنصارهم ببغداد فى عزل من يشاءون ، وتولية من يشاءون من عمال سلمية . ناهيك بالكوفة وسوادها . فقد كانت منذ أيام علىّ بن أبى طالب كعبة الشيعة . فتركزت فيها الدعوة الإسماعيلية على يد قرامطة السواد . وكان هؤلاء كالبركان يلقى بحُمَـمه فى وجوه العباسيين ، حتى استطاعوا قرْمطة جنوبى فارس وإقليم القطيف ، وانتشر التشيع على أيديهم فى عهد عبيد الله ببلاد البحرين ، وأصبح العباسيون يُلْقون بجيوشهم ذات اليمين وذات اليسار ، فتحل بها الهزيمة على أيدى هؤلاء .

وكان التشيع فى بلاد فارس رائجا منذ أيام الدولة الأموية ، مما سهل على دعاة الإسماعيلية مهمتهم ، فاستغلوا هذا التشيع ، كما استغلوا الشعوبية ، ووجهوا هـذا وذاك فى عهد عبيد الله المهدى لمصلحة الدعوة أوّلا ، ثم لمصلحة الدولة ثانيا ، فانتشر المذهب الإسماعيلى فى طبرستان والرى وخراسان وما وراء النهر وغيرها . وبفضل هذا الانتشار استطاعت رسل المهدى أن تجذب إليه أمراء تلك النواحى البعيدة ، من أمثال مرداويج الديلمى أمير طبرستان ، ويوسف بن أبى الساج أمير آذربيجان وقائد العباسيين، ونصر بن أحمد السامانى أمير خراسان وماوراء النهر ، وقد انضموا إلى عبيد الله ، أو كانوا — على الأقل — يعطفون على المذهب الإسماعيلى .

(حـ) ضعف الطوائف الشيعية الأخرى :

ضعفت طوائف الشيعة الأخرى على مر الزمن ؛ وأتاح ذلك الضعف فوز عبيد الله ونجاح مذهبه الإسماعيلى . حقا كان للحنفية (أتباع محمد بن الحنفية) ، والأبى هاشمية (أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية) شأن كبير فى أخريات الدولة الأموية ، وفى صدر العصر العباسى الأول ؛ إلا أنهم زالوا على مر الزمن أمام ضربات العباسيين ، الذين كانوا بالأمس من أكبر أنصارهم ، حتى إنه لم يبق بين هؤلاء العلويين إلا فلول قليلة تركزت ، على ما ذهب إليه العلماء حديثا ، فى جنوب العراق . وقد قيل إن هذه البقية الباقية هم أتباع حمدان قرمط . ولو أخذنا بهـذا الرأى ، لعد بقايا الحنفية من مؤسسى المذهب الإسماعيلى .

وقد أخذ الزيدية طريقهم إلى البلاد النائية فى اليمن وطبرستان ؛ ولكن قوتهم

كجماعة محاربة لم يعدلها وجود ، اللهم إلا أنهم كانوا يمهدون بمبادئهم الشيعية لنجاح الإسماعيلية هنا وهناك . وأما جماعة الحسنيين فكانوا لقمة سائغة للعباسيين ، وهدفا صالحا لسيوفهم ؛ فقد روى الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بدمائهم بلاد الحجاز والعراق ، بعد أن مزق جنود النفس الزكية وأخيه إبراهيم وأنصارهما شر ممزق ، وفتك الهادى فى موقعة فخ بالبقية الباقية من هؤلاء الحسنيين . ولولا فرار الإمام إدريس بن عبد الله إلى بلاد المغرب ، وأخيه يحيى بن عبد الله إلى بلاد المشرق ، لزال هؤلاء الحسنيون (كقوة سياسية دينية) منذ عهد الخليفة الهادى . ومع ذلك فقد قضى الرشيد على يحيى ، وكون دولة الأغالبة لتحد من قوة الأدارسة ، ومن ثم لم يعد هؤلاء الحسنيون خطرا على العباسيين ، كما أنهم لم يكونوا من هؤلاء الذين يخشى الإسماعيلية بأسهم وقوتهم .

أما الفريق الذى كان الإسماعيلية يخشون بأسه حقا ، فهم جماعة الإمامية الموسوية أو الاثنا عشرية ؛ فقد كان أئمتهم خطرا على أئمة الإسماعيلية من الناحية السياسية ، لأنهم يدعون الإمامة كما يدعيها أئمة الإسماعيلية ، ولأن السواد الأعظم من الشيعة قد انضموا إليهم . لذلك أصبح هؤلاء الاثنا عشرية خطرا يهدد كيان تلك الفرقة الإسماعيلية الناشئة . إلا أن العباسيين كفوا الإسماعيلية مئونة مقاومة الاثنا عشرية . فسجن الرشيد موسى الكاظم حتى مات ، وولى المأمون عليا الرضا ابن موسى الكاظم عهده ، ثم غدر به فمات مسموما ؛ وظل أحفاد موسى الكاظم يلاقون من العباسيين كل أنواع الاضطهاد ، حتى لاقوا حتفهم بين سجين أو هارب أو مقتول . ولم تأت سنة ٢٦٠ هـ حتى ادعى هؤلاء الاثنا عشرية — أمام ضغط العباسيين المتزايد — اختفاء محمد بن الحسن العسكرى ، مهديهم المنتظر ، فلم يعودوا قوة يأبه لها الإسماعيلية ، خصوصا وأنهم وجدوا فى قولهم بنظرية الإمام المنتظر ، فرصة يندددون بها عليهم ، ويفرقون بين إمامهم الإسماعيلى المستور وإمام الاثنا عشرية المنتظر . وكان لهذه الحرب الكلامية أثرها البين فى جذب كبار أشياع الاثنا عشرية إلى المذهب الإسماعيلى . وإذا علمنا أن ابن حوشب ، وابن فضل ، وأبا عبد الله الشيعى ، وهم دعاة عبيد الله ، كانوا من الاثنا عشرية ، ظهر لنا أثر الموسوية فيما أحرزه عبيد الله المهدى من نجاح .

(ى) تحمس المسلمين لعقيدة المهدى المنتظر :

كان لانتشار عقيدة المهدى منذ أوائل حكم الأمويين فى المشرق أثر كبير فى نجاح الإسماعيلية عامة وعبيدالله المهدى خاصة ، فقد وُضعت الأحاديث الكثيرة عن المهدى ، فاستغلها دعاة عبيد الله أحسن استغلال ، حتى إن النجاح الهائل الذى أحرزوه فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ليرجع إلى هذه النبوءات . فقد رأينا كيف استغل ابن حوشب هذه النظرية ، كما استغل اعتقاد اليمنيين فى القحطانى المنتظر ، وجعلهم يؤمنون بأن القحطانى المنتظر هو مهدى الإسماعيلية ، ويعتقدون أنهم جنود المهدى ، وأن دولة « صاحب الزمان » و « إمام الوقت » ستنبعث من بينهم ، وأنهم سيملكون الأرض قاطبة . وبفضل هذه النظرية اعتقد بعض أن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم فى اليمن ، وأن شمس الإسماعيلية ستشرق من البلاد اليمنية .

وقد لقيت فكرة مهدية عبيد الله نجاحا ملموسا فى بلاد المغرب ، لأن دعاة الإسماعيلية الأوائل ، وبخاصة الحلوانى وأبا سفيان ، كانوا قد لوحوا للمغاربة بتلك النظرية المهدية . فلما جاء أبو عبد الله الشيعى اعتمد عليها فى دعوته اعتمادا كبيرا ، وأكد لهم قرب ظهور المهدى بينهم ، ووضع لهم من الأحاديث ، أو سرد لهم من الأحاديث الموضوعة فى المهدى ما أثار فى نفوسهم النزعة الحربية ، ليكونوا أول جنود المهدى الذين يجلسونه على العرش . ألم يقل لهم أبو عبد الله : « المهدى يخرج فى هذه الأيام ؟ » ثم ألم يقل لهم : « هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم . ولقد جاء فى الآثار أن للمهدى هجرة تنبو عن الأوطان ، ينصره فيه الأخيار من أهل هذا الزمان ، قوم اشتق اسمهم من الكتمان ؛ فأنتم كتامة ، وبخروجكم من هذا الفج سمى فج الأخيار[1] ؟ » و « إن الشمس تطلع من مغربها ، وإنها لا تنكس راية المهدى عليه السلام حين يقوم بها ؟ » . وكذلك روى الإسماعيلية كثيرا من الأحاديث ؛ فمما ينسبونه إلى الرسول قوله : « فإذا قام العاشر من ولدى ، هاجر

---

(١) انظر ص ١١٨ من هذا الكتاب .

إلى أرض المغرب ، وبنى بها مدينة تسمى باسمه ، ويكون أضداده كثيرا من أهل المغرب ، وهو الشمس الطالعة من المغرب ، وهو الذى يفتح الله على يديه المغرب، وبه يعز من قال : أنا من أمتى وعترتى[١] . وهكذا استطاع أبو عبد الله الشيعى أن يجمع المغاربة حول عبيدالله ، على أساس أنه المهدى ، وأن يقلب دولة الأغالبة بمساعدة هؤلاء البربر الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم . كما استطاع أن يخضع جميع البربر فى شمال إفريقية[٢] .

وقد شهد خلفاء المهدى له بالفضل ، فقال فيه المعز لدين الله : «كان المهدى مفتاح قفل الفضل والرحمة والبركات والنعمة . فبه فتح الله تعالى ذلك للعباد ، وذلك يتصل عنه من ذريته حتى يتم لهم وعد الله الذى وعدهم إياه »[٣] . كما يروون عن سلمان الفارسى أنه قال : « لا بد من قائم من ولد فاطمة يقوم من المغرب ، فيكسر شوكة المبتدعين ويقتل الظالمين »[٤] .

وأغرب من هذا مايروونه عن تنبؤ الرسول بالمهدى . وبأمور أخرى كثيرة ، مما يجعلنا نعتقد أن مثل هذه الأحاديث موضوعة لا محالة . ومن تلك الأحاديث التى نشك فى صحتها ما يروونه عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « قال رسول الله يوما : انطلق معى يا بن مسعود ! فمضيت معه حتى أتينا (مكانا) قد غص ببنى هاشم . فقال لهم رسول الله ﷺ : من كان معكم من غيركم فليقم ، فقام من كان معهم من غيرهم ، حتى لم يبق إلا بنو هاشم خاصة : بنو عبد المطلب وبنو العباس. فقال لهم النبى : يا على ! أخبرنى جبرائيل أنك مقتول بعدى ، فأردت أن أراجع ربى ، فأبى على ، قال : ... فالويل لعترتى ولأهل بيتى ، ولبنى أمية مما يلقون من بنى العباس . ويهرب من بنى أمية رجال ، فيلحقون بأقصى المغرب ، فيستحلون فيه المحارم زمانا . ثم يخرج رجل من عترتى غضبا لما لقى أهل بيتى وعترتى ، فيملأ

(١) المجلس السابع عشر والمائة من مجالس سيدنا حاتم بن إبراهيم الحامدى ص ١٠٨ (من المنتخب)

(٢) Sanhoury : Le Califat, p. 380.

(٣) شرح الأخبار ص ٢٠ (من المنتخب) .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤ — ٢٥ .

الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما »(١) .

هذه الأحاديث وغيرها كان يستغلها دعاة الإسماعيلية إلى أبعد حدّ ؛ وبفضل هـذه والتنبؤات ، استطاع دعاة المهـدى فى المشرق أن يصـلوا إلى سويداء قلوب الناس ، حتى خيل للعباسيين أن الأرض ستميد بهم ، وأن أنصـارهم ، كالسامانية والزيارية ، وقوادهم كيوسف بن أبى الساج وسواه ، سيكونون جنودا للفاطميين ، وحربا عوانا عليهم .

وقد عملت نظرية المهدى عمل السحر فى نفوس القرامطة ، فنادوا بها جميعا . ولما قامت الدولة الفاطمية جهر أبو طاهر الجنابى بأنه من دعاة المهدى ، الذى خرج على العباسيين « خروج الأسد الغضنفر » ، والذى سيملك الأرض شرقا وغربا . ومع ذلك فقد غرر به بعض الأدعياء فى أخريات حياته (فى سنتى ٣١٩ ، ٣٢٠ هـ) ، فادعى له أنه يعلم الغيب ، حتى إنهم سموه « المهدى الكـذاب » . وهذا يدل على عظم تأثير هذه النظرية فى الإسماعيلية . ومهما يكن من شىء ، فإن نظرية المهدى كانت عونا لعبيد الله فيما أحرزه من نجاح فى زمن استتاره ، وإليها يرجع الفضل فى جلوسه على العرش فى سنة ٢٩٧ هـ .

(هـ) برامج الإسماعيلية ووسائلهم الخاصة لنشر مذهبهم :

كان من أهم عوامل نجاح الإسماعيلية فى نشر دعوتهم ، أنهم نهجوا مناهج بذوا فيها غيرهم من الفرق الشيعية الأخرى ؛ فكان الإسماعيلية يبالغون فى التخفى فى نشر دعوتهم ومبادىء مذهبهم . على شكل خطوات تتدرج من المعلومات البسيطة ، حتى تصل بالمستجيب إلى مبادىء فلسفية عميقة ، لا يفهمها إلا القليلون ؛ حتى إن المستجيب كان لا يعرف شيئا عن الدرجات التى تلى درجتـه ، وإنما كان همه الوصول إلى درجة أعلى من الدرجة التى وصل إليها ، وأصبح كثير من الإسماعيلية لا يعرفون شيئا عن زملائهم الذين انتظموا فى سلك المذهب الإسماعيلى ، وخفى أمرهم على خصومهم العباسيين .

---

(١) شرح الأخبار (من المنتخب) ص ٢٨ — ٢٩ .

كذلك استغل الإسماعيلية ، وعلى رأسهم عبيدالله ، مذهب التقية ؛ فكانوا سنيين مع أهل السنة ، شيعيين مع الشيعيين ، يهودا مع اليهود ، ومسيحيين مع المسيحيين ، ومجوسيين مع المجوس . وبذلك انضم إلى عبيد الله ألوف مؤلفة من المسلمين ، ولم يشعر العباسيون إلا وقد حقق الإسماعيلية أغراضهم بإقامة دولة إسماعيلية خالصة .

كما برع الإسماعيلية منذ نشأتهم فى تنظيم دعوتهم تنظيما رائعا ، فتظاهروا بالتقشف والورع ، وبالبلاغة والتضلع فى العلم . وخصصوا لكل منهم مبادىء يلقنها المستجيبين. وكان لنظام التخصص هذا أثره فى تكوين جماعة من العلماء الدعاة الذين يتقنون ناحية مذهبية خاصة ، ويستطيعون أن يمثلوها فى أذهان سامعيهم من المستجيبين . وكان دعاة عبيدالله المنتشرون فى كافة أنحاء المملكة الإسلامية ، أشبه بجواسيس ينقلون إلى عبيدالله أسرار الدولة العباسية وأخبار ولاتها ، ويحذرونه الخطر الذى قد يحدق به أو بدعوته ودولته . وقد اعتمد عبيد الله على دعاته المقيمين وعلى دعاته السيارة ، اعتمادا تاما فى وقت فراره من سلمية إلى بلاد المغرب ؛ واستطاع بفضل هؤلاء أن يتجنب الأخطار التى كادت تحيق به . كما آمن الناس بفضلهم بمهدية عبيدالله . فهب الإسماعيلية فى البحرين واليمن وبلاد المغرب ، يذودون عن مذهبه بسلاحهم ، حتى أقاموا له دولة قوية العماد تربع على عرشها .

وكان لنظام أخذ العهود على المدعوين ، أثر كبير فى جذبهم إلى المذهب الإسماعيلى ورؤسائه ، كما أن القيود ، التى كانت تربطهم بهذا المذهب برباط وثيق لا ينفصم ، وتجعل المستجيبين يتركون معتقداتهم السابقة ويلتفون حول رئيس دعوتهم الجديدة ، لا تقل أثرا فى هذه السبيل .

وليس من شك فى أن نظام الدعوة الإسماعيلية نظام يقوم على الإخاء والمودة ، ويربط الفرد بالمجموع بوشائج قوية ، بحيث يرى هذا الفرد أن حياته فى تماسك الجماعة . ولذلك ترى الإسماعيلية مرتبطا بعضهم ببعض ارتباطا يثير الدهش ، وترى جماعتهم تتكون من أفراد مختلفى المشارب والنزعات . ومع ذلك يرتبطون بالحب والإخاء ، والتفانى فى سبيل النهوض بمذهبهم والدفاع عن رئيسهم وخليفتهم . فهذا الفيلسوف النسفى يدافع عن مذهبه ورئيسه بقلمه ولسانه ، وهذا الداعى المحارب ، كأبى عبد الله الشيعى وابن حوشب ، يزيلان الدول ويثلان

العروش لإحياء دولة إسماعيلية . كما ترى عامة أتباع هذا المذهب وسوادهم ، ومنهم الزارع والتاجر والصانع ، وكل هؤلاء يتنافسون فى الدفاع عن المذهب الإسماعيلى وأنصاره . وبفضل هذا كله استطاع عبيد الله المهدى أن يتقلد رياسة الدولة الإسماعيلية .

ناهيك بهذه المبادىء الخلابة التى كان الإسماعيلية ينادون بها ، وما كان لها من أثر فى النهوض بالمذهب الإسماعيلى ، والالتفاف حول عبيدالله المهدى . فقد استغلوا مبدأ التأويل ، لينفروا الناس من أديانهم ومذاهبهم ، ويربطوهم بمبادىء المذهب الإسماعيلى برباط متين ، وينشروا كثيرا من الغموض، ليملئوا نفوس الأتباع بالأمل. وقد استغلوا ذلك المبدأ الجذاب ليثبتوا للملأ والأتباع أن مذهبهم إنما وجد لمحاولة فهم حقيقة الدين الإسلامى وباطنه ؛ أو بعبارة أخرى ، أن المذهب الإسماعيلى دين الباطن ، والإسلام دين الظاهر ، لأن عليا صاحب التأويل ، ومحمدا ﷺ ! صاحب التنزيل .

وكذلك استغل الإسماعيلية مبدأ الشعوبية ذى الخطر ، ليستثيروا الوطنية فى الشعوب المغلوبة على أمرها ، ويوجهوهم إلى محاربة أعدائهم الأساسيين وهم العباسيون . وكان للشعوبية أثر كبير بين مستجيبى الفرس والديلم والنبطيين وسواهم ؛ فقد آلى هؤلاء على أنفسهم أن ينتقموا من العباسيين الذين أذلوهم ، فثاروا تحت رايات زعمائهم الإسماعيلية من الدعاة وسواهم . وقد رأينا عبد الله بن ميمون القداح ، مؤسس المذهب الإسماعيلى ، يستعين بكثير من أنصار الشعوبية ، لينقض بهم على العباسيين ، ويحقق مآربه السياسية الدينية فى خلق جماعة تدين للأئمة الإسماعيليين بالطاعة . ولا يقل تأثير مبدأ الدعوة لدين عام يتفق مع مشارب الجميع ، ومبدأ المهدية ، عن هذه المبادىء السابقة أثرا ؛ فقد ظهر تبعا لذلك جماعة من طبقات مختلفة يسعى كل منها فى إخلاص فى سبيل نجاح دعوة المهدى المنتظر .

خاتمة القول فى عبيد الله المهدى

أخلاقه وصفاته :

يعتبر عبيد الله المهدى من الرجال الذين لا يجود بهم الدهر إلا نادرا . فقد استطاع ، بفضل ما أوتيه من قوة الشخصية . وما جبل عليه من الصفات العالية ، أن يحقق ما عقده عليه الإسماعيلية من آمال بعيدة ، فى توطيد دعائم المذهب الإسماعيلى فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى ؛ كما استطاع أن يقلق بال الدولة العباسية ويثير مخاوفها ، ويقضى على دولة الأغالبة التى اعتمد عليها العباسيون منذ أيام هارون الرشيد فى الوقوف فى وجه الأدارسة ، ورد هجماتهم نحو الشرق . ويقيم فى النهاية دولة مهيبة الجانب ، استطاعت أن تقتطع خيرة بلاد الدولة العباسية فى المغرب ومصر ، وفى الشام وفلسطين والحجاز واليمن وغيرها ، كما عولت على مد نفوذها إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين . كل ذلك كان راجعا إلى الصفات التى تحلى بها عبيد الله المهدى ، والتى كان لها أثر بعيد فيما أحرزه من نجاح .

فقد امتاز المهدى بالصبر . ونستطيع أن ندرك أثر تلك الصفة فى موقفه من القرامطة ؛ فقد رأى انتقاض حمدان قرمط عليه ، وحدة منافسة أبناء زكرويه ابن مهرويه له . ومع ذلك ظل يصابرهم ، ويعمل فى هدوء على تنظيم جماعته ، وعين داعيا لدعاته يحل محل حمدان قرمط ، واتصل بأبناء زكرويه دون أن يثور عليهم كما ثاروا عليه ، وظل يرقب فى ثبات جميع حركاتهم فى الشام . فلما أخفق فى معالجته الأمور فى صبر وروية ، غادر بلاد الشام . وكان لهدوئه أثر عظيم فى كل مما ناله من نجاح . فقد عرف عن طريق دعاته المقيمين فى الشام ، أن رسل العباسيين يلاحقونه ؛ ومع ذلك لم يجد الهلع إلى نفسه سبيلا ، بل أخذ ينظم برامج رحلته فى هدوء واطمئنان . وفى مصر عرفه أحد المصريين ، وهمّ بالقبض عليه وإفشاء سره ، ومع ذلك تخلص منه عبيد الله فى لباقة تدل على الذكاء والثبات والصبر . ثم انظره وقد بكى داعيه المقيم بين يديه حين رأى المصاعب تلاحقه من كل جانب ، يهدىء من روعه فى هدوء يحسد عليه ، ويتغنى بشعر لا يدل على الثبات فقط . وإنما يدل على

الاستماتة فى تحقيق كبار الآمال . ولولا ثباته وثقته بنفسه وصبره ، لما استطاع تحمل المكاره وهو بسلمية ، ثم وهو فى طريقه إلى مصر ؛ بل لما استطاع أن يصل إلى سجلماسة ويمر ببلاد الأغالبة الذين كانوا يتحرقون شوقا للقبض عليه والفتك به . وقد رأيناه ثابتا هادئا حين هب فى وجهه أنصار أبى عبد الله الشيعى ، وأرادوا الفتك به بعد أن التفوا حول قصره ، فتقهقروا بسبب ثباته ، وعادوا من حيث أتوا .

ومن أهم صفات المهدى الجود ؛ فكان ينفق عن سعة ، ولم يكن ذلك راجعا إلى ماله ، بل لأنه كان جوادا بطبعه . وقد استطاع بفضل جهوده أن يجذب إليه أهل سلمية وعمالها ، حتى لهجت الألسن بالثناء عليه . ولكن جوده قد أثار الشكوك على ما رأينا ، وانتهى الأمر بخروجه من سلمية . وبفضل جوده سكت عنه محمد ابن سليمان وعيسى النوشرى ، واستطاع أن يجذب إليه اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة حينا من الزمن . وهكذا كان جود عبيد الله المهدى من العوامل التى ساعدته على التغلب على الصعاب التى كانت تعترضه . ولا ننسى أنه بفضل جوده وكرمه ، زاد تعلق أتباعه به ، وتفانوا فى إخلاصهم له ، حتى كان يقرض لحم الواحد منهم ، وتقلع أظفاره ، على أن يقر عليه فلا يفعل . وبفضل جوده كان يجد من الأصدقاء من يعتمد عليه . انظره وقد أصبح رئيس قافلة هربه طوع بنانه ، يقطع الفيافى والقفار ، ويحمّل القافلة كل أنواع المشاق . وإنما فعل ذلك كله إرضاء لعبيد الله المهدى ؛ ولولا ذلك لوقع فى قبضة زيادة الله الأغلبى .

وكان عبيد الله فوق ذلك مهيبا ، يفرض احترامه وتقديره على من يراه ، حتى إن علماء الإسماعيلية يرجعون سبب نجاحه فى الإفلات من مصر ، إلى هذه المهابة التى ألقى الله بها فى قلب عيسى النوشرى ، كما يقولون : إنه بفضل مهابته لم يلحق به سوء من ناحية اليسع بن مدرار . يقول أبو حنيفة النعمان عن عبيد الله فى سجلماسة : « أقام بها ، وكل ذلك تلحظه العيون فى طريقه ، وحيثما نزل ، وفى أى مدينة دخل ، ويقول كل من رآه ممن له تمييز وبصيرة ؛ والله ما هذا تاجر . وما هذا إلا سلطان أو ملك من الملوك . وكذلك كان يقول فيه كثير من أهل سجلماسة . وكان مما يدل

عليه إفضاله على من يصحبه أو يأتيه ، وما أنزل الله من المهابة والجلالة فى عين من رآه [١] » . ثم انظره وقد أنقذته هيبته وجلالة قدره من صلف اليسع ، « وأنزل الله بأكثر الهيبة فى قلبه (أى قلب اليسع) والجلالة فى عينه ، فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله فى دار . وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القائم بأمر الله كذلك فى دار أخرى [٢] » .

كما امتاز عبيد الله المهدى بالصدق ، حتى فى أحرج أوقاته ؛ فقد أعلن لعبدان ، أحد زعماء قرامطة السواد ، أنه من نسل القداح[٣]، مع أن ذلك يعرضه للخطر . لكنه لم يشأ أن يقر بغير الصدق ، ويعلن فى شىء من اللباقة لليسع بن مدرار، صاحب سجلماسة ، أنه ينتمى إلى العلويين حقا ، ويقرر أنه لا يعرف أبا عبدالله ، ويقسم له بأغلظ الأيمان على ذلك . وهو صادق فى اعترافه ، لأنه لم ير أبا عبد الله حقا . وهكذا « اعترف له بالنسب ، إذ لم يسعه إنكاره ، ولغّز له فى ذكر أبى عبد الله فقال : ما رأيته ولا أعرفه ، وكذلك كان ، لم يره » . ولما سأله اليسع بن مدرار : « فهذا الرجل الذى ظهر ببلد كتامة ، وغلب على نواحى إفريقية أإليك يدعو ؟ قال: ما رأيت هذا الرجل ولا أعرفه . وكذلك كان ، لم يكن - صلع - ، رآه كما ذكر... قال : ولكنه بلغنى أنه يدعو إلى الرضا من آل محمد . قال : فإنه قد أخذ بإفريقية . وأقبل بعساكره إلينا ، وما يدعو إلا إليك . قال (المهدى) : أهل النسب بالمغرب كثير . فإن كان يدعو إلىّ نفعتك عنده ، ولم أضرك ، وإن كان إلى غيرى لم يكن علىّ فى ذلك مقال [٤]» .

كان عبيد الله المهدى وسيما جميل المنظر . ويروى الإسماعيلية فيه حديثا يؤيد ذلك : « المهدى رجل من ولدى ، أرى وجهه كالكوكب الدرى : اللون لون

---

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) انظر ص ٨٥ من هذا الكتاب .

(٤) شرح الأخبار (من المنتخب) ص ٣٢ .

عربى (١) . والجسم جسم إسرائيلى »(٢) . فكان المهدى « وسيما جسيما بساطا ، لا يكاد أحد يماشيه إلا قصر عنه ، وصغر إلى جانبه » .

وكان عبيد الله قوى الساعد ، شديد البطش . جاء فى شرح الأخبار « روى عبد الله بن عمر ، وذلك بما أثره أو نقله عن رسول الله قال : يعطى المهدى قوة عشرة » . ويقولون أيضا عنه : « كان المهدى قويا أيدا ، معروفا بذلك من حداثة سنه » . وكان حين تولى الإمامة وتقلد الدعوة شابا يمتلىء قوة ونشاطا ، حتى قالوا فيه : « يقوم المهدى ع م . وليس فى رأسه ولا لحيته طاقة بيضاء » ، وأنه « لما قام بالإمامة وسلمها إليه إمام الزمان(٣) الذى كان فى عصره ، ونص عليه بأنه مهدى الأئمة ، ودعت بذلك إليه دعاته ، وهو يومئذ حديث السن ، مقتبل الشباب من الفتيان وأحسن الشبان »(٤) . فهذه الصفات وغيرها تدل على أن المهدى كان جديرا بالزعامة .

أولاده وزوجاته :

تكاد تجمع المراجع الإسماعيلية التى تذهب إلى القول بأن المهدى أبو القاسم . على أنه لم يكن له ولد سواه ؛ على حين يرى بعض آخر أن عبيد الله كان له ولد آخر غير القائم . لم يل الأمر بعده ، وإنما انتقلت الإمامة من المهدى إلى القائم ، بخلاف ما ذهبنا إليه من أن القائم لم يكن ابنا حقيقيا جسميا لعبيد الله المهدى ، وإنما كان ابن الإمام المستقر السابق ، وهو الحسين بن أحمد بن عبد الله ، أو على ابن الحسين هذا . ونحن نعلم أن عبيد الله حين فر لم يصحب معه غير القائم . لذلك لا نحجم عن القول بأن المهدى حين تولى عرش الخلافة الإسماعيلية الفاطمية فى سنة ٢٩٧ هـ ، لم يكن له من الأبناء الجسمانيين أحد . كما أننا لا نعرف هل كان قد تزوج بعد اعتلائه العرش ، أو أنه أنجب من نسائه وهو فى سلمية . وقد

(١) لأنه أبلج تشوبه حمرة .

(٢) جسم إسرائيلى : أى جسيم فهو أجسم من العرب .

(٣) يقصد بإمام الزمان : الامام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق

(٤) شرح الأخبار ص ٩ .

ذكرت المراجع الإسماعيلية أنه لما غادر سلمية، لم يصحب عند هربه غير القائم. وأم حبيب زوجة القائم، ثم زوجته هو وابنتيه وابنتى أخيه[١]. كما أنه ترك فى قصره جارية له تدعى «لعب»، ومعها ابن ذكر منه. ولكن الحسين بن زكرويه المعروف بأبى مهزول، قتله فى مذبحة العلويين بسلمية[٢]، حيث رميت هذه الجارية «فى الصهريج. وقتل ولدها، ومن كان معها. وفرق الصقالبة فأتوا إليه بجميع من فى ذلك القصر (أى قصر المهدى) من صغير وكبير، من الرجال والنساء. فقتلهم كلهم، ورمى بهم فى ذلك الصهريج، وكانوا ثمانى وثمانين نفسا»[٣]. ومن ذلك نستطيع أن نقول إنه لم يكن للمهدى ولد جسمانى أو روحانى، سوى القائم.

على أن ما ذهب إليه ابن عذارى من أنه كان لعبيد الله ستة أولاد، أكبرهم أبو القاسم ولى عهده وخليفته، لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، وهو أن المهدى لم يكن له أبناء عند وفاته سنه ٣٢٢هـ. وأما الذى يلفت النظر حقا فهو ما ادعاه ابن عذارى[٤] من أن المهدى كان له ولد آخر، وأنه أشيع بين الناس أنه يريد نقل ولاية العهد إليه فى سنة ٣١٦ هـ، حتى إن أبا القاسم (القائم فيما بعد) حين علم من ابنه «قاسم» أن الناس تحدثوا بمبايعة عبيد الله لابنه أحمد المكنى بأبى على، أقلقه ذلك[٥]». أضف إلى هذا ما كان من ادعاء رجل من أهالى طرابلس أنه ابن المهدى، وثورته على القائم (٣٢٢هـ). كل هذا — إن صح — يؤكد ما ذهبنا إليه من أن القائم ليس ابن عبيد الله، وإلا لما ثار على القائم ابن طالوت القرشى فى طرابلس، وادعى أنه ابن المهدى، ولم يقل إنه أخو القائم. أضف إلى ذلك أن النعمان ينسب إليه ولد اسمه الحسن، أنجبه من أم ولد له فى المهدية؛ لكنه لم يدع إليه، بل أقرت أمه بزوال الأمر عن بيت المهدى إلى بيت القائم[٦].

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠.

(٢) استتار الامام ص ١٠٤ — ١٠٥هـ.

(٣) استتار الامام ص ١٠٥.

(٤) البيان المغرب: ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٦.

(٥) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ (المجلد الثانى) ورقة ٦٢١.

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٩.

وأما عن زوجات عبيد الله ، فإننا لا نعرف له من الحرائر سوى ابنة عمه التى زوجها إياه الإمام الحسين بن أحمد ، بعد أن ولاه عهده . ويدعى بعض أنها أم القائم (١) ، وأنها صحبته فى رحلته من سلمية إلى بلاد المغرب . كما لا نعرف له من الإماء سوى جاريته « لعب » ، التى قتلها الحسين بن زكرويه فى مذبحة سلمية ، على ما تقدم ، وأم ولده أبى الحسن الذى ولد بالمهدية وأصيب بالجدرى ، وفقد بصره (٢).

وفاة المهدى :

توفى أبو محمد عبيد الله المهدى بمدينة المهدية ، بعد أن حكم بلاد المغرب أكثر من أربع وعشرين سنة ، وتوفى وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة . وقد ذكرنا أنه ولد فى سنة ٢٦٠ ﻫ أو فى سنة ٢٥٩ ﻫ ، وأن ذلك كان بمدينـــة سلمية ، على ما ذهب إليه جمهرة المؤرخين ، أو بالأهواز على ماذهب إليه بعضهم ، وتقلد وظيفة الحجة أو نائب الإمام عقب وفاة عمه أحمد بن عبدالله القداح فى سنة ٢٨٠ ﻫ. ولم يكن عبيد الله قد جاوز العشرين ، فأظهر إخلاصه وتفانيه المذهب الإسماعيلى ، ولذلك كان موضع ثقة زعيمة الإمام المستور الحسين بن أحمد بن عبد الله ، على ما ذهب إليه عامة مؤرخى الإسماعيلية ، أو على بن الحسين ، على ماذهب إليه الداعى الخطاب فى كتابه غاية المواليد . ومن ثم قلده إمامة الإسماعيلية استيداعا لا استقرارا . ومع أننا لا نعرف السنة التى تولى فيها عبيد الله الإمامة ، فإنه مما لاشك فيه أنه لم يتقلد الإمامة قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، أو بعد أن جاوز الثلاثين ، لأننا نراه يفر من سلمية فى سنة ٢٨٩ﻫ ، وهو متقلد رتبة الإمامة وسنه لا تتجاوز الثلاثين ، وأنه قام بوظيفته الجديدة خير قيام ، واجتمعت فيه صفتا الحجة والإمام ، واستمر على ذلك مدة فى سلمية ، ثم وهو فى طريقه إلى بلاد المغرب ، واستقراره فى سجلماسة ، حتى أجلسه داعيه وتابعه أبو عبد الله الداعى على عرش الخلافة فى أوائل سنة ٢٩٧ ﻫ ، بمعنى أن عبيد الله المهدى دخل إفريقية (تونس).

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٢١ .

ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره . وكان عبيد الله المهدى فى عهد خلافته إماما مستودعا لا مستقرا ، ظاهرا لا مستورا . كما كان مثال الأمانة المطلقة ، فحافظ على الإمامة المستقرة ، وردها إلى مستحقها القائم ابن الإمام الحسين بن الإمام أحمد بن الإمام عبـــد الله بن الإمام محمد بن إسماعيل ، وذلك فى سنة ٣٢٢ ﻫ .

هكذا انطوت صفحة عبيد الله المهدى ، مؤسس الدولة الفاطمية ، بعد أن قضى وقتا طويلا إماما مستورا ، وإماما ظاهرا ، وخليفة ، يحكم دولة امتد نفوذها فيما بعد من المحيط الأطلسى غربا إلى بلاد العراق شرقا ، ومن جبال طوروس شمالا إلى بلاد السودان جنوبا . وكانت هذه الدولة مضرب المثل فى ازدهار الحضارة الإسلامية ، وفى السياسة والدين والثقافة .

ونحن إذ ننتهى من دراسة حياة عبيد الله المهدى ، نرجو أن نكون قد وفقنا إلى تحليل هـذه الشخصية الفذة ، وإماطة اللثام عن كثير من الحقـائق التى كانت لا تزال غامضة فى تاريخ المذهب الإسماعيلى ، وهو الغرض الأول الذى نرمى إليه من دراسة حياة عبيد الله المهدى ، وغيره من الخلفاء الفاطميين ، الذين كان لهم أثر كبير فى تطور المذهب الإسماعيلى . على أن تمام بحث تاريخ هذا المذهب إنما يكون بما نحاوله بعد هذا الكتاب من دراسة عصر الخليفة الفاطمى الرابع ، وهو المعز لدين الله الفاطمى ، الذى حكم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ومصر زهاء أربع وثلاثين سنة (٣٤١—٣٦٥ ﻫ) ، ثم دراسة عصر الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ ﻫ) وما يتلوه من دراسة تاريخ البارزين من أئمة الإسماعيلية مستعلية ونزارية ، فيتصل بذلك بحث تاريخ المذهب الإسماعيلى ، الذى امتد نفوذه فى كثير من أرجاء العالم الاسلامى قرونا ، والذى لا تزال مبادئه باقية إلى اليوم فى كثير من البلاد الإسلامية ، وبخاصة بين البهرة والأغاخانية .

الملاحق

ملحق ١

نهاية الإمام إسماعيل بن جعفر وإمامته(١)

« ومما يدل على إمامة إسماعيل أيضا ، صلوات الله عليه ! أن الصادق ، صلوات الله عليهما ! لما قبض أقامه فى مجلسه مسجّى ثلاثة أيام ، وهو مكشوف الوجه ، والناس يدخلون عليه فيعرفونه ، من بنى هاشم وغيرهم وسائر أهل المدينة والزوار ، [و] إنه يقول لمن دخل إليه وعزّاه فيه : أليس هذا ولدى إسماعيل ؟ ولا يستدل المسئول من قول نعم عند ما رأى ما رآه ، فعند ذلك يأخذ خطه فى محضر حضّره. وإنه لم يزل على ذلك ، حتى أخذ خطوط كل مَنْ فى المدينة وغيرهم من الزوار وأهل المدينة ، وأنه خرج به فى اليوم الرابع إلى البقيع ، وهو مكشوف الوجه ، وأنه كان ينزله ويقبّله ، ويقول : والله ماأسفى على إسماعيل، أسفى على ما أودعته إياه ، ويشاهد جماعة من معه ، ويأخذ بذلك خط من لم يحضره من قبل خروجه ، وأنه لم يزل على ذلك مرارا ثلاثة ، ومع الرابعة أنزله على قبره ، وفعل به مثل ما فعله فى غيره ، وأشهد الخلق بذلك .

ودفنه بمحضر منهم ، وكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى المنصور ضده ، وكتب أيضا الصادق إليه يعزيه فيه ، وكان قد جعل عيونا على الصادق حتى يعرف إلى من يسلم الأمر إليه فيقتله ، وأنه لما وصلت الأخبار إليه اضطرب ، وهمّ بالتوجه إليه فى طلبه ، حتى أتاه موته فسكن ما كان يجده منها . ثم إنه لم يمر له إلا أيام حتى يحكى له أن رجلا كان بالبصرة زمنا ، له ستون سنة (٢) ، وأنه كان قاعدا على باب دكانه يعمل الخوص ، وأنه مر به شاب من وصفه وصفته (٣) ، والناس يهرعون حوله ،

---

(١) جعفر بن منصور اليمن : أسرار النطقاء ، نقلا عن كتاب المنتخب من كتب الاسماعيلية ، طبعة إيفانو (ص ١٠٣ – ١٠٤) .

(٢) فى الأصل ستين .

(٣) يقصد المؤلف إسماعيل بن جعفر الصادق .

ويسمونه ، ويكنونه (١) . وأن الزمن لما مر به ، وكان يتشيع لأبيه ، ناداه : يا بن رسول الله ـ خذ بيدى أخذ الله بيدك ، فرجع يأخذ بيده ، وأنزله من مكانه ، ثم ساربه ساعة وخلاه ؛ فرجع إلى موضعه صحيحا سويا ، فاجتمع إليه الناس . وقيل (له) : من مر بك ؟ قال : إسماعيل بن جعفر بن محمد ، صلوات الله عليهم !

فكتب أصحاب الأخبار بموته(٢) ، ووصل كتاب الصادق بالتعزية فيه ، ثم قرأها وقال : إنه لا يزول سحر بنى أبى كبشة . . . حتى يفنوا عن آخرهم . ثم إنه أرسل لوقته إلى الصادق ، فأشخصه إلى حضرته ؛ فلما مثـــل بين يديه ، أخرج إليه كتابه وكتاب أصحاب الأخبار بموته وتعزيته ، وقال له : أليس هذا خط يدك ؟ تعزينى فى إسماعيل ؟ قال : نعم فعند إقراره أخرج إليه كتاب أصحاب الأخبار بما كان من قصته بالبصرة ؛ فعند ذلك أخرج الصادق عليه السلام المحضر الذى حضره بموته ودفنه ، فلما رآه ووقف على مافيه من الشهود ، سكن مابه من الغضب ، فأحضر جماعة من بنى هاشم كانوا عنده ، فشهدوا بما رأوه ، وثبتوا على خطوطهم . فعند ذلك أمر بترك(٣) الصادق وإكرامه ، ورده إلى موضعه . والخلق لا يعلمون سر الله كيف يجرى فى أوليائه ، ولا مامنحهم به فى كل عصر وزمان . ورجع الصادق إلى حرم جده ، وجلس بمجلسه ، كما جلس يعقوب فى مجلس يوسف بعده ، وشعيب لما انقطع التأييد عنه » .

ملحق ٢

فى إمامة محمد بن إسماعيل (٤)

« وقام محمد بن إسماعيل ، صلوات الله عليه ! وهو سابع الأئمـــة وقائمهم ، مقابل لجده على أمير المؤمنين تمام الدور الروحانى ، والخلق الآخر الذى هو نفس

(١) فى الأصل ويكنفونه ، وليس هناك ما يمنع صحة هذا التعبير ، غير أن ما ذكرناه أقرب إلى الصواب .

(٢) أى كتب أصحاب الأخبار بموته إلى أبى جعفر المنصور .

(٣) فى الأصل بنزل .

(٤) الداعى إدريس : زهر المعانى ، من كتاب المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية ، طبعة إيفانو (ص ٥٣ ــ ٥٦) .

الشيء وروحه ومعناه ، وهو تمام الدور الأول ، ومنه ابتدأ الدور الثانى .

وكان بالمدينة ، فقام بدين الله سبحانه ، وبث الدعاة ، ونشر العلوم ، وأمر دعاته بطلب دار هجرة يلجأ إليها . وكان فى عصر الرشيد . فلما بلغه علم محمد بسبب انتشار دعوته ، أمر بالقبض عليه ، وأن يؤديه إليه . وكان الإمام قد أعد بداره سربا (١) يستكتم فيه من الضد (٢). فلما وصل الرسول من الرشيد إلى المدينة ، دخل ذلك السرب واختفى فيه ، وطلبوه فلم يجدوه ولا قدروا عليه . فعادوا إلى الرشيد ، وأنهوا إليه خبر ما فعلوه . ولما هدأ الطلب ، سار الإمام فى طلب دار هجرته ، وخلف بالمدينة ولدين خاليين من الإمامة ، وهما إسماعيل وجعفر ، وشخص إلى نيسابور بنفسه مستكتما عن ضده ، وهو يدور ما بينها(٣) و بين الديلم . وتزوج بنيسابور امرأة ، فولدت له ولدا فسماه عبد الله ، وكناه الرضى ، وعرف عبد الله الإمام بالعطار كتما لمقامه وإخفاء له . ونصب له حُجبا ، وأمر كل واحد من الحجب والحجج أن يتسمى باسم الإمام ؛ فمن أخذ العهد على مستجيب ، سمى له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه سترا على صاحب الأمر . وجرت بذلك السنة والقضية فى الأئمة المستورين الثلاثة . فمن ذلك أن الدعاة فى أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ، ما اتفق منها فى ذلك اثنان .

فقام محمد باللسان ، وصمت عنه السيف إلى بلوغ الكتاب أجله (٤) ، فأظهر العلوم ، وبين الحقائق وكشف لخلصائه منها السر المكتوم ؛ فظهرت منه حقائق ومعجزات ، ودلائل وآيات ، لم تظهر فى الأئمة من قبله ، ولا قام أحد من الأئمة كمثله ، لأنه السابع صاحب القوة والظهور ، والضياء والنور ، ومبين العلم المستور . وكان محمد بن إسماعيل متم الدور المنتهية إليه غاية الشرائع المختومة به ، المشتمل على مراتب حدودها ، المحيط بعلومهم . وهو القائم بالقوة ، صاحب الكشفة الأولى ؛ لأن القائم بالفعل هو القائم الكلى ، الذى هو صاحب الكشفة الأخرى والبطشة

(١) السرب : بتشديد السين المفتوحة ، الحفير تحت الأرض ، والطريق .

(٢) يقصد به هارون الرشيد ، كما أن ضد جعفر الصادق هو أبو جعفر المنصور .

(٣) فى الأصل ما بينهما .

(٤) فى الأصل ,, إلى بلوغ كتاب أجله ,, .

العظمى ؛ قائم القيامة الكبرى ، لأن القيامات كثيرة ، أولها المأذون المكفوف ، ثم المأذون المطلق ، ثم الداعي المحرم ، ثم الداعي المطلق ، ثم داعي البلاغ ، ثم الحجة ، وغايتها الباب . وإنما كانت هذه الحدود قيامات ، كقيام كل واحد منهم بما يتصل من الصور المجردة المفارقة للأجسام الصائرة إلى أفقه المعروفة به .

ويتلو هذه القيامات قائم قيامة كبرى ، وهو المقام الذى هو الإمام عليه أفضل السلام ؛ فهو قائم القيامة ونهاية النهايات ، وكل أحد ممن ذكرنا قائم بنسبة إلى من دونه . ويتلوها جميعا قائم القيامة الكبرى ، صاحب البطشة العظمى ، المجتمعة عنده جميع المقامات ، وهو لهم غاية الغايات الشريفة ، الجامع لها . . . وإنما وقع عليه اسم الناطق السابع لنطقه بالأمر الإلهى ، وجمعه للفضل الذى هو إليه متناهى ، وليس بنبي ولا رسول ، بل هو منفرد برتبة الوحدة . وقد تم التمام ، واتسق النظام .

وإنما خص محمد بن إسماعيل بذلك ، لانتظامه فى سلك مقامات دور الستر ، لأنك إذا عددت آدم ووصيه وأئمة دوره ، كان خاتمهم الناطق ، وهو نوح عليه السلام . . . وإذا عددت عيسى ووصيه وأئمة دوره ، كان محمد ﷺ متسلما لمراتبهم ، وهو الناطق الخاتم للنطقاء ، وكان وصيه عليه السلام بالفضل منفردا . وإذا عددت الأئمة فى دوره ، كان محمد بن إسماعيل سابعهم ، وللسابع قوة على من تقدمه . فلذلك صار ناطقا وخاتما للأسبوع وقائما ، وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس ببيان معانيها ، وإظهار باطنها المبطن فيها .

. . . ومحمد بن إسماعيل لم يبطل شيئا من ظاهر شريعة محمد صلى الله عليه وآله ! بل أكدها ، وأمر بالعمل بها . وعلى ذلك سنة الأئمة الطاهرين من أبنائه التابعين لهم ، قياما بالتكليفات ومحافظة على المفترضات ، من غير ترخيص ولا إهمال ، ولا ترك ولا إبطال ، وإنما عنى الإمام المعز بقوله : وعطلت بقيامه ظاهر شريعة محمد ، لما كان لمعانيها مبينا ، ولأسرارها كاشفا ومجليا ؛ فأزال عن أتباعه وأشياعه اعتقاد الظاهر ، على ما فيه من تعطيل وتشبيه للمبدع الحق بمخلوقاته ، وتمثيل وتجسيم للملائكة الروحانيين ، واعتقاد لذلك ، على ما هو موجود فى هذه الدار . فعطل ذلك الاعتقاد ، وبين فيه المراد ؛ كشفا للحقائق ، وإظهار البيان الصادق ، وقياما بالتأويل الذى عرف فيه التوحيد بحقيقته ، ونزه البارى سبحانه عن صفة خليقته ، وعرفت

الملائكة بجوهرها اللطيف ، وبين الثواب والعقاب على ما يعتقده أهل التجسيم والتكثيف » .

ملحق ٣

ظهور المهدى[1] .

« . . . وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدى بالله ، ويبشرون بدولته . ثم إن الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، حتى إن كثيرا منهم تبرأ من الأمر كملك صنعاء ، وكثير منهم . ثم إن الامام صاحب الزمان[2] ، تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدى فى كنفه ، فأظهر النقلة فى سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير ، وتسمى بالإمامة ، بأمر الناس عليه . سترا على ولى الله ، وإخفاء لمقامه عن أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره . وأمر الحدود بذلك ، وأن يكنوه بالشمس الطالعه ، سترا على ولى الله ولده القائم من بعده ، فلم يطلع أحد عليه ، ولا وقف على سر الله فيه ، إلا الخلصاء الأبرار ، المصطفون الأخيار ، العارفون لسر الله في أوليائه ، المطلعون على معرفة ما أظهر لهم من أصفيائه . حتى إذا آن الميقات ، ووطد[3] الدعوة الدعاة ، وأشاروا إلى ولى أمرهم الذى أمروا بالإشارة إليه ، وأوضحوا فضله لمتبعهم ، ودلوا عليه ، وبشروا بظهور الشمس من غربها ، ووعدوا بدنو الميقات لظهورها من استتار حجبها .

فقام المهدى ، صلوات الله عليه ! وقد انتشرت دعوته فى الآفاق ، واستدل بواضح براهينه أهل الخلاف فرجعوا إلى الوفاق ، فظهر من سجلماسة على يد داعيه أبى عبد الله صاحب الدعوة بالمغرب ، قدس الله روحه ! ومعه الإمام القائم بأمر الله محمد بن عبد الله ، المستحق بعده للخلافة ، والذى إليه دعـــوة الأولياء كافة ، والمهدى بالله كافل له فى كفالته ، ومشير بعالى مقامه إلى أهل دعوته .

. . . وهو قائم بما قام به جده محمد ﷺ ، خاتم الأنبياء وسيد الأصفياء ، وبه

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية ، طبعة إيفانو ص ٦٥ — ٦٧) .

(٢) المقصود به الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(٣) فى الأصل ووطدت .

بشر ، وبظهور أمره أنذر فى مواقف عدة وإشارات جمة ، وقال : على وفاء الثلثمائة من هجرتى ، تطلع الشمس من مغربها . فكان شمس الله الطالعة ، وآيته الساطعة ، والحجاب الأعظم ، والباب الأشرف الأكرم ، حامل أمانة الله ووديعته ، ومسلمها إلى القائم بأمر الله ، ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته ، وهو خليفته ، القائم منه كعلى جده أمير المؤمنين ، من محمد رسول الله الأمين ، صلوات الله وبركاته وتحياته عليهم أجمعين ! ».

ملحق ٤

انتقال الإمامة إلى المهدى (١) والطيب بن الآمر

«إنه لما ظهر النور باليمن وبلاد المغرب ، سار ولى الله فى أرضه على بن الحسين ، صلوات الله عليه ! يريد بلاد المغرب ، حتى كان فى بعض طريقه ، فأظهر الغيبة ، واستخلف حجته سعيدا الملقب بالمهدى ، سلام الله عليه ! فثبت قواعد الدعوة ؛ وجرى عليهما من ضدهما بسجلماسة من العمال بالمغرب ماجرى ، ووقى الله وليه ، سلام الله عليه ! كيده ، لما كان من زحف أبى عبد الله عليه ، وظفره واستخراجه ولى الله سلام الله عليه من سجنه .

فلما حضرت المهدى النقلة ، سلم الوديعة إلى مستقرها ، وتسلمها محمد بن على القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الإمامة فى عقبه ، سلام الله عليه ! حتى انتهت الإمامة إلى مستقرها ومعدنها ، واطمأنت بموضعها من الإمام المنصور أبى على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بالنص عليه .

. . . فقام صلوات الله عليه بالإمامة ، وولى الأمر بنفسه وظهر فيه . ثم إنه لما أراد إظهار الغيبة بما أظهرها به ، قدم النص قبل ذلك ، وأمر بإشاعته فى كافة الجزائر ، ووردت بذلك أوامره (٢) العالية القاهرة ، فى سجلاته الموضوعة عليها

---

(١) أبو الخطاب الداعى : كتاب غاية المواليد ص ٣٧ — ٣٨ (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية (طبعة إيفانو) .

(٢) فى الأصل أوامر .

العلامة الشريفة ، بخط اليد العالية إلى حجته ووليته المنصوبة بجزيرتينا[١] من قبل آبائه الأئمة الطاهرين ، سلام الله عليهم أجمعين ! بسماع منا ووقوف بين يديها ، وإيضاحها ذلك لنا ، وشهادتها بصحة ماورد عليها ، وقيام الأدلة المتظاهرة ، والبراهين الباهرة على صحة ذلك بما تقدم ذكره .

ملحق ٥

الواجب على الأمة للأئمة [٢].

إذا كان العلماء فى زمان إمام حق ، وأهله فاسقون ، وجب على العلماء عرض أنفسهم إليه ، ليسلمهم إلى الأشكال والحدود التى يجدها أبلغ وأنفع لما يريده . فالذى يجب على عبد أمير المؤمنين من هذا ، كشفه لمولاه من حال نفسه ، اعتقاد ولايته والإخلاص له فيها . وذلك أصل ما لا يزكو عمل إلا به ، والصدق فيما يعوله له وعليه ، لا يسأل الله عن كذب إن شاء الله لا يتعمده ولا يقصده ، والتسليم لمولاه ، واستفراغ المجهود فيما يتحرى به رضاه ، وأمير المؤمنين أعلم بعبده وماراه أهلا له . فإن وقع من قوله أو فعله شيء بخلاف موافقة مولاه ، فمن حيث رأى أن يقع ذلك بموافقته وهواه . وقد قال جده[٣] رسول الله ﷺ : قد تجاوز الله لأمتى عن خطئها ونسيانها ، وما أكرهت[٤] عليه ، وأمير المؤمنين ﷺ محي سنة جده ، ومقتفى أثره ، ومنجز وعده لأهل عصره ، ومتبع أمره ، .

ملحق ٦

فى محاولة عبيد الله فتح مصر [٥].

يقول المعز لدين الله : « سمعت المنصور بالله يقول : أمر المهدى بالله القائم

---

(١) المؤلف يمنى ، ويقصد بجزيرته بلاد اليمن ، وبحجة الامام ووليته السيدة أروى الصليحية ملكة اليمن المتوفاة سنة ٥٣٣ هـ .

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٣) الضمير يعود إلى المعز .

(٤) فى الأصل ما لا أكرهت .

(٥) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ .

بأمر الله عم ، بالنهوض إلى مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين! قد خولك الله وملكك ، وأعطاك من الدنيا مافيه وسعة وكفاية . فعلام تغم نفسك ، وتشغل صدرك ؟ دع هذا حتى يأتى الله به عفوا . فقبض ﷺ كفه اليسرى وقال : نعم ! هذا المغرب فى قبضتى هذه ، وبسط اليمين وقال : ولكن كفى هذه من المشرق صفر ، إن ثقل عليك ما أمرتك به ، خرجت له بنفسى . قال : بل أنفذ لما أمرت به يا أمير المؤمنين ، وأسارع إليه . قال المعز ﷺ : ولقد علم المهدى ﷺ أنه لا يصل إلى ذلك ، ولكنه أحب أن لا يضيع الحزم ، ولم يترك ما افترض الله عز وجل عليه من الجهاد فى سبيله » .

ملحق ٧

فى فضل كتامة على الفاطميين(١)

يقول المعز لدين الله فى كتامة : « بارك الله فيهم ، وكثر أعدادهم! فما أسرنى بهم وباحتفالهم ! وما أحب إلىّ أشخاصهم ، وأزين فى عينى مناظرهم . ثم نظر عم إلىّ فقال(٢) : أرأيت مثلهم فى بهائهم ، وجمال مراكبهم ، وحسن مناظرهم ؟ أما أنى ربما أقول فى نفسى إذا أعجبنى ذلك منهم : إن ذلك لفرط محبتى لهم ، فقلت : هم والله على ماوصفهم أمير المؤمنين عند الولى والعدو . ولقد اتصل بنا من غير وجه ، أن مخلدا وأصحابه اللعناء كانوا يقولون أيام الفتنة ، وهم يقاتلونهم : أما ركوب كتامة وجمالهم فيه ، فما ندعيه ولا ننازعهم فيه ، فقال : هم والله الذين أذاقوهم طعم الموت، وأحلوهم محل الذل ، وأخرجوهم قسرا بظبات السيوف وحدّ الرماح ، حتى ألحقوهم بقنن الجبال فى أطراف البلاد ، ثم استنزلوهم منها قسرا ، وأبادوهم قتلا ، بنصر الله لوليه وبركة مقامه وسعادة جده وأيامه ، وطاعتهم له ، وصبرهم معه .

فقال بعض العبيد الصقالبة : فنحن يا أمير المؤمنين ، فما ترى أنا قصرنا ، وقد كان لنا من العناء والجهاد كمثل ما كان لغيرنا ، فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ، ومن استشهد منا . فقال عم : لا سواء بهم(٣) . إنا ملكنا كم

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١ — ٥ .

(٢) الضمير يعود إلى أبى حنيفة النعمان المغربى

(٣) بمعنى أنه لا يتساوى أحد بالكتاميين .

ولم نملكهم بكم . أرأيت لو تركت أنت وأمثالك فى بلدانكم ، أكنتم تأتوننا ؟ قال : لا ! قال : فهؤلاء أتونا طائعين ، وبذلوا لنـــا أنفسهم راغبين ؛ مضى على ذلك أسلافهم ، وثبت عليه أخلافهم ، للسلف منا وللخلف ، قرنا فقرنا ، وجيلا فجيلا . والله ماوفت أمة من الأمم لنبى من الأنبياء ، ولإمام من الأئمة ، ولا لملك من ملوك الدنيا ، ولا وفى لها ، وفاءهم لنا ووفاءنا لهم ، إلا وقد تداخل أولئك الفشل ، واعتراهم الخلل ، وحال عليهم ملوك الدنيا ، واستأثروا غيرهم دونهم ، واطرحوهم وأوقعوا بهم . وهؤلاء أجدادهم مع أجدادنا وآباؤهم مع آبائنا ، وهم معنا ، وكذلك يكون أعقابهم مع أعقابنا إلى يوم الدين إن شاء الله . »

ملحق ٨

عبيد الله والزعامة فى الرملة[1]

يقول جعفر الحاجب : « وصلنا إلى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه ، فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ع م كيف يخدمه ، ورفع المهدى فوق رأسه ، وقبل يديه ورجليه . قال : فأذكر قيامى على رأس المهدى أنا وطيب [2] ، وأبو يعقوب على المائدة ، والعامل مع المهدى والقائم وفيروز يتغدون ؛ إذ ورد النجاب الذى ورد إلى دمشق من بغداد بكتاب القبض علينا ، وبصفة المهدى واسمه . قال : فقرأه العامل ودفعه إلى المهدى ﷺ . فلما وقف على ما فيه انكب العامل على رجلى المهدى ع م يقبلهما ويبكى ، فقال له المهدى ﷺ: طب نفسا وقر عينا . فوالذى نفسى بيده لا وصلوا إلىّ أبدا ، ولنملكن أنا وولدى نواصى بنى العباس ، ولتدوسنّ خيولى بطونهم ، فلا تخش على شيئاً مما ترى . فكتب عامل الرملة إلى عامل دمشق جواب كتابه ، بأنه ما رأى هذا الرجل ولا هذه الصفة ، ولا علم بجوازه إن كان قد جاز ، وإن لم يكن قد جاز فنحن نترصده على كل طريق إن شاء الله . قال جعفر : فجدد المهدى ع م البيعة على عامل الرملة ، وأقمنا عنده . . . فسقطت فى تلك الليلة نجوم ، فخرج المهدى والقائم ، صلوات الله عليهما ! والعامل والجماعة إلى سطح دار العامل ينظرون ، وقد انقلبت المدينة بصراخ الناس ، والابتهال إلى

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢ (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) .

(٢) أحد عبيد سعيد الخير ، ومثله أبو يعقوب .

الله عز وجل ، قال : كان سقوطها تلك الليلة فى سنة تسع وثمانين ومائتين فى شهر رجب ، فرأيت المهدى قد شد يده على يد العامل ، وقال : هذه النجوم إحدى دلائلى ، ومن بعض علاماتى ».

ملحق ٩

عبيد الله فى مصر [١]

قال جعفر : « وسرنا من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو على الداعى ، وكان مقيما يدعو بها ، وأكثر دعاة المهدى من قبله . وكان فيروز الذى دعاه ورباه ، وزوجه ابنته أم أبى الحسين وولده . فتقدم إليه المهدى ﷺ قبل دخولنا مصر بأن لا ينزله عنده ، ولا عند من يشار إليه بشىء من أمرنا ، وأن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند ابن عياش . قال : فما أقمنا إلا يسيرا حتى ورد الرسول إلى مصر فى طلبنا ، قال : فوجه صاحب مصر [٢] فى ذلك الوقت إلى ابن عياش ، فأعلمه بالرسول ، وأقرأ عليه الكتاب ، فقال ابن عياش : أما الرجل النازل علىّ ، فوالله لا وصل إليه شىء إلا مايصل إلىّ ، لأنه رجل هاشمى شريف تاجر من وجوه التجـــار ، معروف بالفضل والعلم واليسار . والذى أتى الرسول فى طلبه قد أعطيت خبره ؛ إنه توجه إلى اليمن قبل ورود هذا الرسول بمدة طويلة . قال جعفر : فقال العامل لابن عياش : نحن نقضى حقك فى هذا الرجل وحقه ، ولكن لا بد لنا أن نبدى عذرا بالقبض على بعض غلمانه ، ونقرره خوفا من أصحاب الأخبار ، والأمر يجرى له ولك على ماتحب وبحب إن شاء الله . قال جعفر : وكنت ذلك الرجل المقبوض عليه ، وقدمت إلى التقرير ، وعلقت وضربت أسواطا يسيرة ضربا خفيفا لم يكن علىّ منه بأس ».

ملحق ١٠

الأمن فى عهد أبى عبد الله الشيعى [٣].

يقول جعفر الحاجب : تقدم إلىّ المهدى « أن أطلب له مزينا ، وقال : اجتهد

---

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣ — ١١٤ . (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦ م)

(٢) عيسى النوشرى .

(٣) محمد بن محمد اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٧ — ١١٨ (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦) .

فى أن يكون غريبا ، قال : فخرجت ، فلقيت مزينا عليه أثر السفر ، فقلت له : أغريب أنت ؟ قال : نعم ! قلت : متى دخلت هذا البلد ؟ قال : فى يومى هذا ، فأخذته معى وجئت به إليه ، وعرفته أنه غريب . فلما رآه سأله عن اسمه وعن بلده ، وهل هو حر أو مملوك ، وكذلك كانت عادته عليه السلام إذا رأى شخصا لا يعرفه ، لم يكلمه ولم يؤانسه ، حتى يسأله عن اسمه ونسبه وبلده . فلما سأله عن جميع ذلك ، عرفه الرجل أنه من أهل إفريقية من القيروان ، وأنه غاب عنها مدة طويلة إلى بلد كتامة ، ومنه وافى إلى هذه المدينة . قال له : كيف استطعت دخول بلد كتامة والمقام فيه على ماقيل فيه من الفتن وتغيير السنن ؟ قال له : والله يامولاى ! مالله ولرسوله سنة صحيحة إلا ببلد كتامة . قال له المهدى ﷺ : هذا خلاف ماوردت به الأخبار من كل الجهات عن الرجل الخارجى بها ، فقد قيل إنه لقد فتنهم ، وأحل لهم البنات والأخوات ، ورفع عنهم الصوم والصلاة . قال له المزين : والله الذى لا إله إلا هو ، مامن هذا يامولاى قليل ولا كثير ، ولا لله دين إلا الذى عليه الرجل الذى ببلد كتامة . فقال المهدى : ما الذى استحسنت من أفعاله ، حيث أراك تمدحه هذا المدح الذى لا يجامعك عليه أحد ؟ فقال له : والله يامولاى لقد شاركت شريكا ، وقلت له : اعزم بنا أن ندخل فى مدينة سطيف(١) ، ونعمل بها مدة شهر ، فما قسم الله عز وجل لنا من رزق قسمناه بيننا ، فسرنا إليها ؛ فلما أردنا الدخول من باب المدينة ، منعنا من الدخول بسلاحنا إليه ، قلنا لهم : فكيف نعمل به وليس نعرف هاهنا أحدا نودعه إياه ؟ فقالوا لنا : اطرحوه خلف سور المدينة ، فقلنا : وكيف نضع سلاحنا؟ فقيل لنا : اطرحوه ولا تخافوا عليه ! قال : فطرحناه ودخلنا المدينة واحتسبناه ، لأن الرجوع شق علينا بعد أن وصلنا المدينة ؛ فأقمنا فيها شهرا ، ثم خرجنا ، فإذا سلاحنا بحاله ماضاع لنا منه شيء . فهذه يامولاى سيرة رجل يرمى بالكفر وتبديل الشريعة . قال جعفر : فرأيت وجه المهدى ﷺ يتهلل » .

---

(١) فى الأصل سطيق ، والصواب سطيف ، وهى من مدن كتامة كما رأينا .

ملحق ١١

المناظرة الأولى بين أبي عثمان [١] سعيد بن محمد بن الحداد وأبي العباس أخي أبي عبد الله الشيعي [٢]

« قال أبو عثمان سعيد بن محمد : أتاني رسوله ، يعني أبا العباس ، فدخلت عليه في قصر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وحوله وجوه أصحابه ، ومعي موسى القطان ، فسلمت وجلست . وقد كان أتاه قبل ذلك جميع أهل بلدنا ، أعني من أهل العلم ، بغير إرسال . فقلت له : قد كان من كان قبلك في هذا القصر ، وقد علم الله وعلم من حضر من أصحابنا ، أني لم أكن بجياء للملوك ، ولا آتي أحدا منهم بغير رسول . فتكلم ثم قال لي : من أين قلت بالقياس ؟ قلت [٣] : قلته بكتاب الله ، قال : وأين هو في كتاب الله ؟ قلت : قال الله : (يأيها الذينَ آمنوا لا تقتُلوا الصيدَ وأنتم حُرُم ، ومَن قتَله منكم متعمِّدا فجزاءٌ مثل ما قتل من النَّعم ، يحكم به ذَوَا عَدْلٍ منكم [٤]) . فالصيد منصوص ، والذي أمرنا أن نمثله بالمنصوص ليس بمنصوص ، فعلمنا بذلك أن من دين الله تمثيل ما لم يُنص بما نُصّ .

قال أبو عثمان : ثم قال : ومن ذوا عدل؟ ، وأومأ إليّ أنهم قوم دون قوم فقلت: هم الذين قال الله فيهم في المراجعة من الطلاق ، (وأشهِدوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم) .

(١) من كبار علماء القرن الثالث وأوائل القرن الرابع في بلاد المغرب ؛ اشتهر بالمناظرة والجدل فيها ، وكثر نقاشه مع الشيعيين . وقد ناظر أبا العباس أخا أبي عبد الله مناظرات كثيرة ، أهمها تلك المناظرات الأربع التي وردت في كتاب طبقات علماء إفريقية ؛ ولذلك يعد أبو عثمان من كبار العلماء السنيين في بلاد المغرب ، الذين ذبوا عن الاسلام . يشهد بذلك ما قيل فيه : ,, كانت لأبي عثمان مقامات كريمة ، ومواقف محمودة في الدفع عن الاسلام ، والذب عن الاسلام ، والذب عن السنة . ناظر فيها أبا العباس المخدوم ، أخا أبي عبد الله الشيعي الصنعاني بملء فيه ومِلء نفسه ، مناظرة القرن المساوي ، بل مناظرة المتعزز المتعالي ، لم يتلعثم لفظاعة المقام ، ولا أحجم لهيبة السلطان ، ولا خاف مما خيف عليه من سطوة الحدثان . ولقد قال له ابنه محمد يوما : اتق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل ، فقال له : حسبي من له غضبت وعن دينه ذببت ،، (طبقات علماء إفريقية ص ١٩٩) .

(٢) أبو العرب محمد بن أحمد التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية (الجزائر سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م (ص ١٩٩ — ٢٠٢) .

(٣) في الأصل قال ، والصواب قلت .

(٤) سورة المائدة آية ٩٥ .

قال أبو عثمان : وأجابه موسى القطان من فورى[1] بحديث علىّ فى الخمر إذ قال فى السكران : إذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، فوجب عليه ضرب ثمانين أدنى أن يضرب ثمانين . فقال له : ألم يقل النبى ﷺ، علىّ أفضلكم . قال أبو عثمان : فقلت لموسى وهو إلى جنبى : وفى الحديث « ومعاذ أعلمكم بالحلال والحرام ، وعمر أقواكم فى دين الله » ، فكلمه بذلك ، فغضب وقال : أيكون أقواكم فى دين الله من فر بالراية يوم خيبر ؟ فقال له موسى : ماسمعنا بهذا ، قال أبو عثمان : فقلت : قال الله : « إلا متحرّفا لقتال أو متحيّزا إلى فئة » . فعمر ممن تحرف لقتال ، أو تحيز إلى فئة . فقال : وأى فئة أكثر من النبى ، وقد كان حاضرا ولم يتحيز إليه ، فقلت : جاء عنه ﷺ أنه قال : عمر فئة ، فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة » . فسكت . فحركه بعض أصحابه وقال : ألا تسمع ما يقول هذا الشيخ ؟ فقال : صدق ، أو نحو هذا من القول . سمعتها أنا منه ومن كان يليه .

قال أبو عثمان : ثم عطف فقال : أنتم تبغضون عليا يأهل المدينة ؛ قال أبو عثمان : على مبغض علىّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وكيف أبغض عليا وقد سمعت سحنون بن سعيد ، وهو إمام أهل المدينة بالمغرب ، يقول : على بن أبى طالب إمامى فى دينى ، أهتدى بهديه ، وأستمد بسنته ، رحمة الله عليه ! فقال لى : بل صلوات الله عليه ، قال : فرفعت صوتى وقلت : إن الصلاة فى كلام العرب الدعاء ، وقلت : قال الأعشى :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا :
يارب جنّب أبى الأوصابَ والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى
نوما ، فإن لجنب المرء مضطجعا

قال أبو عثمان : ثم قلت : نعم ! صلى الله على علىّ بن أبى طالب والحسن والحسين ، وأهل طاعة الله أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين !

قال أبو عثمان : ثم قال لى : أليس علىّ مولاك ؟ يقول النبى : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . قال : قلت : هو مولاى بالمعنى الذى أنا به مولاه ، ولا ولاية ، لا ولاعتاقة ، لأن المولى فى كلام العرب متصرف : يكون المولى ، ويكون ابن العم ، ويكون المعتَق ، ويكون المنعم عليه . ثم قلت : قال الله حكاية عن زكريا :

(١) كذا فى الأصل .

(وإنّى خفت الموالى من ورائى)، يريد العصبة. وقال «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم». يريد أن الله ولى المؤمنين، وأن الكافرين لا ولى لهم. وقال فى المؤمنين: «بعضهم أولياء بعض»، فعلى مولى المؤمنين، لأنه وليهم وهم مواليه بأنهم أولياؤه، فعلى مولاى بالمعنى الذى أنا به مولاه.

قال أبو عثمان: ثم قال لى: فالحديث الآخر «أنت منى بمنزلة هارون من موسى». قال: قلت هارون كان حجة فى حياة موسى، وعلىّ لم يكن حجة فى زمان محمد ﷺ، ولم يكن بأخيه، وإنما كان له وزيرا، والمؤمنون وزراء رسول الله ﷺ.

قال: ثم قال لى: أليس علىّ بأفضلهم؟ قال: فقلت له: الحق متفق عليه، غير مختلف فيه، قال لى: نعم! قال فقلت له: قد ملكت مدائن كثيرة قبل مدينتنا هذه وهى أعظم مدينة، واستفاض الخبر عنك أنك لم تكره أحدا خالفك فى مذهبك، على الدخول فيه، فاسلك بنا مسلك غيرنا».

ملحق ١٢

المناظرة الثانية بين أبى عثمان وأبى العباس(١)

«قال أبو عثمان: ثم دخلت عليه فى مجلس ثان، فأقبل يسأل من حضر من المدنيين والعراقيين السنة ما هى؟ فقال بعضهم: السنة (هى) السنة. وما درى أحد منهم ما يجيب، قال: ثم حوّل وجهه إلىّ وقال: بلغنى أنك تقول بالكتاب والسنة، ولكن السنة ما هى؟ فقلت له: السنة محصورة فى ثلاثة أوجه، فقال: وجّهها، فقلت: الائتمار بما أمر به رسول الله ﷺ، والانتهاء بنهيه، والإتمام به فى فعله ﷺ»، قال: فقال لى: فإذا اختلف عليك فيما نقل إليك عنه من الحديث، قال قلت: أطلب الدليل على موضع الحق فى أحد الأحاديث، ويكون سبيلى فى ذلك سبيل من شهد عنده شهود، فاختلفوا فى شهادتهم، فقال بعضهم: أعلم، وقال بعضهم: لا أعلم. فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق فى إحدى الشهادات، فقال أبو العباس: أناظركم على أنى إن وجدت الحق فى مذهبكم رجعت إليه، وإن وجدتم الحق فى مذهبى رجعتم إليه، أليس هذا الإنصاف كما قال الله: (قل فأتوا بكتاب من عند الله

---

(١) أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمى: طبقات علماء إفريقية ص ٢٠٢ — ٢٠٣.

هُو أهْدَى منهُما أتبِعْهُ إنْ كنْتمْ صادِقِين) (١).

قال أبو عثمان : فقلت : أتى الله ما ذكرت ، ولم تدر ما أراد الله . إنما أراد النفي لأن يأتوا بكتاب هو أهدى منهما ، لا على أنه يمكن أن يأتوا بكتاب أو بسورة من مثله ، وهو القائل : (قُلْ لئن اجتمعَت الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لايأتونَ بمثله ، ولو كانَ بعضُهُم لبعض ظهيرا(٢)) . فنفى عنهم الإتيان بكتاب هو أهدى منهما ، كما قال عز وجل : (فأتوا بسورة من مثله ، وادْعُوا مَنْ استَطعْتمْ من دون الله إنْ كنتمْ صادقِين . فانْ لَمْ تفْعَلوا ولنْ تفعلوا(٣).) فعلم بذلك أنه إنما دعاهم عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله . قال : فبادر إلىّ ابن عبدون وقال لى : يا أبا عثمان ! الحق ينالنا ، فنهضنا ، فقال لى بعد الخروج : خفنا أن يطرد الكلام ، فبادرناك بالقيام » .

ملحق ١٣

المناظرة الثالثة بين أبى عثمان وأبى العباس(٤)

« قال أبو عثمان : دخلت عليه فأجلسنى معه فى مكانه ، وهو يقول لرجل من أهل العراق : المعلم يكون أعلم من المتعلم أبدا ، والعراقى يقول : نعم ! وأهل المجلس لا ينطقون ، قال : فقلت : بقى شيء أو أتكلم ؟ فتمادى وقال : أليس المتعلم يكون أبدا محتاجا إلى المعلم ؟ والعراقى يقول : نعم !

قال أبو عثمان : وفهمت مراده وقصده ، وإنما أراد توكيد الطعن على أبى بكر الصديق ، إذ سأل عليا عن فرض الجدة ، وذكر لى معنى ذلك . فبدرت وقلت : أسمع كلاما يجب علىّ لله فيه ألا أسكت ، فقال لى : وما ذلك ؟ فقلت : المتعلم يكون أعلم من المعلم وأفقه ، ويكون أفضل منه أيضا ، فقال لى : وما دليلك على ذلك ؟ قال : قلت رسول الله ﷺ حيث يقول : رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ،

---

(٢) سورة القصص آية ٤٩ .

(٣) سورة الاسراء آية ٨٨ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٣ — ٢٤ .

(١) التميمى فى طبقات علماء إفريقية ص ٢٠٣ — ٢٠٧ .

ورب حامل فقه غير فقيه ، قال : قلت : وأخرى ، ماهو معروف بين الخليقة ، أن المعلم يعلم الصبيان ، فلا يزال يعلم حتى يكبر الصبي ، فيعطى الله الصبي من الفهم بخاص القرآن وعامه ، وغير ذلك من أسباب العلم ووجوهه ، مالا يقدر عليه معلمه . قال لى : اذكر من خاص القرآن وعامه شيئا . فقلت : نعم ! قال الله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن)[١] . فكان ظاهرها العموم . فلما قال فى موضع آخر : (يسألونك ماذا أحل لهم قل : أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم)،[٢] دل على الآية الأولى ، أنه إنما أراد بها الخصوص : المشركات غير الكتابيات .

قال أبو عثمان : ثم قال لى : فمن المحصنات ؟ قال : قلت : العفائف ، فقال : المحصنات المتزوجات . قال : فقلت له : الإحصان فى كلام العرب التى نزل بلسانها القرآن ، الإحراز ، فمن أحرز شيئا فقد أحصنه . فالإيمان إحراز لدم صاحبه وماله ، والعتق يحصن المملوك ، لأنه يحرزه من أن يجرى عليه ما يجرى على المملوك ، والتزويج يحصن الفرج من أن يكون له مباحا ما كان له قبل التزويج ، والعفاف إحصان لأنها أحرزت فرجها بالعفاف . قال أبو عثمان : فقال لى : ماالإحصان عندى إلا النكاح قال . فقلت له : فنزل الفرقان يأبى ماذكرت . قال الله عز وجل : (ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها)[٣] يريد أعفته . قال . أعفته ؟ قال : نعم أعفته ، وقال: (محصنات غير مسافحات) ، يقول: عفائف غير زوان . قال: فقد قال فى الإماء : (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) . فكيف يقول العذاب على المحصنات وهن عندك قد يكن عفائف؟ قال : قلت : سماهن بمتقدم أسمائهن قبل زنائهن . قال الله تبارك وتعالى : ولكم نصف ماترك أزواجكم ، وقد انفصمت العصمة بالموت ، يريد اللاتى كن أزواجكم ؛ وهـذا كثير . قال أبو عثمان : وذكرت من ذلك ، فعارضنى بعض أحداث العراقيين ، فقلت له : أمسك ياحدث ! قال : فلم ينطق .

---

(١) سورة البقرة آية ، ٢٢١ .

(٢) سورة المائدة آية ٥

(٣) سورة التحريم آية ١٢

قال : فقال لى أبو العباس : فعذاب المحصنات الرجم . فكيف يعقل نصف الرجم وقد يقتل بواحدة ، وربما لم يقتل بأكثر من ذلك . قال : فقلت : هذا مما كنى فيه ، أراد خاصا دون عام ، أراد نصف ماعليهن من عذاب الجلد دون الرجم . فقال لى : ومن يقول بالجلد مع الرجم ؟ قال : قلت : على بن أبى طالب رضى الله عنه جلد شُراحة مائة ورجمه . وقال : جلدتك بكتاب الله ، ورجمتك بسنة رسول الله ، قال : فقال لى : ياشيخ ! أنت تلوذ[1]. قال : فقلت ليس أنا الذى ألوذ ، لأنى أنا المجيب ، وأنت الذى تلوذ ، لأنى إذا وقفتك من المسألة على حد ، لذت أنت إلى مسألة أخرى غير ما سألتنى عنه . قال : ثم صحت أن لا أحد يكتب ما أقول ويقول ، توقى الله شره . قال : فكأنك تقول : إنك أعلم الخلق . قال: قلت: أما بدينى فنعم ! لأن دينى هو الحق الذى ليس الحق فى سواه . قال : أفما تحتاج فيه إلى زيادة . قال : قلت : لا ! قال لى : فأنت إذن أعلم من موسى حين قال للخضر : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ؟ قال : قلت : قائل هذا القول غامض على موسى فى نبوته ، إذ يزعم أن الله اصطفاه برسالته وبكلامه ونبوته ، وهو يحتاج إلى أن يعلم بعد ذلك شيئا من دينه . معاذ الله ! إنما كان العلم الذى كان عند الخضر ، علم سفينة كان عرفها ، لعلمه بالملك الذى يأخذ كل سفينة غصبا ، وغلاما قتله لعلمه بكفره ، وإيمان أبويه ، وجدارا أقامه علما بالكنز الذى كان تحته ، وذلك لا يزيد فى دين موسى شيئا[2].

قال أبو عثمان : ثم قال لى : فأنا أسألك . قال : قلت : أورد أبدا ، وعلىّ الإصدار بالحق... قال : قال لى : ما تفسير «الله» ؟ قال : قلت : ذو الإلاهة (لعلها الألوهية) . قال : وما الإلهة ؟ قلت : الربوبية . قال : وما الربوبية ؟ قال : قلت المالك للأشياء . قال : فقال لى : فقريش كانت فى جاهليتها تعرف الله ؟ قلت : لا ! قال : لا ! قلت : لا ! لأنها كانت تقول : الله ذو الشركاء والآلهة ، فلم تعرفه إذ قالت ذو الشركاء . وإنما يعرف الله من قال : إن الله وحده لا شريك له .

قال : فمن الذين آمنوا ؟ قال : قلت : نحن ومن ترى ، وأوميت إلى أصحابنا .

---

(١) يقصد هنا أنت تتهرب .

(٢) يشير بذلك إلى ما ورد فى سورة الكهف آيات ٧١ - ٨٢ .

وهم بين يديه . وقال : ومن الذين هادوا ؟ قال : قلت هذا من ذلك الذى تقدم ذكره ، سماهم بمتقدم ، كلمة كانت منهم يأتونها ، وكانوا بها مسلمين ، يقولون هُدْنا إليك . قال : فمن النصارى ؟ قال : قلت : المتكلمون فى المسيح ـ صلى الله على نبينا محمد وعليه ! قال : فمن الصابئون ؟ قال : قلت : هم الذين عبدوا الملائكة ، وزعموا أنهم بنات الله . قال أبو عثمان : وهذا قول أهل العلم ، فبدأت بجوابهم قبل أن أجيبه بكلام المتكلمين . قال أبو عثمان : فقال لى : هم الذين عبدوا الملائكة قال : قلت : نعم ! وزعم هشام أنهم أصل المنانية(١). قال : فمن الذين أشركوا ؟ قال : قلت : هم الذين عبدوا الأصنام ، الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب بآية من سورة « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر(٢)» قال: فقال لى :وما كانت تعبد قريش ؟ قلت : الأصنام ، قال لى : وما الأصنام ؟ قلت : الحجارة ، قال لى : والحجارة كانت على التكبير ، لأن تكون الحجارة هى الأصنام . قال: قلت : نعم! والعزى كانت تعبد ، وهى شجرة ، والشعرى كانت تعبد، وهى نجم. الله يقول : أمّن لا يَهدى إلا أن يُهدى، فكيف تقول:إنها الحجارة والحجارة لا تهدى إذا هديت ، لأنها ليست من ذوات العقل ، فعارضنى بعض أهل المجلس ، كالمعين له . فقال : كيف تعقل الحجارة وليست من ذوات النطق ؟ قال : فقلت للمعارض : أمسك ! مالك ولذا ؟ ثم قلت : قد أخبرنا الله أن الجلود تنطق فى الآخرة ، وليست من ذوات النطق ، قال : فقال : نسب إليها النطق على المجاز ، والنطق للأفواه . قال : فقلت : منزل الفرقان يأبى ما ذكرت . قال الله : (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)(٣). قال أبو عثمان : وأشرت بإصبعى السبابة إلى فمى ، فقلت : ختم الله على أفواههم ، ثم نفى بقوله : وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء . وما الفرق بين جسمك وأجسامنا والحجارة ، إلا أنه عقلنا الله فعقلنا ، ولو لم يعقلنا ماعقلنا ؟ وكذلك الحجارة ، إذا شاء أن يعقلها عقلت . هذا الجبل لما عقله الله عقل جلاله

---

(١) أتباع ما نى نبى الفرس القدماء ، وهم ثنوية زنادقة .

(٢) سورة التوبة آية ١ ـ ٢

(٣) سورة يس آية ٦٥ ، وردت كلمة يكسبون فى الأصل يعملون .

تجليه واندكّ ، قال الله تبارك وتعالى : (فلمّا تجلى ربهُ للجبل جعَلهُ دكاً) (١).

ملحق ١٤

المناظرة الرابعة بين أبي عثمان وأبي العباس (٢)

قال أبو عثمان : هذا مجلس دار بيني وبينه (٣)، ما رأيته أقرب إلى الإنصاف منه فيه . وكأنه فى مناظرته لى ، إنما يناظرنى عن مذهب غيره . وذلك أن المسألة جرت بيننا وبينه فى باب الفاضل والمفضول ، لأن من أصل مذهبه ، القول بأنه لا يجوز تقديم المفضول على الفاضل بعد الاتفاق من الخصمين على الفاضل ، فقال لى : أليس قولك إجازة تقديم المفضول على الفاضل ؟ فقلت : أعزك الله بتوفيقه ! أنا متبع فى ذلك لكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وذلك لا يخفى عن ذى لب نظر فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعدوهما إلى غيرهما . قال لى : وأين تجد ذلك فى كتاب الله ؟ قال : قلت له : قال الله ، وقال لهم نبيهم : «إنّ اللهَ قد بعثَ لكم طَالوتَ مَلِكا ، قالوا أنَّى يكونُ لَهُ المُلْكُ علَينا ، ونحنُ أحَقُّ منْهُ . قال : إنَّ اللهَ اصطَفاهُ عليكم وزاده بسْطَةً فى العلم والجسم»(٤).

فقال عند ذلك كالمغضب : ليس القصة كما توهمت . فقلت له : والأمر الذى لم أتوهمه وفيه الحق عندك ، هل إلى ذكره من سبيل ؟ فقال : نعم ! ذكرت خبر طالوت ، واحتججت فيه بقول نبيهم وقول أهل الجيش . فقلت له : قال الله وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا، فاقصد إلى موضع حجتك هاهنا. ثم قلت : أعز الله الأمير! لما كان خروج طالوت من فوق إذن نبيهم ، ثبت أن الله قدم المفضول على الفاضل ، إذ كنا لا نشك نحن ومن خالفنا أن نبيهم أفضل من طالوت ، وطالوت هو المفضول ، فقال لى : وهكذا اعتقادك ؟ فقلت : نعم أيها

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٢) التميمى : كتاب طبقات علماء إفريقية ص٢٠٨ - ٢١٠ (الجزائر سنة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤م)

(٣) الضمير يعود على أبى العباس أخى أبى عبد الله الشيعى .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

الأمير ! فقال لجميع من حضره ممن حوله من أهل المجلس : انهموا عنا ، ثم أومأ إلىّ وقال لى : إنما كان خروج طالوت من تحت يدى نبيهم ، لا كما توهمت أنه من فوق إذنه . لأن نبيهم هو الذى أخبرهم أن طالوت مقدم على الجيش . فلما كان هـذا هكذا ، كان الفاضل بعد هو المفضول ، فقد تبين فساد قولك وتناقضه . فقلت له : إنى بإذنك أستوفى حجتى ، فإن أذنت لى فى الـكلام أتيت على ما أريد . فقال لى : قل ، ولا تبق من حجتك شيئا .

فقلت له : نفس الآية لى شاهد ، ولا تـكون الحجة من غيرها ، وذلك أن الله أخبر عن نبيهم أنه قال لهم ، إن الله قد بعث لـكم طالوت ملكا ، ولم يقل : إنى بعثته لـكم . فلما جاء الخبر من نبيهم وأضافه إلى الله لا إلى نفسه ، وجب بهـذا أن أمر طالوت من فوق إذن نبيهم ، وكـذلك قالت الآية . ثم قلت له : وهـذه سنة رسول الله ﷺ ، فانظر منها إلى تقديم المفضول على الفاضل ، وهو ما لا ينـكره أحـد . من ذلك أن رسول الله ﷺ أمَّـر على جيش عمرو بن العاص[1] ، فكان يقسم الفىء ويأمر وينهى فيطاع ، ويصلى لهم الصلوات ويشاورونه ويستأذنونه فى جميع شأنهم وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر ، وهما جميعا أفضل منه ، لا يشك فى ذلك أحد ، وأيضا أن النبى ﷺ أمَّـر على جيش زيد بن حارثه ، فـكان يفعل فى ذلك وفيمن تحت يديه من المسلمين كـفعل عمرو بن العاص فيمن تحت يديه من المسلمين ، وتحت يديه فى الجيش ذو الجناحين جعفر بن أبى طالب ، وهو أفضل من زيد بن حارثة . فلما ثبت ذلك عندنا وقام مقام العيان ، جاز للأمة تقديم المفضول على الفاضل . فقال لى : نحن لا نقول كـقولك ، إن للأئمة أن تجتمع ، فتقدم على نفسها إماما ؛ وإنما يكون الإمام من اصطفاه الله ورسوله . وأما من لم يقـــدمه الله على خلقه ، ولم يقدمه رسول الله ﷺ ، فـكيف له والتقديم ؟

فقلت : أعز الله السيد ! إن الذى اصطفاه الله ورسوله ، لا يعدو إحدى منزلتين . إما أن ينطق به كـتاب ناطق ، أو سنة ثابتة عن رسول الله . ولما لم نجـد فى كـتاب الله ، أن الله نصب إماما ، وفرض طاعته ، ولا رسوله ، لم يقم إنسانا بعينه فيقول : أيها الناس ! هـــذا وصيّ وخليفتى من بعدى . وكان يقول صباحا

(١) فى الأصل ابن العاصى .

ومساء : خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا : كتاب ر , وحواريى أصحابى ؛ علمنا الحلال والحرام ، وما نأتى وما نذر . كأن من اجتمع المسلمون عليه ، ثابت الأمر ، صحيح الأحكام ، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله . وما لم تجده فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ، فهو مأخوذ من الاجتهاد ، ومن أتباع السلف المتقدمين. هذا قولنا ، والأمر على ذلك إلى هذا الوقت . فقال لى : قد ثبت فساد هذا عليك فى صدر مناظرتنا ، بما أوردته عليك فى تقديم المفضول على الفاضل .

فلما سمعت كلام رجل يباهت العيان ويزول عن الحق ، رأيت الصواب فى الإعراض عن معارضته ، وذلك أنى لم أحتج عليه بحجة عقل ، ولا وزن من قياس ، وإنما قابلته بكتاب الله وأفعال نبيه ﷺ ، وإجماع المسلمين ، وجعل يُدخل علىّ كثرة الاستفهام وكثرة التكرار ، بلا حجة حاسمة ولا برهان مبين . نعوذ بالله من الحيرة فى الدين . وإياه أسأل المعونة والتوفيق ! »

مصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى أهم مصادر الكتاب ، وقد رتبت أسماء المؤلفين فى جميعها حسب أحرف الهجاء .

ابن الأثير (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبى الكرم .

١ — « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤ هـ) .

أرندونك : فان Arendonc : Van

٢ — "De Opkomst Van Het Zaidiecische Imàmaat in Yemen" (Leiden, 1919.).

أرنولد : توماس و . Arnold : Thomas W.

٣ — "The Preaching of Islam", 3rd edition, by Reynold A. Nicholson (Lond. 1935).

الأشعرى (٣٢٤ هـ = ٩٣٥ — ٩٣٦ م) : أبو الحسن على بن إسماعيل .

٤ — « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » ، جزءان (استنبول ، ١٩٢٠ م) .

إقبال : الشيخ محمد Ikbal : Sheikh Mohammed

٥ — "The Development of Metaphysics in Persia" (Lond. 1908).

أمارى : ميشيل Amari : Michel

٦ — « مكتبة صقلية العربية » Biblioteca Arabo-Sicula فى جزئين :

أمير على : سيد Ameer Ali : Sayed

٧ — « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى » (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية رياض رأفت .

أوتيخا (٣١١ هـ = ٩٢٩ م) : سعيد بن البطريق .

٨ — « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » (بيروت ١٩٠٩) .

أوليرى : دى ليسى O'Leary : De Lacy.

٩ — "A Short History of the Fatimid Khalifate" (Lond. 1923).

إيفانو : فلاديمير Ivanow : Valadimir

١٠ — "The Rise of the Fatimids" (Calcutta, 1942).

١١ — "A Guide to Ismaili Literature" (Lond. 1933.)

١٢ — "The Alleged Founder of Ismailism" (Bombay, 1946.)

١٣ — استتار الامام : للنيسابورى (نشره فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦) .

١٤ — سيرة جعفر الحاجب ,, اليمانى ,, (نشره فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول.
سنة ١٩٣٦) .

١٥ — "Kalami Pir" (Bombay, 1934.)

,, أين كتاب مستطاب عن حقيقت مذهب إسماعيل مسمى كلام پير يعنى هفت باب ,, ؛
وينسب خطأ إلى ناصر خسرو .

١٦ — ,, مختصر العقائد ,, لسيدنا على بن الوليد المتوفى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م)
نشره الاستاذ ايفانو بعنوان "A Creed of the Fatimids"
(Cambridge, 1936.)

براون : إدوارد ج Browne : Edward G.

١٧ — "Literary History of Persia—from the Earliest Times until Firdawsi (Lond. 1909.)

البغدادى (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .

١٨ — ,, الفرق بين الفرق ,, (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م) .

البكرى (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز .

١٩ — ,, كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ,, (طبعة دى سلان De Slane
باريس ١٩١١) .

بلوشيه : ل . Blochet : L.

٢٠ — "Le Missianisme dans l'Heterdoxie Musulmane"
(Paris, 1903.)

تاج الدين (نقيب حلب)

٢١ — ,, كتاب غاية الاختصار فى أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار ,,
(مصر ١٣١٠ هـ) .

التميمى (من علماء القرنين الثالث والرابع) : أبو العرب محمد بن أحمد .

٢٢ — ,, كتاب طبقات علماء إفريقية ,, (الجزائر ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م) .

تيلور : و . س Taylor : W. C.

٢٣ — "History of Mohammedanism and its Sects"
(Lond. 1839.)

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م) : أبو الفرج عبد الرحمن .

٢٤ — ,, تلبيس إبليس ,, أو نقد العلماء (مصر ١٣٤٠ هـ) .

٢٥ — ,, المنتظم ,, ، رسالة عن القرامطة نشرها جوزيف دى سوموجى فى
Revista degli Studi Orientali, vol. xiii.

ابن الجوزى (٦٥٤ هـ = ١٢٥٧ م) : أبو المظفر قيزوغلى سبط بن الجوزى :

٢٦ — ,, مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ,, ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ،
رقم ٥٥١ تاريخ .

جولد تسيهر : إجناز Goldziher : Ignaz

٢٧ — "Le Dogme et la Loi de l'Islam", (Paris, 1920.)

حسن ابراهيم حسن : دكتور

٢٨ — ,, الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ,, (القاهرة ١٩٣٢) .

٢٩ — ,, تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ,, ، الجزء الثالث ، (القاهرة ١٩٤٦) .

٣٠ — ,, السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ,, تأليف فان فلوتن ، وترجمة حسن ابراهيم حسن ، ومحمد زكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

ابن حماد : القاضى أبو عبد الله محمد بن على بن حماد .

٣١ — ,, أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ,, (الجزائر ١٣٤٦) .

الحمادى (أواسط القرن الخامس الهجرى) : محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى

٣٢ — ,, كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ,, (مصر ١٣٥٧ هـ) .

ابن حوقل (٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م) : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الموصلى

٣٣ — ,, كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ,, (نشره دى غويه – ليدن ١٨٧٣ م) .

ابن خلدون (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

٣٤ — ,, مقدمة ابن خلدون ,, (مصر ١٣١١ هـ) .

٣٥ — ,, العبر وديوان المبتدأ والخبر ,, ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .

ابن خلكان (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى

٣٦ — ,, وفيات الأعيان ,, (مصر ١٣١٠ هـ) .

دوزى : ر . ب . ا . Dozy : R. P. A.

٣٧ — "Essai sur l'Histoire de l'Islamisme" (T.R.V. Chauvin, Paris, 1879.)

٣٨ — "Histoire des Musulmans d'Espagne" (Leyden, 1861.)

ديفريميرى : م . س Defrémery : M.C.

٣٩ — "Essai sur l'Histoire des Ismaéleens de la Perse."

ابن أبى دينار (١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م) : محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى

٤٠ — ,, كتاب المونس فى أخبار إفريقية وتونس ,, (تونس ١٢٨٦ هـ) .

الذهبى (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ — ١٣٤٨ م) : شمس الدين محمد بن أحمد

٤١ — ,, تاريخ الاسلام ,, ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ . المجلد الثالث .

الرازى (٣١١ هـ = ٩٢٣ م) : أبو بكر محمد بن زكريا .

٤٢ — ,, رسائل فلسفية ,, (نشره بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩) .

الرضى (٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى . . . . بن الحسين ابن على بن أبى طالب .

٤٣ — ،، ديوان الشريف الرضى (بيروت ١٣٠٧ هـ) .

دى ساسى : س   De Sacy : Silvestre

٤٤ — "Exposé de la Religion des Druzes ... précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim—Biamr-allah", 2 vols. (Paris, 1838.)

٤٥ — "Recherches sur l'Initiation à la Secte Ismaélienne (Journal Asiatique, 1824).

ابن سعيد (٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م) : على بن موسى المغربى .

٤٦ — ،، كتاب المغرب فى حلى المغرب ،، (ليدن ١٨٩٨ – ١٨٩٩ م) .

السلاوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصرى .

٤٧ — ،، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،، ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ هـ) .

السنهورى : الدكتور عبد الرزاق أحمد باشا   Sanhoury : Dr. A.A.

٤٨ — "Le Califat" (Paris, 1926.)

سيبولد : كريستيان فرد ريخ الألمانى .

٤٩ — نشر كتاب ،، النقط والدوائر ،، من كتب الدروز (١٣١٩ هـ = ١٩٠٢ م) .

السيوطى (٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين .

٥٠ — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (مصر ١٣٥١ هـ) .

أبو شامة (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ – ١٢٦٨ م) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبرهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة شافعى من أهالى دمشق .

٥١ — ،، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ،، جزءان (مصر ١٢٨٧ هـ) .

الشهرستانى (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

٥٢ — ،، الملل والنحل ،، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣٧١ هـ) .

ابن طباطبا (٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى .

٥٣ — ،، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ،، (القاهرة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٧ م)

الطبرى (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير .

٥٤ — ،، تاريخ الأمم والملوك ،، ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

طه أحمد شرف : دكتور .

٥٥ — ،، الزندقة والزنادقة ،، مخطوط ، رسالة الماجستير .

٥٦ — ،، تاريخ الاسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد ،، ، مخطوط ، رسالة الدكتوراه .

ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو محمد عبد الله محمد المراكشى .

٥٧ — ،، البيان المغرب فى أخبار المغرب ،، ، نشره دوزى فى ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٤٨ – ١٨٥١ م) .

عريب بن سعد (٣٦٦ هـ = ٩٧٦ ـ ٩٧٧ م) القرطبي .

٥٨ — ,, صلة تاريخ الطبري ,, (القاهرة ١٣٢٦) .

عمارة اليمني (٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م) : أبو الحسن نجم الدين الحكمي اليمني .

٥٩ — ,, تاريخ اليمن ,, (لندن ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٢ م) ، نشره هنري كاسل .

العيني (٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى .

٦٠ — ,, عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ,, ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ .

الغزالي (٥٠٥ هـ = ١١١١ م) : الامام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد .

٦١ — ,, المنقذ من الضلال ,, أو الملل والنحل (دمشق ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) .

٦٢ — ,, فضائح الباطنية ,, أو المستظهري ، نشره جولد تسيهر (١٩١٦ م) .

دي غويه : م . ج De Goeje : M. J.

٦٣ — "Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides" (Leyden, 1886.)

٦٤ — "La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahraïn" (Journal Asiatique, 1895.)

٦٥ — "The Karmathians" (Encyclopaedia of Religion and Ethics.)

فايظي : ا . ا . Fayzee : Asaf, A.A.

٦٦ — "A Chronological List of the Imams and Daïs of the Musta'lian Ismailis" (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, 1934.)

كارا دي فو Carra de Vaux

٦٧ — "Les Panseurs de l'Islam" (Paris, 1926, vol. v.)

ابن القلانسي (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة .

٦٨ — ,, تاريخ ابن القلانسي ,, المسمى ,, ذيل تاريخ دمشق ,, ، مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارق وسبط بن الجوزي والذهبي (بيروت ١٩٠٨ م) .

كامل حسين : دكتور محمد .

٦٩ — ,, المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ,, ، رسالة الدكتوراه .

كترمير : إتيين Quatremère : Etienne

٧٠ — "Mémoires Historiques sur la Dynastie des Khaliphs Fatimites (Journal Asiatique, 1836, série ii.)

الكندي (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف .

٧١ — ,, كتاب الولاة والقضاة ,, (نشره روفن جست) (E. J. W. Gibb Memorial Series, vol. xix, 1912.)

لامانس : Lammens

٧٢ — "Islam Beliefs and Institutions."

لويس : برنارد Lewis : Bernard

٧٣ — "The Origins of Ismailism" (Cambridge, 1940.)

ماسنيو : لوى Massignon : Louis

٧٤ — "Esquisse d'une Bibliographie Carmathe" (Cambridge, 1922) مقالة نشرت فى كتاب عجب نامه

مامور : برنس Momour, Prince

٧٥ — "Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs" (Lond., 1934.)

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى .

٧٦ — ،، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ،، (القاهرة ١٩٣٥) .

محمد عبده : الامام .

٧٧ — ،، رسالة التوحيد ،، (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .

المسعودى (٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .

٧٨ — ،، التنبيه والاشراف ،، (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .

مسكويه (٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م) : أبو على أحمد بن محمد .

٧٩ — ،، كتاب تجارب الأمم ،، ، جزءان (طبعة هـ . ف . أمدروز (H.F. Amedroz وترجمه د . س . مرجليوث (D. S. Margoliouth ، أكسفورد ١٩٢١ م) .

المعرى (٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان .

٨٠ — ،، رسالة الغفران ،، (طبعة هندية بالقاهرة ١٩٠٣ م) .

المقريزى (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على .

٨١ — ،، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ،، جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ) .

٨٢ — ،، اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا (بيت المقدس ١٩٠٨) .

المنصورى (٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م) : ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار

٨٣ — ،، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ،، ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، المجلد الخامس .

ميور : وليام تمبل Muir : William Temple

٨٤ — "The Caliphate : Its Rise, Decline and Fall" (Lond., 1924.)

ابن النديم (٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : محمد بن إسحاق .

٨٥ — ،، كتاب الفهرست ،، (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

نظام الملك (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) : الوزير .

٨٦ —— ،، سياسة نامه ،، ، المجلد الثانى (باريس ١٨٩٣ م) .
النعمان (٣٦٣ هـ = ٩٧٢ - ٩٧٣ م) : أبو حنيفة بن حيون المغربى .
٨٧ —— ،، المجالس والمسايرات ،، ، ثلاثة أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٦٠٦٠ .
٨٨ —— ،، افتتاح الدعوة الزاهرة ،، ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول .
النوبختى (٢٠٢ هـ = ٨١٧ م) : أبو محمد الحسن بن موسى .
٨٩ —— ،، كتاب فرق الشيعة ،، (استمبول ١٩٣١ م) .
النويرى (٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب .
٩٠ —— ،، نهاية الأرب فى فنون الأدب ،، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٥٧٠
تاريخ ، ٥٤٩ معارف .
النيسابورى .
٩١ —— ،، استتار الإمام ،، (نشره إيفانو فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦)
نيكلسون : ا . رينولد   Nicholson : A. Reynold
٩٢ —— "Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930.)
نيكلسون : جون   Nicholson : John
٩٣ —— "An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty in Africa" (Tübingen, 1840.)
هامر : فون   Hammer : Von
٩٤ —— «Histoire de l'Ordre des Assassins» (trad. par Hellert, Paris, 1833.)
ابن هانىء (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) : أبو القاسم المكنى بأبى الحسن محمد .
٩٥ —— ،، ديوان ابن هانىء ،، (بيروت ١٣٢٦ هـ) .
الهمدانى : دكتور حسين
٩٦ —— "Some Unknown Ismaili Authors and their Works" (J. R. A. S. 1933.)
٩٧ —— ،، زهر المعانى "A Compendium of Ismaili Esoterics" (Islamic Culture, 1937, vol. ii.)
٩٨ —— "The Letters of al-Mustansir" (B.S.O.S. 1934.)
ياقوت (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .
٩٩ —— ،، معجم البلدان ،، ، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .
يحيى بن سعيد الأنطاكى (٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م) .
١٠٠ —— ،، صلة تاريخ أوتيخا ،، جزءان (بيروت ١٩٠٩ م) .

فهارس الكتاب

١ ـ الأعلام

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(ع)

(ن)

(ه)

(ى)

النساء

٢ — الأماكن

(ا)

(ب)

(ت)

٣ — الكلمات التى تدل على حوادث تاريخية هامة

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

THE
MAHDI UBAY'D-ULLAH

The Ismaili Imam and Founder of the Fatimid Dynasty in North Africa

BY

HASSAN IBRAHIM HASSAN

D.Litt. (Cairo), Ph.D., D Lit. (London)
Professor of Islamic History, Head of the Dept. of History
Fouad 1st University, Cairo

and

TAHA AHMED SHARAF

M.A., D. Litt. (Cairo)

1366 — 1947

Published By
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9, Adly Pacha Street, Cairo

Shibokshi Press - Azhar Cairo